

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
٧٤٩هـ - ١٣٤٩م

الجزء الحادي عشر
(الوزراء والكتاب)

تحقيق
د. محمد عبد القادر خريسات
د. عصام مصطفى عقلة
د. يوسف أحمد بني ياسين

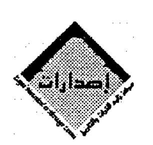


مركز زايد للتراث والتاريخ

رقم التصنيف	: ديوي 919
المؤلف ومن هو في حكمه	: ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى
تحقيق	: أ. د. محمد عبد القادر خريسات د. عصام مصطفى عقلة ـ د. يوسف أحمد بني ياسين
عنوان الكتاب	: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الجزء الحادي عشر (الوزراء والكتاب)
الموضوع الرئيسي	: موسوعة جغرافية ـ تاريخ
قيد الكتاب	: تم قيد الكتاب في سجل الإيداع النوعي، بقسم الملكية الفكرية وحقوق المؤلف بوزارة الإعلام والثقافة تحت رقم: أ م ف ـ ٢٠٠٢ تاريخ
الناشر	: مركز زايد للتراث والتاريخ ـ العين دولة الإمارات العربية المتحدة
توصيف الكتاب	: مقاس ١٧ × ٢٤، عدد الصفحات ٣٩٢ صفحة
الرقم الدولي	: ردمك ISBN 9948 - 06 - 094 - 6

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م ــ ١٤٢٥ هـ



مركز زايد للتراث والتاريخ

ZAYED CENTER FOR HERITAGE AND HISTORY

ص. ب. ٢٣٨٨٨ العين ـ الإمارات العربية المتحدة ـ هاتف : ٧٦١٥١٦٦ ـ ٣ ـ ٩٧١ ـ فاكس: ٧٦١٥١٧٧ ـ ٣ ـ ٩٧١

P.O. BOX: 23888 AL AIN - U. A. E. - TEL: 971 - 3 - 7615168, - FAX: 971 - 3 - 7615177

E-mail: zc4HH@zayedcenter.org.AE

كلمة المركز

يسر مركز زايد للتراث والتاريخ أن يقدم للقراء العرب، وبخاصة المهتمين بالتراث العربي الإسلامي، واحداً من أضخم الأعمال الموسوعية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية عبر عصورها، ألا وهو كتاب «**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**» لأحمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ ـ ١٣٤٩م).

وقد تبنى المركز نشر هذه الموسوعة بتوجيهات كريمة من **سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء، حيث حرص سموه على الإعتناء بالتراث العربي المخطوط ونشره ليكون في متناول أيدي الباحثين والمختصين لذلك تأتي هذه الموسوعة التاريخية الهامة ضمن خطة المركز الطموحة لنشر التراث العربي الأصيل وتقريبه للقارىء العربي وخدمته.**

وقد اعتمد المركز نشر الكتاب من خلال خطة تقوم على الحفاظ بداية على تجزئة الكتاب كما أراده المؤلف وسيكون بعون الله في ٢٨ مجلداً تتبعها الفهارس العامة للكتاب ولما كانت الموسوعة بهذه الضخامة والأهمية فقد قام المركز بتكليف أساتذة أكاديميين من ذوي الخبرة بإشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات لتحقيق الكتاب وجمع مخطوطاته لمقارنتها مع بعضها بعضاً للوصول إلى أكمل نسخة من الكتاب، وكذلك فلا بد من تقديمها مع دراسة تجلي الجوانب المختلفة من حياة مؤلفها، وتبين أهمية الكتاب ومنهج المؤلف وأسلوبه مع دراسة كاملة لمخطوطات الموسوعة المستخدمة في التحقيق التي ستكون بعون الله في المجلد الأول حيث لا يمكن إنجاز هذه الدراسة إلا بعد استكمال تحقيق أجزاء الكتاب كاملة.

والمركز إذ يقدم هذه الموسوعة التاريخية الجغرافية الأدبية فإنه يأمل بذلك أن يكون قد خدم المكتبة العربية بهذا المرجع الضخم، وأن يقع من نفوس القراء والباحثين الموقع الحسن، نسأل الله أن يوفقنا إلى خدمة تراثنا وتاريخنا رمز حضارتنا العربية والإسلامية، ومبعث افتخارنا واعتزازنا

واللَّه ولي التوفيق

د. حسن محمد النابودة

مدير المركز

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

يسرنا أن نقدم للمكتبة العربية والباحثين السفر الحادي عشر من أسفار موسوعة ابن فضل الله العمري، الموسومة بـ «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، والمتعلق بتأريخ الوزراء في المشرق والمغرب الإسلاميين منذ نشأة الوزارة وحتى عصر المصنف، وقد خصص المصنف للوزارة والكُتَّاب ثلاثة أجزاء من موسوعته لما يكنه من اهتمام شديد بهم وخصوصاً أنه أحد كتَّاب الدولة المملوكية.

وقد اعتمدنا في إخراج هذا السفر على مخطوطتين:

الأولى ـ نسخة فؤاد سزكين وهي نسخة مجمعة من نسختين: الأولى رقم (٣٤٢٢) واشتملت على أول مئة ورقة. والثانية رقم (٣٤٢٤) واشتملت على آخر سبعين ورقة، وهي مصورة من مكتبة آيا صوفيا في استنبول وقد رمزنا لها كعادتنا بالحرف (ت).

الأخرى ـ نسخة الكونغرس الأمريكي، الموجود عنها نسخة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية وقد رمزنا لها كعادتنا بالحرف (ك).

ويمتاز هذا السفر كغيره من أسفار موسوعة المسالك بالعديد من الميزات أهمها بما يلي:

أولاً: الاعتماد على العديد من المصادر المفقودة أو المفقود جزء منها، ومنها على سبيل المثال كتاب الوزراء للجهشياري.

ثانياً: ترجمته للعديد من الوزراء المعاصرين له.

ثالثاً: يعد كتابه أوسع كتاب عن الوزراء في المصنفات العربية من حيث استيعابه

لهم حتى عصره ثم شموله لكل المناطق الإسلامية، وانفراده بإيراد الكثير من أخبارهم.

رابعاً: اعتماده على وثائق ديوانية في تراجمه مثل العديد من نصوص تولية الوزراء التي ذكرها في ثنايا تراجمه.

خامساً: إيراده للكثير من المقطوعات الشعرية التي لم ترد في الدواوين المنشورة للشعراء.

عمان في: ٥/ ٥/ ٢٠٠٢م

٢٢ صفر ١٤٢٣هـ

المحققون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت(١)

وإذ قد انتهينا إلى ذكر الأدباء، وانتهينا إلى أن نغازل(٢) بهم عيون الأنباء، فسنذكرهم على ما قدمنا به القول من ذكر أعيان الوزراء، وطوائف الكُتَّاب، والخطباء، والشعراء، ونبدأ بالوزراء ثم بالكُتَّاب لأنهم منهم، ولكنهم هم وإن نأوا في القسمة عنهم. ولهذا نأتي بهم لفيفاً، ونلقى منهم قولاً خفيفاً، ونذكر ما لو أنفقت الآفاق من أصائلها مثل أحد ذهباً ما أدرك لأحدٍ منهم مُداً ولا الهلال نصيفاً، لنميط عن محاسنهم قناع الثرى، ونخرج دفائنهم وقد أعيت مطالبها أطماع الورى، ونطلع(٣) لهم نجوماً ما(٤) تزينت بمثلها السماء، ونعاطى مُداماً ما(٥) شج شبيهها الماء.

وها أنا أذكر من كان الوزراء والكُتّاب من القطرين أُناساً هم زينة ذلك القطر وأنواره، وثمرة المطعم وقراره، وأُنبه على شيء من حاله بما أذكره عنه أوله ولا(٦) استوعب أجزاء بره وأوله، وإنما أُمثِّلَهُ عنواناً، وأسلكه في درج ذلك القطر صِنواناً.

وأول ما نقول أنه لم يكن للوزارة رتبة تعرف مدة بني أمية، وصدراً من دولة أبي العباس السفاح، بل كان ممن أعان الخلفاء على أمرهم يقال فلان وزير فلان بمعنى أنه مؤازر له لا أنه متولي رتبة خاصة تجرى لها قوانين، وتنتظم لها دواوين.

---

(١) «بسم الله . . . توكلت» ساقطة من ت

(٢) ك: التغازل.

(٣) ت: ونطمع.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) ساقطة من ت.

(٦) ك: ألا.



١ ـ فأما وزير آل محمد [٣] أبو سلمة الخلال[(١)]:

فإنه كان رأساً من رؤوس الشيعة الهاشمية، وكان ذا الرأي فيهم، فقيل: وزير آل محمد، وكان من أكبر الدعاة للدولة، وأعظم السعاة في استتاب الأمر، فلما ولي[(٢)] أبو العباس السفاح قدمه وكبره، وأورد رأيه وأصدره[(٣)]، وحلأ[(٤)] بحره واستخرج درره، فحسد لتمكنه، وعمل على مأخذه من مأمنه، ثم كان السفاح لا يرى إفساد صنيعته، ولا يأمن تكدير بواطن شيعته، فكان يلبسه على علله، ويسدده على خلله، وأبو سلمة مع هذا ليس بوزير، له قلم مبسوط ولا به أمر منوط.

ثم إنه وزره على باطن يكنه له، ليتخذ بالوزارة إليه سبله، ويتوخذ له عليه شبهه، يقلب بها وجهه حتى أخذه تلك الأَخذة الفذة.

فأما من بعده من وزراء الشرق قديماً وحديثاً، فسنبدأ من لدن عبد الملك بن مروان لأنه أول من فخم في[(٥)] هذه الأمة قواعد الملك، وعظم عوائد السلطان، إذ لم يستَتب الأمر لأحدٍ بعد عثمان بن عفان ﷺ كما استتِب له، إذ كان منه إلى معاوية خبط عشواء، وليل لم يلمع بالأضواء.

فأما معاوية فإنه وإن كان قد لمّ الشعث، وأزال الشغب، واستقل بالأعباء، واضطلع بالملك، فإنه كان قد تخلق بالمداهنة أيام محاربته عليًّا ﷺ، لاستمالة الأهواءِ إليه، وجمع القلوب عليه، فصار ذلك له خلقاً لما سُلم إليه، وسلم من النازع ثم استمر عليه حتى مضى به زمانه وانقضت عليه أيامه.

وكان عمرو بن العاص أجل قدراً وأعظم أمراً[(٦)] من أن يجري معه مجرى

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٨٤، الطبري، تاريخ: ٧/٤٤٨ ـ ٤٥٠، ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة: ٢/٢٨٩، مجهول، أخبار الدولة العباسية: ٢٦٧، ٣٧٤، العسكري، الأوائل: ٥.

(٢) ت: رأى.

(٣) ك: صدره.

(٤) حلأه عن الماء: طرده والمعنى هنا أنه أبعد ماء البحر لاستخراج درره. انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٣٧، مادة حلأ.

(٥) ساقطة من ت.

(٦) ت: قدراً.

الوزراء، وإن كان له وزراً ورداءً إذ كان لا يزال كالممتن عليه لانحيازه إلى جهته مع مماثلته له في شرفه في قريش، وسابقة في الإسلام ظاناً أنه لولاه لما نال الملك، ولا قدر على منازعة علي كرّم الله وجهه في حق الخلافة، وكان لا يزال حاله معه شبيهاً بحال أبي مسلم الخراساني مع أبي العباس السفاح.

فأما من تقدم معاوية من الخلفاء الراشدين إلى عهد النبوة، فأولئك ما وازروا إلَّا من كانوا تبعاً، لرأيهم فيما استشاروا فيه من مفرد الأمر لا [٤] في الأمر المطلق، فلهذا بدأنا بالوزراء من لدن عبدالملك بن مروان.

فمنهم:

٢ ـ رَوْح بن زِنْباع(١):

كتب لعبدالملك بن مروان، وكان مجراه في الوزارة مجرى الإعانة لا مجرى الولاية، وكان كأنه أجل الملوك لمكانته من الخلفاء، وكثرة أتباعه، وعظم أشياعه، وعجز السيوف عن قراعه.

وذكر صاحب كتاب الوزراء والكتاب(٢): أنه قد كلم يزيد بن معاوية له ولقومه أن يلحقهم في العطاء بإخوانهم، فقال له: إن أجمع على ذلك قومك فإنا جاعلوك حيث شئت، فبلغت الدعوى عدي بن الرقاع(٣)، فقال(٤): [البسيط]

إنَا رَضينا وإنْ غابَتْ جمَاعتُنا ... ما قال سَيدُنا روح بن زِنْباع
يرعى ثمانينَ ألفاً كان مِثلُهُمُ ... مما يخالفُ أحياناً على الرّاعي

ثم كان روح بن زنباع من عبدالملك كالقاسم له في ملكه، ولما قلد عبدالملك أخاه بشراً العراق ضم إليه روح بن زنباع فثقلت وطأته على بشر، فلم يقدر على صرفه

---

(١) خليفة، تاريخ: ٤٤٠، البخاري، التاريخ الكبير: ٣/٣٠٧، الجاحظ، البيان والتبيين: ١/٣٥٨، ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل: ٣/٤٩٤، وكيع، أخبار القضاة: ١/١٢٣، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٣٥، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٨١ ـ ١٠٠]، ص٦١.

(٢) الخبر ليس في كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري، وهو في كتاب الأغاني للأصفهاني: ٩/٣٠٨.

(٣) عدي بن الرقاع العاملي، شاعر الأردن في العصر الأموي (ت٩٥هـ)، انظر: الزركلي، الأعلام: ٤/ ٢٢١.

(٤) عدي بن الرقاع، الديوان: ٨٨.

عنه إلَّا بأن تحيل بإدخال رجل إلى بيته، وكان لا يدخله أحد سواه، فكتب على حائطه هذا[1]: [البسيط]

يـا روح مـن لـدنـانـيـر مُـجَـرشـةٍ إذا نـعـاك لأهـل الـمـغـرب الـنَّـاعِـي
إن الـخـلـيـفـة قـد شـالـت نـعـامـتـه فـاحـتـل لـنـفـسـك يـا روح بـن زنـبـاع

فلما رآه روح أتى بشراً فاستأذنه في الرجوع إلى الشام، فجعل بشر يحبسه، ويسأله أن يقيم فيأبى؛ فأذن له، فلما دخل على[2] عبدالملك قال: الحمد لله على سلامتك يا أمير المؤمنين! قال: وما ذاك؟ فأخبره الخبر؛ فقال له: ثقلت والله على بشر وأهل العراق، فاحتالوا في الراحة منك[3].

ذكر الحافظ أبو عبد الله الذهبي [٥] في تاريخ الإسلام[4] قال: كان روح بن زنباع إذا خرج من الحمام أعتق رقبة.

وأمره يزيد على جند فلسطين، وشهد يوم راهط مع مروان، وكانت له دار بدمشق عند طرف البزوريين[5]. وقال مسلم رحمه الله: له صحبة، ولم يتابع مسلماً أحد، وأبوه زنباع بن روح بن سلامة له صحبه[6].

ومنهم:

٣ ـ نصر بن سَيّار[7]:

وكان يتقلد ديوان خراسان[8]، ثم انتهى إلى أنه كتب إلى الوليد يعلمه بظهور

---

(١) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٣٦ ـ ٣٧.
(٢) ساقطة من ت.
(٣) انظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٣٦ ـ ٣٧.
(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٦٣.
(٥) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٦٣.
(٦) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٦٣.
(٧) خليفة، تاريخ: ٣٨٣، ابن حبيب، المحبر: ٢٥٥، ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل: ٨/٤٦٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/١٤٩، الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث [١٢١ ـ ١٤٠]، ص٥٥٢، سير أعلام النبلاء: ٥/٤٦٣.
(٨) وهم ابن فضل الله العمري، فلم يتقلد نصر الديوان إنما كان أمير خراسان، ويبدو أن إصلاحه لدواوين خراسان ولجبايتها هي التي أوقعت العمري في الوهم.

المسودة، فكتب إليه: إني قد أقطعتك خراسان فافعل فيها ما شئت[١].

وتوفي سنة إحدى وثلاثين ومئة بسَاوَة[٢] قرب الري، وعمره خمس وثمانون سنة[٣].

وكان مشرفياً مرهَفياً، وسمهرياً[٤] مثقفاً، وأسداً فاغراً، وبطلاً لو قُبِلَ رأيه رد الجمع صاغراً، بُلِي بسود بني العباس، واختلاف ذات بين بني مروان لأمر سبق به القدر، وكانت البدرة فيه لمن بدر، كان ذلك في الكتاب مسطوراً، وكان أمر الله قدراً مقدورا.

ومن كتاب كتبه إلى مروان: أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإنها قد شرعت ولم تتبين، ومبادرة الدواءِ في أول الداءِ أنجح، وآفة الرأي التردد. والسلام.

ومنهم:

٤ ـ عبد الحميد بن يحيى[٥]:

وهو إمام المتقدمين، ورسائله كافية للمتعلمين، وكتب لهشام بن عبدالملك، واستمر حتى كتب لمروان بن محمد، وهو القدوة وبه الأسوة، ورسائله مشهورة يتناقلها الكتاب ويتداولونها جيلاً بعد جيل[٦].

ومن كلامه:

الناس رجلان، رجل دق خطره وحسنت معاملته، فعامله السفلة فسفل، ورجل وضيع عامل أهل الدين والأدب فتأدب.

---

(١) قارن بالطبري، تاريخ: ٧/٣٦٩.

(٢) ساوة: مدينة بين الري وهمذان، خربت سنة ٦١٧هـ. انظر: ياقوت، معجم البلدان: ٣/١٧٩.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٥٥٣.

(٤) ت: سمهر.

(٥) النديم، الفهرست: ١٨٨، ابن قتيبة، عيون الأخبار: ١/٢٦، المسعودي، مروج الذهب: ٣/٢٦٣، الجاحظ، البيان والتبيين: ٣/٩، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٧٩ ـ ٨٣، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/٢٢٨، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث [١٢١ ـ ١٤٠]، ص٤٧٠.

(٦) ذكر النديم في الفهرست: ١٨٨: أنَّ رسائله تقدر بألف ورقة وأنها كانت معروفة مشهورة في عهده.

ومنه يعزي هشاماً بامرأة من نسائه[1]:

إن خير ما أنعم الله على خلفائه ما رزقهم الشكر عليه، والدنيا دار متاع [٦] وبلغة، وما فيها عوار بين أهلها ثم منقول عنهم. وإن الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من مؤنسته وقرينته متاعاً إلى أجل مسمىً ثم قبض العارية وليّها، وأعطى عليها في المنقلب وأرجح في الميزان، وأكفى في العوض، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

احتسب مصيبتك يا أمير المؤمنين على الله فإن مواهب الله أجزل وثوابه أفضل، فامض على رويتك في الخبر، فإن ما عند الله لا يبلغنه كتاب، ولا يحصيه حساب.

ومنه: أما بعد فإن أمير المؤمنين استخلصك لنفسه بعد أن غلب رأيه على هواه فيك وبعد أن ماثل بينك وبين القرناء فأسقطهم مضمارك وزيفهم اختبارك، فجعلك عينه التي يبصر بها، وسمعه الذي يسمع به، ويده التي يبطش بها، فما زادك تقريباً إلَّا ازددت إلى الناس قرباً، ولا زادك بسطاً وإيناساً إلَّا زدته هيبةً وإجلالاً، ولا زادك تمكيناً إلَّا ازددت في الرعية عدلاً، لا تحملك النصيحة له على ظلم رعيته، ولا يحملك العدل في رعيته على إهمال حقوقه ولا يستخفك القرح، ولا يكمدك الحزن، تجري الأمور على السداد، ولا يمنعك أن تذهب بها في مذاهبها استشعار الحذر لعواقبها[2].

ومنه: الناس أصنافٌ مختلفون، منهم علق مَضِنّةٍ لا يباع، ومنهم غُلّ مِظنة لا يبتاع[3].

وساير يوماً مروان على دابة، فقال له: كيف سيرها؟ فقال له: هَمُّها أمامها، وسوطها عنانها، ما ونت قط إلَّا حلماً، ولا ضُربت قط إلَّا ظلماً[4].

ومن شعره[5]: [المتقارب]

أُبكِّي على ذا وأبْكي لذا   بكاءَ المُولَّهة الثّاكِلِ

---

(١) ذكر إحسان عباس في كتابه عبدالحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله، ٢٨٠ أنها من مروان إلى هشام وكاتبها عبدالحميد، والرسالة هنا أكمل بكثير مما في كتاب عبدالحميد.

(٢) الرسالة غير موجودة في رسائل عبدالحميد تحقيق إحسان عباس.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٨٢.

(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٨٢.

(٥) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٨١.

فتبكي من ابنٍ لها قاطعٍ ... وتبكي من ابنٍ لها واصلِ

وكان المنصور يقول: غلبنا بنو مروان بثلاثة أشياء: بالحجاج بن يوسف وعبدالحميد بن يحيى، والمؤذن[1] البعلبكي[2].

ومنهم:

٥ ـ طلحة بن زُرَيق[3]:

كان يكتب للإمام إبراهيم بن محمد إلى الدعاة، ويقرأ كتبهم إليه، وهو أخو مصعب [٧] بن زُريق جد طاهر بن الحسين[4].

وقد كانت لهم دولة ملك، وصولة سلطان، وامتدت لهم أيام موصوفة، وأقلامٌ تبرى الرماح قصباتها النحيفة. ثم كانت لآخرهم سيوف ذللت الدول، وداست[5] مفرق البطل.

ومما كتبه عن الإمام في جوابٍ إلى بعض رؤوس الشيعة ليستأذنه في من قدر عليه من عمال بني أمية:

أما بعد، فلا تمر بشجرة بكتك أن تحبها إلَّا فعلت وإياك أن تلهيك الثمرة والسلام.

ومنهم:

٦ ـ أبو أيوب المورياني[6]:

كان وزيراً متقلداً لأبي جعفر المنصور وتَقَلُّد تفويض، وتقدم له اصطناع لأبي

---

(١) الواو ساقطة من ت.
(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٨١، ابن نباتة، سرح العيون: ٢٣٩.
(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٨٤.
(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٨٤، مجهول، أخبار الدولة العباسية: ٢٧٠.
(٥) ساقطة من ك.
(٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٩٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤١٠، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [١٤١ ـ ١٦٠]، ص٦٧٥، ابن الطقطقى، الفخري: ١٥٧، وتوفي سنة ١٥٨هـ.

جعفر المنصور[1] في آخر أيام بني أمية حين جرد للسياط على ما كان، انكسر عليه من ضمان كان ضمنه منهم ففداه أبو أيوب بنفسه، وبذل ماله دونه حتى خلص منهم بمننه، ووفى ليدرعه بمننه، فكان يعدها لهُ يداً، ويشكرها له إلى أن بدا له ما بدا[2].

وكان لأبي أيوب كاتب خاص به اسمه محمد بن الوليد، وكان كاتبه هذا حريصاً على أخذ الرِّشَا، فكتب إلى طريف على لسان أبي أيوب بحمل مئة ألف دينار إليه فحملها إليه، ولم يعلم بها أبو[3] أيوب ثم اتفق أن أبا أيوب أشار على المنصور بصرف طريف وتولية غيره، ففعل ذلك.

ثم إن أبا أيوب أخذ في محاسبة طريف والتضييق عليه، فحنق عليه طريف ـ وفي ظنه أن ذلك المال وصل إليه ـ فلما وصل إلى المنصور أخرج إليه الكتاب الوارد عليه بطلب ذلك المال فقرأه ثم دفعه إلى أبي أيوب، فقال: هذا خط كاتبي وخاتمي، ولا علم لي بشيء من أمره، فقال له أبو جعفر: هذا أشد الأمرين[4] أن تكون مئة ألف دينار، يأخذها كاتبك من رجل واحد[5].

ومنهم:

٧ ـ عبدالجبار بن عدي[6]:

كان نبعة سهام، ولمعة برق تدل على ضرام، وقد كان يكتب لخلفاء بني أمية ثم كتب للمنصور. ثم لما مات قال المنصور: ما أخلقنا[7] أن نكون قد دفنّا[8] الكلام مع عبدالجبار، ولا نجد أحداً يقوم مقامه، ولا يسدّ مسدّه.

ومن كلامه: إياك أن يعود جوابك دون بلوغ الأرب، وحصول الطلب، ولا تقل هم كثيرون فما تحاذر لا يهوله كثرة الغنم.

---

(١) «من تقلد إلى المنصور» ساقطة من ت.
(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٩٨.
(٣) أبو: من ك وهامش ت.
(٤) ت: هذا أشد من الأمرين.
(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٠٠ ـ ١٠٢.
(٦) لم نجد له ترجمة فيما اطلعنا عليه من مصادر.
(٧) ت: اختلفنا.
(٨) ت: دمن.

ومنهم:

٨ ـ عبد الله بن المقفع[١]:

وهو الغاية في البلاغة، وهو أشهر من أن يوصف، وبمهما وصف به لا ينصف، وبه يضرب المثل، وكان من كُتَّاب دولة المنصور، ثم استأثر به عبد الله بن علي[٢]، فكان معه، فلما خرج عبد الله بن علي على المنصور، وكان ابن المقفع هو المقترح على المنصور ما يكتبه لعبد الله بن علي في الأمان، فحقدها عليه. وقال: سواء لديَّ ابن المقفع وعبدالله بن علي، وجده مولى لسفيان بن معاوية، ثم كان منه ما كان[٣].

وقال ابن المقفع وهو في[٤] تلك الحال يخاطبه[٥]: [الوافر]

إذا ما مات مثلي مات شخص ... يموت لموته خلق كثير

وأنت تموت وحدك ليس يدري ... بموتك لا الصغير ولا الكبير

ومنهم:

٩ ـ أبو عبيد الله[٦] معاوية بن عبيد الله[٧] بن يسار[٨]:

وزير المهدي وكاتبه، وموضع أنسه وصاحبه، ومدانيه واحد لا يقاربه.

ولما وفد عبد الله بن الحسن على المهدي معزياً عن المنصور، ومُهنئاً بالخلافة، فتكلم بكلام أعده أُعْجِبَ الناس به واستحسنوه، فبلغه ذلك، فقال لشبيب بن شيبة: إني

---

(١) النديم، الفهرست: ١٨٩، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٠٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ١٥١، اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ١٠٤، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [١٤١ ـ ١٦٠]، ص١٩٨، سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٠٨، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٧/ ٦٣٣.

(٢) في ت، ك: علي بن عبد الله والصواب ما أثبت.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام: ١٩٩.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١١٠.

(٦) ت: عبدالله.

(٧) ت: عبدالله.

(٨) خليفة، تاريخ: ٤٤٢، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ١٤١، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٩٨.

والله ما التفت[1] إلى هؤلاء، ولكن سل أبا عبيد الله عما تكلمت به فسأله شبيب، فقال له: ما أحسن ما تكلم! ولكنه لم يتعد بكلامه أن أخذ مواعظ الحسن[2]، ورسائل غَيْلان؛ فنقح منهما[3] كلاماً، فأخبر شبيب عبيد الله بذلك، فقال: لِلّه[4] أبوه! فوالله ما أخطأ حرفاً، ولا تجاوزت ما قال[5].

واعتذر إلى أبي[6] عبيد الله رجل فأطال، فقال: ما رأيت عذراً هو أشبه باستئناف ذنب من هذا[7].

وكان يقول[8]: اليأس حُرّ، والرجاء عبد[9].

وكان يقول[10]: إني لأشكر حسن الخلطة، ولين اللفظة[11].

وهو الذي لا يخوض البحَّار في ضحضاحه، ولا يشبه ماؤها[12] الآجن بسماحه، لولا يلبسه بكسر أثقل عطفه، ويحلقه بينه سمراء أنفه، لكان الذي ينقطع به المثل، ولا يشتغل بأحد قبله ولا بعده.

وقد كان رفع عليه إلى المهدي أن له [9] ألف دواج سمور سوى بقية الأوبار، وسوى ما لا وبر له، وسوى غيرها من الأصناف التي يدريها.

وحكي أن الفضل بن يحيى كان شديد الكبر، فعوتب في ذلك، فقال: هذا شيء

---

(١) ت: لقيت.

(٢) ت: الحسين.

(٣) ت: منها.

(٤) ساقطة من ك.

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٤١.

(٦) ساقطة من ت.

(٧) ت: ما رأيت عذراً هو أشبه ذنب باستئناف من هذا الرجل. والخبر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٤٢.

(٨) ت: يقال.

(٩) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٤٢.

(١٠) ت: يقال.

(١١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٤٢.

(١٢) ت: ما.

حملت نفسي عليه لما رأيته من عمارة بن حمزة، فإن أبي كان يضمن فارس من المهدي، فحلَّ عليه ألف ألف درهم، فأخرج ذلك كاتب الديوان عليه، فأمر المهدي أبا عون عبد الله بن يزيد[1] بمطالبته، وقال له: إن أدّى يحيى المال قبل المغرب من يومنا هذا، وإلّا فأتني برأسه، فكان المهدي مغضباً عليه، وكانت حيلتنا لا تبلغ عشر المال، فقال: يا بني إن كانت لنا حيلة من قبل عمارة بن حمزة، وإلّا فأنا ميت، فامض إليه، فمضيت إليه[2]، فلم يعرني الطَّرْف، ثم تقدم من ساعته بحمل المال، فحمل فأديناه، فلما مضى لنا شهران جمعنا المال، فقال لي أبي: امض به إلى الشريف الحر الكريم، فمضيت إليه، فلما عرّفته خبر المال غضب ثم قال: أكنت قسطاراً[3] لأبيك، فقلت: لا، ولكنك أحييته ومننت عليه بهذا المال، وقد استغنى، فقال: هو لك، فعدت إلى أبي، فقال: لا، والله، ما تطيب نفسي لك به، ولكن لك منه مئتا ألف درهم، فتشبهت به، حتى صار لي خلقاً لا يتهيأ لي مفارقته[4].

ومنهم:

١٠ ـ ابن طهمان، يعقوب بن داود[5]:

وكان معمور الباطن بالورع والزهد المتبع، ولم تكن زخارف الأنام تطبيه، ولا عروس الدنيا تصبيه.

كتب أولاً لنصر بن سيار ثم بقي بَطِلاً، وزر للمهدي، وبلغ منه ما لم يبلغه وزير، حتى كان يقال يعقوب بن داود الخليفة والمهدي الوزير[6].

---

(١) ت: أبا عبد الله بن يزيد.

(٢) «فمضيت إليه» ساقطة من ت.

(٣) القسطار: منتقد الدراهم. الفيروزابادي، القاموس المحيط: ٤١٦ مادة قسطر.

(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩٧. وجاء على حاشية ت تعليق بغير خط النسخة «ليس لهذه الحكاية محل، فحقها أن تتقدم في ترجمة الفضل أو عمارة ... سهو من المؤلف» والتعليقة صائبة فلا مكان لهذه القصة في ترجمة أبي عبيد الله، ويبدو أنها استطراد من المصنف في غير مكانه.

(٥) الطبري، تاريخ: ١٥٨/٨، المرزباني، معجم الشعراء: ٤٩٥، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٥٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١٩/٧، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٣٤٦/٨.

(٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٥٥.

وكان المهدي يقول[1]: يعقوب بن داود أخي في الله ووزيري، وفي ذلك يقول سلم الخاسر[2]: [البسيط]

قل للإمام الذي جاءت خلافته ... تُهدي إليه بحقٍّ غير مردودِ
نعم المعين على التقوى أعنت به ... أخوك في الله يعقوب بن داود

وحج يعقوب بن داود في صحبة المهدي وأخذ منه أماناً للحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن[3]، وأحضره إياه فأحسن إليه المهدي، ووصله بمال كثير، وأقطعه [١٠] أرضاً من الصوافي بالحجاز، وأحمد الناس فعل يعقوب في ذلك[4].

وأنفذ يعقوب بن داود الأمناء إلى العمال في جميع الآفاق، فلم يكن ينفذ شيء من كتب المهدي حتى يرى كتاب من يعقوب بن داود إلى أمينه بإنفاذه[5].

وغلب يعقوب بن داود على أمر المهدي كله، واقتصر المهدي على ملاذه حتى قال بشار بن برد[6]: [البسيط]

بني أُميَّة هُبُّوا طال نومكمُ ... إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناي والعود[7]

وكان يعقوب بن داود جواداً كريماً معطاءً، وأتت إليه امرأة من اليمامة قد كاتبت على نفسها وولدها وأهل بيتها على ألف دينار، فلما مثلت بين يديه، قالت: [الوافر]

وباعث أحمدٍ فينا رسولاً ... يعلمنا الحرام من الحلال
لشهراً نحو يعقوب سرينا ... فأدينا إلى وقت الهلال

---

(١) «يعقوب بن داود الخليفة ... يقول» ساقطة من ت.
(٢) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٥٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٢٠.
(٣) ورد اسمه في الجهشياري، الوزراء والكتاب: الحسن بن عبد الله بن حسن، والصواب ما ذكره العمري لأن الزبيري، لم يذكر ابناً لعبد الله اسمه الحسن، بينما ذكر الحسن بن إبراهيم. انظر: الزبيري، نسب قريش: ٥٣ ـ ٥٥.
(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٥٦.
(٥) مسكويه، تجارب الأمم: ٣/٤٧٨.
(٦) بشار، الديوان: ٣/ ٩٤ وليس فيه البيت الأول.
(٧) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٥٩.

أَعِنِّي يا فداك أبي وأمي ... وعمي لا أحاشيه وخالي
يبشرني بنجحي كل طير ... جرت لي عن يمين أو شمالي

فقال لنا: صدقت طيرك، وأعطاها ألف دينار، وأمر لها أن توفي مال كتابتها، وأن تقدم عليه بأهلها، ففعلت ذلك، فأجرى عليها وعليهم الرزق، وما زالت في عياله إلى أن مات.

وذكر المفضل الغمري: أن المهدي حج في بعض السنين، فمر بميل[1] وعليه كتاب فوقف فقرأه، فإذا هو: [البسيط]

لله درك يا مهدي من رجل ... لولا اتخاذك يعقوب بن داود
ماذا الذي يا أمير المؤمنين به ... بقيت أو ما الذي يبقى من الجود

فقال لبعض من كان معه اكتب تحته: على رغم أنف الكاتب لهذا، وتَعْساً لجده[2].

ثم كان يعقوب بن داود ـ وقد ضجر بموضعه ـ فكان يقول للمهدي: والله يا أمير المؤمنين لشربة خمرٍ أشربها أتوب إلى[3] الله منها أحبُّ إليَّ مما أنا فيه وإني لأركب إليك وأتمنى يداً خاطئة تصيبني في طريقي فأعفني ووَلِّ من شئت، فليس دنياك بعوضٍ لي من آخرتي، فيقول له المهدي[4]: اللهم غفراً! اللهم أصلح له قلبه[5].

ثم آل أمره معه إلى ما آل، ولما أوقع به المهدي [١١] أدخل عليه وقال له: يا يعقوب، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، تلبية مكروب بغضبك! فقال له: ألم أرفع من ذكرك وأنت خامل، وأُعْلِ من قدرك وأنت غافل، وأُلْبسك من نعم الله ما لم أجد لك بحمله يدين من الشكر، فكيف رأيت الله أظهر عليك ورد كيدك إليك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن كان ذلك بعلمك فتصديق معترف مذنب، وإن كان بما كسبته نمائم الباغين وأقوال الحاسدين، فعائذ بفضلك؛ فقال: والله لأُلبسنَّك من الموت قميصاً لا

---

(١) الميل: منار يبنى للمسافر. انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٩٥٥ مادة ميل.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٢٢.
(٣) ساقطة من ت.
(٤) ساقطة من ت.
(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٦٠.

يُخْلِقُ الدهر جدته؛ يا غلام، المُطْبِق، فولّى وهو يقول: المودة رحم، والوفاء كرم، وأنت بها جدير[1].

وليعقوب بن داود شعر، فمنه ما قاله وهو مقيم بمكة بعد إخراج الرشيد له[2]:
[مجزوء الرمل]

طَلِّق الدنيا ثلاثاً ... واطَّلب زوجاً سواها
إنها زوجة سوءٍ ... لا تبالي من أتَاها

ومنهم[3]:

١١ ـ الفَيْض بن أبي[4] صالح وزير المهدي[5]:

وقال الكندي سمعت يحيى بن خالد يقول: كان الفيض بن أبي صالح يعلم الناس الكرم[6].

وكان يحيى يهضم نفسه إذا ذكر الفيض بن أبي صالح، ويقول: كيف لو رأيتم الفيض بن أبي صالح[7].

قلت: كان يعلم بكرمه الخواطر المنى، ويحقر بنعمه مواهب الغنى، آية متلوَّة[8] وغاية مرجوَّة، لا يتكسب المال إلَّا لينفقه، ولا يجمعه إلَّا ليفرقه، ولا يستجدُّ الثوب إلَّا ليهبه لا ليخلقه، لا يستكثر عليه نعمة وإن جلت، ولا يمتلئ له سماء خزائن إلَّا ألقت ما فيها وتخلت، كرماً خلق له طباعاً، وجوداً يدعه يبيت يطوي حشاه جوعاً والناس شباعاً.

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٦٢.
(٢) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٦٢.
(٣) ساقطة من ت.
(٤) ساقطة من ت.
(٥) النديم، الفهرست: ١٩٥، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٦٤٠، ابن الطقطقى، الفخري: ١٨٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢٦/٧، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٠٣/٢٤.
(٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٦٤.
(٧) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٦٤.
(٨) ت: آية متوله.

وحكي أن الفيض بن أبي[1] صالح، وأحمد بن الجنيد، وجماعة من الكتَّاب والعمال، خرجوا من دار الخليفة، فتقدم الفيض، وتلاه أحمد بن الجنيد، فنضحت دابة الفيض على ثياب أحمد بن الجنيد من الوحل، فقال أحمد للفيض: هذه والله دابة بغيضة، ولا أدري بأي حق وجب لك التقدم علينا، فلم يجبه الفيض عن ذلك بشيء، ووجه إليه عند مصيره إلى منزله بمئة تخت، في كل تخت قميص وسراويل ودراعة ومبطنة وطيلسان وعمامة وشاشية، وقال لرسوله: قل له[2] أوجب لنا التقدم عليك أنَّ لنا مثل هذا نوجه به إليك عوضاً مما أفسدناه من ثيابك[3].

وحكي أن داود كاتب زبيدة حبس وكيلاً لها على مائتي ألف درهم تأخرت لها عنده، فكتب الوكيل إلى صديقين له يسألهما في الحديث له، فركبا إلى كاتب زبيدة بسببه، فلقيا الفيض بن أبي صالح مصادفة في الطريق فسألهما إلى أين راكبان، فحدثاه بحديث الرجل، فسار معهما وهو لا يعرف ذلك الرجل حتى أتوا كاتب زبيدة، فحدثوه فكتب إليها بخبرهم، فبعثت تقول: إنه لا سبيل إلى إطلاقه إلّا بأداء[4] المال، فاعتذر إليهم فقام الرجلان لينصرفا، فقال لهما الفيض: ويحكما من رجلين كأننا ما جئنا إلّا[5] لتوكيد حبس الرجل، لا والله ولكن نؤدي عنه المال. ثم أخذ الدواة وكتب إلى وكيله بالمال، ودفع الرقعة إلى كاتب زبيدة، ثم قال له: ها قد أعطيناك المال، فسلم إلينا صاحبنا، فكتب إلى زبيدة بالخبر، فبعثت تقول: أنا أولى بهذه المكرمة من الفيض، فارددا ما كان منه، فما برح الفيض[6] حتى أخذ الرجل ثم دفع إليه المال وقال: شيء خرجت لك عنه لا أعود فيه[7].

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) ساقطة من ت.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٤) ت: لأداء المال.

(٥) ساقطة من ت.

(٦) ساقطة من ت.

(٧) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٦٥ ـ ١٦٦.

ومنهم:

١٢ ـ عمر بن بَزِيع[1]:

وكان من كُتَّاب الهادي، وكان صاحب فكرٍ غواصٍ، وفهمٍ قناصٍ، وأدبٍ [١٣] محاضرٍ، وجوابٍ حاضر.

حكى مخارق أنه كان مع الهادي يوماً وهو يتصيد، فرمى فأصاب سبعة أطلاق ثم رمى الثامن فأصاب الصيد، وانقطع الوتر، فاغتم لذلك وتطير منه وضجر، فنزل عمرو ابن بزيع فوقف بين يديه، ثم قبل الأرض وحمد الله، فقال الهادي: أي موضع حمدٍ هذا، فقال له: الحمد لله على أن كانت العين بالقوس، ولم تكن بك يا أمير المؤمنين، فسرِّي عنه واستحسن ابن بزيع ووصله بجملة من المال[2].

وكتب إلى صديق إليه يوصيه: كُلْ مالك قبل أن تؤكل به[3]، وإياك وسرعة المبادرة وبطء الفكر، فذاك يورطك، وذاك يوديك فيه زيادة الحذر إلى ما يسخطك والسلام.

ومنهم:

البرامكة[4]:

وكانوا رحمهم الله البحور الزواخر، والغُيوث السواكب، والحباب المخصب، والربيع الممرع، والجبال الشواهق، والنجوم اللوامع، والبدور الكوامل.

وكانوا أمة كرم، وملة فضل، وكعبة جود، وقبلة أمل، ومحل قصدٍ، ومحط وفد، وصفاء صفا، وَمُروة مروة، وركن لائذ، ومقام عائذ، لم يتقدمهم مثلهم، ولا

---

(١) ت: ربيع، وأخباره في خليفة، تاريخ: ٤٤٧، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٦٧، المسعودي، التنبيه والإشراف: ١٩٧، ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة: ٢/٣١٨.

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٣.

(٣) «أن تؤكل به» ساقطة من ت.

(٤) البرامكة أشهر أسر الوزراء في تاريخ الإسلام والمسلمين، ترجمتهم لا يخلو منها كتاب في التاريخ أو الأدب وأخبارهم مبثوثة فيها، وصنف حولهم العديد من المصنفات والبحوث والرسائل الجامعية وسنحاول الإحالة عند ترجمة كل رجل منهم إلى أبرز مظان ترجمته.

جاء بعدهم من أشبههم، ولا أظن أن الدهر بقي يلد مثلهم، ولا الأيام تظفر بنظيرهم.

وقد قال ابن سعيد ـ وهو المتعصب للمغاربة ـ: فأما إذا افتخر أهل المشرق بالبرامكة مددنا لهم الأعناق خضوعاً، وأغضينا العيون حياءً، وسلمنا إليهم وقلنا: هذا ما لا يدفع[1].

قلت: ولم يكن منهم صغير ولا كبير، ولا خفي ولا شهير[2]، إلَّا وهو يتسامى إلى الغايات، ولا يقنع إلَّا بالنهايات حتى قيل فيهم: [الوافر]

إذا ما البرمكي أناف عشراً ... فهمته وزيراً أو ميرا

وكانوا يتنافسون في الصنائع ويتهافتون على المعروف، ويتقاسمون على العفاة [١٤] ويتساهمون على الوفود، ويسابقون الآمال، ويبادرون السؤال، ويواثبون البحر، ويطاولون السحاب، لا يغيض لهم ندى، ولا يخف لهم جود، ولا يذوي لهم معروف، ولا يهوي لهم مُعلم، ولا يبلى لهم ثوب صنيع، اغتنموا للناس هبوب ريحهم، وانتهزوا لهم فرصة إمكانهم، وتتبعوا بمعروفهم خلل الإخوان، وداووا بوجودهم[3] سقم الزمان، لا يقنعون لمن أمَّلهم بالقليل، ولا يرضون له باليسير، يبسطون أيديهم بالعطاء، ويتوسطون له إلى الخلفاء.

وحكي أن بعض الوزراء رأى في يد جليس له كتاباً فيه أخبار البرامكة، فقال له: ما في هذا الكتاب؟ فقال له: أخبار البرامكة؛ فقال: اقرأ عليَّ شيئاً من مكارمهم[4]، فقال له الوزير: هذا مما كذبه الوراقون، فقال له الرجل: فهلَّا كذبوا عليكم، فخجل الوزير واستحيا.

ولم يكن منهم إلَّا من يجمع المكارم، ويدب له البرق خجلاً في وجوه الغمائم[5]، وكانوا كما قال[6] فيهم ابن مناذر[7]: [الطويل]

---

(١) كلام ابن سعيد من مقدمة كتابه المغرب في حلى المغرب وهي مفقودة، وهو الذي صنف العمري للرد عليه كتابه المسالك، وقد أكثر من النقل عنه في الجزء الخامس وبين فيه مراده منه.

(٢) ت: سميرا.

(٣) ت: بوجوههم.

(٤) العبارة في ت مضطربة من: وحكى إلى هنا والمثبت من ك.

(٥) ت: الغمام.

(٦) ت: قيل.

(٧) الشعر في الأصفهاني، الأغاني: ١٨/ ٣٩٠.

أتانا بنو الأملاك من آل برمك ... فيا طيب أخبارٍ ويا حسن منظر
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد ويجلو لنا الدجى ... بمكة ما عشنا ثلاثة أقْمُر
فما خلقت إلّا لجود أكفهم ... وأرجلهم إلّا لأعواد منبرِ

ومهما قيل في وصفهم فهو أكثر منه، ومن ذا يعد الرمل، ويحصي الحصا، وبذكرهم يتضوع النِدُّ في كل محفل، وتتعطر الأندية في المشرق والمغرب؛ وما محاسن شيء كله حسن!

فمنهم:

١٣ ـ خالد بن برمك[١]:

وهو أساس هذا البيت، ومعدن هذا الذهب[٢]، وبحر هذه الدرر، ومطلع هذه الأنجم، ومنبع هذه الأسهم، وكلهم حذوا حذوه، ونحوا نحوه، وأشبهوا منه أباهم فما ظلموا، وعملوا منه بما علموا[٣].

وهو ممن تقدمت له رياسة [١٥] في زمان بني مروان، ويقال إنه ولي على زمان عبد الملك شيئاً من أمور الديوان، ثم كان له في الشيعة الهاشمية مكان منيف، وكان له على عهد السفاح سعدٌ مقبل.

وكان ثمامة يقول: كان أصحابنا يقولون: لم يكن ترى عين لجليس خالد داراً إلّا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلّا وخالد ابتاعها له، ولا ولداً إلّا وخالد ابتاع له أُمَّهُ إن كانت أمةً، ولا حُرةً إلّا وخالد مهرها[٤] عنه، ولا دابة إلّا وخالد حمله عليها أو من نتاج دابة حمله عليها[٥].

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٥٠ ـ ١٥١، ابن الطقطقى، الفخري: ١٥٥، ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة: ٢/٢٨٩، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٣/٢٤٨.

(٢) ت: البيت.

(٣) ك: عملوا.

(٤) ك: الا وخالد أدى مهرها.

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٥٠

وكان أبو حنش النميري عند خالد بن برمك في يوم نيروز وهو على فارس، وقد جاءته هدايا فيها جامات ذهبٍ وفضة، فأنشده[1]: [الخفيف]

ليت شعري أما لنا فيك حظ | يا هدايا الأمير في النوروز
ما على خالد بن برمك في الـ | ـجود نوال ينيله بعزيز
ليت لي جام فضةٍ من هدايا | ه سوى ما به الأمير مجيزي
إنما أبتغيه للعسل الممـ | ـزوج[2] بالماء أو لشرب العجوز

فأمر له بما كان بين يديه من جامات الفضة، فبلغت أربعمائة ألف درهم.

ومنهم:

١٤ - يحيى بن خالد[3]:

وهو علمهم الفرد، وأسدهم الورد، وفردهم الذي[4] لا يقدر له في السرد، وواحدهم القائم[5] مقام الكل، ولا فرد أكثر من مناقبه بما كثر، وحصلوا من فرصةٍ على ما انتهز أُثل المجد وبناه، وأثر الحمد كأن كل ناطق إنما عناه، ذو الحلم إلَّا أنه الذي لا يجنح، ورب العلم إلَّا أنه الذي لا يبرح، وأخو الذكاء[6] إلَّا أنه الذي في زناده لا يقدح، نطق بالحكمة في مقاله، ونعق غراب البين في ماله، وكرم شمائل، وعظم أثراً ما تعلق[7] نجاد أسفه بحمائل.

وكان قد استوزره المهدي لابنه هارون الرشيد، فكان يقوم بأمره، فلما صارت الخلافة إلى الهادي أراد خلع أخيه الرشيد، والعهد إلى ابنه جعفر، فدعا بيحيى، فلما

---

(١) الشعر في ابن الطقطقى، الفخري: ١٥٦.
(٢) ت: المحروج.
(٣) خليفة، التاريخ: ٤٦٥، ابن قتيبة، المعارف: ٣٨١، ياقوت، معجم الأدباء: ٢٨٠٩/٦، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢١٩/٦، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٧، ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة: ٣٢٦/٢.
(٤) «ومنهم يحيى بن خالد ... فردهم الذي» ساقطة من ت.
(٥) ت: القيام.
(٦) «إلاَّ أنه الذي لا يجنح ... الذكاء» ساقطة من ك.
(٧) ت: لا معلق.

وصل إليه أكرمه ورفق به، وقال له: أنت الذي يقول فيك القائل[1]: [الخفيف]

لـو يـمـسُّ الـبـخـيـل راحـة يـحـيـى   لَـسـخـت كـفـه بـبـذل الـنـوال
لسـت يـحـيـى مـصـافـحـاً حـيـن ألـقـى   إنـنـي إن فـعـلـت أتـلـفـت مـالـي

[١٦] فقال له: تلك راحتك يا أمير المؤمنين، وقبل يده ورجله، فأمر له بإقطاعٍ بمصر، ووجه له بعشرين ألف دينار ثم ناظره في خلع هارون، فقال له: يا أميرَ المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التي تعقد عليهم، ولو تركت الأمر على بيعة أخيك بحاله، وبويع بحضرته من بعده لكان أوكد لبيعته، فقال له: صدقت ونصحت، وأنا أنظر في هذا ثم صرفه ثم لم تطب نفسه، ودعا بيحيى فحبسه فتلطف لأن يدعو به ويخليه، ففعل به ذلك، فلما خلا به قال: يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان ما نعوذك بالله منه قبل بلوغ جعفر وقد خلعت هارون، هل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم؟ قال: لا، قال: فدع هارون حتى يبايعه عفواً، فالله الله يا أمير المؤمنين، فإنك إن فعلت هذا وحدث ما نعوذ بالله منه وثب على هذا الأمر أكابر أهلك، وخرج الأمر عن ولد أبيك، ووالله لو لم يكتب المهدي عقداً لهارون لوجب أن تعقد له ليكون الأمر في بني أبيك، فسكن منه بهذا الأمر وأطلقه[2].

وحكي أن خالد بن برمك لما انصرف من فارس قصد باب المهدي، ومعه ابنه يحيى، والحاجب إذ ذاك معاذ بن مسلم، فسلم خالد على معاذ فصافحه ثم مَدَّ يحيى يده إليه ليصافحه، فقبض معاذ يده، فقال له خالد: لم قبضت يدك[3] يا أبا الحسين عن ابن أخيك، فقال: أكره أن أتلف مالي، أليس قال له أبو حنيش: [الخفيف]

لسـت يـحـيـى مـصـافـحـاً حـيـن ألـقـى

البيت المقدم، فذكره.

ولما[4] صار الأمر إلى الرشيد كانت الدواوين كلها إلى يحيى بن خالد مع

---

(١) البيت الأول في الطبري، تاريخ: ٨/٢٠٩، والجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٠، والبيتان في ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة: ٢/٣١٦.

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٠.

(٣) ت: يده.

(٤) في ك: ثم لما.

الوزارة خلا ديوان الخاتم فإنه كان إلى العباس الطوسي، ثم ولاه جعفر بن محمد بن الأشعث، ثم دفع الخاتم إلى يحيى بن خالد فقلده الفضل ابنه، ثم أحب الرشيد تقليد جعفر بن يحيى الخاتم، فقال ليحيى: إني أريد أن أوقع بها توقيعاً لا يجري مجرى العزل للفضل، فكتب عنه يحيى: إن أمير المؤمنين رأى أن ينقل خاتم الخلافة من يمينك إلى شمالك[1].

وكان الرسم في الكتب التي[2] تنفذ من ديوان [١٧] الخراج أن تكون باسم الخليفة، فلما ولي يحيى بن خالد صارت باسمه، وقلد إسماعيل بن صبيح ديوان السر[3].

ولما قلد هارون الخلافة دعا بيحيى بن خالد، وكان يخاطبه بالأبوة، وعلى ذلك أجراه في خلافته، وقال له: يا أبت[4] أنت[5] أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من رأيت، وأسقط من رأيت، فإني غير ناظر في شيء معك[6].

وكان يحيى والفضل وجعفر ينظرون في أمور المسلمين وحوائجهم، لا يحجب أحدٌ عنهم، ولا يلقى لهم ستر، يجلسون في كل يوم لا يركبون فيه جلوساً عاماً إلى انتصاف النهار[7].

وفي هارون ويحيى يقول إبراهيم الموصلي[8]: [الطويل]

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة	فلما ولي هارون أسفر نورها
بيمن يمين الله هارون ذي الندى	فهارون واليها ويحيى وزيرها

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٧ وفيه اسم الذي كتب الكتاب للرشيد يحيى بن سليمان ووجه بالكتاب ليحيى البرمكي.

(٢) ت: الذي.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٧٨.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) ساقطة من ك.

(٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٧.

(٧) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٧.

(٨) الشعر في الطبري، تاريخ: ٨/٢٣٣، الأصفهاني، الأغاني: ٥/١٦١.

فأمر يحيى بن خالد، يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب فأنشأ الكتب إلى العمال بولاية الخليفة الرشيد، وإقرارهم على أعمالهم، فَكُتِبَ في ذلك كتب مشهورة أجادها.

وقام يحيى بالأمور، وكان يعرض على الخيزران ويورد ويصدر عن أمرها، ونظر يحيى في أمور السجون فأطلق بشراً كثيراً، واحتفر القاطول فاستخرج نهراً سماه أبا الجند، وأنفق عليه عشرين ألف ألف درهم، وأقطع سدنة الكعبة على ذلك النهر لكل رجل مائة وعشرون جريباً، وأخرج توقيعه إلى الديوان بإثبات كل من بلغ الحكم من أهل خراسان بغير أمرٍ مجددٍ[1].

وكان يحيى أول من أُمِّرَ من الوزراء، وكان أول من زاد في الكتب «وأسأله أن يُصلي على محمد عبده ورسوله ﷺ»، وأنشأ في ذلك كتاباً ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام، واختصاص نبينا ﷺ من بينهم بالتفضيل والكرامة، وإضافة اسمه ﷺ إلى اسمه عز وجل في الصلوات والأذان، وأمر الله[2] تعالى العباد بالصلاة عليه، وذكره في خطب أعيادهم ومفترض صلواتهم التي هي قوام دينهم ورؤوس أعمالهم، وأنه أحب أن يستن بما سنه الله عز وجل ورسوله ﷺ بأن يصدق بذكره في كتبه [١٨] مقروناً بحمد الله تعالى وذكره، وكان ذلك في سنة ثمانين ومائة[3].

وكان الرشيد ساخطاً على إبراهيم بن ذكوان الحراني، فأمر بحبسه وقبض أمواله، فحبسه يحيى عنده في داره وكفه عنه، ولم يزل يتلطف له إلى أن استكتبه لمحمد بن سليمان بن أبي جعفر، وكان يلي البصرة فأشخصه معه[4].

وأمرت الخيزران أن يقتل من كان يتسرع إلى خلع الرشيد ودعا إلى[5] بيعة جعفر ابن موسى الهادي، فقال يحيى: أو خير من ذلك؟ قالت: وما هو؟ قال: نرمي بهم في[6] نحور الأعداء، فإن دفعوا عن أنفسهم كان لهم في الدفع[7] عنا شغل، وإن

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٧.

(٢) ك: وأمره تعالى.

(٣) انظر الخبر مختصراً في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٧.

(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٨.

(٥) ساقطة من ت.

(٦) ساقطة من ت.

(٧) «في الدفع» ساقطة من ت.

أصابهم العدو كنت قد استرحت منهم، فأذنت له في ذلك فتخلص القوم جميعاً[١].

وفي يحيى يقول مروان بن أبي حفصة[٢] هذا: [الطويل]

إذا بلَّغتنا العيس يحيى بن خالد أخذنا بحبل اليسر وانقطع العسر
سمت نحوه الأبصار منا ودونه مفاوز تغتال البطان بها السفر
فإن تشكر النعمى التي عمنا بها فحق علينا ما بقينا له الشكر

وفيه يقول أبو قابوس عمرو بن سليم الحِيري[٣]: [البسيط]

رأيت يحيى أتمَّ الله نعمته عليه يأتي الذي لم يأته أحد
ينسى الذي كان من معروفه أبداً إلى الرجال ولا ينسى الذي يعد

وكان يحيى أحسن إلى روح بن معمر الملطي[٤] ويكنى أبا وائل حتى خُصَّ به فقال روح: [السريع]

قربني يحيى إلى نفسه وليس لي منه مكان قريب
فقلت للنفس صِلي شكره بالشكر لله فنعم المجيب

فلما سمعها قال: والله لأصلنَّ برك كما وصل بي شكرك، ثم أضعف ما كان يجزيه عليه.

وكان يحيى يقول لولده: لابد لكم من كُتَّابٍ وعمالٍ وأعوانٍ، فاستعينوا بالأشراف، وإياكم وسفلة الناس، فإن النعمة على الأشراف أبقى وهم بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهر، والشكر منهم أكثر[٥].

وكان ليحيى ابن يقال له إبراهيم، وكان جميلاً، وكان يقال له لجماله دينار آل برمك، فتوفي وسنه تسع عشرة سنة، ويحيى غائب في بعض أسفاره فصلى عليه عبد الصمد بن علي، ووجد عليه يحيى فاغتم به، فقال [١٩] أبو المنذر

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٨.
(٢) مروان بن أبي حفصة، الديوان: ٦١.
(٣) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٩.
(٤) ت: المطلي.
(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٧٩.

العروضي يرثيه[1]: [الخفيف]

ما ترى حاملوه حين أقلوا	نعشه للثواء[2] أو للقاء
فليقل فيك باكياتك	ما شئن صباحاً وعند كل مساءِ
لا يُعنفَّن في المقال ولكن	مُسْعِدَاتٍ بذاك غير خَفاء
كل حي رهن المنون ولكن	ليس من مات منهم بسواء

وكان يحيى أحضر مؤدب ابنه هذا، ومن كان ضم إليه من كتابه وأصحابه، فقال لهم: ما حال إبراهيم؟ قالوا: قد بلغ من الأدب كذا ونظر في كذا، قال: ليس عن هذا سألت، قالوا: فقد اتخذنا له من الضياع كذا، وبلغت غلته كذا، قال: ولا عن هذا سألت، هل اتخذتم له في عنق[3] الرجال مننا أو حببتموه إلى الناس؟ قالوا: لا، فقال: فبئس العشراء والأصحاب أنتم، وهو إلى هذا أحوج منه إلى ما فعلتم، وتقدم بحمل خمسمائة ألف درهم وأمر بتفريقها عنه[4].

وفي ذلك يقول سلم الخاسر من قصيدة[5]: [مجزوء الكامل]

وفتى خلا من ماله	ومن المروءة غير خالِ
أعطاك قبل سؤاله	فكفاك مكروه السؤال

وكتب خالد بن يحيى المتولي على أذربيجان إلى يحيى بن خالد بن برمك: أما بعد، فإن فيها[6] حقوقاً قد منعت وأموالاً قد تحيفت، فإن رسمت تتبع ذلك وكشفه بلغ ما يوفي على خراجها، فلما وقف يحيى بن برمك على الرقعة كتب في ظاهرها: وقفنا على هذه الرقعة المذمومة، وسوق السفاه عندنا بحمد الله كاسدة، وألسنتهم لدينا معقولة، وما بعثناك إلى الناحية لتجبي العظام النخرة، ولا لتتبع الآثار المذمومة، فخذ الناس على قانونهم، وطالبهم بما في ديوانك، ودع التكشف والتتبع، فهذه مدة تمضي

---

(١) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٨٠.

(٢) ت: للثرى.

(٣) «فقد اتخذنا له ... عنق» ساقطة من ت.

(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٨٠.

(٥) الشعر في الجاحظ، البيان: ٣/ ٢١١ ـ ٢١٢.

(٦) ت: فما.

وأيام تنقضي فإما ذكر جميل أو حزن طويل، وجنبني وتجنب قول جرير[١]: [الوافر]

وكنت إذا نزلت[٢] بدار قوم رَحَلْتَ بخزية وتركت عارا

[٢٠] وعن إسحاق بن إبراهيم الموصلي عن أبيه قال: كتب إليّ وكيلي أن الضيعة الفلانية وكانت تجاور ضيعتي قد انقطع أمرها على[٣] أربعة آلاف دينار، وقد سألت صاحبها الإنظار عليَّ إلى ورود جواب كتابي، فإن أنت وجهت المال وإلَّا خرجت الضيعة عن يدك[٤]، وورد عليَّ الكتاب في الليلة التي صبيحتها نوبتي في بيتي، وكانت نوبة يحيى بن خالد في بيته، إلَّا أنه كانت عادتي ألا أبرح في ذلك اليوم من بيتي فورد عليَّ ما أسهرني لأن المال لم يكن عندي، ولم أكن أقدر على احتياله في ذلك الوقت القريب، فضربت الأمر ظهراً لبطن، فلم أجد غير يحيى بن خالد فبكرت إليه فاستأذن لي الحاجب، فدخلت وفي يده المسواك، فلما رآني سُرَّ وابتهج، وقال: أحسنت والله أحسنت اليوم نوبتي ونوبتك، فنأخذ في أمرنا، ولا يدخل معنا غيرنا، فقلت له: يا سيدي الحمد لله الذي وفقني لمحبتك، ولكني والله بكرت لغير ذلك، قال: وما هو؟ قلت: كتب إليَّ وكيلي البارحة بكذا وكذا ووالله لا أقدر على المال، ولم أجد من أفزع إليه غيرك، فبكرت أسألك استسلافه لي من بعض المعاملين ليرده من تحت يدك من رزقي، قال: دعنا الآن من هذا[٥]، وهات يا غلام ما حضر فجيء بالطعام وأكلنا، وأنا كأني آكل لحمي، ثم رفع وجيء بالشراب، وأنا في فكري، فلما كان وقت العصر[٦] وقد أيست، وعلمت أن الحيلة فاتت وأني أحتاج أن أحضر غَداً الدار، قال: يا إبراهيم عندك صبيَّة تغني؟، قلت: لا والله يا سيدي، قال: ولا لبعض الجواري والأهل؟ فقلت: لا، ثم ذكرت صبية لبعض أمهات أولادي ما وضعت يدها على العود إلَّا أنها مطبوعة، ولها حُلَيق، فقلت: صبية ريِّض[٧] وليست بشيء، قال: لا

---

(١) جرير، الديوان بشرح محمد بن حبيب: ٢/ ٨٨٧.

(٢) الديوان: حللت.

(٣) ت: عن.

(٤) ت: وإلاَّ خرجت المال عنك.

(٥) تضيف ت بعدها: ودع.

(٦) «وأكلنا ... العصر» ساقطة من ك.

(٧) الريض من الأمر: ما لم يحكم تدبيره. انظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٥٧٩ مادة روض.

تبالِ هو ذا يُبَكِّرُ إليك من يطلبها منك، وإياك أن تقصر من مائة ألف دينار، قال: قلت: يا سيدي، إنما قيمتها[١] مئتا[٢] دينار، قال: لو أنها تساوي[٣] درهماً لا تنقصها من مائة ألف دينار، وإياك أن تنقص من ذلك شيئاً، قال: فقلت في نفسي هذا رجل قد غلب عليه النبيذ، ولم يكن لحاجتي عنده موضع فهو يسخر مني، فانصرفت مكروباً، وغلب عليَّ السهر إلى وقت السحر، فهوَّمت قليلاً، ثم قمت للصلاة، وقد كنت استظهرت بأن ابتعت الصبية عند منصرفي من مولاتها [٢١] بمائتي دينار، وقلت للغلام[٤]: هو ذا أنا أنام فكل من جاء اصرفه عني إلَّا أن يجيء رجل من صفته كذا وكذا، قال: وكان يحيى وصفه لي فأنبهني، ويئست من الضيعة وأخرجتها من قلبي فما طلعت الشمس جيداً حتى أنبهني الغلام، قال: قد جاء الرجل، فأذنت له فطلب الصبية، فأخرجتها وسامني فاستمت مائة ألف دينار فاستكثر ذلك مني، وأعطاني ثلاثين ألفاً، وأنا لست أصدق ثم لم يزل يزيدني حتى بلغ خمسين ألفاً، فقلت: أحضر المال، فقال: هاهو وحمله إليَّ وتسلم الجارية فحللت من المال أربعة آلاف دينار ووجهت بها إلى الوكيل وتركته على جملته وقلت: لا بد[٥] للرجل من أن يرجع يسترده ويرد الجارية، ولكن نحصِّل ثمن الضيعة ويقع النظر فيه، وركبت إلى دار السلطان فأقمت إلى الليل وانصرفت، وسألت عن الرجل فقيل لي: لم يرجع، فحمدت الله وبت وبكرت إلى يحيى فشكرته، فلما رآني قال: هات حديثك، فحدثته، فقال: إنا لله أي شيء عملت ذهبت منك خمسون ألف دينار ثم أشار إلى الغلام بشيء، فمضى وجاء ومعه الجارية، فقال: تعرف هذه؟ قلت: نعم يا سيدي هذه التي منّ الله عز وجل بك علي بها في أمرها، فقال: خذها فهو ذا يجيئك من يطلبها فلا تنقصها من خمسين ألف دينار فأخذت بيدها، وجاءني من يطلبها فبعتها منه بثلاثين ألف دينار وعدت إلى يحيى فسألني وخبرته فلامني أيضاً فشكرته وقلت: استحييت من الله أن آخذ أكثر من هذا، فأخرج الجارية ومعها كسوة وطيب بألوف دنانير، وقال: قد تبركت لك بها فاتخذها[٦]

---

(١) ك: تتمتها.

(٢) ت: مائة.

(٣) ت: تسوا.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) ساقطة من ت.

(٦) ت: فالآن خذها

لنفسك ففعلت، فهي والله أم طياب ابني، قال: فقلت له: ما قصة هؤلاء مع هذه الجارية؟ فقال: ويحك: أما الأول فخليفة صاحب مصر وهو مقيم على بابي منذ سنة يسألني مسألته حاجة بمائة ألف دينار، وأنا لا أسأله، فلما شكوت إليَّ ما شكوت، فقلت له: صبية عند إبراهيم فاشترها لي ولو ثبتَّ على مائة ألف لوزنها لك ولكنك ضيعت، وأمَّا الثاني فخليفة صاحب فارس وقصته قصة الأول، فدعوت له وشكرته وانصرفت[١].

وعرض ليحيى رجل من أهل الشام من بني أمية، فترجل له، فرأى شيخاً وسيماً له رؤية وهيبة، فلما عاد[٢] إلى مجلسه دعا به، وسأله عن سببه ونسبه فأخبر أنه رجل من بني أمية وأن [٢٢] مسألته التي إليها يقصد وصوله إلى أمير المؤمنين، فقال له يحيى: الصدق أولى بي، وأمير المؤمنين يستثقل هذا النسب، فانظر ما تلتمسه، فإن يكن مظلمة رددتها[٣]، وإن تكن صلة بذلتها[٤]، وما بين ذلك من الحوائج فغير معتذرٍ إليك في شيء منها، فقال: الذي سألت ما سمعت أيها الوزير وإني[٥] لأعلم أنكم يا آل برمك معادن الخير، فإن سهل أن تذكرني له فعلت. وإن رد فقد قضيت أيها الوزير ما عليك، وأوجبت عليَّ شكرك أخرى الليالي الغوابر، فذكره يحيى للرشيد، وخبّره بما دار بينهما، فأمره بإيصاله إليه، فلما وقعت عين الأموي عليه استأذن في الكلام، فأذن له فتكلم وأحسن وأبلغ، ثم أنشد يقول[٦]: [الرمل]

يا أمين الله إني قائل ... قول ذي رأي ودين وحسب
لكم الفضل علينا ولنا ... بكم الفضل على كل العرب
عبدشمس كان يتلو هاشماً ... وهما بعد لأم ولأب
فصلوا الأرحام منا إنما ... عبدشمس [عم][٧] عبدالمطلب

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٨٠ ـ ١٨٣.

(٢) ت: اعاه

(٣) ك: دونها.

(٤) ك: بذلنا لها.

(٥) ك: وأنا.

(٦) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٨٨.

(٧) ساقطة من ت، ك والإضافة من الجهشياري.

فأحسن الرد عليه، وأسنى صلته، ووصله يحيى أيضاً، وأجرى له رزقاً في بلده ورده إليه[١].

وظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن[٢] بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه بالديلم، وقوي أمره، فشق على الرشيد ذلك، واهتم به هماً شديداً، فاستشار يحيى بن خالد، فأشار بتجهيز ابنه الفضل، فأنهض إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف وأنهض معه وجوه[٣] القواد، وولاه كور الجبل في سنة ست وسبعين ومائة ففيه يقول أبو قابوس الحيري[٤]: [الطويل]

رأى الله تفضيل ابن يحيى بن خالد ... ففضله والله بالناس أعلم
له يوم بُؤسٍ فيه للناس أبْؤُسٌ ... ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيمطر يوم الجود من كفه الغنى ... ويمطر يوم البؤس من كفه الدم

فجعل الفضل محمد بن منصور بن زياد خليفته بباب الرشيد، ومضى نحو الديلم، وواصل كتبه إلى يحيى بن عبد الله ورسله، بالرفق والاستمالة، والتحذير والترغيب والترهيب، وبسط [٢٣] الأمل إلى أن أجاب يحيى إلى الصلح، والخروج على أمان أخذه له بخط الرشيد، أنفذ نسخته إلى الفضل وكتب[٥] بذلك إلى الرشيد، فسره وحسن موقعه منه، وكتب الأمان ليحيى، وأشهد على نفسه القضاة والعدول، فأنفذه إلى الفضل، وقدم عليه يحيى بن عبدالله، فقدم به إلى الرشيد معه، فلقيه بكل ما أحب، وأسنى جائزته، وأكبر برَّهُ وعطاءه، وأنزله منزلاً سريّاً، وبر للفضل بن يحيى وشكر فعله في ذلك[٦].

وفيه يقول مروان بن أبي حفصة[٧]: [الطويل]

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٨٧.

(٢) في ت، ك: الحسين، والصواب ما أثبت والخطأ نفسه ارتكبه الجهشياري في الوزراء والكتاب والعمري ينقل عنه، فلهذا وقع في الخطأ معه.

(٣) ت: وجود.

(٤) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩٠.

(٥) ت: يكتب.

(٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٧) مروان بن أبي حفصة، الديوان: ٣٠.

ظفرت فلا شُلت يدٌ برمكية رتقتَ بها الفتق الذي بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة من المجد باقٍ ذكرها في المواسم
وما زال قِدْح المجد يخرج فائزاً لكم كلما ضُمَّتْ قداحُ المُساهم

وفيه يقول أبو ثمامة[1] الخطيب: [الطويل]

سعى الناس في[2] إصلاح ما بين هاشم فأعياهم الرتق الذي رتق الفضل
كأنَّ بني العباس في ذات بينهم وآل علي لم يكن بينهم ذحل

١٥ ـ الفضل بن يحيى[3]:

وكان هو الجواد السمح، الملآن الجواد بالمنح، الذي يتستر الغيث منه خجلاً بغمامه، ويتطاول النجد ليعد من فيض إنعامه، مع فرط تيهٍ وتكبر على ما يأتيه.

وفيه يقول مروان بن أبي حفصة[4]: [الطويل]

ألم تر أنَّ الفضل من كف آدم تحدر حتى صار في راحة الفضل
إذا ما أبو العباس راحت سماؤه فيالك من هطل ويالك من وبل

وقال فيه أيضاً[5]:

إذا أم طفلٍ[6] راعها جوع طفلها غذته بذكر الفضل فاستطعم الطفل
ليحيا بك الإسلام إنك عزُّهُ وإنك من قومٍ صغيرهم كهل

فوصله بمائة ألف درهم وحمَّله وكساه، ووهب له جارية يقال لها طيفور كاسية جالية، فقيل إنه حصل له سبعمائة ألف درهم ما بين ورق وعروض[7].

---

(١) ك: ايمانه.
(٢) ساقطة من ك.
(٣) خليفة، التاريخ: ٤٥٥، اليعقوبي، تاريخ: ٢/٤٠٧، ابن قتيبة، المعارف: ٣٨١، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/٢٧.
(٤) مروان بن أبي حفصة، الديوان: ٤٠.
(٥) مروان بن أبي حفصة، الديوان: ٤٣.
(٦) ت: فضل.
(٧) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩٠.

ومدح أبو نواس الفضل بن يحيى في عدة قصائد طوال أجاد فيها، فمنها التي أولها[1]: [الطويل]

أَربعِ البِلى إنّ الخشوعَ لبادِ ... عليك وإنّي لم أخنك ودادي

وفيها يقول: [الطويل]

رأيت لفضلٍ في السماحة بدعة[2] ... أطالت لعمري غيظ كل جواد

ترى الناس أفواجاً إلى باب داره ... كأنهم رَجْلا دبًى وجراد[3]

فيومٌ لإلحاق الفقير بذي الغنى ... ويوم رقاب بوكرت لِحصاد

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم ... بني برمك من رائحين وغاد

بتدبير يحيى[4] أشرقت سبل الهدى ... وأمّن ربي خوف كل بلاد

ومنها قصيدة أوائلها[5]: [الطويل]

سأشكو[6] إلى الفضل بن يحيى بن خالد ... هواك لعل الفضل يجمع بيننا

وللفضل صولات على صلب ماله[7] ... ترى المال منها للمكارم مذعنا

وللفضل أخرى مقدماً من صوارمٍ ... إذا لبس الدرع الحصينة واكتنى

نفرنا فلم نخط البرامك معدناً ... من الجود إذ لم نلق للجود معدنا

وفيه يقول إبراهيم بن إسحاق الموصلي[8]: [البسيط]

لو كان بيني وبين الفضل معرفة ... فضل بن يحيى لأعداني على الزمن

هو الفتى الماجد الميمون طائره ... والمشتري الحمد بالغالي من الثمن

---

(١) في عدة ... أولها «ساقطة من ك، والقصيدة في ديوان أبي نواس: ٢٢٠.

(٢) الديوان: همة.

(٣) الرجل: القطعة من الشيء، الدبى: اصفر الجراد. انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٩٠٥، ١١٤ مادة دبا، رجل.

(٤) الديوان: بفضل بن يحيى

(٥) أبو نواس، الديوان: ٥٥٢ دون البيت الأخير، فليس في الديوان.

(٦) في الأصول: سأسلو والتصحيح من الديوان.

(٧) ت: صالب ما.

(٨) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩١.

ولما وصل الفضل إلى خراسان حين ولاه الرشيد أمرها بسط بساط العدل، وأزال سيرة الجور، وبنى الحياض والمساجد والرباطات، وأحرق دفاتر البواقي، وزاد الجند عشرينيات والقواد خمسينيات، ووصل الزوار والقواد والكُتَّاب بعشرة آلاف درهم[1]، وأمر بهدم بيت النوبهار، فلم يقدر على هدمه لشد وثاقته وعظم المؤونة فيه[2]، فهدم قطعة وبنى فيها مسجداً واستخلف عمرو بن جميل [٢٥] على خراسان، ثم انصرف إلى العراق، فتلقاه الرشيد ببستان أبي جعفر، وأمر الشعراء بمدحه، والخطباء بذكر فضله، وكان قد شخص مع الفضل إبراهيم بن جبريل على شرطته[3]، فوجهه إلى كابل ففتحها، وأفاد مالاً عظيماً، ثم ولاه سجستان ووصل إليه تسعة آلاف ألف درهم، وحصل في يده من خراجها أربعة آلاف ألف درهم، فلما انصرف الفضل إلى العراق ولحق به إبراهيم بن جبريل وبنى داره، وسأل الفضل أن يزوره ليريه نعمته عليه، وأحضر المال، فلما قعد الفضل عرض عليه تحفاً كثيرة، وهدايا جليلة، وذكر له حال المال، فأبى أن يقبل منه شيئاً، وقال له: لم آتك لأسلبك النعمة، فقال له: أيها الوزير نعمتك عليَّ ظاهرة، فقال له: ولك عندي مزيد، ولم يزل يسأله أن يكرمه بقبول شيء منه، فقبل سوطاً سجزياً وقال: هذا يصلح للفرسان، فذكر له أمر المال، فقال له: أما لك بيت يسعه؟ ثم خلاه وانصرف[4].

وكان أبو الهول الحميري هجا الفضل بن يحيى، ثم أتاه راغباً فيما بعد إليه، فقال له الفضل: بأي وجه[5] تلقاني؟ فقال: بالوجه الذي ألقى الله عز وجل به وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك، فضحك ووصله[6].

وذكر محمد[7] بن الحسن بن مصعب: أن الفضل بن يحيى، لما صار إلى خراسان، فرق فيهم أموالاً، وأخذ البيعة بالعهد لمحمد بن الرشيد وسماه الأمين، فبايع

---

(١) ك: عشرة آلاف ألف.

(٢) ك: عليه.

(٣) ك: شرطه.

(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩١ ـ ١٩٢.

(٥) ساقطة من ت.

(٦) الجهشياري: الوزراء والكتاب: ١٩٣.

(٧) ك: الشيع بن الحسن.

له الناس[1]. في ذلك يقول فيه منصور النمري: [البسيط]

أمست بمرو على التوفيق قد صفقت   على يد الفضل أيدي العجم والعرب
ببيعة لولي العهد أحكمها   بالنصح منه وبالإشفاق للرتب
وقد وكد الفضل عهداً لا انتقاض له   لمصطفى من ذوي العباس منتخب

فأجازه بثلاثمائة ألف درهم، وكان الفضل بن يحيى لا يشرب النبيذ ويقول: لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي ما ذقته أبدا[2].

وقد حكى عبد الملك بن مروان مثل هذا الكلام في مصعب بن الزبير لأنه وصفه وفضله، وقال في كلامه: كانت عنده عقيلتا قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة [٢٦]، ثم هو أكثر الناس مالاً، جعلت له الأمان، وضمنت له أن أُوليه العراق، وقد علم أني سأفي له لصداقة كانت بيني وبينه، فأبى وحمى أنفاً، وقاتل حتى قتل، فقال له بعض من حضره: إنه كان يصيب الشراب، فقال: ذاك قبل أن يطلب المروءة فأما مذ طلبها فلو ظن أن الماء ينقص من مروءته ما ذاقه[3].

وركب الفضل بن يحيى يوماً من منزله بالخلد يريد منزله بباب الشماسية، فتلقاه فتىً من الأَبناء مُمْلك[4] ومعه جماعة من الناس ركبان قد تحملوا لإِمْلاكه، فلما رآه الفتى نزل وقبل يديه، ولم يكن[5] يعرفه فسأل عنه فعرف به، فسأل عن مبلغ الصداق فعرف أنه أربعة آلاف درهم، فقال الفضل لقهرمانه[6]: أعطه أربعة آلاف درهم ثمن منزل ينزله، وأربعة آلاف درهم للنفقة على وليمته[7]، وأربعة آلاف درهم يستعين بها على العقد الذي عقده على نفسه[8].

وكان محمد بن إبراهيم الإمام قد ركبه دين، فركب إلى الفضل بن يحيى ومعه

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩٣
(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ١٩٤.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف (زكار): ٧/ ١٠٠.
(٤) الإملاك: الزواج. انظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٨٥٩، مادة ملك.
(٥) ساقطة من ت.
(٦) ت: لقطهمانه.
(٧) «أربعة آلاف ثمن منزل ... وليمته» ساقطة من ك.
(٨) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩٥.

حُقٌّ فيه جوهر، وقال: قصرت بنا غلاتنا، وأغفل أمرنا خليفتنا، وتزايدت مؤونتنا، ولزمنا دين احتجنا لأدائه ألف ألف درهم، وكرهت بذل وجهي للناس وإذالة عرضي بينهم، وذلك من يعطيك منهم، ومعي رهن ثقة بذلك(١)، فإن رأيت أن تأمر بعضهم بقبضه وحمل المال إلينا، فدعا الفضل بالحُقّ، فرأى ما فيه وختمه بخاتم محمد بن إبراهيم الإمام، ثم قال: نجح الحاجة أن تقيم في منزلك عندنا اليوم، فقال له: إن في المقام عليَّ شقة(٢)، فقال: وما يشق عليك من ذلك، إن رأيت أن تلبس شيئاً من ثيابنا دعوت به، وإلَّا أمرت بإحضار ثياب من منزلك، فأقام ونهض الفضل فدعا بوكيله، وأمره بحمل المال وتسليمه إلى خادم محمد بن إبراهيم، وتسليم الحُق الذي فيه الجوهر إليه بخاتمه، وأخذ خطه بذلك ففعل الوكيل ذلك، وأقام محمد عنده إلى المغرب، وليس عنده شيء من الخبر، ثم انصرف إلى منزله فرأى المال، وأحضره الخادم الحُق فغدا على الفضل ليشكره، فوجده قد سبقه في الركوب إلى دار الرشيد، فوقف منتظراً له، فقيل له: قد خرج من الباب الآخر، فاتبعه فوجده قد دخل دار أبيه، فوقف ينتظره، فقيل له: خرج من الباب الآخر قاصداً منزله، فانصرف عنه، فلما وصل إلى منزله أنفذ إليه [٢٧] الفضل ألف ألف درهم، فغدا عليه فشكره، وأطال، فأعلمه أنه بات ليلته وقد طالت عليه غماً بما شكاه إلى أن لقي الرشيد فأعلمه حاله، فأمره بالتقدير له ولم يزل يماكسه حتى تقرر الحال(٣) معه على ألف ألف درهم وأنه ذكر أنه لم يصلك بمثلها قط، ولا زادك عن عشرين ألف درهم فشكرته وسألته أن يصل بها صكاكاً بخطه، ويجعلني الرسول، فقال له محمد: صدق أمير المؤمنين إنه لم يصلني قط بأكثر من عشرين ألف دينار(٤) وهذا إنما تهيأ بك، ولك، وعلى يدك، وما أقدر على شيء أقضي به حقك ولا شكراً أوازي به معروفك، غير أن علي وعلي أيماناً مؤكدةً إن وقفت بباب أحد سواك أبداً، ولا سألت غيرك حاجة أبداً، ولو استفيت التراب، فكان بعد ذلك لا يركب إلى غير الفضل إلى أن حدث من أمرهم ما حدث، فصار لا يركب إلى غير دار الخليفة، ويعود إلى منزله، فعوتب بعد تقضي أيامهم في

(١) «للناس وإذالة ... بذلك» ساقطة من ك.
(٢) ك: إف في اليوم على شقة.
(٣) ك: الأمر.
(٤) ت: دينا.

إتيان الفضل بن الربيع، فقال: والله لو عمرت ألف عام ثم مصصت الثماد ما وقفت بباب أحد بعد الفضل بن يحيى، ولا سألت أحداً بعده حاجة حتى ألقى الله تعالى، فلم يزل على ذلك إلى أن مات[١].

قال عبد الله بن ياسين، حدثني أبي، قال: كنا عند الفضل بن يحيى، فخضنا في الشعر، فإذا هو أَروى الناس له، وأجودهم طبعاً فيه، فقلت له: أصلحك الله لو قلت شيئاً من الشعر فإنه يزيد في الذكر وينبه، قال: هيهات، شيطان الشعر أخبث من أن أُسلطه على عقلي[٢].

قال أبو النجم القائد أحد الدعاة: قلت لإبراهيم الموصلي: صف لي ولد يحيى، فقال لي: أما الفضل فيرضيك بفعله، وأما جعفر فيرضيك بقوله، وأما محمد فيفعل دون ما يجد، وأما موسى فيفعل بحسب ما يجد وأمّا محمد[٣] فيفعل ما لا يجد[٤].

وكان يكتب ليحيى بن خالد، عبد الله بن سِوَار بن ميمون، فقال: فدعاني يحيى يوماً، فقال: اجلس فاكتب، فقلت: ليس معي دواة، فقال: رأيت صاحب صناعة تفارقه آلته[٥] وأغلظ في حرف أراد به حضي على الأدب، ثم دعا بدواة فكتبت بين يديه كتاباً إلى الفضل في شيء من أموره، فظن أني متثاقل عن الكتابة بسبب تلك المخاطبة وأراد إزالة ذلك، فقال لي: عليك دين؟ قلت: نعم، قال: كم هو؟ قال: قلت: ثلاثمائة ألف درهم، فأخذ الكتاب ووقع بخطه [٢٨] شعر: [الطويل]

وكلّكُم قد نال شِبْعاً لبطنه   وشِبْع الفتى لُؤم إذا جاع صاحبه

إن عبد الله ذكر أن عليه ديناً يخرجه منه ثلاثمائة ألف درهم، فقبل أن تضع كتابي هذا من يدك فأقسمت عليك لما حملت ذلك إلى منزله من أخص مال قبلك إن شاء الله تعالى، قال: فحملها إليَّ الفضل، وما أعلم لها سبباً غير تلك الكلمة[٦].

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩٥ ـ ١٩٧.
(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩٧.
(٣) «وأما محمد» ساقطة من ت.
(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩٨.
(٥) ساقطة من ك.
(٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٩٨.

ودخل محمد بن زيدان على الفضل بن يحيى، فقال له الفضل: من الذي يقول[1]: [الطويل]

سأرسِلُ بيتاً قد وسمت جبينه ... يُقَطِّعُ أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والجود في كل منزل[2] ... أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

فقال: سلم الخاسر، فقال: لا تسمِّه خاسراً، وسمّه سلم الرابح، وأمر له بألف دينار، ثم غلب سلم على الفضل بن يحيى وكثرت مدائحه إياه وعظم إحسان الفضل إليه[3].

وكان يحيى بن خالد يقول: الناس يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون[4].

وكان يقول: التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة، والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة[5].

ومنهم:

١٦ ـ جعفر بن يحيى[6]:

وكان الرشيد يسمي جعفراً أخي، ويدخله معه في ثوبه، وقلده بريد الآفاق، ودور الضرب والطرز في جميع الكور، وكان جعفر بليغاً كاتباً، وكان إذا وقَّعَ نُسخت توقيعاته وتدورست بلاغاته.

---

(١) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٤.

(٢) ساقطة من ك.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٤.

(٤) الخبر في ك مربك ومنقوص، جاء كما يلي: «ما يكتبون ويتحدث بأحسن ما يحفظون، بأحسن ما يحفظون»، والخبر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٠.

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٠.

(٦) خليفة، تاريخ: ٤٥٨، اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ٤١٠، ٤٢٩، ابن قتيبة، المعارف: ٣٨١، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٤، مجهول، العيون والحدائق: ٣/ ٣٠١، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/ ٣٢٨، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٥٦، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [١٨١ ـ ١٩٠]، ص٩٨، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ١/ ١٩٦.

حكى علي بن عيسى بن نرداسرود: أنه جلس للمظالم، فوقع في ألف قصة ونيفاً، ثم أخرجت ففرقت على العمال والقضاة وكتاب الدواوين فما وجد منها شيء ينكر ولا شيء يخالف الحق. قال علي: فحدثت بهذا الحديث إسحاق بن إبراهيم، فقال: حدثني عمرو بن مسعدة بهذا الحديث(١).

قال ثمامة بن أشرس: [٢٩] كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الجد والهزل، والجزالة والحلاوة، وإنهاء ما يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة(٢).

وقال ثمامة(٣): ما رأيت أحداً قط كان لا يتحبس، ولا يتوقف، ولا يتلجلج، ولا يرتقب لفظاً استدعاه من تعذير، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعاصى عليه بعد طلب إلَّا جعفر بن يحيى.

وفيه تقول عَنان جارية الناطفي(٤): [الوافر]

بديهته وفكرته سواء ... إذا الْتَبَسَتْ على الناس الأمور
وصدرٌ فيه للهمِّ اتساع ... إذا ضاقت من الهمِّ الصدور
وأحزم ما يكون الدهر رأياً ... إذا عجز المشاور والمشِيرُ

وقد ذكر حمدون النديم لجعفر بن يحيى شعراً، وأنشدت منه بيتين لم يقع إليَّ غيرهما وما فيهما طائل: [البسيط]

نزفت دمعي فإن كان الفراق غداً ... فكيف أبكي ودمع العين منزوف
واسوأتا من عيون العاشقين إذا ... دخلت [. . .] ودمع العين مذروف

قال ثمامة: قلت لجعفر: ما البيان(٥)؟ فقال: أن يكون الكلام مُحيطاً بمعناك، مُجَلِّياً عن مغزاك، مخرجاً من الشركة، غير مستعان عليه بالفكرة(٦).

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٤.
(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٤.
(٣) ت: تهامة.
(٤) الشعر في الوزراء والكتاب للجهشياري: ٢٠٤.
(٥) «ما البيان» ساقطة من ك.
(٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠١.

ووقع جعفر بن يحيى على رقعة لعمرو بن مسعدة[1]: إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عَيًّا[2].

ورفع رجل رقعة إلى جعفر ذكر فيها قصده إياه بأملٍ طويل، ورجاء فسيح، فوقع على ظهرها: هذا يمت بحرمة الأمل، وهي أقرب الوسائل، وأثبت الوصائل، فليعجل له من ثمرة ذلك عشرون ألف درهم، وليُمتحن ببعض الكفاية، فإن وجدت عنده فقد ضم إلى حقه حقاً، وإلى حرمته حرمة، وإن قصر عن ذلك فعلينا مُعوّله، وإلينا موئله، وفي مالنا سَعةٌ له[3].

ووقع إلى عامل له يأمره باليقظة والحذر: كُنْ مني على مثل ليلة البيات.

ووقع في رقعة لأهل فارس، وقد رفعوا يشكون جور عاملهم[4] [٣٠]: [الطويل]

ضمنت لكم إن لم تعقني عوائق ... بأن سماء الجور عنكم ستقلع

ورفع[5] رجل إلى جعفر بن يحيى يسأله الاستعانة، وكان يعرفه ويخبره، فوقع على ظهر رقعته: [الرمل]

قد رأيناك فما أعجبتنا ... وبلوناك فلم نرض الخبر[6]

وكان جعفر بن يحيى يقول: الخط سمط الحكمة، به تُفَصَّل شذورها، وينظم منثورها[7].

ووقع على كتاب لعلي بن موسى بن ماهان[8]، وقد كتب إليه معتذراً من أشياء بلغته عنه: [الطويل]

---

(١) ك: لعمرو بن عبدالعزيز بن مسعدة.

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٤.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ٢٠٥.

(٤) البيت ينسب للخليفة الأموي الوليد بن يزيد. انظر حسين عطوان، شعر الوليد بن يزيد: ٧٦، والرواية في شعره هكذا:

ضمنت لكم إن لم تصابوا بمهجتي ... بأن سماء الضر عنكم ستقلع

(٥) ت: ووقع.

(٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٥.

(٧) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٥.

(٨) في ت، ك: هامان والصواب ما أثبت.

كأنّا وقد كنا صديقاً مؤانساً تباعد بَيْنَنَا فَدَامَ إلى الحشر[1]

وقد وقع في[2] كتاب آخر لعلي بن عيسى: حبب الله إليك الوفاء الذي أبغضته، وبَغَّض إليك الغدر الذي أحببته، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها، وقد رأيت غدراتها ووقعاتها عياناً وإخباراً والسلام[3].

ووقع على رقعة لمحبوس: العدوان أوبقه[4]، والتوبة تطلقه[5].

وكان الأصمعي يألف جعفر بن يحيى، ويأنس به، ويختص بقربه، وله فيه مدائح كثيره، وحكايات توصف، وتقريظ وتفضيل، فمن شعره[6] فيه: [المتقارب]

إذا قيل من للنَّدى والعُلى في الناس؟ قيل الفتى جعفر
وما إنْ مدحت فتىً مثله ولكن بنو برمكٍ جوهر

وقال جعفر يوماً لخادمه: خذ معنا ألف دينار، فإني أُريد أن أمر بالأصمعي وأنزل عنده، فإذا حدثني وأضحكني فضع الكيس في حجره، ثم صار إليه ومعه أنس بن أبي منيح، فحدثه الأصمعي بكل شيء، فلم يضحك وانصرف، فقال له أنس بن أبي منيح: إنه قد أضحكك بجهده فلم تضحك، وليس من عادتك رد شيء قد أمرت[7] بإخراجه من بيت مالك، فقال له جعفر: ويلك قد وصلنا هذا الرجل بخمسمائة ألف درهم، ولم أدخل له بيتاً قبل هذا الدفعة، ورأيت جبة مكسوراً وعليه تركان متجرد تحته مصلى وسخ، وكل ما عنده رث، وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق عن لسانه، وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه فعلام أُعطيه الأموال إن لم تظهر الصنيعة عنده، ولم تنطق النعمة بالشكر عنه؟ ثم أنشد بيتاً لنصيب: [الطويل]

فَعاجُوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٥.
(٢) ك: على.
(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٥.
(٤) ت: انقه.
(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٥.
(٦) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٦.
(٧) ت: أمرتك.

وكأن جعفراً نظر ما بعد، فإنْ الأصمعي قد هجا البرامكة فيما بعد، وكفر نعمتهم، وقال عند نكبتهم[١]: [المتقارب]

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك[٢]

ورد الرشيد إلى هرثمة بن أعين الحرس، وكان إلى جعفر بن يحيى، فقال له جعفر: ما انتقلت عني نعمة صارت إليك[٣].

وقلد الرشيد جعفراً إلى ما كان يتقلده من الدواوين[٤]، التوقيع والسر، الجزيرة والشام. وأمره أن يتخذ خيلاً يجريها في الحلبة، فأجرى جعفر يوماً خيله بالرقة، فسبقت[٥] خيل الرشيد، فغضب الرشيد، فقال العباس بن محمد الهاشمي لجعفر: يا أبا الفضل ما أحسن الشكر وأدعاه إلى المزيد، من أين لك هذا الفرس السابق؟ فقال له: إنه من خيلك، فقال له: والله لأُرضينك، ثم أقبل على الرشيد، فقال: كنت يا أمير المؤمنين مع أبي العباس السفاح، ونحن في الميدان، وقد أرسلت الخيل فبينا نحن[٦] ننظر إذ طلع فرس سابق قد غطاه القتام، فما ترى علامته، فقال عيسى بن علي: لي، وقال غيره: لي، ثم طلع آخر على تلك الصفة[٧]، ثم طلع آخر على تلك الصفة، فنظروا فإذا هي لخالد بن برمك، وقد أخذ قصبات السبق، فقال خالد: مر يا أمير المؤمنين بقبضها، فقال له: هي لنا عندك، فإنك عدة من عددنا، فسرِّي عن الرشيد، وزال الغضب عنه[٨].

ثم استخلف الرشيد جعفراً بالرقة، وخرج مجاوراً فاعتمر عمرة شهر رمضان، وأقام بالحرم حتى حج وانصرف على طريق البصرة، وخرج منها إلى الجزيرة يريد

---

(١) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٦.
(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٧.
(٤) ت: الداوين.
(٥) ساقطة من ك.
(٦) ساقطة من ك.
(٧) ت: العقبة.
(٨) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

الرقة، ثم هاجت بالشام عصبية في سنة ثمانين ومائة، فقال الرشيد لجعفر: إمَّا أن تخرج أنت إليها، وإمَّا أن أخرج أنا إليها، فشخص جعفر من الرقة يريد الشام فشيعه الرشيد، وخرج معه جميع من بحضرته من الإخوة والأشراف، وفيهم عبدالملك بن صالح، فلما ودعه عبدالملك، قال له جعفر: اذكر حاجتك؟ قال له: حاجتي أعزك الله أن تكون كما قال الشاعر: [الطويل]

وكوني على الواشينَ لَدَّاء شَغْبَة ... كما أنا لِلوَاشي أَلدُّ شغوب

فقال له جعفر: بل أكون كما قال الآخر: [الرمل]

وإذا الواشي أتى يسعى بها ... نفع الواشي بما جاء يضرّ[1]

فقال منصور النمري في ذلك قصيدة اخترت منها أبياتاً وهي[2]: [الطويل]

لقد أُوقِدَت بالشام نيران فتنةٍ ... فهذا أَوانُ الشامِ تخمد نارها

إذا جاشَ مَوجُ البحر من آل برمكٍ ... عليها خبت شُهبانها ونهارها[3]

رماها أميرُ المؤمنين بجعفرٍ ... وفيه تَلافَى صَدْعها وانجبارُها

رماها بميمون النَّقيبة ماجد ... تراضى به قحطانها ونزارها

وفيه يقول:

إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ... بليات[4] خطب لم يرعه كبارها

لقد نَشَأت بالشام منك غمامةٌ ... يُؤمَّلُ جدواها ويخشى دمارها

فطوبى لأهل الشام يا ويل أُمها ... أتاها حياها أو أتاها بوارها

غدا بنجوم السَّعد من حلَّ رَحلَهُ ... إليك وعزَّت عصبة أنت جارها

فإن سالموا كانت غمامة نائل ... وغيث وإلَّا فالدماء قطارها

ثم صار جعفر إلى الشام. فأصلحها، وظفر بجماعة ممن سعى بالفساد، وشرد آخرين حتى استقامت أمورها، وله خطبة خطبها ذكرتها من بين كلامه لسدادها وهي:

---

(١) الطبري، تاريخ: ٨/ ٢٦٢، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٨.
(٢) الأبيات في الطبري، تاريخ: ٨/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣.
(٣) في الطبري: وشرارها.
(٤) في الطبري: ملمات.

الحمد لله الذي لم يمنعه غناه عن الخلق من العائدة عليهم، ولم تمنعه إساءتهم من الرحمة لهم والرأفة بهم، دعاهم من طاعته بما ينجيهم، وذَادهم عن معصيته عمَّا يُرديهم، كَلَّفهم من العمل دون طاقتهم، وأعطاهم من النعم فوق كفايتهم، فهم فيما حُمِّلوا مُخَفَّف عنهم، وفيما خُوِّلوا[1] موسع عليهم، وصلى الله على سيدنا محمد نبي الرحمة والمبعوث إلى كافة الأمة وسلم تسليماً، أما بعد:

أيها الناس، فإني أُوصيكم بالألفة، وأحذركم الفرقة، وآمركم بالاجتماع، وأنهاكم عن الاختلاف قال الله عز وجل ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[2] فأمر بالجماعة في أول الآية ثم لم ينقض حتى نهى عن الفرقة توكيداً للحجة وقطعاً للمعذرة، إن الفرقة تُنشئ بينكم إِحَناً يطلب بها بعضكم بعضاً، [٣٣] وإن الجماعة تعقد بينكم ذمماً، يحمي بها بعضكم بعضاً، حتى تكون المكاثرة لواحدكم كالمكاثرة لجماعتكم، فمتى طمع عدو فيكم إذا كانت النائبة تعمكم؟ إنْ غفل بعضكم حرسه بقيتكم، وإن غربَت طائفة منكم منعها تألُّفكم، إنه لم يجتمع ضعفاء قط إلا قَووا حتى يمتنعوا، ولم يتفرق أقوياء قط إلَّا ضعفوا حتى يخضعوا، واجتماع الضعيفين قوة تدفع عنها، وافتراق القَويين مهانة يتمكن منها، غافل الجماعة لا تضره غفلته لكثرة من يحفظه، ومتيقظ الفرقة لا ينفعه تيقظه لكثرة من يطلبه، وصاحب الجماعة يدرك أربه من الحرش والهر، وصاحب الفرقة[3] يذهب حقه في النفس والحُرْمة[4].

وفي جعفر بن يحيى يقول مسلم بن الوليد في قصيدة طويلة عند انصرافه من الشام[5]: [البسيط]

اسْتَفْسَد الدَّهر أقواماً فأصلحهم ... محمل لكتاب الله محتمل[6]
كأنه قمرٌ أو ضَيْغَمٌ هَصِرٌ ... أو حَيَّةٌ ذكرٌ أو عارضٌ هطل

---

(١) ت: صلوا.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٣) ساقطة من ت.

(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٥) مسلم بن الوليد، الديوان: ٢٥٠.

(٦) في الديوان: نكبات الدهر محتمل. وفي الجهشياري مماثل لما في العمري غير أن محقق الكتاب أثبت في المتن رواية الديوان.

لا يضحك الدهر إلَّا حين تسأله وليس يعبس إلَّا حين لا يُسَلُ
سَدَّ الخليفةُ أطراف الثغور به وقد تهتك واسترخى بها الطِّوَلُ
كل البرية مُلتقٍ نحوه أملاً للرغب والرهب موصولاً به أمل
داوى فلسطين من أدوائها رجل في صورة الموت إلَّا أنه رجل
سَلَّ المنونُ عليهم من مناصِلهِ مثل الحريق[1] ترامى دونه الشُّعل
أَمَّنت بالشام أكباداً وأَفئدة قد حل مستوطناً أوكارها الوجل

حدث ميمون بن هارون قال: قال لي الحسن خالي: قال أبي: كان لجعفر بن يحيى كاتب فبلغه عنه خيانة فأراد أن يوقع به، فقلت له: أنشدك الله أن تفعل، فإنه إنْ بلغ أمير المؤمنين قال[2]: هذا ضيع أمره وماله، فكيف تراه يضبط مالي وأمري، ولكن دعه الآن ثم اعزله فيما بعد، وتتبعه في يسير، فقبل رأيي ولم يعزله في ذلك الوقت.

وقال ابن عبدوس[3] في كتاب الوزراء والكُتَّاب[4]: وجدت بخط أحمد بن إسماعيل نطاحة، حدثني يحيى بن يعقوب النصراني، قال: حدثني سعيد بن حميد، قال: لم تزل كتب الملوك والرؤساء تجري في[5] التوقيعات على أن يوقع الرئيس في القصة بما يجب فيها [٣٤]، ويذكر المعاني التي يأمر بها، ولم يكن للكتاب في ذلك الأمر شيء أكثر من أن يكتبوا تلك الجملة من التوقيع ألفاظاً تشرحها، وتقرب من العامة فهمها، ولا تخرجها عن معنى ما قصده الرئيس إلى أيام الرشيد، فإنَّ المتظلمين كثروا على باب جعفر بن يحيى وتأخر جلوسه أياماً، فبعث يحيى إليه يسأله بحياته أن يجلس لهم فجلس، وكانت القصص قد كثرت فنقص أكثرها، وجاء رسول الرشيد يأمره بالمصير إليه، فقال للرسول: قل له يا سيدي[6] الساعة أجيء، ونظر فيما بقي وجاءه رسول آخر يستحثه، فقال له: قل له: يا سيدي قد بقي بين يدي شيء يسير، فجاءه

---

(١) الديوان: العقيق.
(٢) ساقطة من ت.
(٣) ك: عبدوك.
(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١٠ ـ ٢١١، والرواية فيه من دون إسناد، وفيها نقص بالمعلومات عما هو موجود هنا.
(٥) ك: إلي.
(٦) «يا سيدي» ساقطة من ك.

رسول آخر ثالث، فقال: يقول لك: إني جائع وأنا منتظر حضورك[1] للطعام، فدع كلّ ما بين يديك وأقبل إلي وأنا منتظرك، وكان في القصص قصة طويلة دقيقة الخط، رديئة، فكان جعفر كلما وقعت عينه عليها عزلها استثقالاً لها، وقدر أن يكون نظره فيها بعد الفراغ، فوافاه[2] الرسول الثالث وهي في يده، وأعجله أن يستتمها، وكان يحتاج في فهمها إلى مدة، وكره أن يتأخر عن الرشيد، وكره وقد رئيت في يده أن يطرحها فيما لم ينظر فيه، فوقَّع على[3] ظهرها: «يعمل في ذلك بما يعمل به في مثله على سنن الحق وقصده، وجهة الإنصاف وسبيله، إن شاء الله تعالى»، فورد على الكُتَّاب من هذا التوقيع ما لم يرد مثله، وصار ذلك رسماً للرؤساء في التوقيع بالألفاظ الجميلة.

وكان عبد الله المأمون في حجر محمد بن خالد بن برمك فنقله الرشيد[4] إلى جعفر بن يحيى، فأشار على الرشيد ببيعته للمأمون بعد محمد، وقام بالأمر حتى عقد له، وشخص معه من الرقة إلى مدينة السلام حتى وكد البيعة[5] له والأخذ للأيمان على بني هاشم والوجوه بها، وكاتب العمال في جميع النواحي بذلك ثم انصرف إلى الرقة[6].

وتكلم سهل بن هارون بحضرة جعفر بن يحيى، فأغرب وأعرب، فقال له جعفر: أي شيء هذا الكلام وأنت من دهستان؟ فقال له سهل: هي أقرب إلى البادية من بَلْخ، وهذا الكلام قد روي أن المتكلم به ملك بن شاهي وأن جعفر قال له: أتتكلم بهذا الكلام وأنت من أهل نفر، قال: أقرب إلى البادية من بلخ.

وصنع أبان بن عبدالحميد بن لاحق مولى الرقاشيين كتاب «كليلة ودمنة» شعراً، وأهداه إلى جعفر بن يحيى فوهب له مائة ألف درهم[7].

وذكر إسحاق الموصلي قال: قال لي إبراهيم بن المهدي [٣٥] خلا جعفر بن

---

(١) ت: وأنا منتظرك للطعام.

(٢) ت: فوافاها.

(٣) ت: في.

(٤) في الأصول: الشريف والصواب ما أثبت.

(٥) ت: البيع.

(٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١١.

(٧) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١١.

يحيى يوماً في منزله، وحضر ندماؤه وكنت فيهم فتضمخ بالخلوق، ولبس الحرير، وفعل بنا مثل ذلك، وتقدم إلى الحاجب بحفظ الباب إلّا من عبدالملك بن بحران، فوقع في أُذن الحاجب عبدالملك، ومضى صدر من النهار، وبلغ عبدالملك بن[1] صالح مقام جعفر في منزله، فركب إليه فوجه الحاجب إلى جعفر قد حضر عبدالملك، فقال: يؤذن له وهو يظنه ابن بحران، فدخل عبدالملك بن صالح في سواده وقلنسوه. فلما رآه جعفر اسْوَدَّ وجهه، ورآنا على حالنا، وكان لا يشرب النبيذ، وكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه لأنه كان يلتمس ندامه فيأبى، فوقف عبدالملك على ما رأى من جعفر، فدعا غلامه فناوله سواده وقلنسوه، وأَقبل حتى وقف على باب المجلس الذي نحن فيه فسلم وقال: افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم، فدنا منه خادم فألبسه حريرة وجاء فجلس ودعا بطعام فأكل، ودعا بنبيذ فأتوه برطل فشربه وقال لجعفر: ما شربته قبل اليوم، فليخفف عني، فدعا له برطليه فجعلت بين يديه، وجعل كلما فعل من ذلك شيئاً سرّي عن جعفر، فلما أراد الانصراف، قال له جعفر: سل حاجتك فيما تحيط مقدرتي بمكافأة ما كان منك؟ فقال: إن في قلب أمير المؤمنين مني إحنة، فتسأله الرضا عني، قال: قد رضي عنك أمير المؤمنين، قال: وعلي دين[2] أربعة آلاف ألف[3] درهم تقضى عني، قال: إنّها عندي حاضرة، ولكن جعلتها من مال أمير المؤمنين فإنها أنبل لك وأحب إليك، قال: وإبراهيم ابني أُحب أن أشدَّ ظهره بصهر من أَولاد الخلفاء، قال: قد زوجه[4] أمير المؤمنين ابنته العالية، قال: وأُحب أن يخفق لواء على رأسه، قال: قد ولاه مصر.

وانصرف عبدالملك ونحن نتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان، وقلت: لعله أن يجاب إلى ما سأله من الحوائج، فكيف بالتزويج أن يطلق لجعفر أو لغيره ذلك، فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر، فلم نلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبدالملك وخرج إبراهيم، وقد خلع عليه وزوج، وحملت البدر إلى منزل عبدالملك، وخرج جعفر فأشار علينا باتباعه إلى منزله، فلما صرنا إليه، قال: تعلقت قلوبكم بأول أمر عبدالملك

---

(١) «بحران فوقع في أذن ... وبلغ عبدالملك بن» ساقطة من ك.
(٢) ساقطة من ك.
(٣) ساقطة من ك.
(٤) ت: زوجته.

فأحببتم علم آخره، وإني لما دخلت على أمير المؤمنين وقمت بين يديه ابتدأت القصة كيف كانت من أولها إلى آخرها فجعل يقول: والله أحسنت حتى أتممت خبره، ثم قال: فما صنعت به؟ قال: فأخبرته ما سأل وما أجبته إليه فجعل يقول: أحسنت، أحسنت[1].

وقال مُخارق: غدوت يوماً إلى إبراهيم بن ميمون الموصلي، وكان يوم دجن، فأصبت بين يديه قدوراً تغرغر[2] وأباريق تزهر، وهو كالمهموم، فسألته عن حاله، فقال: لي ضيعة وإلى جانبها ضيعة تباع، ثمنها مائتا ألف درهم، وإن دخل فيها غيري أفسد عليّ ضيعتي، وما أقول إن ثمنها ليس بمكني، ولكني لست أسمح بإخراج شيء في منزلي، قال: فأمسكت عنه، وأتممت يومي عنده، وغدوت على يحيى بن خالد فلقيته فسألني عن خبري في أمس، فخبرته الخبر فأضحكه ما قال إبراهيم، وانصرفت لإبراهيم لأُعرفه الخبر، فوجدت المال قد سبق إليه، فقلت له: اشتر الآن الضيعة، فقال لي: لكل جديد لذة وهذا مال[3] جديد، ولست أُحب إخراجه، قال: فحدثت جعفر بن يحيى[4] الخبر فأضحكه، وبعث بالمال إليه، ثم صرت إليه، فقلت: اشتر الآن الضيعة، فقال: العجلة من عمل الشيطان دعني استمتع بهذا المال مدة ثم صرت إلى الفضل بن يحيى فحدثته بالحديث، فابتاع له الضيعة ووجّه ثمنها ووجه إليه بمثل الثمن، ووجه إليه بالصك، فصرت إلى إبراهيم فوجدته فرحاً مسروراً بوصول المال، وحصول الضيعة في ملكه، فبلغ ذلك جعفر، فقال: والله لا يزيد عليَّ الفضل فأمر له بثلاثمائة ألف درهم حملت إليه في ساعتها[5].

وفي جعفر بن يحيى يقول أشجع السُّلمي[6]: [المتقارب]

يحبّ الملوك مَدى جعفر	ولا يصنعون كما يصنع
وكيف ينالون غاياته	وهم يجمعون ولا يجمع

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١٢.

(٢) ت: تفرق.

(٣) ك: ماله.

(٤) في الأصول: يحيى بن جعفر بن يحيى، والصواب ما أثبت.

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٦) الشعر في الأصفهاني، الأغاني: ١٨/٤٠٦.

وليس بأوسعهم في الغنى ولكن معروفه أوسع

وحكي أن المأمون قال لمحمد بن عباد المهلبي يوماً: بلغني أنَّ فيك سَرفاً، فقال: يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء الظن بالمعبود، وإني لأهم بالإمساك، فأذكر قول أشجع في جعفر وذكر هذه الأبيات، فأمر له المأمون بمائة ألف درهم، وقال له: استعن بها على مروءتك[1].

[٣٧] وحكي أن الرشيد قام من مجلسه يريد الدخول إلى بعض حجره، وأن جعفراً أسرع فرفع الستر، وأنَّ الرشيد تأمل عنقه، فقال له: ما تتأمل مني يا أمير المؤمنين؟ فقال: حسن عنقك، وحسن موقع الجُرُبَّان[2] عليه، قال: لا والله ما تأملت إلّا وقع سيفك منها، فقال له: أعيذك بالله من هذا القول، واعتنقه وقبله، فلما قتله بعد ذلك قال للفضل بن الربيع: قاتل الله جعفراً وذكر هذا الخبر، وقال: ما[3] تأملت عنقه إلّا[4] لموقع السيف منها.

وفي طول عنقه يقول أبو نواس يهجوه[5]: [البسيط]

قالوا مدحت فماذا اعتضت؟ قلت لهم خرق النعال وأخلاق[6] السراويل

قالوا فسمِّ لنا الممدوح قلت لهم وصفي يعدل التفسير[7] في القيل

ذاك الأمير الذي طالت علاوته كأنه ناظر في السيف بالطول

ولأبي نواس في جعفر أهاج كثيرة بلغته فتغمدها بحلمه، وقابلها بفضله، وأجازه عليها، ووصله بسببها، منها قوله[8]: [الطويل]

لقد غرني من جعفر حسن بابه ولم ندر أنَّ اللؤم حشو إهابه

ولست وإن أخطأت في مدح جعفر بأول إنسانٍ خري في ثيابه

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١٥.

(٢) الجُربان: جيب القميص. انظر: ابن منظور، لسان العرب: ١/ ٢٦١ مادة جرب.

(٣) ساقطة من ت.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) أبو نواس، الديوان: ٥٢٠.

(٦) الديوان: ابلاء.

(٧) الديوان: التصريح.

(٨) أبو نواس، الديوان: ٥٥٥.

فبعث إليه بعشرة آلاف درهم، وقال له: اغسل ثيابك بهذه الدراهم.

وقد كان جعفر بن يحيى كريماً ولا يستحق الهجو، ولكن الشعراء لا تُمْلَك ألسنتهم، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح، وأول دليل على كرمه أنَّ أبا نواس على حذقه وتقدمه في الصناعة لما أراد هجاءه لم يجد له ما يعيبه به إلَّا طول عنقه، ولو وجد غيرَ هذا لقاله والعيب في الخَلق دون العيب في الخُلق، ثم[1] لما هجاه ثانياً بما ذكرناه لم يعب خَلقاً ولا خُلقاً غير أنه تحمل فيه قوله «أن اللؤم حشو إهابه»، ولو كان وجد خُلقاً ذميماً أو خَلقاً ذميماً لقاله في هجائه، وذمَّه به، ورماه بأوابده، ولكنه لم يجد إلَّا مِلءَ سمعه وبصره على أنه قد كان يقال إن جعفر بن يحيى مبخل، وما ذاك كذاك، وإنما كان كرم أبيه يحيى وأخيه الفضل يعمران البحار كثرة، وكان جعفر دونهما على كرمه المفرط، [٣٨] وجوده الزائد مع قربه من الخليفة أكثر من قربهما، فلهذا بُخِّل، وإلَّا فهو كنز السماح، ورسيل البحر إذا سحّ، والغمام إذا ساح.

وتنازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى يوماً بحضرة الرشيد، فقال جعفر للفضل: يا لقيط، فقال الفضل: اشهد يا أمير المؤمنين، فقال جعفر للرشيد: تراه عند من يقسمك هذا الجاهل شاهداً يا أمير المؤمنين وأنت حاكم الحكام[2].

قال إسحاق بن سعد القُطْرُبُّلِيّ: أخبرنا أبو حفص عمر بن فرج قال: انصرفت مع عمرو بن مسعدة يوماً من الشماسية والمأمون بها في زلال لعمرو بن مسعدة، فلما صرنا إزاء قصر جعفر بن يحيى، قال لي عمرو: يا أبا حفص سرت وجعفر يوماً كمسيرنا هذا فلما نظر إلى البناء، قال لي: يا أبا الفضل، والله إني لأعلم أنَّ هذا ليس من بناء مثلي، ولكن قلت إنْ بقي لي فهو قصر جعفر، وإنْ شره السلطان إليه في وقت من الأوقات فهو قصر جعفر[3]، وإن مضت عليه الأيام فإنما يقال قصر جعفر، ويبقى لي اسمه وذكره، ولعل أن يمر به بعض من لنا عنده معروف فيترحم علينا، ثم قال عمرو: فوالله لكأن جعفر كان ينظر إلى ما آلت إليه الحال فيه[4].

---

(١) ساقطة من ك.

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١٦.

(٣) «وإن شره السلطان ... قصر جعفر» ساقطة من ك.

(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١٦.

وقد حكي أنَّ السبب كان في بناء جعفر هذا القصر أن متظلماً من أهل أصبهان[١] تظلم إلى يحيى بن خالد في عامله بها وقال له: إنه ظلمني، وأساء معاملتي، وأخذ مالا يجب له مني، وهدم شرفي، فقال له يحيى: قد علمت جميع ما تظلمت منه خلا هدم شرفي، فَفسر ذلك، فقال له الرجل[٢]: أنا من بني رجل كان بنى قصراً جليلاً، وكان ينسب إليه، فكان الرائي إذا رأى القصر وجلالته، وعلم أني من ولد الباني له عرف بذلك قديم نعمتي وجلالة أولي، فهدمه، فاستحسن يحيى ذلك منه. وقال للفضل ولجعفر: لا شيء أبقى ذكراً من البناء، فاتخذوا منه ما بقي لكم ذكراً، فاتخذ جعفر قصره، وكذلك الفضل، وأمر يحيى بإنفاذ محتسب مع المتظلم يطالب العامل بإعادة بناء قصره وإنصافه في ظلامته[٣].

قال إسحاق بن سعد: [٣٩] وحدثني أبو جعفر محمد بن علي كاتب عمر بن فرج عمن حدثه ممن أدرك البرامكة، وكان يخبر كثيراً من أمرهم، قال: لما قارب جعفر بن يحيى الفراغ من بناء قصره هذا صار إليه ومعه أصحابه، فيهم مؤنس بن عمران، وكان عاقلاً كاملاً، فطاف به واستحسنه، وقال من حضره من أصحابه وأكثروا فيه القول، ومؤنس بن عمران ساكت، فقال جعفر: ما لك لا تتكلم، فقال: فيما قال أصحابنا كفاية، وتكرار القول مما لا يحتاج إليه، وكان جعفر ذكياً فعلم أن تحت قوله شيئاً، فقال له: وأنت فقل، فقال: هو ما قالوا، قال: أقسم لتقولن، قال: فإذا أبيت الآن إلّا أن أقول فتعتزل ناحية ففعل[٤]، فقال له: تصبر على الصدق؟ قال: نعم قال: بل نختصر، قال: أسألك بالله إن خرجت من دارك هذه، فمررت بدار لبعض أصحابك، تشبهها أو تقاربها ما أنت قائل؟ قال: فهمت ما أردت، فما الرأي؟ قال: هو رأي واحد إن أخرته عن ساعتك هذه فات[٥] ولم تلحقه، قال: وما هو؟ قال: لا شك أن أمير المؤمنين قد طلبك، وسأل عن خبرك، وضجر بتخلفك، فأطل اللبث ها هنا، ثم امض إليه من فورك، فادخل عليه وعليك أثر الغبار، فإذا سألك عن خبرك، فقل صرت

(١) ت: أسبهان.

(٢) ك: المتظلم.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) ت: فأنت.

إلى الدار التي بنيتها للمأمون، ثم أتبع ذلك من[1] القول بما أنت أعلم به.

وقد كان جعفر اتخذ في هذا القصر ثلاثمائة وستين مقصورة، وكتب إلى كل ناحية يعمل فيها الفرش، فأمر أن يتخذ له ما يحتاج إليه لبنائه من الفرش على ذرعه ومقاديره، وكان قد كثر القول في البناء والفرش، فأقام في الدار[2] الشارعة مدة، ثم مضى من فوره فدخل على الرشيد، فسأله عن خبره فقال: كنت في الدار التي اتخذتها للمأمون على دجلة، وتفقدت بعض ما احتجت إلى تفقده فيها، فقال: أو للمأمون بنيتها؟ قال: لما شرفني أمير المؤمنين بأن جعله في حجري واستخدمني له، وعرفت محله من قلبك، أردت أن أبني له بناءً يشبه هذا المحل، ومع ذلك فإني كتبت بأن يتخذ لجميع البناء فرش في جميع النواحي التي تستعمل فيها الفرش على مقاديره وبقي شيء لم يتهيأ اتخاذه، فقدرنا أن نعول فيه على خزائن أمير المؤمنين، إمَّا عارية وإمَّا هبة فقال: بل هبة[3]، وزال بذلك التشنيع الواقع عليه كله، وأمره بنزولها ورأى أن [٤٠] يطلق للمأمون الانتقال إليها، فانتقل إليها جعفر بن يحيى.

ولما عزم جعفر على بناء قصره هذا شاور أباه يحيى بن خالد، فقال: هو قميصك إن شئت فوسعه وإن شئت فضيقه، وأتاه وهو بين يديه[4] تبني داره هذه، وإذا الصناع ينقضون حيطانها، فقال: إنك تعطي الذهب بالفضة فقال له جعفر: في كل أوان يكون ظهور الذهب أصلح، ولكن هل ترى عيباً؟ قال: نعم، مخالطتها دور السفل والسوقة[5].

وحكي أن جعفر بن يحيى لما عزم على الانتقال إلى داره. وهو[6] القصر جمع المنجمين لاختيار وقت ينتقل فيه إليه، فاختاروا له وقتاً من الليل، فلما حضر الوقت خرج على حمار من الموضع الذي كان ينزل فيه إلى قصره، والطريق خالية، والناس هادون، فلما صار إلى سوق يحيى رأى رجلاً قائماً وهو يقول: [الوافر]

---

(١) ساقطة من ت.
(٢) تضيف ك: في.
(٣) «فقال بل هبة» ساقطة من ت.
(٤) «بين يداه» ساقطة من ك.
(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١٧.
(٦) «داره وهو» ساقطة من ت.

تُـدَبِّـرُ[1] بـالـنُّـجـومِ ولـسـت تـدري ... ورب الـنـجـم يـفـعـل مـا يـريـد

فاستوحش ووقف ودعا بالرجل، فقال له: أعد عليَّ ما قلت، فأعاده فقال له: ما أَردت بهذا؟ فقال له: والله ما أردت به معنىً من المعاني، ولكنه شيء عرض لي، وجاء على لساني في هذا الوقت فأمر له بدنانير ومضى لوجهه وقد تنغص عليه سروره[2].

قال إسحاق بن سعد: سمعت عمر بن فرج الرخجي يقول: كانت الحال بين فرج[3] وبين الحرث بن سنجر[4] حالاً لطيفة جداً، وأنه وصف جلالة الحرث ونبله وفضله، قال: فقلد جعفر بن يحيى في بعض الأوقات الحرث ضياعه بالأهواز، وكان لها قدر جليل، فسعي به إليه وقيل إنه قد أقطع من أمواله أموالاً جليلة، وأن فرج الرخجي يعلم ذلك، وأنه إن سير ما بلغه فأحضر فرجاً فجاءه وسأله واستحلفه، صدقه عن ذلك فاحضر جعفر أبي وخلا به وسأله عن أمر الحرث، وما بلغه عنه فأنكره، فاستحلفه عنه بالطلاق، فحلف له به، فلما خرج من عنده قال لي: قل لفلانة الحرة، وكانت عنده: تستري مني، فقلت لها ذاك، وزال عن الحرث ما كان أشرف عليه.

ثم حج الرشيد وحج معه يحيى بن خالد وابناه الفضل وجعفر، فلما صار بالمدينة جلس الرشيد ومعه يحيى بن خالد [٤١] فأعطى أهل العطاء، ثم جلس بعده محمد ومعه الفضل بن يحيى فأعطاهم العطاء، ثم جلس عبد الله ومعه جعفر بن يحيى فأعطاهم العطايا، فأعطوا في تلك السنة ثلاثة أعطية، وكانوا أهل المدينة يسمون ذلك العام عام الثلاثة أعطية، ولم يروا مثل ذلك قط إلَّا في أيام البرامكة وفي نحو من ذلك يقول ابن مناذر: ستظلم بغداد الأبيات وقد تقدمت[5].

وكان جعفر بن يحيى طالب لما حلف للمأمون في بيت الله الحرام أن يقول: خذلني الله إن خذلته، فقال ذلك ثلاث مرات، فحكي عن الفضل بن الربيع، فيما حدث ميمون بن هارون: أن محمداً قال له في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله:

---

(١) ك: تدبر.

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١٧.

(٣) «يقول كانت الحال بين فرج» ساقطة من ت.

(٤) في ت، ك: يستجير.

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢١.

يا أَبا العباس هو ذا أخذ في نفسي أن أمري لا يتم، فقال له: ولم ذلك أعز الله الأمير؟ قال: لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر، فقلت له: سبحان الله في مثل هذا الموضع؟ فقال لي: هو ما قلت له[1].

ولما أنفق الرشيد في تلك الحجة الأموال الجليلة نفد ما كان معه، فقال ليحيى ابن خالد: يا أبة احتل لي مالاً، فأخذ له من التجار مالاً، فاستزاده، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّا بمكة وما نجد، فلقي جعفر بن يحيى، عمر بن حبيب القاضي وكان انقطاعه إلى يحيى، فقال له: ما صنع بنا صديقك؟ يعني أباه، فقال: وكيف أعزك الله؟ قال: طلب منه أمير المؤمنين مالاً فلم يحمل إليه حتى أتاه بعض خدمه بمائة ألف دينار فقبضها بين يديه وقال له: اصرف هذا يا أمير المؤمنين في بعض ما تحتاج، فلما رآه استكثره وأحب الرشيد جمع المال، وفرغ مما كان قصد له من توكيد بيعة ابنيه، وأخذ الأيمان لكل واحد منهما على صاحبه وعلى الناس لهما.

قال موسى بن يحيى بن خالد: فخرج أبي إلى الطواف، وأنا معه من بين ولده، فجعل يتعلق بأستار الكعبة ويردد هذا الدعاء ويقول[2]: اللهم إن ذنوبي جمة ولا يحصيها غيرك، ولا يعرفها سواك، اللهم إن كنت معاقبي فاجعل عقوبتي في دار الدنيا، وإن أحاط بذلك سمعي وبصري، ومالي وولدي، حتى تبلغ رضاك مني[3].

قال: وعلَّق الرشيد الكتب بالعقد لابنيه في البيت الحرام، وانصرف فنزل الأنبار، ودعا الرشيد صالحاً صاحب المصلى[4] حين تنكر [٤٢] للبرامكة، فقال له: اخرج إلى منصور بن زياد، فقل له: قد صحت لي عليك عشرة آلاف ألف درهم، فاحملها إليَّ في يومك هذا وانطلق معه فإن هو دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشمس من يومك هذا وإلَّا فاحمل إليَّ رأسه وإياك ومراجعتي في أمره، قال صالح: فخرجت إلى منصور وهو في الدار فعرفته الخبر، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهبت والله نفسي، ثم حلف والله لا يعرف موضع ثلاثمائة ألف درهم، فكيف بعشرة آلاف ألف، فقال له صالح: خذ في عملك، فقال له: امض بي إلى منزلي حتى أُوصي وأتقدم في أمري فما هو إلَّا

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٢.

(٢) ساقطة من ك.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٢.

(٤) ت: الموصل.

أن دخل حتى ارتفع الصياح في منازله وحجر نسائه[1]، فأوصى وخرج وما فيه دم ولا لحم، فقال لصالح: امض بنا إلى أبي علي يحيى بن خالد لعل الله أن يأتينا بفرج من جهته، فمضى معه فدخل إلى يحيى وهو يبكي، فقال له يحيى: ما وراءك؟ فقصَّ عليه القصة[2] فقلق يحيى بأمره وأطرق مفكراً ثم دعا خازنه، فقال له: كم عندك من المال[3]؟ فقال: خمسة آلاف ألف درهم، فقال له: أحضرني مفاتيحها فأحضرها، ثم وجه إلى الفضل ابنه، فقال له: إنك كنت أعلمتني أن عندك - فداك أبوك - ألفي ألف درهم قدرت أن تشتري بها ضيعة وقد أصبت لك ضيعة يبقى ذكرها، وتحمد ثمرتها، فوجه إلي بالمال، فوجه به، ثم قال للرسول: امض إلى جعفر، فقل له: فداك أبوك وجه إليَّ ألف ألف درهم لحقٍّ لزمني، فوجه إليه به، ثم قال لصالح: هذه ثمانية آلاف ألف درهم، ثم أطرق إطراقة لأنه لم يكن بقي عنده شيء، ثم رفع رأسه إلى خادم له على رأسه، وقال له: امض إلى دنانير وقل لها: وجهي إليَّ بالعقد الذي كان أمير المؤمنين قد وهبه لك، فجاء به، فإذا عقد كعظم الذراع، فقال له: اشتريت هذا لأمير المؤمنين بمائة وعشرين ألف دينار، فوهبه لدنانير وقد حسبناه[4] عليك بألفي ألف درهم وهو تمام حقك، فانصرف وخل صاحبنا، ولا سبيل لك عليه، قال صالح: فأخذت ذلك ورددت منصوراً معي، فلما صرنا بالباب أنشد منصوراً متمثلاً: [الوافر]

فما بُقْيَا عليَّ تركتماني ... ولكن خفتما صرد النبال

قال صالح: فقلت[5] ما على وجه الأرض رجل أنبل من رجل كنا خرجنا من عنده، ولا سمعت بمثله قط فيما مضى، ولا يكون مثله فيما بقي، ولا على وجه الأرض اخبث سريرة، ولا أردأ [٤٣] طبعاً من هذا النبطي إذ لم يشكر من أحياه.

قال صالح: وصرت إلى الرشيد فقصصت عليه القصة، فقال لي الرشيد؛ أما إني قد علمت أنه إن نجا لم ينج إلَّا بأهل هذا البيت، وقال لي: اقبض المال وأرجع العقد، فإني لم أكن أهب هبة وترجع إلى مالي.

(١) «حجر نسائه» ساقطة من ت.
(٢) «فقص عليه القصة» ساقطة من ت.
(٣) «من المال» ساقطة من ت.
(٤) ت: حسبته.
(٥) ساقطة من ت.

قال صالح: ولم أطب نفساً بترك تعريف يحيى ما قاله منصور، فقلت له لما رأيته بعد أن أطلت في شكره ووصف ما كان منه: ولقد أنعمت على غير شاكر قابل أكرم فعل بألأم قول، قال: وكيف ذاك؟ فأخبرته بما كان منه، فجعل والله يطلب له المعاذير، ويقول: يا أبا علي إنَّ المتخوف القلب ربما سبقه لسانه بما ليس في ضميره، وقد كان الرجل في حالة عظيمة، فقلت له: والله ما أدري أي أمريك أعجب من أوله أم من آخره، ولكني أعلم أن الدهر لا يخلف مثلك أبداً.

قال: ثم لم ألبث حتى بلغ جعفراً الخبر، فسألني فقصصت عليه ما كان، فقال: يا هذا لا تسرع إلى ملامة الرجل ولمنا إذا لم نجعل المال له صلة، وندرأ أمير المؤمنين عنه ثم لوى رأس دابته عائداً إلى باب الرشيد وأنا معه فتركني بالباب ودخل ثم لم يكن بأسرع من عوده وبيده توقيع الرشيد بإعادة المال عليه، ثم قال: اذهب به إلى الرجل وقل له[١]: خذ المال صلة لك بارك الله لك فيه، قلت: يأبى الله إلَّا أن تكون ابن يحيى[٢].

قلت: والبيت الذي تمثل به منصور بن زياد من أبيات اللعين المنقري يهجو فيها جريراً، وهي: [الوافر]

سأقضي بين كلب بني كليب	وبين القين قين بني عقال
فإن الكلب مطعمه خبيث	وإن القين يعمل في سفال
كلا العبدين قد علمت معدٌّ	لئيم الأصل من عم وخال
فما بقيا عليَّ تركتماني	ولكن خفتما صرد النبال

وكان أبو الشمقمق قد صار إلى منصور بن زياد ليسأله أن يبرّه، وكان منصور ضيقاً بخيلاً، فوهب له عشرة دراهم، وأمره بالعود إليه ليبرّه فأخذها وقام، وهو يقول هذا: [السريع]

لولا ابن منصور وأفضاله	سلحت في لحية منصور

[٤٤] فبلغ ذلك محمداً، فقال: إنما خفنا هذا، وما أفلتنا منه[٣]. وإنما حكيت

---

(١) ت: ثم قال.

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٤.

هذه الحكاية، وإن لم يكن موضع ذكرها يعرف بها لؤم منصور وكرم البرامكة، العيون البحور «والضد يظهر حسنه الضد».

وحكي أن منصور بن زياد أفسد نية جعفر بن محمد بن الأشعث على يحيى بن خالد وضرَّبه عليه، فتكلم فيه يحيى وصار إليه جعفر بن محمد، فقال له: لا تحوجني فأكفر نعمتك.

وكان جعفر بن يحيى يساعد الرشيد على كل شيء يطالبه به، وكان الفضل يتمنع عليه، وكان لا يشرب النبيذ، فظن الرشيد أنه يتيه عليه، فكان يعتب عليه من ذلك، وكان يحيى بن خالد ينكر على جعفر دخوله مع الرشيد فيما يدخله فيه، ويتخوف عليه من عاقبته[1].

وذكر سعد بن هرثم: أن يحيى كتب إلى جعفر يوماً في شيء عتب عليه منه من هذا الجنس: إنما أمهلتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك، وإن كنت أخشى أن تكون التي لا سوى لها[2].

وقال يحيى للرشيد غير مرة: يا أمير المؤمنين، إني أكره مداخلتك جعفر، ولست آمن أن[3] ترجع العاقبة عليَّ في ذلك منك، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك أحب إلي، وأولى بتفضلك عليه، وأمن عليه عندي، فقال له الرشيد: ليس بك هذا، ولكنك تحب أن تقدم الفضل عليه[4].

وقال صاحب كتاب الوزراء[5]: حدثني بختيشوع بن جبريل قال: حدثني أبي، وكان صنيعة البرامكة: أنه دخل إلى الرشيد يوماً، وهو جالس على سَابَاط، وكان على مشرعة باب خراسان فيما بين الخلد والغرار، وأم جعفر يعني زبيدة حاضرة من وراء ستر، فقال لي: أُم جعفر تجد شيئاً، فأشر عليها بما تعمل به، فبينَا أنا أنظر في ذلك، إذ ارتفعت ضجة عظيمة فسأل عنها، فقيل له: جعفر بن يحيى ينظر في أمور

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٤.
(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٤.
(٣) ساقطة من ت.
(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٥.
(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

المتظلمين، فقال: بارك الله عليه وأحسن جزاءه فقد خفف عني، وحمل الثقل دوني، وناب منابي، وذكره بكل جميل، وفعلت أم جعفر مثل ذلك، ولم يدع شيئاً يذكر به أحد من الجميل إلّا ذكره[1] به. فامتلأت سروراً وقلت في ذلك ما أمكنني وخرجت مبادراً إلى يحيى بن خالد، وكنت آتيه بالأخبار، فخبرته بذلك فسر به.

ومضت مدة ثم جاءني رسول الرشيد يوماً [٤٥] فصرت إليه، فوجدته جالساً في ذلك المجلس بعينه، وأم جعفر من وراء الستر، والفضل بن الربيع بين يديه، وأم جعفر قد وجدت شيئاً فأمرني بتأمل حالها والمشورة عليها بما أراه، فإني لفي ذلك إذ ارتفعت ضجة شديدة، فقال الرشيد: ما هذا؟ فقيل له[2]: جعفر بن يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين، فقال: فعل الله به، وجعل يذمه ويسبه أشد سَباً، استبد بالأمور دوني، وأمضاها على غير رأيي، وعمل بما أَحبه دون محبتي، وتكلمت أم جعفر بأغلظ من كلامه وثلبته بأكثر مما يثلب به أحد، فورد عليَّ من ذلك مورداً[3] أقام وأقعد، ثم أقبل عليَّ الرشيد، وقال: يا جبريل إنه لم يسمع كلامي غيرك وغير الفضل، وليس الفضل ممن يحكي شيئاً منه، وعليَّ وعليَّ لئن تجاوزك لأتلفن نفسك. قال: فبرأت إليه من ذكره، وأكبرت الإقدام على حكاية شيء جرى في مجلسه، وانصرفت، ولم أصبر وقلت في نفسي إن تلفت في الوفاء فلا[4] أبالي، وصرت إلى يحيى بن خالد فعرفته بما جرى، قال لي: أتذكر وقد جئتني في يوم كذا من شهر كذا، وأنا في هذا الموضع، فحكيت لي عن أمير المؤمنين الإحماد والثناء، والشكر والدعاء، وعن أم جعفر مثل ذلك، فقلت: نعم، وعجبت من حفظه الوقت، فقال: إنه لم يكن منه في تلك الحال التي أحمدها، ولا كان منه في تلك ما لم يكن منه في هذا، ولكن المدة إذا أذنت بالانقضاء جعلت المحاسن مساوئ، ومن أراد أن يتجنى قدر، ونسأل الله حسن الاختيار[5].

وكان جبريل صنيعة البرامكة، وكان يقول للمأمون كثيراً: هذه النعمة لم أُفدها

---

(١) ك: ذكرته.

(٢) ساقطة من ت.

(٣) ساقطة من ك.

(٤) ك: فلم.

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

منك ولا من أبيك، هذه أفدتها من يحيى بن خالد[١].

ولما أحس يحيى من الرشيد بالتغير ركب إلى صديق له من الهاشميين يشاوره في أمره، فقال له: إن أمير المؤمنين قد أحب جمع المال، وقد كبر ولده فأحب أن يعتقد لهم الضياع، وقد كُثِّر على أصحابك عنده، فلو نظرت إلى ما بين أيديهم من ضياع وأموال فجعلتها لولد أمير المؤمنين، وتقربت بها إليه، رجونا لك السلامة ولهم في ذلك من مكروهه، فقال يحيى: جعلني الله فداك لَأَنْ تزول النعمة عني أحب إليَّ من إزالتها عن قوم كنت سببها إليهم[٢].

وسمع رجل ينتاب يحيى بن خالد، وهو يتضجر بالعمل ويستعفي منه، فقال له رجل كان يختص به منهم: أعيذك بالله أن يعلم أمير المؤمنين أنه مستغن عنك طرفة عين، فلا تفلح بعدها أبداً، ودعه يظن أن ملكه يزول بزوالك، وأنَّ صرفك [٤٦] ما لا يجوز ولا يكون، فلم يقبل يحيى ذلك، وواصل التضجر إلى الرشيد والاستعفاء[٣] فهلك وبنوه، وكان أسرعهم هلكاً وأشنعهم صرعةً جعفر.

وحكي عن عبد الله بن زياد الكاتب[٤]: أنه لما أحس يحيى بالتغير من الرشيد صار إلى معاذ بن مسلم، فدخل على دابته إلى باب مجلسه، فقام إليه معاذ وأكبَّ عليه يحيى يكلمه، فلما فرغ من حديثه ولى منصرفاً، وعاد معاذ إلى مجلسه، فقال لمن حضر: أتدرون ما قال لي يحيى؟ فقالوا: لا، قال: جئت أشكو إليك أمير المؤمنين، فقلت: فيم ذا؟ فقال: كان سألني أن أصير له في السنة أربعة آلاف ألف درهم لخاص نفقاته ليصرفها فيما أحب ففعلت ثم سألني أن[٥] أزيده، فزدته فجعلتها ستة آلاف ألف درهم[٦] ثم استزادني في وقت بعد آخر حتى صارت عشرة آلاف ألف درهم ثم استزادني في وقت بعد آخر[٧] فزدته، ثم سألني اليوم أن أصيرها عشرين ألف ألف

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٧.
(٣) «التضجر إلى الرشيد والاستعفاء» ساقطة من ك.
(٤) ساقطة من ك.
(٥) «أصير له في السنة ... سألني أن» ساقطة من ت.
(٦) «ألف درهم» ساقطة من ت.
(٧) «حتى صارت عشرة ... وقت بعد آخر» ساقطة من ت.

درهم، فأي بيت مال يبقى على هذا وأي بيت مال بقي به[1]. وقد أشرت عليه بأن يداريه ويرفق به ولا يسخطه.

ودخل يحيى بن خالد على الرشيد لما ابتدأت حاله في الفساد، وهو خال فعرفه خبره فرجع وانصرف، فقال الرشيد لبعض الخدام: الحق يحيى فقل له[2]: جئتني فاتهمتني، فلحقه، فقال له ذلك، فقال يحيى للرسول: إذا انقضت المدة كان الحتف في الحيلة، ووالله ما انصرفت عنك في خلوتك إلَّا تخفيفاً عنك[3].

وهذا كلام لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[4]: إذا انقضت المدة كان الهلاك في العدة أي الاستعداد[5].

وأخذ هذا الكلام ابن الرومي الشاعر[6]: [الكامل]

غلط الطبيب عليَّ غلطة مورد ... عجزت موارده عن الإصدار
والناس يَلْحَوْنَ الطبيب وإنما ... غلط الطبيب إصابة المقدار

وذكر محمد بن زكريا العلامي قال: حدثني مهدي بن سابق قال: رأى يحيى بن خالد في منامه قبل نكبته كأن قائلاً يقول له: [مجزوء الخفيف]

انعموا آل برمك ... وانظروها متى هيه
يوشك الدهر أن ... يحل عليكم بداهيه

وكان الرشيد بعد صرف الفضل بن يحيى عن خراسان قلد علي بن عيسى بن ماهان[7] خراسان لتكسير [٤٧] وقع عنده على الفضل في الأموال، فقتل علي بن عيسى وجوه أهل خراسان وملوكها، وجمع أموالاً جليلة، فحمل إلى الرشيد ألف بدرة معمولةٍ من الحرير فيها عشرة آلاف ألف درهم، فلما وصلت إليه سُرّ بها، وأحضر

---

(١) «وأي بيت مال بقي به» ساقطة من ت.
(٢) «فقل له» ساقطة من ت.
(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٧.
(٤) ك: عليه السلام.
(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٧.
(٦) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ١٣٠.
(٧) في الأصول: علي بن عدي بن هامان، والصواب ما أثبت.

يحيى بن خالد، فقال له: يا أبت أين الفضل عن هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن سبيل خراسان أن يحمل إليها المال، لا أن يحمل منها، والفضل أصلح نيات رؤسائها، واستجلب طاعتهم، وعلي بن عيسى قتل صناديد أهل خراسان وطراخينها وحمل أموالهم، ولو قصدت لدرب من دروب الصيارف بالكرخ لوجدت فيه أضعاف هذا، وسينفق أمير المؤمنين مكان كل درهم منها عشرة، فثقل هذا القول منه على الرشيد، فلما انتقض أمر خراسان، وخرج رافع بن الليث، واحتاج الرشيد إلى النهوض إليها بنفسه، فخرج حتى صار إلى طوس، وجعل يتذكر هذا الحديث ويقول: صدقني والله يحيى، ونصح فلم أقبل منه، لقد أنفقت مائة ألف ألف درهم، وما بلغت شيئاً[(١)].

وكان يحيى بن خالد ولّى رجلاً بعض أعمال الخراج، فدخل به إلى الرشيد ليراه ويوصيه، فقال الرشيد ليحيى ولولده: أوصياه، فقال له يحيى: وفّر واعمر، وقال له جعفر: أنصف وانتصف، فقال له الرشيد: اعدل وأحسن.

واستأذن جعفر بن يحيى الرشيد في العمرة في سنة خمس وثمانين ومائة فأذن له، فشخص في شعبان وأقام إلى الحج وانصرف، ولم يزل جعفر بن يحيى مع الرشيد على حاله في الأنس به والانبساط[(٢)] إليه إلى أن ركب في يوم الجمعة مستهل صَفَر سنة سبع وثمانين ومائة إلى الصيد، وجعفر معه يسايره خالياً به، وانصرف مُمسياً على تلك الحال إلى القصر الذي كان ينزله بالأنبار وهو معه فضمه إليه وقال: لولا أني أريد الجلوس الليلة مع النساء لم أُفارقك، فصار جعفر إلى منزله، وواصل الرشيد الرسل إليه بالألطاف إلى وجه السحر، ثم هجم عليه مسرور الخادم ومعه سالم أبو عصمة فحمل وضربت عنقه، وأتي الرشيد برأسه، وكانت سنّه سبعاً وثلاثين سنة، وأنفذ الرشيد جثته إلى مدينة السلام مع هرثمة بن أعين ومسرور وسلام الخادمين، فقطعت نصفين وصلبا على الجسرين، ونصب رأسه بمدينة السلام، وحبس الفضل ومحمد وموسى بنو يحيى ووكل سلام الأبرش بباب يحيى، ولم يتعرض لمحمد بن خالد ولا لأحد من أسبابه[(٣)].

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٢٨.

(٢) ت: الالبساط.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٣٤.

[٤٨] قال الجهارستاني[(١)]: حدثني عبدالواحد بن محمد الخصيبي قال: حدثني أبو خازم القاضي قال: قد صح عندي أن جعفر بن يحيى كان مصلوباً وفي رجليه قيد، فكنت أعجب من ذلك حتى سألت عيسى عن ذلك، فذكر أن مسروراً لما هجم عليه، وعرّفه ما أمر به في أمره، قال له: يا أبا هاشم الحرمة والمودة، فقال له: ما لي في أمرك حيلة، فقال له جعفر: فهذه خمسون ألف دينار اقبضها، واحملني معك غير مقتول، وأعلم أمير المؤمنين بأنك قد امتثلت ما أمرك به، فإن أمسك عني تركتني حتى يسألك عني، فتعلمه أنك قد أشفقت من قتلي خوفاً من أن يكون ما أمرك به من عمل النبيذ أو بادرة[(٢)] يندم عليها. فاستظهرت بتركي، ويمضى بعد ذلك ما يأمر به، وإن تكن الأخرى فأنت من المال في حل، ففعل مسرور ذلك، وحمله إلى مضرب الرشيد بالغمر فوكل به فيه واستظهر بأن قيده ثم دخل إلى الرشيد[(٣)] وهو جالس على كرسي ينتظره، فلما رآه قال: ما فعلت؟ فقال: امتثلت أمر أمير المؤمنين، قال: فأين رأسه يا ابن الفاعلة فرجع مسرور[(٤)] يعدو حتى أخذ رأسه في بركة قبائه، وألقاها بين يديه وحملت جثته والقيد في رجليه.

قال سلّام الأبرش: ولما دخلت على يحيى بن خالد في ذلك الوقت فهتكت الستور وجمعت المتاع، قال لي غير متغير ولا مضطرب: يا أبا سلامة هكذا تقوم الساعة، ثم بلغه خبر قتل جعفر، فقال: الحمد لله فإني بفضل ربي واثق، وبالخيار منه لي عالم، ولا يؤاخذ الله العباد إلّا بذنوبهم، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وما يعفو الله أكثر والحمد لله على كل حال، وأنفذ الرشيد مسروراً الخادم ورشيداً الخادم والحسين الخادم وأبا صالح بن يحيى بن عبدالرحمن الكاتب وإبراهيم بن حميد الكاتب لقبض أموالهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق فكانت مدتهم في الوزارة سبع عشرة سنة[(٥)].

وذكر مسرور الخادم أنه دخل على جعفر في ليلة وهي الليلة التي[(٦)] قتل فيها،

---

(١) كذا في الأصول، والصواب الجهشياري، وانظر: الخبر: الوزراء والكتاب: ٢٣٤ ـ ٢٣٥، وهو في المطبوع من غير الإسناد.

(٢) ت: بإرادة.

(٣) ت: السخيم.

(٤) ت: ميشوم.

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٣٥.

(٦) ساقطة من ك.

وبين يديه أبو زكار الأعمى المغني، وهو يغني: [الوافر]

عَـدَانـي أن أزورك غـيـر بـغـض ... مـقـامـك بـيـن مـصـفـحـة شـدادِ
فـلا تـبـعـد فـكـل فـتـى سـيـأتـي ... عـلـيـه الـمـوت يـطـرق أو يـغـادي

فقلت له: يا أبا الفضل الذي جئت له والله من ذلك، قد والله طرقك الأمر فأجب أمير المؤمنين، قال: دعني حتى أوصي، فتركته فأوصى بما أراد، وعتق مماليكه، وأتتني الرسل تستحثني على قتله فحملته[1].

وقال الرَّقاشي في قتله[2]: [الطويل]

ألانَ استـرحـنـا واسـتـراحـت ركـابـنـا ... وأمـسـك مـن يـحـذي ومـن كـان يـحـتـذي
فـقـل لـلـمـطـايـا قـد أمـنـت مـن الـسُّـرى ... وطـي الـفـيـافـي فـدفـداً بـعـد فـدفـد
وقـل لـلـمـنـايـا قـد ظـفـرت بـجـعـفـر ... ولـن تـظـفـري مـن بـعـده بـمـسـوَّد
وقـل لـلـعـطـايـا بـعـد فـضـل تـعـطـلـي ... وقـل لـلـرزايـا[3] كـل يـوم تـجـددي
ودونـك سـيـفـاً بـرمـكـيـاً مـهـنـداً ... أصـيـب بـسـيـف هـاشـمـيٍّ مـهـنـدِ

وقال فيه أيضاً[4]: [الوافر]

عـلـى الـمـعـروف والـدنـيـا جـمـيـعـاً ... بـدولـة[5] آل بـرمـك الـسـلام
ومـا أبـصـرت قـبـلـك يـا ابـن يـحـيـى ... حـسـامـاً قـدَّه الـسـيـف الـحـسـام

وقال أبو حزرة: [الخفيف]

مـا رعـى الـدهـر آل بـرمـك لـمـا ... أن رمـى مـلـكـهـم بـأمـر بـديـع
إنَّ دهـراً لـم يَـرْعَ حـقـاً لـيـحـيـى ... غـيـر راعٍ حـقـاً لآل الـربـيـع

وقال آخر[6]: [الرمل]

---

(١) الأصفهاني، الأغاني: ٥/ ١٦٥.

(٢) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٣٦.

(٣) ت: للزنا.

(٤) الشعر في الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٤٣٣.

(٥) الأغاني: ودولة.

(٦) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٣٦.

يـا بـنـي بـرمـك واهـاً لـكـم ... ولأيـامـكـم الـمـقـتـبـلـة
كـانـت الـدنـيـا عـروسـاً بـكـم ... فـهـي الـيـوم بـعـدكـم[1] أرمـلـة

وقال محمد بن الحصين الأهوازي: كنا مع جعفر بن يحيى بالرقة، ونحن بين يديه يوماً، وهو يأمر وينهى إذ خلا بأنس بن أبي الشيخ[2] ناحيةً، ونحن نراه فأدخل صاحب الشرطة رجلاً من أهل الذمة فوقفه من بعيد ودنا من جعفر، [٥٠] فقال له: قد أحضرت الرجل الذي أمرت بإحضاره، قال: فقطع ما كان فيه من أنس والتفت فنظر إليه، قال: وكان الرشيد أمر أهل الذمة بتغيير الملبوس والمركوب، ثم قال له وهو رافع صوته: ما اسمك؟ قال: فلان، قال: ابن من؟ قال: ابن فلان، فقال: أنت الحراني؟ قال: نعم، قال: الرقعة التي رفعتها رقعتك؟ قال: نعم، قال: وما فيها عنك وأنت تقوله؟ قال: نعم، فاطرق جعفر ساعة ثم التفت إلى صاحب الشرطة وقال: خذه إليك فإن أمير المؤمنين قد أمرك أن تقتله وتصلبه، قال: فارتعنا لذلك القول، ولم نعرف الرجل ولا ما في رقعته، فأخذ صاحب الشرطة بيده، فقال أنس بن أبي شيخ: اصلبه على أطول عود بالرقة، فالتفت الحراني وقال: إن شاء الله على أطول عود. قال: وكان في الرقعة رفاعة على البرامكة[3].

وقال أبو قابوس عمرو بن سليمان الحيري يخاطب الرشيد ويرققه على الفضل بن يحيى بن خالد، ويذكر مقتل جعفر: [الوافر]

أمـيـن الله هـب فـضـل بـن يـحـيـى ... لـنـفـسـك أيـهـا الـمـلـك الـهـمـامُ
ومـا طـلـبـي إلـيـك الـعـفـو عـنـه ... وقـد قـعـد الـوشـاة بـه وقـامـوا
أرى سـبـب الـرضـى عـنـه قـويّـاً ... عـلـى الله الـزيـادة والـتـمـام
نـذرت عـلـيّ فـيـه صـيـام شـهـر ... فـإن تـم الـرضـى وجـب الـصـيـام
وهـذا جـعـفـر بـالـجـسـر يـمـحـو ... مـحـاسـن وجـهـه ريـح قـتـام[4]
أمـا والله لـولا خـوف واشٍ ... وعـيـن لـلـخـلـيـفـة لا تـنـام

---

(١) ك: بكم.
(٢) مطموسة في ت.
(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٣٨ ـ ٢٣٩.
(٤) الأبيات رقم (٢ + ٣ + ٤ + ٥) ساقطة من ك.

لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام
وما أبصرت قبلك يا ابن يحيى حساماً قده السيف الحسام
عقاب خليفة الرحمن فخر لمن بالسيف صبَّحه الحمام[١]

قال[٢]: كان مسرور صديقاً للبرامكة جميعاً خلا جعفر فإنه كان يعاديه، وكان قد جرى بينهما كلام بحضرة الرشيد فشتمه جعفر وقرفه بشيء تبرأ منه مسرور وحلف على بطلانه ثم قال لجعفر: إن كنت كاذباً فقتلك الله بسيفي هذا، فذكر الفضل بن مروان أن مسروراً ضرب عنق جعفر بذلك السيف.

[٥١] وحكى حمزة بن حنيف قال: كنا مع علي بن عيسى بن ماهان في الوقت الذي نزل فيه بالبرامكة[٣]، وكان من معاداتهم على مالا غاية وراءه، وكان مسروراً بنكبتهم فعدنا له يوماً من الأيام فوجدنا على قصره بيتي شعر[٤] وهما: [السريع]

إنَّ المساكين بني برمك صبت عليهم غِيَرُ الدهر
وللورى في أمرهم عبرة فليعتبر ساكن ذا القصر

قال: ثم لم يلبث حتى نكبه الرشيد عقيب البرامكة، ولم يزل في الحبس إلى أن أطلقه الأمين.

وحكى الأصمعي قال: لما قتل الرشيد جعفر بن يحيى أرسل إليَّ ليلاً، فراعني وأعجلني الرسل، فزادوا في وجلي، فصرت إليه فلما مثلت بين يديه أومى إليَّ بالجلوس فجلست، ثم قال: [الكامل]

لو أن جعفر خاف أسباب الردى لنجا بمهجته ظهيرٌ ملجمُ
ولكان من حذر المنون بحيث لا يرجو اللحاق به العقاب القشعمُ
لكنه لما تقرب يومه لم يدفع الحدثان عنه منجمُ

ثم قال: الحق بأهلك يا ابن قريب، فنهضت ولم أحر جواباً، وفكرت فلم أعرف لم كان منه معنى إلَّا أنه أراد أن يسمعني شعره وأحكيه[٥].

---

(١) الأبيات (٦ ـ ٩) نسبها الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٣٦ للرقاشي.
(٢) ساقطة من ك.
(٣) ت: بالمرامكة.
(٤) ساقطة من ت.
(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٣٧.

وحكى إسحاق قال: قال لي الرشيد بعد قتل جعفر بن يحيى وصلبه: اخرج بنا ننظر إلى جعفر، فلما وصل إليه جعل ينظر ويتأمله وينشد: [المتقارب]

تقاضاك دهر ما أسلفا … وكدر عيشك بعد الصفا
فلا تعجب فإنَّ الزمان … رهين بتفريق ما ألفا

قال إسحاق: فنظرت إليه ثم قلت: يا جعفر أصبحت لنا آية وقد كنت في الجود غاية، فنظر إليَّ الرشيد كالجمل الصؤول: [السريع]

ما يعجب العالم من جعفرٍ … ما عاينوه فبنا كانا
من جعفر أو من أبوه ومن … كانت بنو برمك لولانا

وكان جعفر قد اتخذ دنانير للصلة زنة كل دينار مائة دينار ودينار، وكتب على أحد وجهيها: [المتقارب]

وأصفر من ضرب دار الملوك … يلوح على وجهه جعفر
يزيد على مائةٍ واحداً … إذا ناله معسرٌ يوسر[1]

ولما أوقع الرشيد بالبرامكة لم يجد لهم إلا القليل فسأل عن أموالهم فقيل له أذهبوها في المكرمات.

وقال إسحاق[2] بن صبيح: كنت يوماً أكتب بين يدي يحيى بن خالد في أيامه، فدخل عليه ابنه جعفر، فلما رآه أشاح بوجهه عنه وقطب وتكره رؤيته، فلما انصرف، قلت له: أطال الله بقاءك، أتفعل هذا بابنك، وحاله من أمير المؤمنين حاله، لا يقدم عليه ولداً ولا ولياً؟ فقال: إليك عني أيها الرجل، فوالله ليكون سبب هلاك هذا البيت[3]، فلما كان بعد مديدة أُخرى دخل عليه جعفر وأنا عنده، ففعل مثل فعلته الأولى، فأعدت عليه القول، فقال: أدنِ مني الدواة فأدنيتها فكتب إليَّ كلمات يسيرة في رقعة وختمها ودفعها لي وقال لي[4]: لتكن عندك فإذا دخلت سنة سبع وثمانين ومضى المحرم فانظر فيها، فلما كان في صفر أوقع الرشيد فيهم ما أوقع فنظرت في

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٤١.

(٢) ك: إسماعيل.

(٣) العبارة في ك: إليك عني أيها الرجل، فوالله لا يكون هلاك أهل هذا البيت إلاَّ بسببه.

(٤) «وقال لي» ساقطة من ت.

تلك الرقعة فكان الوقت الذي ذكره[1].

ثم ندم الرشيد على ما كان منه في أمر البرامكة، وتحسر على ما فرط منه في أمرهم، وقال لخواصه: لو وقفت بصفو نياتهم لأعدتهم، ثم كان أكثر ما يقول: حملونا على نصحائنا وكفاتنا وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم، فلما صاروا إلى مكانهم لم يغنوا شيئاً[2].

فهذه جملة من أخبار البرامكة وأيامهم، وكانت دولة الكرم[3]، وصولة الجود على العدم، وغاصت بعدهم بحور[4] السماحة، وغارت نجوم الفصاحة، وخف وقار الثبات، [٥٣] وجف ورق النبات، وأبى ضرع الكرم أن يَدِرَّ لحالب، ودر الحمد أن ينتقل لجالب، وطمست أقمار النادي، وحبست أمطار الوادي، وذهبت الأيدي والأيادي، وسكنت هماهم الأُسْدِ الغوادي وغل المعروف يده إلى عنقه، وغرَّ الساري المدلج وضوح طرقه، ونزفت رقاة أسرة، وزلت وقاة مضرة، ونسفت أطواد الحجى، وخسفت بدور الدجى، إلَّا بقية ذكر تلاقى أيامهم الذاهبة، ورم بخضاب البكاء عليهم لمم الدموع السائبة، فما ماتوا حتى أبقوا لهم ذكراً لا يموت وشكراً غير موقوت، حتى صار سمر الحاضر والبادي، والرائح والغادي، ولا يجري لهم ذكر في محفل إلَّا أثنى عليهم كل من حضر، ويصفهم ويثني إليهم عنان الثناء من يعرفهم ومن لا يعرفهم: [الكامل]

كفل الثناء لهم برد حياتهم ... لما انقضوا فكأنهم ما ماتوا

وأما بقايا وزراء الشرق، فمنهم:

١٧ ـ الربيع بن العباس[5]:

ولم يكن له رتبة وزارة ولا كتابة، وإنما كان حاجباً، وذكرناه في الوزراء

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٥٠.
(٣) ت: وكانت دولتهم الكريمة.
(٤) ت: نجوم.
(٥) كذا في الأصول، الصواب: بن يونس، انظر أخباره: خليفة، تاريخ: ٤٣٦، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ١٢٥ ـ ١٤٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٢٩٤، ابن الطقطقى، الفخري: ١٨٢-١٨٤، الذهبي ، تاريخ الإسلام حوادث (١٦١ ـ ١٧٠)، ص١٨٦، سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٣٥، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٤/ ٨٤.

لمؤازرته للخلفاء، ومشاركته في كثير من الأمور، وكان من الشيعة العباسية، وأخباره معروفة، وقد تخلل في تضاعيف هذا التصنيف ما هو حلية جيدة، وعليه صفاتٌ مجيدة.

ومنهم:

١٨ ـ ابنه الفضل بن الربيع(١):

وولي الوزارة لهارون الرشيد بعد البرامكة، وكان من أكبر الساعين في دمارهم، والمساعدين على خراب ديارهم، ثم ما سدّوا مسدهم، ولا بلغوا أشدهم.

وكان الرشيد قد عزم على الفِصَاد ثم قال لجلسائه: أي شيء تهدون لي؟ فقال كل رجل منهم: قد أعددت كذا وكذا، واحتال الفضل بن الربيع في التخلص إلى منزله، فرهن حقه من قطيعة الربيع عند عون الجوهري على تحفة سنية، وقال له: إني أريد أن أهديها إلى الخليفة، فصير لي منها عشرين بدرة جدداً في أكياس ديباج منجمة مفضَّضة، وكان عون الجوهري يحفظ للربيع يداً، فقال للفضل: أطابت نفسك أن تخرج عن جميع نعمتك [٥٤] في هدية يوم، فأعلمه أنَّ له عند الرشيد مواعيد، فقال عون: إنَّ عندي عبدين روميين أحدهما ناقد والآخر وازن، جميلي الصورة، مراهقين، وقد وهبتهما لك، وأحضر تابوت أبنوس محلى بفضة، وصير البدر فيه مع الطيارات والموازين والصنجات، ثم أقفله بقفل فضة، وغشاه بديباج، وكسا الغلامين من الديباج المذهب، وألبسهما المناطق الذهب المرصعة(٢) بالجوهر والمناديل المصرية ووجه بهما وبالتابوت المملوء بالبدر مع من يحمله إلى دار الندماء، فلما فرغ الرشيد من فصاده، قال(٣): اعرضوا علي هداياكم(٤) فقدمت هدية يحيى بن خالد وبنيه من فاكهة وشمام وما أشبه ذلك، وعرض غيرهم هداياهم.

---

(١) ابن حبيب، المحبر: ٢٦، خليفة، تاريخ: ٤٤٧، ابن قتيبة، المعارف: ٣٨٤، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٩٤، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/٣٧، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٢٠١ - ٢١٠]، ص٢٩٥، سير أعلام النبلاء: ١٠/١٠٩، ابن الطقطقى، الفخري: ٢٠٩، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٤/٣٨.

(٢) ت: المذهب المرصع.

(٣) ت: قد.

(٤) ت: هذا إياكم.

فقال الرشيد للفضل بن الربيع: أين هديتك يا عباسي؟ وبذلك كان يدعوه، فقال: أحضرها يا أمير المؤمنين، ثم قال للفراشين: احملوها فحملوها شيئاً راع الرشيد لما رآه، وكشفوا عن التابوت فاستحسنه، ثم أحضر الغلامان ففتح أحدهما القفل وأخرج الموازين والصنجات، وأخرج الآخر البدر وفتح بدرة ووزنها وشرع الآخر ينقد فلم يدر الرشيد ما يستحسن واستطار فرحاً، وأمر بحمل المال، وإدخال الغلامين إلى دار النساء ليفرقا المال على ما يأمرهما به.

ثم قال للفضل: ويلك يا عباسي من أين لك هذا؟ قال: ستعرفه يا أمير المؤمنين، فقال: والله لتقولن؟ فقال: بعت حقي من قطيعة الربيع لأسرَّك[1] لما رأيتك قد فصدت وأنت مغموم، فقال: والله لأسرَّنَّك، فقام فدخل إلى دار النساء وانصرف جعفر يجر رجليه[2].

وحكي عن الفضل بن الربيع أنه قال: صرت إلى يحيى بن خالد، فسألته حاجة فتعذر عليَّ فيها، فقمت وقلت: [الطويل]

متى وعسى يثني الزمان عنانه ... بتصريف حال والزمان غيور

فتقضى لبانات وتُسفى حسائف ... ويَحدث من بعد الأُمور أمور

قال: فقال يحيى: نعم يحدث الله من بعد الأمور أموراً، أقسمت عليك لترجعن[3]، وهذه الحاجة عليَّ في مالي إلى أن أكلم الخليفة فما بِتُّ حتى وافتني[4].

ثم أخذ الفضل بن الربيع في السعي على البرامكة، فلما آل أمرهم إلى ما آل كان الفضل بن الربيع ممقوتاً من الرشيد [٥٥] وسائر الناس، وحضر يوماً بعد نكبة البرامكة جنازة أم حمدويه بن علي، فذكر البرامكة، فأطراهم[5] ومدحهم ثم قال: كنا نعتب[6] عليهم فقد صرنا نتمناهم، ثم أنشد متمثلاً: [الطويل]

---

(١) ت: لأشتري لما رأيتك، ك: لأشترلي.

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٥٠.

(٣) ت: لترجع.

(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٥١.

(٥) ت: فأطراهم.

(٦) ت: نبعث.

عتبت على سلم فلما فقدته وجربت أقواماً بكيت على سلم[1]

وكان الفضل بن الربيع رجلاً سمحاً كريماً إلّا أنه كره لواقعة البرامكة، ولم يسلم إليه الرشيد خاتمه، ولا سلمه إلى أحد بعد البرامكة، بل كانت الكتب[2] تحضر إلى بين يديه ويختمها هو بيده[3].

وكان الفضل بن الربيع محافظاً على خدمة الرشيد وحضرته لا يبالي بما سوى ذلك، فضاع ما وراء بابه واختلت الأمور.

ثم كان هو القائم ببيعة الأمين وتدبيره، وسد خلله، وترقيع أموره، وهو الذي أخذ له البيعة لما مات الرشيد بطوس[4].

وأتاه أبو نواس فأنشده هذه[5]: [الطويل]

تعز أبا العباس عن خير هالك وأكرم ميت كان أو [هو][6] كائن

وفي الحي بالميت الذي غيب الثرى فلا أنت مغبون ولا الدهر غابن

ولم يكن عند الأمير إلّا حاجباً، ولكنه قام بكل الأمور وتحدث في سائر الملك.

وكان لأبي نواس إليه ميل وفيه يقول[7]: [البسيط]

لقد نزلت أبا العباس منزلة ما إن ترى خلفها الأبصار مطرحا

وكلت بالدهر عيناً غير غافلة بجودك تأسو كلّ ما جرحا

وفيه يقول ويذكر تمكنه من الأمين[8]: [الطويل]

لعمرك ما غاب الأمين محمد عن الأمر يغنيه إذا شهد الفضل

---

(1) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٦٢.

(2) ساقطة من ك.

(3) الجهشياري، الوزراء والكتاب، : ٢٦٢.

(4) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٦٥.

(5) أبو نواس، الديوان: ٥٨١.

(6) إضافة من الديوان.

(7) أبو نواس، الديوان: ٤٢٠.

(8) «لقد نزلت ... الأمين» ساقطة من ت، والشعر التالي في ديوان أبي نواس: ٤٤٩.

ولولا مواريث النبوة أنها ... له دونه ما كان بينهما فضل

ولهذا نقم المأمون عليه ثم صلح أمره معه فيما بعد.

وقد أكثر القراطيسي هجاءه فمما قال فيه[1]: [الهزج]

لئن أخطأت في مدحيـ ... ـكَ ما أخطأت في منعي[2]

لقد أحللت حاجاتي ... بوادٍ غير ذي زرع

[٥٦] ومنهم: دولة السهليين

١٩ ـ فمنهم الفضل بن سهل[3]:

ذو الرئاستين وزير المأمون، والقائم بأمره حتى استخلف، وثبت قواعد ملكه، وكان له مثل أبي مُسلم للسفاح، ولم يكن في وقته أبصر منه بالنجامة، وله فيها الأحكام العجيبة، والمصادفات الموافقة، فقل أَنْ أخطأ له حدس، وكذب له قول، مع ما كان له من وفور البلاغة، وعظم الشجاعة، وسماحة اليد، وسعد الجد، وإِضاءة الزند، وإضاعة الند إذا قيل إنه له ند.

ولما قتل طاهر بن الحسين[4] محمد الأمين، وأنفذ رأسه إلى المأمون، قال الفضل بن سهل: ما فعل بنا طاهر، سَلَّ علينا سيوف الناس وأَلسنتهم، أمرناه أن يبعث به أسيراً، فبعث به عقيراً. ثم أمر المأمون أن ينشأ كتاب من[5] طاهر يقرأ على الناس، فكتب عدة كتب لم ترض ذي الرئاستين، فكتب أحمد بن يوسف كتاباً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرق حُكم الكتاب بينهما في الولاية والحرمة لمفارقته عصمة الدين،

---

(١) الشعر في الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٩٩.

(٢) ت: معنى.

(٣) ابن طيفور، بغداد: ١١٨، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٠٥، المرزباني، معجم الشعراء: ٣١٣، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤١/٤، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٩٩/١، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٤٢/٢٤.

(٤) ت: الحسن.

(٥) ساقطة من ت.

وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، بقول الله جل اسمه فيما اقتص علينا ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[1] ولا صلة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله، وكتبت، وقد قتل الله المخلوع وأرداه رداء بغيه، وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظره من وعده، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظره من وعد[2] بمعلوم حقه، المكايد له خير عهده ونقض عقده حتى رد الله به الأُلفة بعد فرقها، وأحيا الأَعلام بعد دروسها، وجمع به الأُمة بعد شتاتها والسلام.

فلما عرضت النسخة على ذي الرئاستين رَجَّع نظره فيها، ثم قال لأحمد بن يوسف: ما أنصفناك ثم أجزل له العطاء[3].

وكان الفضل بن سهل سخياً سَرِيّاً، نبيل النفس، كثير الأفضال، يذهب مذاهب البرامكة في ذلك، وإنما كان غليظ العقوبة، مقداماً إذا أنكر، حَسن الرجوع إذا استعطف، وكان يبغض السعاة ويعصيهم، وإذا أتاه ساع، قال له: إن صدقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبناك، وإن استقلتنا أقلناك[4] [٥٧].

ومنهم:

٢٠ ـ أخوه الحسن[5] بن سهل[6]:

وتقلد الوزارة للمأمون، وكان كاتباً بليغاً، مفوهاً، لَسناً، لسانه من عصبه، وقلمه من سحبه، ولا يجري السير إلَّا على مدى قدمه، ولا يمضي السيفُ إلَّا بشبا قلمه،

---

(١) سورة هود، الآية ٤٦.
(٢) «أمره، وأنجز له ... وعده» ساقطة من ت.
(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٣٥.
(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٣٠٨.
(٥) ت: الحسين.
(٦) ابن حبيب، المحبر: ٤٨٩، ابن قتيبة، المعارف: ٣٨٧، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣٣١/٧، ابن العمراني، الإنباء: ٩٨، ابن الطقطقى، الفخري: ٢٢٠، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٣٠٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١٢٠/٢، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٢٣١ ـ ٢٤٠]، ص١٣١، سير أعلام النبلاء: ١٧١/١١، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٣٧/١٢.

يروي المسامع من كلامه الرقراق، وينسى بساعات محاضرته أيام الفراق.

وخطب المأمون إليه ابنته بوران واسمها خديجة، فقال: يا أمير المؤمنين إني وإن كنت عبدك، وكانت أمتك بوران، فإن الدهاقين لا يزوجون بناتهم إلَّا في منازلهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكمل تشريفي قصد منزله والذي ملكنيه، فعقد أمره فيه ودخل بها فأجابه إلى ذلك، وعمل عليه وقصد فم الصلح في شهر رمضان سنة عشر ومائتين في زورق ركبه من قصره حتى أرسى على باب الحسن بفم الصلح، وكان قد قدم العباس ابن المأمون على الظهر ومعه العسكر والثقل، فتلقاه الحسن فأومى الحسن لينزل وأومى العباس لينزل، وحلف كل واحد منهما على صاحبه، واعتنقا وهما على دوابهما، وأوفى المأمون فأكل هو والعباس بن المأمون ودينار[1] بن عبد الله قائماً على رؤوسهم حتى فرغوا من طعامهم، ثم دعا المأمون بشراب فأتي بجام من ذهب فيه شراب فشرب، ثم عقد العقد، ونثر الحسن في ذلك اليوم كل شيء له يجري على ملكه من الكراع، والرقيق، والبزاة، والكساء، والطيب، والضياع، والعقارات، والجواهر، والدنانير، والدراهم، وكان ذلك مبيناً كله في رقاع فيها ذكر هذه الأصناف، وجعلت في أكر عنبر ثم نثرت، وكان كل من التقط شيئاً من تلك الرقاع بصنفٍ صار إلى خازن ذلك الصنف فقبض منه.

ودخل المأمون ببوران بعد قدومه بستة أيام، وعندها حَمدونة وأم جعفر وجدتها أم الفضل بن سهل، فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدرر، فذكرت أنه ألف حبة فعدت فنقصت عشرة، فقال المأمون: من أخذها فليردها، فقال الحسين الخادم: أنا أخذتها، فقال له: ارددها، وأنا أخلفها عليك، فردها[2] فجمعه المأمون وجعله في حجرها، وقال لها: هذه نحلتك فاسألي حوائجك، فأمسكت، فقالت لها جدتها: كلمي سيدك فقد[3] أمرك [٥٨] واسأليه حوائجك فقد أذن لك، فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدي، وكان قد شخص معه في العسكر، ولم يظهر منه الرضا عليه،

---

(١) ك: الدينار.

(٢) «فقال الحسين ... فردها» ساقطة من ت.

(٣) ك: فقالت.

ففعل، وسألته في الإذن لأم جعفر في الحج ففعل، وجعلت عليها أم جعفر البدنة الأموية، وبنى بها المأمون في ليلته، وأوقد بين يديه في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منًّا، فأنكر ذلك وقال: هذا سرف، ووصل الحسن بعشرة آلاف ألف درهم من مال فارس، ففرقها في قواد المأمون وحَشمه، وأقام المأمون سبعة عشر يوماً يَعدُّ له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاجون إليه من جميع الأشياء، وخلع الحسن على جميع القواد والوجوه، ووصلهم، فتكون نفقته على جميع ذلك خاصة سوى ما أنفقه على تجهيز بوران، وما وصله به المأمون خمسين ألف ألف درهم، وكان نفقته على الجهاز ثمانية وثلاثين ألف ألف درهم(1).

قال ابن عبدوس: وكان الحسن بن سهل قد رتب أربعين بغلاً تنقل الحطب إلى حظائر أعدَّها له، وكانت تنقل في اليوم عدة مرار، فمكثت تنقل سنة كاملة، ولما أعرس المأمون ببوران استعمل ذلك الحطب أجمع وجميع ما قدر على سواه، واضطره الأمر إلى أن قطعوا سعف(2) النخل رطباً وصبوا عليها الزيت والأدهان وأوقدوها.

وفي زواج المأمون ببوران يقول إبراهيم بن العباس(3): [الطويل]

لِيَهنِكَ أَصْهَارٌ أَذَلَّت بعِزِّها ... خدوداً وجَدَّعْتَ الأُنوفَ الرواغما
جمَعْتَ بها الشملينِ من آل هاشم ... وحُزْتَ بها للكِسْرَوِينَ المَكارما
بَنُوك(4) غَدَوْا آلَ النبي وأورِثُوا الـ ... ـخلافةَ والجَاؤُوْنَ كسرى وهاشما

وحكى عنه محمد بن الجهم حكاية منها: أنه كان يسايره يعني الحسن حتى أتى داره ثم أمره بالنزول، وكان يوم نوروز، ثم قال له: إني قد جعلت لك كل شيء يهدى إليّ اليوم فأقم عندي فلا يد تقبضه، قال: فحصل في يدي ما قيمته ثلاثون(5) ألف دينار، فلما أمسينا وحضر وقت الانصراف قمت قائماً، وقلت: أعز الله الأمير، قد قبلت ما وهبته لي وقبضته، وقد وهبته لمحمد ابن الأمير، فقال لي: قد قبلها فانصرف مصاحباً فانصرفت، فلما كان في اليوم الثالث [٥٩] جاءني رسوله فأتيته، فقال لي إن

---

(١) ابن طيفور، بغداد: ١١٤.
(٢) ت: شعب.
(٣) «يقول إبراهيم بن العباس» ساقطة من ت.
(٤) ت: بكوك.
(٥) ساقطة من ت.

أمير المؤمنين طلب مني رجلاً يوجه به إلى مصر في شيء من أموره، وقد سميتك له، واستخرجت أمره لك بعشرة آلاف دينار صلة لك، ومائة ألف درهم لنفقة طريقك، وثلاثين رأساً من الظهر، فامض إلى أمره، ثم إن استطبت البلد فاكتب إليَّ حتى أقلدكه، وإن كرهته فاكتب إليَّ حتى أفعل ما أرى، فقبضت ما أمر لي به وشخصت حتى أتيت مصر ففرغت مما أُمرت به، ولم استطبها فبذل لي على الانصراف مائة ألف دينار فقبضتها، ثم كتبت إلى الحسن فأمر لي بعشرة آلاف دينار أخرى وأذن لي في الانصراف.

وقال أبو عيسى محمد بن سعيد: سمعتُ عبيدالله بن سليمان يقول: لم أر أحداً قط يقطع بسجلات غير الخليفة إلا الحسن بن سهل.

وعنه قال ابن غسان بن عباد: إنه حضر الحسن بن سهل يوماً، وقد أَعطى عطايا جزيلة عظيمة المقدار، فقال له غسان على سعة نفسه وأنه لما قدم من السند وصل بعشرة آلاف ألف درهم، فلم يبرح من دار المأمون حتى فرقها بأسرها: أيها الأمير لا خير في السرف، فقال له الحسن: متعت بك ولا سرف في الخير(١).

وعن يحيى بن خاقان قال، وكان يكتب للحسن بن سهل: مَر علي بن هشام برحل للحسن بن سهل، فأمر له الحسن بألف دابة، وتقدم إليَّ بالكتاب له بها، قال: فصادف علي بن هشام، فقال: إن الأمير قد أمر لي بألف دابة كما علمت، وفكرت فيها فإذا هي عيال لا أقوم بها، ولها علي مؤنة كبيرة لا أُطيقها، ولا يحسن بي أن أبيعها وهي عطية الأمير، وأحب أن تحتال لي فيها. قال: فلم يفرغ من كلامه حتى أتاني رسول الحسن بن سهل في المصير إليه، فلما دخلتُ عليه، قال: يا يحيى أَعلمت أني فكرت فيما أمرت به لعلي بن هشام، فوجدته كما يقول العامة رزقك الله فيلاً تعوله، وإنه ليس له فيها حظ فاكتب له مع الألف دابة ألف غلام، وأقم له إنزال الغلمان وعلوفة الدواب، قال: ففعلت [٦٠] ذلك(٢).

وقيل لأبي العيناء: ما تقول في الحسن بن سهل، [قال](٣): خلف آدم في ولده، فهو يسد خلتهم، وينقع غلتهم، ولقد رفع الله الدنيا من شأنها أن جعله من سكانها.

---

(١) ابن طيفور، بغداد: ١١٣.

(٢) الصفدي ، الوافي بالوفيات: ١٢/ ٤٠.

(٣) إضافة يقتضيها السياق.

وفيه يقول يوسف الجوهري الشاعر[1]: [البسيط]

لـو أنَّ عـيـن زُهـيـر أبـصـرت حَـسَـنـاً   وكـيـف يـصـنـع فـي أمـوالـه الـكـرم
إذاً لـقـال زهـيـر حـيـن يـبـصـره   هـذا الـجـواد عـلـى الـعـلات لا هَـرِمُ

فهذه جملة أخبار السهليين، وهم أوسع من البرامكة كرماً، وأنفع ديماً، وإن كان أولئك أطير صيتاً، وأشهر ذكراً محيياً مميتاً، إلَّا أن أولئك أرجح عقولاً وأنجح مأمولاً.

فأما عطاء[2] السهليين فبحور تعب عبابها، وتصب سحابها، لا يهابها أن تهب، ولا يوقد نار قرى إلَّا الذهب فما اصطلى بلهبها إلَّا من وصل بذهبها، وإذا قصدنا قصد الحق فأولئك فتحوا الباب لهؤلاء حتى دخلوا، وهؤلاء بنوا كما بنى أولئك، وفعلوا مثل ما فعلوا. إلَّا أن الحسن بن سهل امتدت أيامه إلى زمن المتوكل، ونزل عن تلك الرتبة التي علت على السماء مظهراً، ولم يرض در الكواكب لحليها جوهراً إلَّا أنه كان محفوظاً لهما تقدم أيام المأمون وكان يرعى له[3] الفضل بن مروان سالفة ذاك الأوان، فلما وزر ابن الزيات تقصده بسوء وتعمده بإخماد ضوء، ولم يتمكن منه جمة عقوبه، ولا قدر على تعديل الصدور من رتبه، فلم يلحقه قذى غضاضة، ولا أغض حلقه شجى مضاضة.

ثم نعود إلى تتمة ذكر الوزراء بالمشرق، فنقول:

ومنهم[4]:

٢١ ـ أحمد بن أبي خالد[5]:

وكان مبذول الطارف والتالد، لا يذمه[6] نزيل ولا ينصرف عنه.

ولما قُتل الفضل بن سهل قال له المأمون: إني كنت عزمت أنْ لا استوزر أحداً بعد ذي الرئاستين، وقد رأيت أن أَستوزرك، فقال: يا أمير المؤمنين اجعل بيني وبين

---

(١) الشعر في الصفدي، الوافي بالوفيات: ٤٠.
(٢) ساقطة من ت.
(٣) ساقطة من ك.
(٤) ساقطة من ت.
(٥) ابن طيفور، بغداد: ١١٨، ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/ ٩٧، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٨/ ٢٧٢.
(٦) ك: يتمه.

العامة منزلة يتأملها صديقي ويرجوها ويخافها عدوي ويحذرها ولا يقال بلغ الغاية[١]، وليس إلَّا الانحطاط. فاستحسن ذلك منه واستوزره[٢].

قال أحمد بن أبي خالد: لما قدمنا من خراسان مع المأمون وكنا بعقبة [٦١] حلوان وكنت زميله فقال لي: يا أحمد إني لأجد رائحة العراق، فأجبته بغير جوابه، فقال: ما هذا جوابي، ولكني أحسبك مفكراً، قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فيمَ فكرت؟ فقلت: في هجومنا على بغداد، وليس معنا إلَّا خمسون ألف درهم مع فتنة قد غلبت على قلوب الناس، كيف يكون حالنا إن هاج هيج أو تحرك متحرك، فأطرق ملياً ثم قال: صدقت يا أحمد ما أحسن ما فكرت ولكني أخبرك أن الناس في هذه المدينة ثلاث طبقات: ظالم ومظلوم ولا ظالم ولا مظلوم. فأما الظالم فليس يتوقع إلَّا عتابنا، وأما المظلوم فليس يتوقع إلا أن يُنصف بنا. ومن خرج منهما فمنزله يسعه فوالله ما كان إلَّا كما قال[٣].

وقال المأمون لأحمد بن أبي خالد وغسان بن عباد لما ظفر بإبراهيم بن المهدي: ما تريان فيه؟ قال أحمد بن أبي خالد: تعفو عنه، وقال غسان: تقتله. فقال أحمد بن أبي خالد لغسان: العفو قبيح أم جميل؟ فقال له غسان: جميل. فقال أحمد: يا أمير المؤمنين أولى الناس بأن يفعل من الجميل[٤] ما لم يسبقه أحدٌ لمثله، فكان من أمره ما كان[٥].

وحكى ابن عبدوس: أن رجلاً من وجوه الكُتَّاب كان يُقال له صالح بن علي الأجعم طالت به العطلة في أيام المأمون قال: فبكرت يوماً إلى أحمد بن أبي خالد مُغلِّساً لأكلمه في أمري، فخرج من بابه وبين يديه الشمع قاصداً دار المأمون، فلما نظر فيَّ أنكر بكوري، وعبس في وجهي، وقال: أَفي الدنيا أحد يبكر هذه البكرة ليشغلنا عن أمورنا؟ قال: فقلت له: أصلحك [الله] والله ليس العجب منك فيما تلقيتني به إنما العجب مني إذ سهرتُ ليلتي، وأسهرت جميع من في منزلي تأميلاً لك وتوقعاً للصبح

---

(١) ت: العامة.
(٢) ابن طيفور، بغداد: ١١٨.
(٣) ابن طيفور، بغداد: ١١.
(٤) ت: أولى الناس بالجميل ما لم يسبقه.
(٥) ابن طيفور، بغداد: ١٢٧.

حتى أَصير إِليك لأستغيثك، وعليَّ إن عدت وقفت لك بباب أو سألتك حاجة حتى تصير إليّ معتذراً، وانصرفت مغموماً بما لقيني به مفكراً فيه، متندماً على ما فرط مني من اليمين، غير شاكٍّ في العطب، فأنا كذلك إذ دخل عليَّ بعض الغلمان، فقال لي: الوزير أحمد بن أبي خالد مقبل إليك في الشارع، ثم دخل آخر، فقال: ها هو قرب من الباب، ثم تبادرت الغلمان بين يديه ودخل، فخرجت مستقبلاً له، فلما استقر به الجلوس قال لي: أمير المؤمنين أمرني بالبكور[1] إليه في بعض مهماته، فدخلت إليه وقد غلبني السهو بما فرط [٦٢] إليك مني حتى أنكر عليَّ فقصصت عليه القصة، فقال لي: قد أسأت بالرجل امضِ إليه معتذراً مما قلته له، [فقلت][2]: أفأمضي إليه فارغ اليدين؟ فقال: فتريد ماذا؟ قلت: تقضي دينه.

فقال: كم هو؟ فقلت: ثلاثمائة ألف درهم، فأمرني بالتوقيع بها فوقعت بها، ثم قلت: فإذا قضي دينه رجع إلى ماذا، قال: فوقع له ثلاثمائة ألف درهم أخرى يصلح بها أمره، فقلت: فولاية يُشرف بها. قال: وله مصر أو غيرها مما يشبهها، فقلت: فمعونة على سفره، فأمر لي بتوقيع بمائة ألف درهم، وهذه التوقيعات لك بسبعمائة ألف درهم، والتوقيع بولاية مصر، ودفعها إليّ وانصرف، وكان نهماً في الأكل فأجرى عليه المأمون في كل يوم لما يريد ألف درهم، ومع هذا لم يكف نهمه ولا شغلت فمه[3].

ومنهم[4]:

٢٢ ـ عمرو بن مَسْعَدة[5]:

أحد كُتَّاب المأمون في وزرائه، وله مكانة ومنزلة عنده واعتمد عليه المأمون في وزارته بعد أحمد، وقلده أمره، وكان من البلغاء الذين إليهم يشار، وبنان كأنه الأذى

---

(١) ك: بالرنكور.

(٢) إضافة يقتضيها السياق.

(٣) ابن طيفور، بغداد: ١٢٦، وبه الخبر مختصراً والصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٦٦/١٦ وفيه الخبر بطوله. وهو غير موجود في المطبوع من الوزراء والكتاب للجهشياري.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٢٧٥، المرزباني، معجم الشعراء: ٢١٩، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢١٦، ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٤٦/ ٣٥٢.

المشار.

وحكى ميمون بن هارون: أن رجلاً مر بقصر عمرو بن مسعدة بعد بنائه بأيام، فقال: ألا أُخبركم ما أنفق على هذا القصر، فقال: أربعة وعشرون ألف ألف درهم.

ومما استجاد له قوله: أمَّا بعد، فإنك لن تعدم من معروفك عندنا أمرين: أجراً من الله وشكراً منا، وخير مواضع المعروف ما جمع الأجر والشكر.

ومنه كتاب كتبه إلى المأمون وهو: كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما يكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم وانقياد كفاة واجب تراخت أُعطياتهم واختلت لذلك أحوالهم والتاثت معه أمورهم. وكان المأمون معجباً بهذا الكتاب وكان يقول: استحساني إياه بعثني أن أمرت للجند قِبَلَهُ بعطاياهم لسبعة أشهر وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حلَّ محله في صناعته[1].

وكتب إلى بعض أصحابه في حق شخص يعز عليه: أما بعد: فوصل كتابي هذا إليك سالم والسلام. أراد بها قول الشاعر: [الطويل]

يديرونني في سالم وأديرهم ... وجلدة بين العين والأنف سالم

يعني أنه حلَّ مني هذا المحل[2].

ومن كتاب كتبه إلى رئيس تزوجت أمه فساءه ذلك: الحمد لله [٦٣] الذي كشف عنا ستر الحيرة، وهدانا لستر العورة، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة، ثم أتم على هذا كتابه، وقد ساق ابن خلكان هذه الرسالة بتمامها في ترجمة ابن مسعدة ثم ذكر بيتين ذكرهما أنهما لابن عباد الصاحب في معناها[3] وهما[4]: [المتقارب]

عذلت لتزويجه أُمهُ ... فقال فعلت حلالاً يجوز

فقلت صدقت حلالاً فعلت ... ولكن سمحت بصدع العجوز

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٧٨.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٧٧.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧.

(٤) الصاحب بن عباد، الديوان: ٢٣٦.

واعتل عمر فقال[1]: [البسيط]

قالوا أبو الفضل مُعتلٌ فقلت لهم نفسي الفداء له من كل محذور
يا ليت علَّته بي غير أن له أجر العليل وأني غير مأجور[2]

ومرض فعاده المأمون فتلقاه عمرو، وقد كان أبل من علته فقال مروان بن أبي حفصة[3]: [الهزج]

صح الجسم يا عمرو لك التمحيص والأجر
ولله علينا الحمد والمنة والشكر
وقد كان شكا شوقاً إليك النهي والأمر
وها قد جاءك المأمون فأبشر قد نأى الضُّر

وكتب حميد الطوسي إلى عمرو بن مسعدة: [الوافر]

ونستعدي الأمير إذا ظلمنا فمن يعدي إذا ظلم الأمير

ونحن نعوذ بالله ممن ظلم صاحب المظالم، فوقع على رقعته[4]: وأنا أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ومن فضوله، وأنا أُحب أن يتقرر عندك أن أملي فيك أبعد من أن أَخْلِسَ الأُمور منك اختلاس من يرى في عاجلك عرضاً من آجلك وفي الذاهب[5] من يومك بدلاً من المأمول[6] في غدك.

ومنها: ذو الحرمة ملوم على فرط الدالة كما أنَّ[7] المحترم به مذموم على التنائي والإذالة، ومن مذهبي الوقوف بنفسي دون الغاية إلى تقدمني إليها حتى الأمرين أَحدهما أن الرضى بدون الحق أزيد في الحق، والثاني أني أرى النفس من الحظ زهيداً إذا أتى من جهة الإرهاق، ولي ذمام المودة الصادقة التي يتبعها كل حرمة، وحث

---

(١) في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٧٧ «وقال محمد البيدق النصيبي».
(٢) الخبر والشعر في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٧٧.
(٣) مروان بن أبي حفصة، الديوان: ٣٥.
(٤) ساقطة من ك.
(٥) ت: المذاهب.
(٦) ت: المأمون.
(٧) ت: «الدالة كمال المحترم».

الشكر الذي جعله الله وفياً بالنعم، وأنت فمعدن المعالي وبقية [٦٤] الكرم، فأي سبيل للغدر أم أي موضع للإكدار بين حرمتي وعنايتك وذمامي وكرمك.

ومنها: كتابي إليك كتاب واثق بمن كتبتَ إليه معين بمن كتبتُ له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله.

ووعد عمرو بن مسعدة ماني الموسوس شيئاً، فطلبه فجاءه ماني فوقف بين يديه وأنشد يقول: [البسيط]

هذا ابن عمرو بعبد الله كنيته — والجد مسعدة إيها لَهُ إيها
لا عيب بالمرء إلَّا أن زوجته — غضبى عليه لشيء ليس يرضيها
يودها إنما يجري بفقحته — من المني وإن لم يكفها فيها

ولما سمع ذلك ابن مسعدة من ماني قال: صدق والله إيها لعمرو إيهاً.

وكانت بينه وبين إبراهيم بن العباس الصولي مدة مودة صحبا بها وما بينهما على أحسن حال، فحصل لإبراهيم ضيق يد لبطالة طالت، فبعث له عمرو مائة ألف، فكتب إليه إبراهيم: [الطويل]

سأشكر عمراً ما تراخت منيتي — أيادي لم تُمنن وإن هي جلَّت
فتًى غير محجوب الغنى عن صديقه — ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلَّتي من حيث يخفى مكانها — فكانت قذى عينيه حتى تجلت[1]

وذكر ميمون بن هارون أنَّ عمرو بن مسعدة خلف ثمانية عشر ألف ألف درهم سوى الأمتعة والكراع والعقار، وبنى قصراً أنفق عليه أربعة وعشرين ألف ألف درهم[2].

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٧٨.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٧٩.

ومنهم[1]:

٢٣ ـ أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح[2]:

الكاتب في دولة المأمون والصاحب الذي لا تحد به الظنون. وكان المأمون يعلمه بتقدم أحمد بن يوسف في البلاغة إذا احتاج إلى كتاب يظهره أمر بكتابته. وكتب بين يديه مرة فاستحسن خطه فقال له: لوددت أني أكتب مثل خطك وعليَّ صدقة ألف ألف درهم. فقال له: لو كان في الخط حظ ما حُرِمَهُ رسول الله ﷺ.

وقال أحمد بن يوسف: أمرني المأمون بالكتابة إلى جميع الآفاق بإيقاد المصابيح في جميع المساجد، فلم أدر كيف أكتب فإنه لم يكن أحد سبقني إلى الكتابة في مثل ذلك فأسلك طريقه فنمت في وقت القائلة، وأنا مشغول [٦٤] القلب لذلك، فرأيت كأنَّ قائلاً يقول لي: اكتب فإن في ذلك أنساً للسائِلة وإرضاءةً للمتهجدة، ونفياً لمكامن الريب وتنزيهاً لبيوت الله عز وجل عن وحشة الظُّلم[3].

ومن شعره[4]: [المنسرح]

كم ليلة فيك لا صباح لها ... أحييتها قابضاً على كبدي
قد غَصَّت العين بالدموع وقد ... جعلت خدي على بنان يدي
وأنت نامت عيناك في دعة ... شتان بين الرُّقاد والسُّهُدِ
كأن قلبي إذا ذكرتكم ... فريسةٌ بين ساعدي أَسدِ

وعن محمد بن عبدالملك قال: وَهبَ لي أحمد بن يوسف الكاتب على ظهر يد ألفي ألف درهم تفاريق.

قال موسى بن عبدالملك: قال لي أحمد بن يوسف في يوم مهرجان: اكتب إلى الخليفة رقعة مع هذا اللطف، وكان قد أعد شيئاً بهدية إليه فكتبت فأطلت، فقال: ما أحمله أمير المؤمنين من ثقل قراءة هذه الرقعة الطويلة يثقُل كلما أتحفه به، ثم أخذ

(١) ساقطة من ت.
(٢) ابن طيفور، بغداد: ١٢٨، الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٣٠٤، ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/ ١١٤، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٨/ ٢٧٩، ابن العديم، بغية الطلب: ٣/ ١٢٧٢.
(٣) ابن طيفور، بغداد: ١٢٩.
(٤) الشعر في الصفدي، الوافي بالوفيات: ٨/ ٢٨٢.

الدواة فكتب: جرت العادة في مثل هذا اليوم بإلطاف العبيد السادة، وقد بعثت بكذا وكذا.

واحتاج المعتصم بعظم اختصاص أحمد بن يوسف بالمأمون إلى العمل على إسقاط منزلته عنده على ما ضمنه لمحمد بن الجليل إذا فعل ذلك حتى عمل على إسقاط منزلته، ثم قبض من المعتصم ما كان وعده به[1].

ومنهم[2]:

٢٤ ـ أحمد بن الضحاك الطبري:

ختمت برؤياه المروءة، وأقسمت لا تبرح، وعقلت حوله مطيها وحلفت لا تسرح، وأبهمت على غيره معانيها وأبت أن تشرح.

وكان يتقلد[3] للمأمون ديوان البريد والرسائل والتوقيع، ثم جهزه إلى عبد الله بن طاهر، فخرج من خراسان ومعه مائة بغل تحمل الثقل، ومائة دابة لمركوبه، ومائة غلام أتراك سوى من معه من الفرسان والغلمان وغير ذلك من الصامت والناطق، فسرّ به ابن طاهر وخلع عليه ودفع إليه خاتمه وأمره أن يتقلد الأمور على ما يرى، ثم وقع بينهما، فحلف لا يتولى لابن طاهر عملاً، وحلف ابن [٦٦] طاهر لا يوليه عملاً، فانصرف أحمد بن الضحاك نحو العراق. ودس عليه ابن طاهر من أفسد غلمانه فاشتراهم منه بمائة ألف درهم، وكانوا قد تقوموا عليه بنحو ألف ألف درهم كل غلام بعشرة آلاف درهم وما قاربها.

ومنهم[4]:

٢٥ ـ أبو عباد:

واسع الكرم لولا ضيق خلقه، وحرج صدره ونزقه، وكان يكتب هو وعمرو بن مسعدة للمأمون. قال أبو عباد: دعاني المأمون يوماً فأعطاني كتاباً وأمرني أن آتي عمرو بن مسعدة وآخذ خطه بجوابه، ثم أدع الكتاب عندي، ولا أذكره للمأمون إلّا إن

---

(١) ابن طيفور، بغداد: ١٣١.
(٢) ساقطة من ت.
(٣) ساقطة من ت.
(٤) ساقطة من ت.

ذكره لي، فعلمت أنها مرافعة، وخفت أن يكون لي فيها تعلق، فإنني قد كنت شاركت عمراً في أشياء كثيرة أخذتها أنا وإياه.

قال: فأتيت عمراً فوجدته يلعب بالشطرنج، فعرفته أنني أحتاج إلى الخلوة. فقال: دعني حتى أفرغ هذا الدست، فضاق صدري وقلبت الشطرنج، وقلت: قد سال بنا السيل وأهلكنا، وأنت تلعب، ثم أقرأته الكتاب فضحك وقال: ويحك أما تستحي أن تخدم رجلاً هذه المدة ولا تعرف خلقه، فقلت: يا هذا كيف تقدر تجحد، ولو جحدت كل شيء ما تقدر تجحد كذا وكذا، وأنا قد شاركتك فيه، فأما أنت فمهما شئت فقل، وأما أنا فوالله لا أجحد وأصبر لأمر الله عز وجل. فقال لي: أفتريد أن أطلعك على أشد من هذا. قلت: وما هو؟ قال: كتاب دفعه إليّ المأمون منذ سنة، وأمرني فيه بمثل ما أمرك في هذا الكتاب، فعرفت ضيق عطنك فما قلت لك عنه، فكدت أموت، ثم سألته أن يوقفني على ذلك الكتاب فأحضره فقرأته وأنا أنتفض وهو يضحك، وكان الذي علينا فيها سبعة وستون ألف ألف درهم، عليه هو أربعون ألف ألف درهم، وعليَّ سبعة وعشرون ألف ألف درهم، فقلت له: قتلتني والله وقتلت نفسك أتظن أنَّ المأمون يَدع لنا هذا المال؟ أما أنا فأحتسب نفسي عند الله، وأما أنت فاكتب الجواب، فكتب: لو قصرت بنا هممنا عن هذا المقدار وأضعافه لوسعتنا منازلنا، وما بقي هذا بدلجة في بردٍ، وتهجير في حروراء وأرجو أن يطيل الله بقاء أمير المؤمنين ونلقى ما يؤمله به على يده، ثم قال: يا هذا إنَّ صاحبنا ليس ببخيل، ولكنه رجل يكره أن يعين [٦٧] معروفه فأراد أن يعلمنا أنه قد علم بما صار إلينا، وسامحنا به على علم منه، ثم إنه ختم الكتاب بخاتمه فأخذته، وانصرفت وأنا في المَوت وبقيت سنة كاملة قلقاً مهموماً مغموماً لا أكاد آكل ولا أشرب حتى بان عليّ الضعف، فرآني المأمون فقال: ما لك هكذا؟ فقلت: من الكتاب الذي دفعه إليَّ أمير المؤمنين، فقال: أمسك عليك حتى أعيد ما جرى بينكما فيه. ثم قص الحديث حتى كأنه حاضره، فقلت: هكذا كان والله يا أمير المؤمنين، ولقد استقصى لك الذي وكلته بخبرنا، فقال: والله ما قال لي هذا أحد، ولكني ظننته وعمرو أعلم بنا منك، فدعوت له وقلت: فما أصنع يا أمير المؤمنين بذلك الكتاب[١]. قال: خرقه في لعنة الله، وامض آمناً مصحوباً في ستر الله.

---

(١) «بذلك الكتاب» ساقطة من ت.

ومنهم[1]:

٢٦ ـ المعلى بن أيوب[2]:

وكان قليل العيوب، جليل الأسلوب، لا يعدل أحد وزنه الراجح، ولا يفضل سعيه الناجح، واستكتبه المأمون على الجيش، وأجرى له عليه كل سنة ألف ألف درهم، فخدم عشر سنين ارتزق فيها عشرة آلاف ألف درهم، ثم علت حاله، وكثر ماله، وحَسُن في سعة الحال ماله.

ومنهم[3]:

٢٧ ـ عمرو بن يمنوى:

وكان لو يقلب في التراب لانقلب ذهباً، أو دعا الآبي الممتنع لما أبى، ولو حلق به إلى الوهاد حالت ربى.

وكان من كتاب المأمون وسلمه إلى الفضل بن مروان ليصادره، فرفق به فبذل عشرين ألف ألف درهم، فقال له الفضل: بل يكفي عشرة آلاف ألف، فكتب بها خطه، وبلغ المأمون رفق الفضل به، فسلمه إلى غيره فعاقبه أشدَّ العقاب، فلم يسمح إلّا أن كتب خطه بثلاثة آلاف ألف كأنه يعلمه أنه لو كان مستمراً عنده لما كتب بهذا المبلغ، فقال الفضل: يا أمير قد كنت بلغت بالرفق ما لا بلغه هذا بالعقوبة وعرفه بالخبر وأراه الخط الأول، فعجب المأمون من أمرهما ثم قال: والله لا كنتما أكثر مروءة مني ثم أمر بمسامحته وإطلاق سراحه.

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) انظر عنه الطبري، تاريخ: ٩/٣٨٧، ٤٢٨، ياقوت، معجم الأدباء: ٣/٢٨٨.

(٣) ساقطة من ت.

ومنهم[1]:

٢٨ ـ الفضل بن مروان وزير المعتصم[2]:

وكان محصوصاً[3] ناقصاً، إلَّا أنه كان ذا مروءة لا تصدع مروتها، ولا تحل حبوتها، يرعى الذمم القديمة لأهلها، ويرى لها سابقة فضلها.

وكتب عن المعتصم إلى المأمون في فتح تفليس: وكتابي إلى المأمون كتاب منه للخبر لا مُعْتدٍّ بقيام ولا أثر[4].

وتوجه مع المعتصم إلى مصر زمان المأمون لرتق فتقها، وترقيع خرقها، فكتب عنه ألف أمان أخذ في كل أمان منها مائة[5] دينار، وحصل كاتبه منها مائة ألف دينار، ولما مات المأمون قام بأخذ بيعة المعتصم ثم كان يُسرف في الدالة عليه، ويعارضه في شهواته ولذاته، ويمنعه من الإنفاق والتحرق فيما يجب الإنفاق فيه، فثقل عليه مكانه، فنكبه وأخذ جميع ماله ونسي ما مضى من صالح أعماله[6].

ومنهم[7]:

٢٩ ـ محمد بن عبدالملك الزيّات[8]:

وزير المعتصم واتصل به اتصالاً لا ينفصم، وكان ينكر أن يخاطبه باسم الوزارة، ويقول: لست بوزير إنما أنا مدبر جيش.

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٤٥، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٤/ ٦٤.

(٣) ت: محظوظان. والمحصوص: المشؤوم.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٤٥ ـ ٤٦.

(٥) «منها مائة» ساقطة من ت.

(٦) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٤/ ٦٥.

(٧) ساقطة من ت.

(٨) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ٤٧٨، الطبري، تاريخ: ٩/ ٢٣١. المسعودي، التنبيه والإشراف: ٣٠٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ٩٤، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث [٢٣١ ـ ٢٤٠]، ص٣٣٣، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٥/ ٣٢.

وكان سهل اللقاء لا يحتجب إلَّا أنه كان ظلوماً غشوماً، فلا يزال لائماً وملوماً، وكان يقول: الرحمة خور في الطبيعة، ويمنع الشفاعات إليه، ويسد أبواب الذريعة، واتخذ تنوراً من حديد ليعذب فيه الناس فما أفرغ حتى أمسك فيه، وجزاه الله شؤماً كان ينويه.

ومات لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.

وكان المتوكل قد قبض عليه وحبسه وأخذ جميع أمواله وعذبه بالسهر، ثم جعله في التنور الذي كان هو صنعه، وعذب فيه ابن سباط المصري وأخذ أمواله.

وكان محمد بن عبدالملك بليغاً وقع لرجل قلده البريد: اجعل الصدق شعارك، وتجنب الكذب فإن فيه بوارك، ولا تقتحمن أمراً إلَّا بعد تثبت، ولا تكتبن به إلا بعد بحث عنه وتصحيح له وترجيح لنقله ولمن نقله لتجب الحجة به لك وعليك.

وكتب إلى صديق جفاه: إن اعتللت عليَّ بأشغالك، فإن حقي قسيم تلك الأشغال، فإن كانت في خاص نفسك فإن أداء الحق لإخوانك والصلة لأودائك أعظم اختصاصاً بك وأليق بوفائك، وإن كانت في عامة أمرك فإن تقديم ما يلزمك [٦٩] أداؤه أَدبر بك وأَدنى لقربك.

وله شعر جيد، فمنه ما كتب مع شراب أهداه لصديق له في سفر: [مجزوء الكامل]

ما أن ترى مثلي أخاً ... أندى يداً وأدرَّ جودا
تهدى إليك إذا خلون ... سُلافة تذكى وقودا
صفراء صافية كأن ... على جوانبها العقودا
خذها إليك كأنما ... كسبت زجاجتها فريدا
اسق الصديق ببلدة[1] ... لم يرو فيها الماء عودا

ومنها قوله: [مخلع البسيط]

لا تشتكي هواك إلَّا ... إليك لو ينفع التشكي
فرغت لي في إسار قلبي ... ثم تشاغلت عند فكي

ومنه قوله: [الكامل]

(١) ت: ببدله.

كـتـبـت عـلـى فـصٍّ بـخـاتـمـهـا ... مـن مَـلَّ مـن أحـبـابـه رقـدا
فـكـتـبـت فـي فـصّـي لـيـبـلـغـهـا ... مـن نـام لـم يـشـعـر بـمـن سَـهـدا
قـالـت يـعـارضـنـي بـخـاتـمـه ... والـلـه لا كـلـمـتـه أبـدا

ومنه قوله يرثي جارية توفيت وخلفت له طفلاً بعدها: [الطويل]

ألا مـن رأى الـطـفـل الـمـفـارق أمـه ... بـعـيـد الـكـرى عـيـنـاه تـنـسـكـبـان
فـهـبـنـي عـزمـت الـصـبـر عـنـهـا لأنـنـي ... جـلـيـد فـمـن بـالـصـبـر لابـن ثـمـان
ضعيف القوى لا يعرف[1] الأجر حسبة ... ولا يـأتـسـي بـالـنـاس[2] فـي الـحـدثـان
ألا من إذا مـا جـئـت أكرم مـجـلـسـي ... وإن غـبـت عـنـه حـاطـنـي وكـفـانـي

ومن شعره قوله في الشيب وأجاد ما شاء: [مخلع البسيط]

وعـائـب عـابـنـي بـشـيـب ... لـم يـعـد لـمـا ألـم وقـتـه
فـقـلـت إذا عـابـنـي سـفـاهـا ... يـا عـائـب الـشـيـب لا بـلـغـتـه

ومن شعره قوله في ابن أبي دواد وقد رآه قائماً يصلي، وكان بينهما عداوة: [الكامل] [٧٠]

صلى الـضـحـى لـمـا اسـتـقـاد عـداوتـي ... وأراه يـنـسـك بـعـدهـا ويـصـوم
لا تـحـمـدن عـداوة ربـطـهـا ... تـركـتـك تـقـعـد تـارةً وتـقـوم

وقال وقد أدخل التنور الذي صنعه ليعذب الناس فيه: [البسيط]

هـو الـسـبـيـل فـمـن يـوم إلـى يـوم ... كـأنـه مـا تـريـك الـعـيـن فـي الـنـوم
لا تـعـجـبـن رويـداً إنـهـا دولٌ ... دنـيـا تـنـقـل مـن قـوم إلـى قـوم

ولما أتى إبراهيم الصولي خبر موته قال[3]: [الرجز]

ولـمـا أتـانـي خـبـر الـزيـات ... وأنـه قـد عُـدَّ فـي الأمـوات
أيـقـنـت أن مـوتـه حـيـاتـي

وكان ابن الزيات صديق الصولي فلما ولي ابن الزيات الوزارة صادر الصولي بألف ألف درهم.

---

(١) «لا يعرف» ساقطة من ك.

(٢) ك: به الناس.

(٣) إبراهيم بن العباس، شعر إبراهيم: ١٨٢.

فقال الصولي[1]: [المتقارب]

وكنت أذم الزمان إليك[2] فأصبحت منك أذم الزمانا
وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا

ومنهم:

٣٠ ـ بنو خاقان:

وكانوا في دولة المتوكل نوافذ سهامها، ونوابت أقلامها، بيدهم ملك أمامها، وملك زمامها[3]، وكانوا أبواب الخلافة، وبالفتح فتحها، وزمانهم أوقات الأسحار ووجوههم صبحها، وكان الفتح[4] صدر تلك الأيام الجوالي الخوالي، والليالي المفخمة[5] المضمخة بأزين مما تنقش الغواني بالغوالي. وكان مصاحب[6] خليفتها، وصاحب وظيفتها، وبأمره منعها ومنحها، وعقابها وصفحها.

وكان المتوكل لا يقدر على مفارقته، ولا يتأنس إلَّا بموافقته وصحبته، وكان مجراه منه مجرى الأخ أو أقرب، لا يلتذ بغير حضوره ولا يطرب، حتى أطلعه على أموره وحرمه، وأسكنه معه في دور حُرمه، وأشركه في شائع أموره، وسائر غمومه وهمومه[7] وسروره، وكان يحضر معه مجلس الأنس حيث يطرح مؤنة التحفظ. ويؤمن معرّةُ التلفظ، ويجالسه في منارة الأفراح ويراضعه في مراشف الأقداح، وتطوف عليهم سُقاتها تحمل نوار، وتعاطي ريقه ما أبقت للغواني سوار، وذلك مجلس [٧١] كان بعد جعفر بن يحيى قد سُدَّ على الوزراء بابه، وأرخي عمن دون الندماء حجابه، حتى كفل

(١) «فقال الصولي» ساقطة من ت والشعر في إبراهيم بن العباس، شعر إبراهيم، ص١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) ساقطة من ت.

(٣) «وانوابت أقلامها ... زمامها» ساقطة من ك.

(٤) اليعقوبي، تاريخ: ٢/٤٩٢، الطبري، تاريخ: ٩/ ٢٢٤ ـ ٢٢٨، المرزباني، معجم الشعراء: ٢١٨، ابن الطقطقى، الفخري: ٣٢٦، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٣/ ١٧٧، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٢٤١ ـ ٢٥٠]، ص ٣٨٩.

(٥) ساقطة من ت.

(٦) ت: مصابح.

(٧) ساقطة من ت.

الفتح له كفايته، واستدرك فائته، وأقعده المتوكل معه على طراحته، وساهمه في اغتنام راحته، حتى كان له في القتل مشاركاً، وقتل معه وقال: اقتلوني ومالكاً[1]، فساووه حتى ختم أيامه بأيامه، وساقاه حتى شرب معه كأس حمامه، فقتل معه وطرح موضعه وقالت الأتراك: إن الفتح قتل المتوكل، وأنه أُخذ به وقُتل، بل هم قتلوهما وعرفوهما ثم جهلوا فحملوهما[2].

وكان البحتري كثير المدح لهما. ومن شعره في مدح الفتح بن خاقان[3]: [الوافر]

لقد أجرى الوزير إلى خِلالِ ... من الخيرات زاكية العِدَادِ
يحل بذكره عُقَدُ النواحي ... ويفتح باسمه أقصى البلاد
إذا أمضى عزيمته لخطب ... كفاهُ العفو دون الاجتهاد

وفيه يقول، وكان قد عبر النهر فكاد يغرق[4]: [الكامل]

لعمرك ما الدنيا بناقصةِ الجَدَا ... إذا بقي الفتح بن خاقان والقطر
غمام سماح ما يَغب له حَياً ... ومِسعَرُ الحرب ما يضيع له وتر
وما لي عذر في جحودك نعمة ... ولو كان لي عذر لما حسن العذر
لقد كان يوم النهر أتى عظيمة ... أَطلَّت ونعماءٍ جرى بهما النهر
وجُزتُ عليه عابراً فتساجلت ... أياديه لما طمى فوقه البحر

وفيه يقول[5]: [السريع]

قد جاءَ نصر الله والفَتْحُ ... وشَقَّ عنَّا الظُّلمة الصُّبحُ
وكل بابٍ للندى مغلق ... فإنما مفتاحه الفتح

وفيه يقول[6]: [الخفيف]

ما نبالي يد الوزير استهلت ... أم رأيت العقيق سالت شعابه

---

(١) إشارة إلى قول عبد الله بن الزبير في معركة الجمل أثناء مبارزته لمالك الجعفي المشهور بالأشتر.
(٢) الطبري، تاريخ: ٩/٢٢٨.
(٣) البحتري، الديوان: ١/٣٥٨.
(٤) البحتري، الديوان: ١/٤٧١.
(٥) البحتري، الديوان: ١/٢٩٥.
(٦) ليست في الديوان.

بين حق ينوبه يصرف القصد إليه ومعتف ينتابه

وفيه يقول: [٧٢] يمدحه ويُعاتبه[١]:

علـى أي أمرٍ مُشْكِلٍ أتلـوَّمُ أُقيمُ فأَثْوي أم أَهُمُّ فأَعْزِمُ
وما منع الفتح بن خاقان نيله ولكنَّها الأقدار تُعطي وتحرم
سحابٌ خَطَاني جوده وهو مسبل وبحر عداني فيضه وهو مفعم
وبدرٌ[٢] أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رجلي منه أسود مظلم
أأشكو نداه بعد ما وسع الورى ومن ذا يذم الغيثَ إلَّا مذمَّمُ

٣١ ـ ومن الخاقانيين: عبد الله بن يحيى[٣]:

وهو من أركان هذا البيت، وأغصان هذه الشجرة، وله أخبار مسيرة، وآثار كأنها بسواد الخلان على صفحات الخدود مسطرة، أو من الدر الثمين مسورة، وكان ممن أُبعد بَعْدَ مقتل الفتح بن خاقان ممن أبعد من أهله، فإنه لما ولي المنتصر أَحاط بهم إلَّا من واراه الاستتار، أو أداه الرأي طريق الفرار. وكان عبد الله بن يحيى بن خاقان وزير التدبير. أما الفتح ففوق رتبة الوزير.

ولما أراد المتوكل أن يوزر عين به فيمن عين فقال له: اكتب ليرى خطه، فقال له: أي شيء أكتب؟ فقال: اكتب ما شئت، فكتب بعد الافتتاح: نصر من الله وفتح قريب ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[٤] فأعجب المتوكل بذلك فقدمه ثم وزره، وكان مخصوصاً وفيه جرية وكرم، ودهاء وحيل وحلم، يقيل العثرات، ويتغمد الذنوب الكبار[٥].

---

(١) البحتري، الديوان: ٢/٤١.

(٢) ت: وبدراً.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب: ٢٥٤، ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد: ٢/١٥٧، ابن الطقطقى، الفخري: ٢١٦، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/٣٥١، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١٣/٩، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٩/٤١٧.

(٤) سورة الفتح، الآية ١.

(٥) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد: ٢/١٥٨.

عرض رجل به وهو في موكبه، فأخذ بلجام دابته، وقال له: يا زنديق، قال: كذبت ما عبدت غير الله قط، قال: يا فاسق، قال: كذبت ما أنا بفاسق، قال: يا كذاب، قال: صدقت يضطرونا إلى أن نكذب، خل اللجام وانصرف ثم أمر بقضاء حاجته ولم يدع أحداً يعرض له ممن كان معه، وعجب من حضر من حلمه[1].

وكان له أعوان تعينه على أموره فلا يقف به حال، ولا يتأخر له طلب، وامتدت أيامه إلى زمان المعتمد وكانت له بها دولة.

ومنهم:

٣٢ ـ جماعة الوهبيين:

وكانوا أهل مواهب، ولهم في فصاحة اللسان وسماحة [٧٣] البنان مذاهب، إن كتبوا كبتوا الأعداء، وإن وهبوا أخجلوا على الأرض الأنداء. وفيهم يقول أبو تمام[2]: [الخفيف]

كل شعب كنتم به آل وهبٍ ... فهي شعبي وشِعْبُ كلِّ أديب
إن قلبي لكم كالكبد الحَرَّ ... ى وقلبي لغيركم كالقلوب

٣٣ ـ سليمان بن وهب[3]:

وكان على البريد أيام المعتصم فأهمله وأخره وعطل سبيله فكتب إليه مكرم: [السريع]

أبلغ سليمان إذا جئته ... ولخص الأقوال تلخيصا
هذا جناح المسلمين الذي ... وليته أصبح مقصوصا[4]

---

(١) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد: ٢/ ١٦٣.

(٢) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ١٤٤، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٥/ ٤٤٠.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٥/ ٢٩٠، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٨/ ٣٩، ياقوت، معجم الأدباء: ١/ ١٠٢ في ترجمة أخيه إبراهيم.

ومنهم:

٣٤ ـ بنو المدبر:

وأعيانهم أحمد[(١)] وإبراهيم[(٢)]، وكان أحمد من كُتَّاب المتوكل، وطالبه لمنادمته فامتنع من ذلك ونافق، وأجرى إليه أخاه فتوقف، فطلب المتوكل إبراهيم ونادمه، واستأثر به ولازمه، وكان شاعراً ظريفاً، ونديماً لطيفاً، فخف على قلبه، ولطف محله منه، وكان لا يقدر على أن يصبر عنه. ثم قلده نفقات المختارة التي بناها، فجرت على يده نفقات أموال جليلة كانت سبب تأخيره وأخذ قليله وكثيره[(٣)].

ووقف أحمد بن المدبر على[(٤)] ديوان شعر أخيه وقد نكب، فقرأه ثم كتب[(٥)]: [الوافر]

أبـا إسـحـاق أن تـكـن الـلـيـالـي ... عـطـفـن عـلـيـك بـالـخـطـب الـجـسـيـم
فـلـم أر قـط صـرف الـدهـر يـجـري[(٦)] ... بـمـكـروه عـلـى غـيـر الـكـريـم

ولإبراهيم بن المدبر مما قاله وهو في الحبس يذكر طيفاً زاره، ولم يمنعه بابه المغلق، ولا حديده الذي هو به موثق، وكان قد رأى في نومه جارية يهواها وأتته على غرة غريرة بعيد مهواها[(٧)]: [مجزوء الكامل]

بـأبـي مـن بـات عـنـدي ... طـارقـاً مـن غـيـر وعـد
بـات يـشـكـو شـدة الـشـوق ... وأشـكـو فـرط وجـدي
وتـجـنـى فـبـكـى فـانـهـل ... در فـوق ورد [٧٤]
فَـيـدٌ تـحـت يـدٍ طـوراً ... وخـد فـوق خـد

---

(١) إبراهيم بن المدبر، شعره وحياته، جمع يونس السامرائي، ضمن شعراء عباسيون، ج١، ص٢٧٩ ـ ٤٠٩.

(٢) الأصفهاني، الأغاني: ١٩/١١٤، ابن الأبار، أعتاب الكتاب: ١٥٩، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ١/٤٧، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٦/١٠٧، ياقوت، معجم الأدباء: ١/١٠٢.

(٣) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ١/٤٧.

(٤) «أموال جليلة كانت سبب ... المدبر على» ساقطة من ك.

(٥) الثعالبي، المنتحل: ٢٦٩.

(٦) ت: نحوي.

(٧) «بعيد مهواها» ساقطة من ك، الشعر في إبراهيم بن المدبر، شعره وحياته: ٣٥٧.

ثم بعث بها إلى المسدود فصاغ لها لحناً وغناه للمتوكل فسأله من غناه[1] فأعلمه أنها لإبراهيم فأمر بإطلاقه[2].

وله أيضاً[3]: [الطويل]

وذي بدع في الظرف والشكل والحسن   شكوت إليه غيره وهو من أعني
وإني لأكني باسمه عنه دائباً   ليحسبني الواشون عن غيره أكني

وقد ذكره صاحب بغيه الألباء[4] وقلد وقال: أنه وزر للمعتمد. ثم تقلد ديوان الضياع للمعتصم وأنشد له[5]: [المنسرح]

يا كاشف الكرب بعد شدته   ومنزل الغيث بعد ما قنطوا
لا تبل قلبي بسخط بينهم   فالموت دانٍ إذا هم سخطوا

وكان يقول: وددت أن أكون قلت بيتي الصولي في رثاء أبيه، بكلِّ ما قلت ثم أنشدهما[6]: [مجزوء الكامل]

أنت السواد لمقلتي   يبكي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت   فعليك كنت أحاذر

فإن لم يكن فقوله[7]: [الرجز]

وليلةٍ من ليالي الزُهْر   قابلت فيها بدرها ببدري
لم تكن غير شفق وفجر   حتى تولّت وهي بِكْرُ الدهر

وإن لم يكن، فقوله[8]: [الوافر]

ولكن الجواد أبا هشام   وَفِيُّ العهد مأمون المغيب

---

(١) ساقطة من ت.
(٢) إبراهيم بن المدبر، شعره وحياته: ٣٥٧.
(٣) إبراهيم بن المدبر، ليست في شعره.
(٤) المقصود به كتاب معجم الأدباء لياقوت، والخبر فيه: ١/ ١٠٢.
(٥) إبراهيم بن المدبر، شعره وحياته: ٣٨٣.
(٦) إبراهيم بن المدبر، شعره وحياته: ١٦٩.
(٧) إبراهيم بن المدبر، شعره وحياته: ١٤٥.
(٨) إبراهيم بن المدبر، شعره وحياته: ١٢٩.

بطيءٌ عنك ما استغنيت عنه وطلّاعٌ عليك مع الخطوب

وقلد المتوكل أحمد بن المدبر الشام وأجرى عليه في كل شهر مائة ألف وعشرين ألف درهم[1].

وكان أحمد جماعاً لمالٍ[2]، حمالاً لأثقال لو صودم به الجبل لتقطع، أو زوحم به الفضاء لم يخل منه أجمع، إلَّا أنه لم يسفر صبحه، ولم يظفر بأجزاء المحامد سَحُّه، فأضَرَّ بِسَحَابِهِ الجمود، وقبر ولم يمتع بناؤه الخلود.

ومنهم [٧٥]:

٣٥ ـ إبراهيم بن العباس الصولي[3]:

من كُتَّاب المتوكل وله في البلاغة ما كأنه قد صاغه صياغة على أدبه طلاوة ولألفاظه حلاوة.

وكان البحتري إذا ذكر إبراهيم الصولي قال: كاتب العراق وأنشد من شعره وتذاكر عنده جماعة من الشعراء نوم العاشق[4]: [مجزوء الكامل]

أحسبُ النوم حَكاكا إذ رأى مثل جفاكا
منِّي الصبر ومنك الهجر فابلغ بي مداكا
كبرت همّة عين طمعت في أن تراكا
إنما حظ لعين أن ترى من قد رآكا
ليت حظّي منك أن تعلم ما بي من هواكا

ثم قال: تصرفت هذه الأبيات في معان من الشعر أحسن جمعها فكتبها عنه أجمعهم[5].

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء: ١/ ١٠٣.

(٢) ساقطة من ت.

(٣) الأصفهاني، الأغاني: ١٠/ ٢٧١، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٤٤، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٦/ ٢٤، ياقوت، معجم الأدباء: ١/ ٧٠.

(٤) إبراهيم الصولي، شعر إبراهيم: ١٤٨.

(٥) ياقوت، معجم الأدباء: ١/ ٨٣.

وما روى ثعلب شعر كاتب غيره[1]، وهو قوله[2]: [الطويل]

لـنـا إبـل كُـوْمٌ يَـضـيـق بـهـا الـفـضـا وتـفـتـرّ عـنـهـا أرضـهـا وسـمـاؤهـا
فـمـن دونـهـا أن تـسـتـبـاح دمـاؤنـا ومـن دونـنـا أن يُـسـتـذمّ دمـاؤهـا
حِـمًـى وقـرًى فـالـمـوت دون مـراحـهـا وأيـسـرُ خـطـب يـوم حـقّ فـنـاؤهـا

ومما كتبه إلى بعض إخوانه: فلان ممن يزكو شكره، ويعنيني[3] أمره، والصنيعة عندي واجدة موضعها[4]،وسالكة طريقها: [الطويل]

وأفـضـل مـا يـأتـيـه ذو الـديـن والـحـجـى إصـابـة شـكـرٍ لـم يـضـع مـعـه أجـرُ[5]

وكتب إلى ابن الزيات: كتبت إليك وقد بلغت المُدية المحزَّ وَعَدَت عليَّ الأيام بك بعد عداوتي بك عليها، وكان أسوأ ظني وأكثر خوفي أن تسكن في وقت حركتها، وتكف أذاتها فصرت أَضر علي منها، فكفَّ الصديق عن نصرتي خوفاً منك، وبادر إليه العدو تقرباً إليك[6].

وكان أحمد بن المدبر قد رافعه بحضرة المتوكل وعدَّ عليه أموراً قال في غالبها إفكاً وزوراً، فقال له المتوكل: ما تقول، فقام وأنشأ يقول[7]: [الخفيف]

رد قـــولـــي وصَـــدّق الأقـــوالا وأطـــاع الـــوشـــاة والـــعُـــذّالا
أتـــراه يـــكـــون شـــهـــر صُـــدود وعـــلـــى وجـــهـــه رأيـــتُ الـــهـــلال

فقال المتوكل: زه زه أحسنت والله، أحسنت والله، ثم دعاها ورددها واستحسنها واستجودها، وقال: اخلعوا على إبراهيم فخلعوا عليه وأجازه بجائزة سنية [٧٦] عجلها له من بين يديه، وأتى بها وابن المدبر يرى قذى في عينيه، فأحضر له من لحنه قدامه وغني، ثم قال المتوكل: ائتوني بمن يعمل في هذا لحناً هاتوا ما نأكل، وجيئوا بالندماء

---

(١) الأصفهاني، الأغاني: ١/ ٢٨٣.
(٢) إبراهيم الصولي، شعر إبراهيم: ١٥٣.
(٣) ت: ومعنيني.
(٤) ك: موضعه.
(٥) الأصفهاني، الأغاني: ١٠/ ٢٧٨.
(٦) الأصفهاني، الأغاني: ١٠/ ٢٨٠.
(٧) إبراهيم الصولي، شعر إبراهيم: ١٤٩.

والمغنين، ودعونا من فضول ابن المدبر، فانصرف إبراهيم إلى منزله محبوّاً، وبقي على ابن المدبر بين ضلوعه مخبواً[1].

وكان إبراهيم بن العباس هو المتولي لعقد البيعة عن المتوكل لبنيه، والكاتب لليمين المنشئ للكتب، وركب يومئذ بغلاً فتطير منه الناس، وقالوا: هذا الأمر لا يتم ولا ينتج لأنه على بغل والبغل لا ينتج له لا يلد ولا يولد، وكانت الفُرسُ تتطير من البغل لذلك[2].

وأخوه عبد الله كان من وجوه الكتاب مُقدماً في خدمة الخلفاء، ومكانة من الدولة، ووجاهة في ديوان الوزارة وهو وأخوه من صنائع الفضل بن سهل، وكان جدهما صول من الشيعة الخراسانية والدعاة إلى البيعة العباسية[3]، وكان رجلاً تركياً، إلَّا أنه كان ذكياً، وإياه عنى أخوه بقوله وقد رآه يتحبب لمن يبغضه، ويتوالى لمن يرفضه[4]: [مجزوء الكامل]

خل النفاق لأهله ... وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن تُرى ... إلا عدواً أو صديقا

٣٦ ـ بنو مخلد وبنو صاعد: ولهم ذكر مُخلَّد وجدّ صاعد[5]، وأكتفي من ذكرهم بقول البحتري فيهم[6]: [الكامل]

وإذا رأيت شمائل ابني صاعدٍ ... أدَّت إليك شمائل ابني مخلد
كالفرقدين إذا تأمل ناظرٌ ... لم يَعْلُ موضع فَرْقَد عن فَرْقَدِ

وقال علي بن الحسين بن عبد الأعلى: أكلت على مائدة الحسن بن مخلد، فوجدناها تتجاوز مائة دينار.

وقال محمد بن داود: شهدت الحسن بن مخلد يحاسب بلالاً البزاز على كسوة

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء: ١/ ٨٥ ـ ٨٦.
(٢) الأصفهاني، الأغاني: ١٠/ ٢٨٦.
(٣) الأصفهاني، الأغاني: ١٠/ ٢٧١.
(٤) إبراهيم الصولي، شعر إبراهيم: ١٥٠.
(٥) «ذكر ... صاعد» ساقطة من ت.
(٦) البحتري، الديوان: ٣٢٦.

الجواري في الشتاء على ستين ألف دينار ثم قال: .... الحسين لكسوة حرمه[1] مائة وعشرون ألف دينار.

ومنهم:

٣٧ ـ أحمد بن الخصيب[2]:

وزير المنتصر ثم للمستعين، وكان من أسقط[3] وزراء المشرق لكثرة تبرمه، وقلة تفهمه، ونقص حظه من العلم، وتعلمه، وكان يتردد في رأيه ويتوقف في إيقاف كل أمر ومضائه، وكان ربما سبقت له إلى جُلسائه بادرة غضب لا دخان [٧٧] لها ولا لهيب، ثم تعصب سوء فعله بندمه، ويشعب صدع بؤسه بتلاقي كرمه، ومع هذا تقدم الأكفاء وتخلفوا وراءه، وملك الخلفاء.وهو الذي أخذ البيعة للمنتصر[4].

وقال الحسن بن مخلد: دخلت عليه زمان المنتصر وعنده أحمد بن إسرائيل فجرى شيء تعجبت منه، فقلت له: أوليس من العجب أعزك الله أن يكون كذا وكذا. فقال لي: وأعجب والله منه يا أبا محمد أن تكون في دار أمير المؤمنين آمناً مطمئناً، وأنت بالأمس تضرب عليه أباه، وتسعى في تقديم أخيه عليه، وتفعل وتصنع والله إنه لغافل عن ضرب عنقك، فقلتُ له: يا سيدي لا أعدم الله خدمتك من خلٍّ. قال: فانقلبت عيناه وارتعدت فرائصه ولم يدع شيئاً من القبيح إلّا قاله.

ثم قال لي: أمزح معك، فتقول لي ما قلت، والله ليسفكن أمير المؤمنين دمك، وليشفين صدره منك، فقال أحمد بن إسرائيل: جعلني الله فداءك، قد أمن الله بك خدمك أن ينالهم في أيامك دون هذا فضلاً عنه قال[5]: فانقلب على أحمد، وقال له: وأنت أيضاً تتكلم كأنك ترى أنك بريء مما دخل فيه هذا، أو أنه عمل شيئاً وما عملت أنت أضعافه، ومن كان آفة أمير المؤمنين مع أبيه غيركما، والله لأفعلن بكما ولأضعن، قال: فأغنانا الله بشغل أشغله عنا، وبقينا متوقعين أن يأمر فينا بسوء، فلما

---

(١) «كسوة الجواري ... حرمه» ساقطة من ت.

(٢) ت: الخطيب وانظر: ترجمته في ابن الطقطقى، الفخري: ٢٣٩، المسعودي، التنبيه والإشراف: ٣١٤، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٦/ ٣٧٢.

(٣) ت: أقسط.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٦/ ٣٧٣.

(٥) ساقطة من ت.

فرغ من شغله أخذ ورقتين مما قدامه، وكتب عليهما: استؤمر أمير المؤمنين أطال الله بقاءه في ذلك فأمر بإمضائه ثم رماهما إلينا، فإذا فيهما حوائج كنا سألنا فيها عبيـدالله ابن مبارك بن يحيى[1] منذ أول ما تقلد الوزارة فأخره عنا فقمنا فقبلنا يده وشكرناه، فقال: سبحان الله أتشكران هذا مني، وأي شيء فعلته من قضاء حقكما إلَّا أني ربما عجلت في بعض الأوقات مني حِدّةٌ فاحتملوني.

قال أبو القاسم يحيى بن زكريا: إنَّ خط أحمد بن الخصيب كان رديئاً جداً، وأنه كان في ديوانه ابن لإنسان عَلاف يشبه خطه خطه، فكان يُزَوّر عليه، ويأخذ الجمل، فاتصل الخبر بأحمد فأحضره وقال له: قد اتصل بي ما تفعل، وقد أجريت عليك خمسين ديناراً كل شهر على أن تترك ما أنت عليه، ثم لك عندي مزيد الإكرام، فعفَّ مدة ثم عاود عمله الأول، فقيل لأحمد عنه فطلب أباه وقال: إنّ ابنك ابتدأنا بالإساءة فجزيناه بالإحسان وأزلنا [٧٨] ضرورته التي كانت تحمله على ما يعمل، ثم هو قد عاود عمله فلا يجاورني في هذا البلد ثم أمره بالمقام ببغداد واستمر يجازيه عليه.

وقال أحمد بن أبي الإصبع: اجتمع لبلال البزاز عند المتوكل ألف ألف ومائة ألف دينار مما ابتيع منه من الأمتعة، فلما قُتِل المتوكل يئس من المال فأتى وسألني أن أكلم أحمد بن الخصيب[2] له ليعطيه نصف ماله، ويأخذ هو النصف، وكتب بذلك رقعة فأخذتها وتوجهت وقت خلوة وجعلت أقلبها بيدي فنظر إليها وقال: ما هذه؟ فدفعتها إليه، فقال لي: أو هذا المال لبلال؟ فقلت له: نعم، قال: فأخرج لي حسابه، فأخرجت حسابه وصححه، فرآه صحيحاً، فقال لي: إذا كان هذا المال لهذا الرجل فلأي شيء يرضى بنصفه ويعطيني نصفه، ثم وقع له به وصرف عليه المال، ولا والله ما رزأه ابن الخصيب شيئاً منه.

ولما ولي المستعين أعطى الكُتَّاب مائة ألف درهم لكل كاتب، وأعطى ابن الخصيب ثلاثمائة ألف درهم، وأشياء أُخر وأمتعة منها فرش الجعفري الذي كان للمتوكل، فحمل على نحو مائتين وخمسين حمل بعير، وزاد في إقطاعه بلاداً تغل له كل سنة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، وأقطع ابنه محمد بن أحمد بن الخصيب بلاداً تغل له في السنة مائتين وخمسين ألف درهم.

---

(١) ت: عبد الله بن يحيى.

(٢) ت: الخطيب.

ومنهم:

٣٨ ـ سعيد بن حميد[١]:

وكان المستعين استوزره لما قدم بغداد، وله بلاغة مشهورة، وكتب متداولة، وأشعار كثيرة متناقلة، فمنها قوله في جارية كان يحبها وتتجافى عليه فيكثر منه عتبها[٢]: [الطويل]

فداكِ أبي مالي أراك بخيلةً ... مقيمٌ على علاتها مستزيدها

فإنك كالدنيا تذمُّ صروفها ... ونوسعها عيباً ونحن عبيدها

ومنه قوله[٣]: [الكامل]

خلت المنازل من أحبتنا[٤] ... ونأت بهم عنَّا يدُ الدهر

وأشد ما لاقيت بعدهم ... أني فجعت بهم وبالصبر [٧٩]

قلت: وحضره جماعة من أهل الفضل والأدب عند انبلاج الصباح، والأفق قد حالت حالته، وحفت بالبدر[٥] هالته، والشعاع كأنه حسام مصلت يحاول دوسه، والبدر كأنه غلام من الترك أدار[٦]على وجهه قوسه، فقال: صفوا على هذا الحال، فأخذوا في الفكر فسبقهم وقال[٧]: [الرجز]

محا دُجى الليل[٨] أديم الفجر ... وما انمحى منه أديم البدر

كأنه لما رمى شعاعه ... مهند يُسلُّ فوق نحر

---

(١) النديم، الفهرست: ١٣٧، الأصفهاني، الأغاني: ١٨/٣٥٩، ياقوت، معجم الأدباء: ٣/١٣٦٥، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٥/٢١٣، وجمع شعره ورسائله يونس السامرائي في شعراء عباسيون، ج٣ [١٠٣ ـ ٣٢٣] بغداد، ١٩٧١م.

(٢) سعيد بن حميد، شعره: ٢٢٣.

(٣) لم ترد في مجموع السامرائي، وهي في ياقوت، معجم الأدباء: ٣/١٣٦٦.

(٤) ت: أحبابنا.

(٥) ك: الدر.

(٦) ساقطة من ت.

(٧) لم ترد في مجموع السامرائي ولا في مصادر ترجمته.

(٨) ك: محا دجى في الفجر.

وانتبه يوماً والديك قد هَبَّ من نومه، وهو سكران طافح، والشعرى أيام الجوزاء كزجٍّ جره رامح، وسهيل كأنه ظمآن في نهر من الماء، والعيوق سائق ظعن قيدت خطاه لا يسرع، والجوزاء ترقص في منطقة[1] مذهبة والتبرة إذا المجرة جمة في جانب غدير معشبة، فقال[2]: [المنسرح]

تنبه الديك للصبوح وقد تأهب الليل ثم ما ذهبا

والأفق جوزاؤه يقابله الشعرى كما قام رامح وتبا[3]

وقد رمى على مجرته العظمى سهيل فعبَّ أو شربا

ومستنير العيوف حيث دنا كعاجز رام نهضة فخبا

وخلت قبل الصباح نيرتها تدرع الليل للوغى يلبا

ومنهم:

٣٩ ـ أحمد بن إسرائيل[4]:

ولما استقامت الأُمور للمعتز وزره، وألقى إليه مقاليد أموره ووزره، وأخرج نظراءه وصدره.

وحكى عنه إبراهيم بن زكريا النصراني المتطبب، قال: غمزت رجليه ليلتين، فوهب لي ستة آلاف دينار، ثم قال لي: اقصص هذا المال لئلا يطير، فلم أَدر ما أراد، فاستفهمته إياه، فقال: تبتاع به عقاراً تتنفع بفضله، ويبقى عليك وعلى أهلك أصله، قال: وكان في حضرته بعض كُتابه، فقال: يا سيدي هنا [٨٠] ضياع خراب، يبتاعها وتعاونه عليها، فقال له: افعل، فابتاعها لي بسبعة آلاف دينار من مال أحمد بن إسرائيل وعمرتها. وعلم العامل بعنايته بي فتجافى لي عن حق بيت المال فاستغللتها لي جملة عظيمة، ثم صارت تزيد غلاتها، فقال لي يوماً: أي شيء خبرك في ضياعك،

(١) ساقطة من ك.

(٢) لم ترد في مجموع السامرائي ولا في مصادر ترجمته.

(٣) البيت ساقطة من ك.

(٤) اليعقوبي، تاريخ: ٢/٤٧٨، المسعودي، التنبيه والإشراف: ٣١٦، ابن الطقطقى، الفخري: ٢٤٤، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٢٥٠ ـ ٢٦٠]، ص٣٣، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٦/٢٤٣.

فقلت له: خبر قد ملأت يدي غلتها ووصلت إلى أملي بفضلك، وطاب قلبي لعواقبي بحسن نظرك، وأخذت في الشكر له، فقال: دع عنك هذا وخذ في بيعها فلا يبقى والله عليك ولا على غيرك من جماعة السلطان شيء، فقلت له: ولِمَ أعزك الله؟ فقال له[1]: لما تقصده هذه المرأة في الأتراك يعني قبيحة أم المعتز.

ومنهم:

٤٠ ـ بنو وهب:

الأَخوان سليمان والحسن وكانوا سادة وكبراء، وكتاباً ووزراء، تقدموا تقدماً أَخَّر الأَقران والنظراء، وقعدوا وأوقفوا قدامهم الأُمراء، ولاقوا للمدائح واستنطقوا بها الشعراء، حتى كان ابن المعتز ممن مدحهم، وتقلد مننهم، وأخذ منحهم. وفيهم يقول[2]: [الطويل]

لآل سليمان بن وهب صنائع ... عَليَّ ومعروف لدي تقدما

هم علموا الأيام كيف تسرني ... وهم رحَضوا عن ثوب والدي الدما

ولما توفي الحسن بن عبيد الله كتب ابن المعتز إلى أخيه الوزير عبيد الله[3]: [الكامل]

قل للوزير لئن أُصبت بحادث ... لم يخل من جزعٍ ومن إقلاق

فلقد غبنت الدهر إذ شاطرته ... بأبي الحسين كفى به من باق

وكتب أيضاً يعزيه عن ابنه الحسن[4]: [الكامل]

قل للوزير هو الزمان وصرفه ... والمرء ذو أجل يصير إليه

فلقد غبنت الدهر إذ شاطرته ... بأبي الحسين وقد ربحت عليه

وأبو محمد الجليل مصابه ... لكن يمين المرءِ خير يديه

ولم يكن منهم إلَّا كل جواد كريم ثم جادت من السؤدد وقديم [٨١] وفي عبيد

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) ابن المعتز، شعر ابن المعتز: ١/ ٥٦٥.

(٣) ابن المعتز، شعر ابن المعتز: ٢/ ٥٦٢.

(٤) ابن المعتز، شعر ابن المعتز: ٢/ ٥٥٨.

الله يقول ابن الرومي[1]: [الطويل]

إذا ما عبيدالله ضاهاه قاسم ... فثمَّ قديم المجد ضاهاه حادثه
فتى يقتل الأموال في سبل العلا ... لتورثه المجد السني موارثه
ترى صاحبيه ذا سؤالٍ يميحه ... فواضله أو ذا سؤالٍ يباحثه
ولا يجتبي الميسور من لا يزوره ... ولا اللؤلؤ المنثور من لا يحادثه
فما فضله والمدح دعوى ومدَّعٍ ... ولكن هما مِسكٌ زكي ومائثه

وفيهم يقول[2]: [الخفيف]

آل وهب هُنّيتم نعمة الله ... فما زلتم لها أشكالا
كانت الأرض ظلمة وحروراً ... أوسع الناس فتنة وضلالا
فاخترعتم من الذكاءِ شموساً ... وابتدعتم من السماح ظلالا
سادة الناس كالجبال وأنتم ... كالنجوم التي تفوق الجبالا

ومن بني وهب:

٤١ ـ أحمد بن سليمان بن وهب[3]:

ذكره صاحب بغية الألباء[4] وعَده في أفاضل الأدباء. وقال: إنه تصرف في الأَعمال، ونظر للسلطان في جباية الأموال.

وأنشد له[5]: [الكامل]

حَفَّتْ بسروٍ كالقيان تلحَّفَتْ ... خُضْرَ الحرير على قوامٍ معتدل
فكأنها والريحُ حين تميلها ... تنوي التعانق ثم يمنعها الخجل

ومن نثره: جواب كتبه وهو: وصلت رقعتك أعزك الله، فكانت كوصلٍ بعد هجر، وغنىً بعد فقر، وظَفَرٍ بعد صبر، ألفاظها دُر مَشوفٌ، ومعانيها جوهر موصوف،

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ١/ ٤٧٥.
(٢) ابن الرومي، الديوان: ٥/ ١٠٠.
(٣) ياقوت، معجم الأدباء: ١/ ٢٦٩، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٦/ ٤٠١.
(٤) ت: الأولياء. والمقصود به ياقوت وكتابه معجم الأدباء، انظر في: ١/ ٢٦٩.
(٥) الشعر في ياقوت، معجم الأدباء: ١/ ٢٧١.

وقد اصطحبا[1] أحسن صحبة وتألفا[2] أقربَ أُلفة، لا تمجُّها[3] الآذان، ولا تتعب بها الأذهان[4].

ومنهم:

٤٢ ـ بنو ثوابة:

كتبوا ثم كانوا فرسان كتابة، استكتبهم عبيد الله[5] بن القاسم، وكان [٨٢] خمارويه بن أحمد بن طولون لما نقل ابنته إلى المعتضد كتب إليه يذكره بحرمة سلفها بسلفه وبه، ويذكر ما ترد عليه من أُبهة الخلافة[6] وروعة الملك، وسأله إيناسها وبسطها، فأراد عبيد الله أن يجيب عن الكتاب[7] بخطه، فسأله جعفر بن محمد بن ثوابة[8] أن يؤثره بالجواب. فأنعم له بالإجابة، وكتب على البديهة كتاباً قال فيه: فأما الوديعة فهي بمنزلة شيء انتقل عن يمينك إلى شمالك عناية بها، واحتفالاً بسببها، وحياطة عليها، ورعاية لمودتك فيها، ولعمرك إنها الدرة الثمينة، استودعت اليد الأمينة، ثم قال ابن ثوابة للوزير: تسميتي لها الوديعة، أعز الله الوزير نصف البلاغة.

قلتُ: ولقد أُمرت وأنا بدمشق بكتابة كتاب عن كافل الممالك بها إلى الأمير بكتمر الساقي لملاحظة بنتٍ له كان زوجها[9] بقريب للأمير قوصون، فكتبت عنها في الكتاب بهذه اللفظة، فقلت: وديعة إحسانه، ولم أكن وقفت على ما ذكره ابن ثوابة، وإنما ذكرت هذا[10] الاتفاق توارد الخواطر[11].

---

(١) ت: أصبحنا.

(٢) ت: تآلفنا.

(٣) ت: يمحوها.

(٤) ياقوت، معجم الأدباء: ١/ ٢٧٠.

(٥) ت: عبدالله.

(٦) ك: خلافة.

(٧) ت: الكتابة.

(٨) ترجمة في: ياقوت، معجم الأدباء: ٢/ ٧٩٢، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١١/ ١٣٧.

(٩) ك: زوج لها.

(١٠) ت: هذه.

(١١) هذه الرواية مما عاصره ابن فضل الله من أحداث انفرد بذكرها، وكتب دونها بنفسه لم تصل إلينا إلا من خلال كتابه.

قال[1]: وفي بني ثوابة أهاجٍ منها قول أحمد بن علي: [البسيط]

قالوا ثوابة أضحت وهي ساخطة ... قد قدت الجيب من غيظ ومن ضجرِ
لا تعجبوا لقميص قُدَّ من قُبلٍ ... فإن صاحبه قد قُدَّ من دبرِ

ومنهم:

٤٣ ـ إسماعيل بن بُلْبُل[2]:

وزر للمعتمد، وكان أخوه الموفق عليه يعتمد، وشرفه بالمصاهرة، وخلط نسبه بأنسابه الطاهرة. ولما قدم ابن بلبل دار الخلافة وارتجت الدار، وخرج إليه الموفق بنفسه، وأخذ في زيادة أُنسه، فَقبّل يد الموفق، ثم قال[3]: كانت المصاهرة.

قال ابن عبدوس: حدثني من كان يكتب لإسماعيل بن بلبل أنه لما وقع الصهر بينه وبين الموفق، وزوج عبدالواحد بابنته أمر بتقدير ما يحتاج إليه للمطبخ، فكان مما قدر ثمانمائة جدي، فكتب إلى ضياعه بحملها فيما يحمل منها إليه، وقرب وقت الحاجة ولم تصل فاستأذنه كاتبه في ابتياعها هي وبقية ما [٨٣] طلب ولم يصل، فأذن له فابتاعها ثم وصل المطلوب فاستأذنه في رد ما أخذه على أصحابه للاستغناء عنه، فقال: هذه نذالة بل اذبح الجميع ووسع على الناس[4].

وقال ابن عبدوس كلاماً مختصره: وقد كان أيام كتابته لعبيد الله بن سليمان قد قطع على عيسى بن الشيخ في معنى تعلقاته مائة ألف دينار لعبيدالله بن سليمان وعشرين ألف دينار لنفسه، فلما تم الأمر استأذنه عيسى بن الشيخ في حمل المال. فقال: معاذ الله، والله لا أخذت على معروف صنيعة، ثم قال: إنما أردت بما كنت قررته لي عليه من المال إعلامه بمقدار ما فعلت معه[5].

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) الطبري، تاريخ ١٠/١٨ ـ ٢٢، الجريري، الجليس الصالح: ٣/١٤٠، المسعودي، التنبيه والإشراف: ٣٢٠، الصابي، الوزراء: ١٣، ٤٤، ابن الطقطقى، الفخري: ٣٥٢، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٢٦١ ـ ٢٨٠]، ص ٣٠٤، سير أعلام النبلاء: ١٣/١٩٩، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٩/٩٥.

(٣) ساقطة من ت.

(٤) هذا الخبر من المفقود من كتاب الوزراء للجهشياري.

(٥) هذه الرواية أيضاً من المفقود من كتاب الوزراء للجهشياري.

وفيه يقول ابن الرومي[1]: [البسيط]

قالوا: أبو الصقرِ من شيبان قلت لهم ... كلاَّ[2] لعمري ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابنٍ ذَرا شرف ... كما علت برسول الله عدنان
ولم أُقَصِّر بشيبان التي بلغت ... منها المبالغ أَعراق وأَغصان
تلقاهم ورماح الخطّ دونهم[3] ... كالأُسْدِ أَلبسها الآجام خَفّان
سود السَّرابيل[4] من طُولِ ادّراعِهِمُ ... بيضُ المحاسن والأعراض غُران
لا توحش المجد[5] من شيبان إِنهم ... قوم يكونون حيث المجد مذ كانوا
المنعمين وما منُّوا على أحدٍ ... يوماً بنعمى ولو منوا بما مانوا
قوم يعزون ما كانت مغالبة ... حتى إذا قدرت أيديهم هانوا

وفيه يقول[6]: [البسيط]

يَفْدي أبا الصقر إن قاموا بفديته ... قومٌ إذا مذقت أَفعالهم صرحا
مهما أتى الناس من طول ومن كرم ... فإنما دخلوا الباب الذي فتحا
يعطي المزاح ويُعطى الجد حقَّهما ... فالموت إن جدَّ والمعروف إن مزحا
في كفّه قلم ناهيك من قلم ... نبلاً وناهيك من كف بها اتشحا
يمحو ويكتب[7] أرزاق العباد به ... فما المقادير إلَّا ما وحى ومحا

ومنهم:

٤٤ ـ العباس بن الحسن[8] [٨٤] بن أيوب[9]:

وزر للمكتفي ثم كان به يكتفي، لا يفضل عليه أحداً ولو ظهر فضله عليه

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ١٧٨.
(٢) ت: لكى.
(٣) الديوان: حولهم.
(٤) ت: السراويل.
(٥) الديوان: الأرض.
(٦) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ٣٧.
(٧) الديوان: ويثبت.
(٨) ت: الحسين.
(٩) الطبري، تاريخ: ١٠/ ١٤٠، المسعودي، التنبيه والإشراف: ٣٣٢٧، ابن الطقطقى، الفخري: ٢٥٨، الصابي، الوزراء: ٢٨، وانظر الفهرس، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٢٩١ ـ ٣٠٠]، ص١٧٢، سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٥١، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٦/ ٦٤٨.

كالصباح إذا بدا، وكان كاتباً بليغاً، غض الأدب، غض قدر الذهب، حلو الكلام كأَنَّ جنى النحل في عبارته، وغمز لواحظ الغيد[1] في إشارته، يتلعب[2] لفظه بالعقول تلعب الرياح، ويتغلب على الأفهام تغلب[3] النهار على ضوء المصباح، ببدائع بهرجتها[4] وشي الربيع. ويفجر على لآلئ الفجر الصديع.

ومما كتبه إلى صديق يستدعيه إلى مجلس أنس انقطع للراحة فيه: كتبتها ـ أعزك الله، وأدام إمتاعي بك ـ إليك، وقد انتظم شملنا في بكرة هذا اليوم الغنج الجو البهج المرأى، والسماء كما ترى قد اكتنفتها سحب لا تنجلي، ولا تمطر، لا تعرف سَحّاً ولا طلًّا، ولا تسكب رذاذاً ولا وبلاً، ونحن في مجلس دارت كؤوبه علينا، وأهديت كؤوسه إلينا، تزف منها عروس المدام كأنها خدود غلام، وعندنا شادٍ[5] لا يعرف أيهما العب بنا نغمه، أم الكؤوس، وأوضح وجهه المنير أم الشموس، فبحق ما بيننا من عهود الشباب، وحقوق اللذات والأتراب، إلَّا ما كملت طربنا بحضورك ووصلت سرورنا بسرورك.

ومما كتبه إلى صديق له في محنة سأله فيها: إنَّ الله تعالى ليمتحن العبد ليكثر التواضع له، والاستعانة به، ويجدد الشكر على ما يوليه من كفايته، ويأخذ بيده في شدته لأن دوام النعمة والعافية كلاهما ينظر الإنسان فيعجب بنفسه ويعدل عن ذكر ربه.

وقال محمد بن يحيى: ركب العباس بن الحسن بعد وفاة القاسم بن عبيد الله بيوم، وأنا معه فاجتاز بدار القاسم، فرأى بابه خاليا، فقال: لئن خلا هذا الباب لطالما امتلأ بالناس، قال: فقلت له: كأن الوزير نطق بلسان ابن ناجية حيث يقول: [الطويل]

وإن يمس وحشاً بابه فلربما ... تناطح أفواجاً إليه المواكب

يحيون بأساً ما كأن جبينه ... هلال بدا فانجاب عند السحائب

وما غائب من كان يرجو إيابه ... ولكنه من ضمّن اللحد غائب

(١) ك: الفيض.

(٢) ك: تبلغت.

(٣) ت: تلعب.

(٤) ك: يجريها.

(٥) ك: شدود.

[٨٥] واستدعى ندماءه إلى روضة يكاد يذري الدمع نرجسها إذا أضحى، ويقطر من شقائقها الدم لا يرقأ جرحا، والمدام قد طافت به الجواري[١]، ولآلىء الطل تضاحك حباب كؤوسها[٢]، وتخلط بلجين أنجمه ذهب شموسها، فقال لندمائه كلاماً معناه: هل رأيتم حسن[٣] من يجري دمعه وهو يضحك، أو أعجب[٤] من المدام يحيي النفوس وأوداج أباريقه تسفك، فهل من قائل في ذلك. قالوا: السيد أحق، فقال: [المنسرح]

انظر إلى النور مغرباً ضحكا إذا أسَبلَ النوء جَفنه وبكا

وانظر إلى الكأس إذ نعيش به وقد أطحنا له دماً سفكا

وكتب العباس إلى زيادة الله بن الأغلب صاحب المغرب يرغبه في الطاعة ويخوفه بالمكتفي، وملأ عليه منه، فوجه إليه ابن الأغلب برسل وهدية فيها مائة خادم، وخيل مختارة، وبز كثير وغيره[٥]، وعشرة آلاف درهم في كل درهم عشرة دراهم[٦] وألف دينار في كل دينار عشرة دنانير، وعلى الدنانير والدراهم مكتوب من أحد الجانبين: [الكامل]

يا سائراً نحو الخليفة قل[٧] له نَم قد كفاك الله أمرك كله

بزيادة الله بن عبد الله سيف الله من دون الخليفة سَلَّهُ

ومن الجانب الآخر: [الكامل]

ما ينبري لك بالشقاق منافق إلّا استباح حريمه وأذَلَّهُ

ووجه إلى العباس بهدايا كثيرة، فلما كان بعد شهر ورد الخبر بانهزام ابن الأغلب من الخارج عليه بالقيروان، ومجيء ابن الأغلب إلى مصر، وإن تعجب بنفسه ورجاله[٨].

---

(١) ك: والمدام قد ضاقت به الحواري.
(٢) ك: تضاحك كؤوس حباب كؤسها.
(٣) ت: أحسن.
(٤) ت: عجب.
(٥) ساقطة من ت.
(٦) «في كل درهم عشرة دراهم» ساقطة من ت.
(٧) ك: قبل.
(٨) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٩/١٥ ـ ٢٠ وفيه الشعر.

ومنهم[1]:

٤٥ ـ بنو الفرات:

وهم كبراء الوزراء والكُتَّاب الذين تلقوا أمر[2] الخلافة، وأطربوا ببدائعهم لا بالسلافة، وتنقلوا في الممالك فكانوا نواها، وتتبعوا خللها وكادوا لأواها وضعوا الأَيام بالمَبَرّات، وسعوا بِٱلْتِئَام المَسَرّات، وخدموا الملوك، ونظموا السلوك[3]، وأفادوا مِنناً جساماً، وكسفوا البدور وجوهاً وساماً، فما حلوا في إقليم إلّا [٨٦] وحلوا بحلولهم كنفه، وولوا قمارهم تحفه وتدفق في كل يوم مرتع منهم عذب فرات، ونافق كما نشرت عليه خيرات، إلّا أن محسن بن الفرات كان لا يحسن في فعله، ولا يحسب حساب أَحد من جهله[4]، وغرته مسالمة الأيام، ومساعدة الزمان، وكان يحمله على هذه الأسباب، سكران سكر سعادة وسُكْرُ شَبَاب[5]، فلهذا كان إذا ذكر عيبه ندم، وإذا أظهر سعته لا يلم.

وكان من يقصده إياه[6] لحاجة ترتقب عيناه، فإذا غاب عرض حاجة ليكون قضاؤها أسهل عليه وأنهل إلى حمل من تحمله إليه، فإنه كان قصده عن حوائج الناس، ويوقف قلمه أن تجري إلّا لمبيع[7] أو نصل لا يقطع، فقل موقعه، وتمنوا زوال زمانه، ودانوا في استكفاء سوء محضره، فعاد شُؤمه على أبيه. ورأى به ما كره في نفسه وفيه.

وذكر أبو الفرج الأَصفهاني قال: قال لي أبو عبد الله ربحي الكاتب: لما نكب أبو الحسن بن الفرات أبا علي بن مُقلة في وزارته الثالثة، ولم أدخل إليه، ولا كاتبته متوجعاً له، ولا راسلته في شيء خوفاً من ابن الفرات مع ما بيني وبين ابن مُقلة من المودة[8] الأكيدة، فلما طالت نكبته، كتب إليَّ رقعة في أولها: [الطويل]

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) ك: أمور.

(٣) ت: السوك.

(٤) ك: يجهله.

(٥) «سكران سكر ... سباب» ساقطة من ك.

(٦) ساقطة من ت.

(٧) ك: لا يمتنع.

(٨) ت: الكوفة.

ترى حرمت كتب الأخلاء بينهم أبنْ لي أم القرطاس أصبح غاليا
فما كان لو سألت كيف حالنا وقد دهمتنا بلية هي ما هيا
صديقك من راعاك عند شدة وكل تراه في الرخاء مراعيا
فهبك عدوي لا صديقي فربما يكاد الأعادي يرحمون الأعاديا

ثم عطفها على رقعة إلى الوزير[1] منها: اقتصرت أطال الله بقاء الوزير ولا امتحن له صبراً عن الاستعطاف والشكوى حتى تناهت المحنة والبلوى في النفس والمال والجسم والحال إلى ما فيه شفاء للمنتقم وتقويم للمجترم، وحتى أفضيت إلى الحيرة والتبلد، وعيالي إلى الهلكة والتلدد، وما أقول إن حالاً أتاه الوزير أيده الله في أمري إلَّا بحق واجب، وظنٍ صادق غير كاذب، إلَّا أن القدرة تذهب الحفيظة، والاعتراف يزيل الافتراق وَرب المعرفة يؤثره[2] أهل الفضل والدين والإحسان إلى المسمى من أفعال [٨٧] المتقين، وعلى كل حال فلي ذمام وحرمة، وتأميل وخدمة إن كانت الإساءة تضعها فرعاية الوزير أيده الله تحفظها، وإن رأى الوزير أن يلحظ عنده بعين رأفته وينعم بإحياء مهجته، ويتخلصها من العذاب الشديد، والجهد الجهيد، ويجعل له من معروفه نصيباً ومن البلوى فرجاً قريباً فعل إن شاء الله.

قال ربحي الكاتب: فأقامت الرقعة في كمي أياماً لا يمكن من عرضها إلى أن خلوت به يوماً ثم قلت له: قد عرف الوزير أيده الله ما بيني وبين ابن مقلة من الأُلفة التي جمعتنا عليها خدمته، والله ما كاتبته ولا راسلته ولا قضيت له حقاً بعونةٍ[3] ولا غيرها منذ سخط الوزير عليه، وهذه رقعته تدل عليه، وطيها رقعته إلى الوزير إن أذن عرضتها عليه، فقال: هاتهما، فأخذهما فقرأهما، فقلت: أَسأل الوزير أن يكتم على ذلك عند سيدي[4] أبي أحمد يعني المحسن ابنه فإني أخافه، فقال: أفعل، ثم قال: والله يا أبا عبد الله لقد تناهى هذا الرجل في السعي على دمي ومالي وأهلي ثم قال: والآن وحق محمد وآله ﷺ لا جرى على ابن مقلة مكروه فعل بعد هذا وأنا آخذه من

(١) «إلى الوزير» ساقطة من ك.
(٢) ت: نورته.
(٣) ك: بغير.
(٤) ساقطة من ت.

يد المحسن وأنفذه مع سليمان بن الحسن إلى فارس وأجزيه مجزاة في الأمر بحراسة نفسه، وباقي حاله، فلما كان في غد أنفذ من انتزعه من حبس المحسن، وأخرجه إلى فارس هو وسليمان فسلما، وأمسك المقتدر علي بن محمد بن الفرات وانتهب أمواله وحصّل منها سبعة آلاف ألف دينار وأبقى عليه أملاكه، وكانت غلاتها في السنة ألف ألف دينار، فكان يشغلها وهو معزول وذكر ذلك ابن عبدوس في كتاب الوزراء(١).

وكان أبو الحسن ضجور، وإن(٢) كانت أولاده قد تحكمت عليه، وكل منهم يسعى لمن يرتشي منه، وكان يُولي العمل الواحد عدة من العمال في الأيام القليلة حتى أنه ولى مسناة الكوفة في شهر واحد سبعة من العمال، فقيل فيه: [الوافر]

وزير قد تكامل في الرقاعة ... يولي ثم يعزل بعد ساعة

وإن أهل الرشا اجتمعوا عليه ... فخير القوم أوقرهم بضاعه

ومنهم:

٤٦ ـ علي بن عيسى بن داود بن الجراح بن الحسن البغدادي الكاتب وزير المقتدر والقاهر(٣):

وزير، لله جل ماله وكل أعماله، حفظ حين أضيعت المناصب، وبقي ماله حين ارتجع مال الغاصب، وكان لا يزال مُطفياً لفواقع شرار، ومخفياً لطوالع سَرار، يرى خير أيامه إلا يؤم ندى عرفه ساكب وحوله طلبة علم لا المواكب، وكان في أيام عطلته وزمان تعرى منكبه من حِلسه(٤) أكثر ممن هو موسوم الأيام محل المعاطف بالرتبات(٥) العظام لوفور دخل لا يكاثر، ولا يقاس بالسحاب الممطر وإن كاثر.

---

(١) هذا النص الطويل من المفقود من كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ولم نجد له متابعة في المصادر.

(٢) ساقطة من ت.

(٣) النديم، الفهرست: ٨٦، الصابئ، الوزراء: ٣٠٥ ـ ٣٩٩، الهفوات النادرة: ٢٩٤، ابن الأثير، الكامل: ١/ ٤٦٥، ابن الطقطقى، الفخري: ٣٢٦، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٢٩٨/١٥، تاريخ الإسلام: حوادث [٣٣٠ ـ ٣٥٠]، ص١٠٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١٠٩/٢، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٣٦٨/٢١.

(٤) ك: حليته.

(٥) ك: الربا.

قال الفاضل أبو الصفاء الصفدي[1]: كان على الحقيقة غنياً شاكراً، صدوقاً ديناً، خيراً صالحاً، عالماً من خِيار الوزراء، وهو كثير البِرِّ والمعروف، والصلاة والصيام، ويجالس العلماء. توفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. ووزر للمقتدر مرتين، وكان مستغل ضياعه في السنة سبعمائة ألف دينار. ويُخرج منها في وجوه البر ستمائة ألف دينار وينفق أربعين ألف دينار على خاصته. وكانت غلته[2] عند عطلته ولزوم بيته نيفاً وثمانين ألف دينار ينفق على نفسه وخاصته ثلاثين ألف دينار، ويُصرف الباقي في وجوه البر.

قال الصولي: لا أعرف أنه وزر لبني العباس وزير يشبهه في زهده وعفته، وحفظ القرآن وعلمه بمعانيه، وكان يصوم النهار ويقوم الليل، ولا أعلم أني خاطبت أحداً أعلم منه بالشعر، وكان يوقع بيده في جميع ما يحتاج إليه. ولما عزل في وزارته الثانية وولي ابن الفرات لم يقنع المحسن ابن الفرات إلّا بإخراجه عن بغداد، فتوجه إلى مكة، وأقام بها مهاجراً، وقال في نكبته: [الطويل]

ومن يكُ عني سائلاً لشماتةٍ ... لما نالني أو شامتاً[3] غير سائل
فقد أبرزت مني الخُطوب ابن حرة ... صَبوراً على أهوال[4] تلك الزلازل
إذا سُرَّ لم يبطر وليس لنكبةٍ ... إذا نزلت بالخاشع المتضائل[5]

ولما حُبِس كان يلبس ثوبه ويتوضأ للصلاة، ويقوم ليخرج لصلاة الجمعة فيمنعه الموكلون، فيرفع يده إلى السماء ويقول: اللهم اشهد لي[6] أنني أريد طاعتك، ويمنعني هؤلاء[7].

وأَشار [٨٩] على المقتدر أن يقف العقار ببغداد على الحرمين والثغور، وغلتها ثلاثة عشر ألف دينار في كل شهر، والضياع الموروثة بالسَّواد، وغلتها نيف وثمانين

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢١/٣٦٨.
(٢) ك: عطيته.
(٣) ت: سامعا.
(٤) ت: الأهوال.
(٥) الخبر ليس في المطبوع من كتاب الوزراء للصابئ وعلى الأرجح نقله العمري من الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢١/٣٦٩ ـ ٣٧٠.
(٦) ساقطة من ك.
(٧) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢١/ ٣٧٠.

ألف دينار، ففعل ذلك، وأشهد على نفسه، وأفرد لهذه الوقوف ديواناً وسماه ديوان البرّ، وخدم السلطان سبعين سنة لم يُزِلْ فيها نعمة عن أحد وأحصي له أيام وزارته نيف وثلاثون ألف توقيع من الكلام السديد. ولم يقتل أحداً ولا سعى في دمه، وكان على خاتمه مكتوباً: [مجزوء المنسرح]

لــلَّــه صــنــع خَــفِــيّ فــي كــل أمــرٍ يُــخــاف[1]

وعزى ولد القاضي أبي الحسن عمر بن أبي عمر محمد بن يوسف، فلما أراد الانصراف قال: مصيبة قد وجب أجرها، خير من نعمة لا يؤدى شكرها.

وكان يجري على خمسة وأربعين ألف إنسان خيرات تكفيهم[2].

ومنهم:

٤٧ ـ بنو مقلة[3]:

وقد صاروا مثلاً يضرب إذا قيل لأحد خطك ما هو مليح أو لفظك ما هو فصيح قال: كأني ابن مقلة، ورأيت لهم كتابة يأخذ بالعين حسنها، ورأيت منها درجاً بقلم التوقيعات الكبير على ورق الموز ما رأيت أحلى في الرؤية[4] موقعاً منها، ولا أعلق بالقلوب من حسنها، جلت القلوب في شغافها، وأخذت من المحاسن بمجامعها لا بأطرافها، وهي على الطريقة القديمة. ولا تخلو من آثار التوليد من الكوفي في غايةٍ من تحرير السطور والحروف، والمناسبة في المقادير والبياضات، ومنها خلص علي بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب طريقه، ولخص أقلامه مع ما زاد من تهذيب وأبدع من تذهيب، ثم خالف أوضاعها وَسَماها[5].

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢١/ ٣٧٠.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام: ١٠٧.

(٣) انظر: ترجمة الوزير محمد بن علي، أبو علي بن مقلة، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١١٣، ابن الطقطقى، الفخري: ٢٧٠، ابن العبري، مختصر الدول: ١٥٩، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٣٢١ ـ ٣٣٠]، ص٢٣٩، سير أعلام النبلاء: ١٥/ ٢٢٤، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٤/ ١٠٩، ياقوت، معجم الأدباء: ٦/ ٢٥٧٤.

(٤) ت: من الورقة.

(٥) هذا الكلام من مشاهدات العمري، وقد برع في وصف خط ابن مقلة الذي شاهده بنفسه ووصفه لنا.

ولبني مقلة مع جودة الخط، جودة اللفظ الفائق نثراً ولفظاً، الرائق مدام لماه لمن أثبته رشفاً ولثماً.

فمما كتبه أبو علي: إذا كان الشكر ترجمان النية ولسان الطوية، وسبباً إلى الزيادة وطريقاً إلى السعادة، فألسُن[1] آثارها على الساكن مع الصحب أفصح من لسانه، وبيانها[2] عند الجحود أبلغ من بَيانه، والوزير يسع العالم بإحسانه، ويستغرق الشكر بامتنانه، ويستخدم الدهر عزمه، ويؤدب الأيام حزمه، وهو أيده الله كعبة الفضل وغمامة وَبل، والليالي بأفعاله مشرقة، والأقدار من خوفه مطرقة، يحمده أولياؤه، ويشهد له بالفضل أعداؤه، ولا يصل الشك إلى سريرته، ولا ترقد عن الحق عين[3] بصيرته، كالقمر السعد، والأسد الورد.

وفيه يقول[4]: [البسيط]

إنْ سَار سار لواء النصر يقدمه ... أو حلَّ حلَّ به الإقبال والكرم

يلقى العدى بجيوش لا يقادمها ... كثر العساكر إلَّا أنها همم

وقد حكى أبو علي بن مقلة قال: من طريف ما اتفق في نكبتي التي أُخرجتُ منها إلى الوزارة أني أصبحت وأنا محبوس مقيد في حجرة من دار ياقوت أمير فارس، وقد لحقني من الإياس من الفرج، وضيق الصدر ما أَقنطني، وكاد يغلب على عقلي، وكان معي رجل آخر في المجلس إلَّا أنها[5] على سبيل برٍّ منه وإكرام، فدخل علينا كاتب لياقوت كان يأتينا من جهته، فقال: الأمير يقرئ عليكما السلام، ويتعرف أخباركما، ويسأل هل لكما حاجة، فقلت له: أقرئ عليه السلام، وقل له: قد اشتهيت والله أن أشرب على[6] غناء طيب، ورأيه في ذلك، فأقبل المحبوس معي يخاصمني ويقول لي: يا هذا ما في قلوبنا فضل والله لهذا، فقلت للكاتب: أَبلغ عني ما قلت لك، فذهب ثم جاء وقال: الأمير يقول لك: كرامة وعزازة أي وقت شئت، فقلت: الساعة، فلم يمض ساعة

(١) ك: قال.
(٢) ك: وبأنها.
(٣) ت: غير.
(٤) «وفيه يقول» ساقطة من ك.
(٥) ت: أنا.
(٦) ساقطة من ك.

حتى جاءوا بالطعام فأكلنا، ثم أتوا بالمشام والفاكهة والنبيذ والمغني وصفف المجلس وجلست والمحبوس معي مقيدين، وقلت له: تعال حتى نشرب ونتفاءَل بأول صوت يغني به لنا في سرعة الفرج مما نحن فيه فلعله يصح لنا الفأل، فقال: أما أنا فلا أشرب فلم أزل أَرفق به حتى شرب وغنت المغنية، فكان[1] أول صوت غنته: [الطويل]

تواعد للبين الخليط ليثبتوا ... وقالوا لداعي[2] الذود موعدك السبت
ولكنهم بانوا ولم أدرِ بغتة ... وأقطع[3] شيء حين فاجأك البغت

فقال لي: ما هذا مما نتفاءل به؟ فقلت: إن هو إلَّا فأل[4] مبارك، ولعل الله تعالى أن يمن علينا بالفرج [٩١] يوم السبت، قال: ثم شربنا يومنا وسكرنا وانصرفت المغنية ومضيت بقية أيام ذلك الأسبوع، فلما كان يوم السبت لم تمض من النهار إلَّا دون الساعتين، فإذا بياقوت قد دخل علينا فارتعت[5] وقمت إليه، فقال لي: أيها الوزير الله الله فيَّ[6]، وأخذ يهنئني بالوزارة، ولم يكن قد تقدمت عندي مقدمة علم بشيء من ذلك، فأخرج[7] إليَّ كتاباً من القاهر يعلمني فيه بتقليدي الوزارة ويأمرني بالنظر في أمر فارس واستصحاب ما يمكنني من المال، فحمدت الله وشكرته، وإذا الحداد[8] واقف، فتقدمت إليه ففك قيدي وقيد الرجل، وخرجت فجلست فنظرت في الأعمال والأَموال، وجمعت مالاً جزيلاً في أيام يسيرة، وقررت أمر البلد، وسرت وذلك الرجل معي وقد فرّج الله عني.

وفي[9] سنة ست وعشرين وثلاثمائة قطعت يد الوزير أبي علي بن مقلة، وكان سببه أنه سعى في القبض على ابن رائق وإقامة بحكم موضعه، وعلم ابن رائق[10]

---

(١) ك: فكانت.
(٢) ساقطة من ك.
(٣) ك: وأفصح.
(٤) ساقطة من ك.
(٥) ك: فلما وقفت.
(٦) ساقطة من ك.
(٧) ت: فأخر.
(٨) ت: بالخدام.
(٩) ك: ومات.
(١٠) ت: واعلم ابن الرائق.

بذلك، فحبسه الراضي لأجل ابن رائق، وترددت الرسل بين الراضي وبين ابن رائق[1]، وآخر الأمر أنهم اخرجوا ابن مقلة وقطعوا يده في منتصف شوال، وعولج فبرأ وعاد يسعى في الوزارة، وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب، ثم بلغ ابن رائق سعيه وأنه يدعو عليه، فقطع لسانه، وضيق عليه في الحبس، ولم يكن عنده من يخدمه ومات في شوال سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، ودفن بدار الخلافة، ثم إن أهله سألوا فيه فنبش وسلم إليهم[2].

ومن العجب أنه ولي الوزارة ثلاث مرات لثلاثة من الخلفاء: المقتدر والقاهر والراضي، وسافر ثلاث مرات، اثنتين إلى شيراز، وأخرى في وزارته إلى الموصل، ودفن بعد موته ثلاث مرات ونبش[3].

ومنهم:

٤٨ ـ رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسن[4] بن مسلمة[5]:

كان لا يباري له قلم، ولا يجارى له إلى موقف نصرٍ علم، ولا تقعد به همته عن ورود المجرة، وقعود عليائه على الأَسرة، وإنما غلبت عليه شقوة[6] سابق القدر، وراشق القضاء الذي لا ينفع معه حذر، فجر عليه البلاء سخفه، وجرى عليه حتفه. وأوقعه في مصيبة[7] ترض[8] صخورها عظامه ويخل مقدورها نظامه[9].

وزر للخليفة القائم بعد عميد الرؤساء بسعي ذي السعادات [٩٢] وزير الملك أبي كاليجار لأنه كان سيئ الرأي فسعى لهذا الأمر سعيه حتى أَبرمه، وانتمى رئيس الرؤساء إلى السلطان طغرلبك، وردت في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وأربعمائة، إلى

---

(١) ت: وبين الرائق.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١١٤.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء: ٦/ ٢٥٧٥.

(٤) «ابن الحسن» ساقطة من ت.

(٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١١/ ٣٩١، ابن الجوزي، المنتظم: ١٦/ ٤١، البنداري، مختصر تاريخ آل سلجوق: ١٥، ابن الأثير، الكامل: ٩/ ٦٤، ابن الطقطقى، الفخري: ٢٢٩٥، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٤٤١ ـ ٤٦٠]، ص٢٥٠، سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٢١٦.

(٦) ك: شقوته.

(٧) ك: المصيبة.

(٨) ت: ترد.

(٩) ك: مقدومه.

الخليفة جواباً عن رسالة الخليفة[1]، وشكر إنعام الخليفة عليه بالخلع والألقاب، وأرسل طغرلبك إلى الخليفة عشرين ألف دينار عيناً وأعلاقاً نفيسة من الجوهر والثياب والطيب وغير ذلك[2]، وأرسل إلى الحاشية خمسة آلاف دينار، وألفي دينار لرئيس الرؤساء، فأنزل الخليفة الرسل[3] بباب المراتب، وأمرهم بإكرامهم[4].

وكان سبب وحشة البساسيري من رئيس الرؤساء أن قريش بن بدران كان قد سار إلى حلل البساسيري، وكبس أصحابه ونهب أمواله، وفتح السوق وأسرف في إهلاك الناس، ثم إن قريش بن بدران بعث صاحبيه أبا الغنائم وأبا سعيد بن[5] المحلبان إلى الخليفة القائم في رمضان سنة ثلاث وأربعين، فاستوحش البساسيري وأراد أخذهم، فلم يمكن منهم، فبدت الوحشة والبغضاء[6] بينهم. ونسب الأمر كله إلى رئيس الرؤساء لأن القائم كان لا يخرج عن رأيه، ولا يورد[7] ويصدر إلا به فرتب على هذا الأمر ما رتب[8] من خلع القائم، وإقامة الخطبة للمستنصر العُبيدي حتى آل الأمر إلى خروج القائم من بغداد واستجارته، وتمادى الحال إلى سنة حتى عاد الأمر لطغرلبك، ولما دالت الدولة للبساسيري أمسك رئيس الرؤساء[9].

ومنهم:

٤٩ ـ فخر الدولة بن جَهير[10]:

أفق سماء لا تعد نجومه، ونوء سماح لا ترد سجومه، تآلفت أقمار بنيه،

---

(١) يبدو أن هناك اضطراباً أصاب النسخ فالمعلومات هنا مضطربة إلا أن مدارها على أن الخليفة أرسل إلى طغرلبك رسالة فرد عليه طغرلبك برسالة تحتوي ما هو مذكور في النص.

(٢) تضيف ك ما نصه: وأرسل إلى الخليفة عشرين ألف دينار.

(٣) ك: الرسائل.

(٤) ابن الأثير، الكامل: ٩/ ٥٨٠، والخبر فيه سنة ٤٤٣هـ.

(٥) ساقطة من ت.

(٦) ك: القضا.

(٧) تضيف ك: به.

(٨) ت: مرأيت على هذا المر ما رأيت.

(٩) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٢٥١، وتمام الخبر أنه قتل رئيس الرؤساء.

(١٠) ك: حمير وترجمته في: السمعاني، الأنساب: ٣/٣٩٦، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/١٣٤، البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق: ٧٠، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١/١٢٢، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٤٨٠ ـ ٤٩٠هـ]، ص١١٩، ابن الطقطقى، الفخري: ٢٩٣.

وأشرقت مفاخر بيته لمبتنيه، وطلعت بنوره[1] بدور أندية، وصدور مواكب وألوية[2]، دنت له سحب الخلافة ثم أقلعت، وأعنتها إليهم منصرفة، وأَسنتها لديه مغترفة، وشرف بصهر ما وطدت الممالك إلَّا بقلمه[3]، ولا وطئت المسالك إلَّا لقدمه، فكان لا يحوز زنده إلا وقد، ولا يحفو حده إلَّا وقذ، حتى آلت به الوزارة إلى الملك، وأتت تجري بسعادته[4] الفُلك، وكان رجل دهر لا يقلقل له رجل، ولا يقل له ساقاً على قدم إلَّا والهلال خجل، بعزائم لا تهن، وعظائم لا تشبه.

وزر للقائم ثم عزل ثم أعيد في سنة إحدى وستين وأربعمائة، ولما عاد مدحه صردر[5] [٩٣] بقوله: «قد رجع الحق إلى نصابه» القصيدة المعروفة[6].

وتزوج ابن جهير بنت نظام الملك بالري، وعاد إلى بغداد، وكان هذا سبب عَودهِ إلى الوزارة حتى قال القائل: [البسيط]

قُلْ للوزير ولا يفزعك هيبته   وإن تعاظم واستعلى بمنصبه

لولا ابنة الشيخ ما استوزرت ثانية   فاشكر حراً صرت مولانا الوزير به[7]

ثم عَلَت مكانته عند القائم واعتمد عليه، وأَسرَّ بواطنه إليه، وقرب أقرباءه، وبعث ولده عميد الدولة بن جهير بالخلع إلى السلطان ألب أرسلان، وإلى ولده ملكشاه، وكان السلطان قد طلب من الخليفة أن يجعل ولده ملكشاه ولي عهده فأذن له وسيرت له الخلع مع عميد الدولة، وأمر بأن يخطب سفري خاتون ابنة السلطان ألب أرسلان لولي العهد المقتدي، فلما حضر بحضرة السلطان خطبها فأجيب، وعقد النكاح بظاهر نيسابور، وكان عميد الدولة الوكيل في قبول النكاح للمقتدي، ونظام الملك الوكيل في العقد قبل السلطان، ونثرت الجواهر والذهب، ثم عاد عميد الدولة من عند السلطان إلى عند ولده

---

(١) ك: بره.   (٢) ت: واليه.

(٣) «إلا بقلمه» ساقطة من ت. والمقصود به نظام الملك الطوسي.

(٤) ك: بسعادة.   (٥) ك: صودر.

(٦) مطلع القصيدة هو

قد رجع الحقُّ إلى نصابه   وأنت من كل الورى أولى به

انظر: صردر. الديوان: ٦٣، والخبر في ابن الجوزي، المنتظم: ١٢٢/١٦.

(٧) وقع وهم وخلط للعمري بين فخر الدولة وابنه عميد الدولة، فعميد الدولة هو صهر نظام الملك، وهو الذي قيلت فيه هذه الأبيات، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١٣٢، وفيه الشعر منسوباً لابن الهبارية.

ملكشاه، وهو ببلاد فارس، فلقيه بأصبهان فأفاض عليه الخلع، فلبسها وسار بها إلى أبيه ثم أتى عميد الدولة بغداد، وكان ذلك كله في سنة أربع وستين وأربعمائة(١).

ولما بويع المقتدي قام فخر الدولة بأخذ البيعة له في جماعة كانوا معه، فأقر فخر الدولة على الوزارة، وسير ابنه عميد الدولة إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعه له، وأرسل معه من خالص ماله من أنواع الهدايا والتحف ما يجل عن وصفه(٢).

ولما توفيت بنت نظام الملك زوجة فخر الدولة دفنت بدار الخلافة إكراماً لأبيها وزوجها، وجلس للعزاء لها ثلاثة أيام(٣).

ودام على وزارته وأمور الخلافة تمضي بإشارته حتى قدم أبو نصر بن القشيري بغداد سنة إحدى وسبعين، وذكر مذهب الأشعري، فقامت عليه الحنابلة، وظهرت دفائن الإحن، وقامت الفتن، ونسب أصحاب نظام الملك هذا إلى الوزير ابن جهير لميله إلى الحنابلة، فكتب [٩٤] أبو الحسن الواسطي الفقيه الشافعي إلى نظام الملك:

[مجزوء الرمل]

يا نِظَامَ الملك قد حَلْـ	ـلَ ببغداد النِّظامُ
وابنك القاطن فيها	مستهان مستضامُ
وبها أودى له قتـ	ـلى غلام وغلامُ
والذي منهم يبقى	سالماً فيه سهامُ
يا قوام الدين لم	يبق ببغداد مقامُ
عظم الخطب فللحر	ب اتصال ودوامُ
فمتى لم تحسم الدا	ء أياديك الحُسامُ
ويكف القوم ببغـ	ـداد قتل وانتقامُ
فعلى مدرسة فيـ	ـها ومن فيها السلامُ
واعتصام بحريم	لك من بعد حرامُ(٤)

فلما سمع نظام الملك ما جرى، وقصد مدرسته، والقتل بجوارها مع كون ابنه

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ١٦/ ١٤٠.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم: ١٦/ ١٦٦.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم: ١٦/ ١٩٧.
(٤) هذا البيت ساقط من نسخة ت.

مؤيد الملك فيها عظم عليه، فبعث رسالة إلى المقتدي تتضمن الشكوى من بني جهير، ويسأل عزل فخر الدولة وأمر كوهرائين الشحنة بأخذ أصحاب ابن جهير وإيقاع المكروه بهم، فأتى الخبر بني جهير، فسار عميد الدولة إلى العسكر لاستعطاف نظام الملك وتجنب الطريق وسلك الجبال خوفاً من لقاء كوهرائين، وأتى كوهرائين بغداد، واجتمع بالمقتدي، وأبلغه رسالة نظام الملك، فأمر ابن جهير بلزوم بيته، ووصل عميد الدولة والعسكر السلطاني، ولم يزل نظام الملك يُستصلح حتى عاد إلى ما ألفه منه وزوجه بابنة بنت له، وعاد إلى بغداد على أن الخليفة يرد أباه إلى الوزارة فلم يرده، واستوزر أَبا شجاع محمد بن الحسين. ثم إنَّ نظام الملك راسل الخليفة في إِعادة بني جهير، وشفع إليه فيهم، فاستوزر عميد الدولة. وأذن لأبيه فخر الدين في فتح بابه والتصرف في نفسه وذلك سنة اثنين وسبعين[١].

ثم عزل في سنة خمس وسبعين وتوجه بأهله كلهم إلى نظام الملك بطلب منه[٢] لهم فأكرمهم، وفوض السلطان إلى فخر الدولة ديار بكر، وخلع عليه وأَعطاه الكوسات، وسير معه العساكر، وأمره بأن يأخذها من بني مروان، ويخطب بها لنفسه، ثم إنَّ السلطان أمده بولده عميد الدولة وبعث معه قسيم الدولة أَقسنقر جد نورالدين، فأخذوا الموصل وغيرها وانقرضت دولة بني مروان[٣].

وكان عسكره قد أَوقعوا بحلل العرب نحو آمد حتى افتك سيف الدولة صدقة نساءهم وأولادهم، وأسدى مكرمة شريفة مُدح بها ومما قاله السنبسي: [الوافر]

كما أَحرزتَ شُكر بني عقيل	بآمد حين كَظّهُمُ الحِذارُ [٩٥]
غداةَ رَمَتْهُمُ الأتراكُ طُرّاً	بشُهبٍ في حوافرها ازورارُ
فما جَبُنُوا ولكن فاض بحرٌ	عظيم لا تقاومه البحار
فحين تنازلوا تحت المنايا	وفيهن الرَّزِيّة والدَّمارُ
مننت عليهم وفككت عنهم	وفي أثناء حبلهم انتشار
ولولا أنت لم يَنفكَّ منهم	أسيرٌ حين أعلقه الإِسار[٤]

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ١٠٩ ـ ١١١وفيه الشعر. وفي الرواية لقب ابن جهير، فخر الدين وهو خطأ فلقبه فخر الدولة

(٢) ك: منهم.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ١٢٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ١٣٤ ـ ١٣٥ وفيه الشعر.

ولد بالموصل سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وتوفي بها سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة[1].

ومنهم:

٥٠ - أبو شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم ظهير الدين الروذراوري[2]:

قرأ الفقه علي الشيخ أبي إسحاق وتأدب، ووزر للمقتدي بعد عميد الدولة ابن جهير، وأخمل ذكره الشهير، وخطا والبرق على أثره، وسرى والجوزاء أقرط في لجامه أو عذره، أقام[3] في الوزارة سنتين ثم عزل عنها.

وأنشد لما عزل[4]: [الوافر]

تولاها وليس له عدو   وفارقها وليس له صديق

وكان أمره مع الناس بخلاف ما ظن.

حكى ابن خلكان[5]: أنه خرج بعد عزله ماشياً يوم الجمعة إلى الجامع من داره فانهالت عليه العامة تصافحه وتدعو له، وكان ذلك سبباً لإلزامه بالقعود في داره. ثم أخرج إلى روذراور فأقام مدة ثم خرج حاجاً، فخرجت العرب على الركب الذي هو فيه بقرب الربذة، فلم يَسلم من الرفقة [سواه][6]، فحج وجاور بالمدينة الشريفة حتى مات، ودفن عند القبة التي فيها إبراهيم عليه السلام.

وكان سبب عزله أنه كان ينتقص بالسلطان وبنظام الملك، ويتكلم فيهما، ولما جاءت البشرى بأن السلطان فتح سمرقند، قال: أي بشرى هذه كأنه فتح بلاد الروم أو قاتل كفار الهنود! جاء إلى قوم مسلمين استباح نساءهم وأموالهم وأخذ ملكهم

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ١٦/ ٢٩٠.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/ ٢٢، الأصفهاني، خريدة القصر (العراق) ١/ ٧٧، البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق: ٧٧، ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٢٥٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٣٤، ابن الطقطقى، الفخري: ٢٩٧، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٣/ ٣.

(٣) ت: أيام.

(٤) الأصفهاني، خريدة القصر: ١/ ٧٧.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٣٥.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن خلكان.

وديارهم. فأرسل إلى الخليفة في عزله فعزله[1].

قال العماد الكاتب[2]: ولما كان عصره أحسن العصور، وزمانه أقصر الزمان، ولم يكن في [٩٦] الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله، صعباً شديداً في أمور الشرع، سهلاً ليناً في أمور الدنيا، لا تأخذه في الله لومة لائم.

ثم قال: ذكره ابن الهمذاني في الذيل، فقال[3]: كانت أيامه أوفى[4] الأيام سعادة للدولتين، وأعظمها بركة على الرعية، وأعمها أمناً وأشملها[5] رخصاً وأكملها، ولم يعادلها سرور[6]، ولم يغادرها بؤس، ولم تشبها مخافة، وقامت للخلافة في نظره من الحشمة والاحترام، ما أعادت سالف الأيام وكان أحسن الناس خطاً[7].

قال ابن السمعاني: وكان يرجع إلى فضلٍ كامل، وعقل وافر، ورزانة ورأي صائب، وكان له شعر رقيق مطبوع. وقال: سمعت من أثق به أن الوزير أبا[8] شجاع وقت أوان ارتحاله من الدنيا حُمل[9] إلى مسجد رسول الله ﷺ فوقف عند الحظيرة وبكى، وقال: يا رسول الله قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[10]. ولقد جئتك معترفاً بذنوبي وجرائمي

أرجو شفاعتك وبكى ورجع وتوفي من يومه[11].

ومن شعره قوله[12]: [الكامل]

لأعذِّبن العين غير مراقبٍ — فيها بكت بالدمع أو فاضت دما

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٠/١٨٧.

(٢) الأصفهاني، خريدة القصر: ١/٧٨.

(٣) ك: فقالت.

(٤) ت: في.

(٥) ك: اسلمنا.

(٦) «ولم يعاد لها سرور» ساقطة من ك.

(٧) الأصفهاني، خريدة القصر: ١/٧٨ . ٧٩.

(٨) ت، ابن شجاع.

(٩) ت: حمد.

(١٠) سورة النساء، الآية ٦٤.

(١١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/١٣٦.

(١٢) الشعر في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/١٣٦.

ولأهـجـرنَّ مـن[1] الـرقـاد لـذيـذَهُ حتـى يَعُـودَ عـلـى الـجـفـون مُـحـرَّمـا
هي أوقـعـتـنـي[2] فـي حـبـائـل فـتـنـة لـو لـم تـكـن[3] نـظـرت لـكـنـت مـسـلَّـمـا
سـفـكـت دمـي فـلأسـفـكـن دمـوعـهـا وهـي الـتـي بـدأت فـكـانـت أظـلـمـا

ومنه قوله[4]: [الطويل]

أيـذهـب جُـلُّ الـعُـمْـرِ بـيـنـي وبـيـنـكـم بـغـيـر لـقـاءٍ إنَّ ذا لـشـديـدُ
فـإن يـسـمـح الـدَّهـر الـخـؤون بـوصـلـكـم عـلـى فـاقـتـي إنـي إذاً لـسـعـيـدُ

وله تصانيف منها «ذيل تجارب الأمم»[5].

٥١ ـ عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير[6]:

رجل[7] لو لم يجن عليه لسانه، ويهن بقبيح إساءته إحسانه لما جاذبته السعادة عنانها، ولا جاوزته عيانها، ولو لم يكن نوادر كلامه بوادر كلامه. ولا أخذ بلفتات [٩٧] اللسان الطائحة وصفحات البغضاء اللائحة حتى لقم حر الأُوار ولفح إلى دار البوار.

ووزر للمقتدي بعد عزل أبي شجاع، وكان السلطان ونظام الملك يكرهان أبا شجاع لما تقدم ذكره في ترجمته، ولما عزل أبو شجاع استناب المقتدي أبا سعيد بن موصلايا كاتب الإنشاء في الوزارة وطلب عميد الدولة ليوزره، فسير إليه، وركب إليه نظام الملك وهنأه بالعود إلى الوزارة، وأكثر الشعراء تهنئته فأخذ في العمارة، وتثمير البلاد، وتوطين الرعايا، وبنى سور الحريم[8]، وأمر فزينت بغداد لفراغه[9].

---

(١) ت: في.

(٢) في الأصول: أوقفتني والتصويب من ابن خلكان.

(٣) ساقطة من ك.

(٤) الأصفهاني، خريدة القصر: ١/ ٨٢.

(٥) هو مطبوع باعتناء امدروز. ثم طبع مرة ثانية ملحقاً بكتاب تجارب الأمم لمسكويه في طهران.

(٦) الأصفهاني، خريدة القصر (العراق): ١/ ٨٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٣١، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٤٩٠ ـ ٥٠٠]، ص٧٥، ابن الطقطقى، الفخري، ٢٢٦، ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/ ٥٩، ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٢٩٨، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١/ ٢٧٢.

(٧) ساقطة من ك.

(٨) «وبنى سور الحريم» ساقطة من ك.

(٩) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/ ٦٠.

وكان عاقلاً حليماً كريماً، إلّا أنه كان عظيم الكبر يكاد يعد كلامه عداً[١]، وكان إذا كلم إنساناً كلاماً هُنِّئ ذلك الرجل بكلامه إلّا أنه كان يهب الألف عيناً من الذهب والخيل المسومة والأقمشة[٢] الثمينة حتى ذهب الكرم بماله كله، ولم يزل على جاهه ووجاهته وانثناء ظرفه ونباهته حتى عادى الدولة السلجوقية فعمل عليه ورمي بسهامها فما أخطأت لبته ونحره، فعزل في سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة، وقبض عليه وعلى إخوته، وأخذ عليه خمسة وعشرون ألف دينار، ولم يزل محبوساً بدار الخلافة إلى أن توفي في سادس عشر شوال منها، ومولده سنه خمس وثلاثين وأربعمائة[٣].

ومنهم:

٥٢ ـ سديد الملك أبو المعالي بن عبدالرزاق الملقب عضدالدين[٤]:

عِزٌّ لم تره التجارب، ولم ترضه المآرب، ولم تروه الأَيام وما فيها ريٌّ لشارب، ولم ترمه مطالبه على أمله، ولا ما يقارب،لم تسع دائرة تدبير الخلافة همته،ولا مضت على قدر سيوفها عزمته، فجذب رداؤه الذي يقمص جلبابه، وتقلص ظلهُ الذي يُقيل سحابه، واستمطر ربابه.

وزر للخلافة سنة خمس وتسعين وأربعمائة وورد عليه أهله من أصفهان وتصرف، ولكن لم تبسط له يد، ثم قبض عليه في منتصف رجب سنة ست وتسعين، ونقل إليه أهله إلى محبسه، ولم يُضيق عليه لأَنه لم يَعدَّ له ذنب إلّا جهله بقواعد ديوان الخلافة، لأنه قضى عمره في أعمال السلاطين، وقواعده لا تشبه قواعد الخلفاء، وكان قد سكن في دار عميد الدولة ابن جهير وجعل له فيها مجلساً عاماً يحضره الناس لوعظ المؤيد عيسى الغزنوي، فلما [٩٨] رآه المؤيد عيسى في دار بني جهير أنشده ارتجالاً، ومنها: [الوافر]

سديد الملك سُدت، وخضت بحراً عميق [اللُّجّ][٥] فاحفظ فيه روحك

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) ت: الأقسمة.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/٥٩ ـ ٦٠، الأصفهاني، خريدة القصر: ١/٨٧.

(٤) هذه الترجمة ساقطة من نسخة ك وترجمته في ابن الأثير، الكامل: ١٠/٣٦٢، الأصفهاني، خريدة القصر (العراق): ١/٩٣.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الأثير.

وأحي معالم الخيرات[1] واجعل لسان الصدق في الدنيا فتوحك
وفي الماضين مُعتبرٌ فأسرح سَرُوحك في السلامة أو جموحك

ثم قال له: يا سديد الملك من شرب مرقة السلطان احترقت شفته، ولو بعد زمان، ثم أشار إلى الدار وقرأ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾[2]، قال: فَقُبض على سديد الملك بعد أيام قلائل، وبقي في الاعتقال وهرب، ولحق بالحلة السيفية ثم وصل إلى مخيم السلطان بركياروق فولاه الإشراف على ممالكه[3].

ومنهم:

٥٣ ـ زعيم الرؤساء أبو القاسم بن جهير[4]:

ركن من البيت الجهيري لم يخل من طائف، ولم يخل من لطائف، نهضت به جدود الآمال العواثر، وعمرت معالم الإفضال الدوائر بهمة تحلق حيث حلق العقاب، وتحل حيث لا تصل الرؤوس منه إلى مواطئ الأعقاب، لا يضيق به فترٌ عن مسير، ولا مدى سير عن مصير.

لما قبض المستظهر على سديد الملك استقدمه من الحلة، وكان قد لجأ إلى سيف الدولة صدقة وكان قد فر إليه من ثغرة السور في حال غفلة، فلما قدم بغداد خرج إليه جميع أرباب الدولة، واستقبلوه فلما مَثُل بين يدي الخليفة ورآه خُلعت عليه الخلع التامة، ولقب قوام الدين، فخرج وجلس في الديوان وقُرئ عهده بحضوره، وتوفي سنة سبع وخمسمائة ووزر بعده الربيب أبو منصور بن أبي شجاع[5].

---

(١) ت: الحراب والتصويب من ابن الأثير.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٤٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٣٥١، ٣٦٢ وفيه الشعر.

(٤) هذه الترجمة ساقطة من نسخة ك وترجمته في: ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/١٤٢، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/٥٥، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٢/١٣٤، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٥٠١ ـ ٥١٠]، ص٢١٠.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/٨٠، ١٣٣.

ومنهم:

٥٤ ـ جلال الدولة أبو علي بن صدقة[1]:

وزير يفرح له الدست، ويطربُ به صرير قلمه طرب الرست، تقلبت به أحوال الدهر تسقيه شهداً وصابا، وتريه سروراً ومصابا، آونة تدعوه في الكفاة مهذباً، وآونة تدعه في الفلاة مزبداً، فذاق طعم يوميه، وتقلب تحت حكميه، ثم كان انتهاءه إلى أحسن حاله وأنعم غالية، وأكرم من كان يؤمل أن يصير [٩٩] إليه، وكان المُسترشد به يسترشد، وبسببه يستنجد، وكان لا يعقد له راية بيده تيمناً بما عقد، وتيقناً بأنه لا يفعل ما ينتقد.

ثم قبض المسترشد عليه واستناب في الوزارة النقيب شرف الدين علي بن طراد الزينبي، وأرسل السلطان إلى الخليفة ليوزر نظام الدين وزير السلطان، وهو أخو شمس الملك عثمان، فاستوزر في شعبان سنة ست عشرة وخمسمائة. وكان قد وزر للسلطان محمد سنة خمسمائة ثم عزله ولزم داراً استخدمها ببغداد[2].

فلما خُلع على نظام الدين وجلس في الديوان طلب أن يخرج ابن صدقة عن بغداد، فطلب ابن صدقة من الخليفة أن يسير إلى الحديثة ليكون عند سليمان بن مهارش، فأجيب سؤاله، فخرج عليه في الطريق إنسان من التركمان المفسدين اسمه يونس الحزامي فأسره ونهب أصحابه، فخاف الوزير أن يعلم به دبيس، فيبذل له مالاً ويأخذه منه للعداوة السابقة بينهما، فقرر أمراً مع يونس على ألف دينار حمل إليه منها ثلاثمائة دينار، وأخذ البقية على أنه يرسلها إليه من الحديثة، وأرسل إلى عامل بلد الفرات في تخليصه، وإنفاذ من يضمن الباقي الذي عليه، فأعمل الحيلة له، وأحضر إنساناً فلاحاً وألبسه ثياباً فاخرة وطيلساناً، وأركبه وسير معه غلماناً، وأمره أن يمضي إلى يونس ويدعي أنه قاضي بلاد الفرات، ويضمن الوزير منه على ما بقي من المال، فسار إليه وضمن الوزير، وقال له: أقم عندك إلى أن يصل المال مع صاحب لك تنفذه مع الوزير، فاعتقد يونس صِدق ذلك، وأطلق الوزير ومعه جماعة من أصحابه، فلما وصل إلى الحديثة قبض على من معه منهم، فأطلق يونس ذلك الفلاح، وأعاد المال

(١) هذه الترجمة ساقطة من نسخة ك وترجمته في الأصفهاني، خريدة القصر (العراق): ١/ ٩٤، ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/ ٢٥٠، ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٦٥٢، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٢/ ١٤٧.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/ ٢٠٥.

الذي أخذه، وعلم أن الحيلة قد تمت عليه، وكان الوزير لما سار من عند يونس لقي إنساناً أنكره فأخذه فرأى معه كتاباً من دبيس إلى يونس يبذل له ستة آلاف دينار ليسلم الوزير إليه، فكان خلاصه من أعجب الأشياء[1].

ثم إنَّ السلطان نقم على وزيره شمس الملك بن نظام الملك وقتله، وكان قريبه الشهاب أبو المحاسن وزير السلطان سنجر قد مات فعزل المسترشد نظام الدين أحمد، وعاد ابن صدقة إلى وزارته. وأحله في دست صدارته في سنة سبعة عشر وخمسمائة [١٠٠] وتوفي مستهل رجب سنة ثلاث وعشرين[2].

وكان حميد الطريقة، متواضعاً، محباً لأهل العلم، مكرماً لهم، وله شِعر متوسط، ولما مات استنيب ابن طراد الزينبي في الوزارة وخلع عليه[3].

ولما طالت مظالم ابن صدقة كتب إلى المسترشد[4]: [الطويل]

تقسم أمري فيك كيف نَسيتني ... وأنت بأن ترعى الحقوق حقيق

وما ذلك إلّا أّن شيمتك العُلا ... وليس لها يوماً إليَّ طريق

فلما وقف عليها وصله بمالٍ ووعده بظهور الأنعام عليه، ثم خلع عليه المسترشد حين عاد في جهة دبيس، وكان قد هرب إليه، فلما دخل عليه أنشده: [الطويل]

بدأت بنعمتي ثم واليت فعلها ... وواصلتها في حالة البعد والقرب

ولم يخلني من حسن رأيك إذ سطا ... بي الدهر واسودت له أوجه الخطب

فأقررت عين الأولياء بأوبتي ... وأَرغمتُ أعدائي وأوطأتهم عقبي

فلما وصل دبيس مع الملك طغرل من مصر[5] خرج المسترشد لدفعهم، وأقام ابن صدقة في العسكر مقابل شهرابان إلى أن تفرق العسكر عن دبيس وانفصل عن الملك وأتى الخبر بأن دبيساً وصل إلى حلوان مصعداً، فكتب ابن صدقة إلى المسترشد: [البسيط]

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٠٣.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/ ٢٢٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٥٢.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٢/١٤٨.

(٥) كذا في الأصل. ولم نستطع توجيه قراءتها.

ولـي وقـد ألـجـم الـخـطـى مـنـطـقـه يـسـكـنـه تـحـتـهـا الأحـشـاء في صـخـب
مـوكـلاً بـبـقـاع الأرض يُـشـرفـهـا من خفـة الـخـوف لا من خفـت الـطـرب

أصله المملوك هذه الخدمة من مقابل شهرابان وقد لاذ العدو بأكناف حلوان مستعداً سلامته، مسترخصاً مهجته، يقول لمن غره بجلابه، وجمعه بإفكه وكذابه، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[1].

وحكى ابن النجار[2] قال: لما خرج الوزير ابن صدقة من محبسه إلى الدار المعروفة بالزينبي استأذن في دخول أولاده وخواص أصحابه، قال: فدخلنا عليه، وسألناه عن حاله، فقال: لما حُملت إلى دار السياطة جاءني خادم معه خادم للمسترشد، ومكتوب الخليفة بإطابة قلبي وأني ما نقلت إلى دار [السياطة][3] إلّا حيناً لي وحفظاً لمهجتي، وأحضرني دواة ودرجاً لأستدعي ما أحتاج إليه فسألت [١٠١] إنفاذ مصحف ومصلًى وشيء من المجاميع، فجاءني خادمان بذلك، فمددت يدي إلى أخذ المجلدات، فإذا هو بخط أبي عبد الله بن مقلة، وعلى ظهره مكتوب: لأخي أبي علي: [الوافر]

أُفـكـر فـي الـذي ألـقـى وصـبـري فـأحـمـد هـمـتـي وألـوم دهـري
ومـا قـصـرت فـي حـالـي ولـكـن لـرب الـنـاس أمـر فـوق أمـري

فعجب من الاتفاق، ثم أخذ مجلداً آخر، فإذا على ظهره مكتوب بخط المستظهر: [الرجز]

مـا هـو إلّا الله فـارفـع طـرفـكـا يـكـفـيـك ربُّ الـنـاس مـا أهـمَّـكـا

فأعجبني وسكنت إلى الفأل، وأيقنت بالخلاص، وكان الخليفة قصد إيفاد هذه الكتب، ولم أعرف إن كان قصدها، فسألت إن حسن، وإن كان اتفاقاً فهو أحسن.

ولوى ابن الأقفاصي قبره فلثمه، وأنشد[4]: [الطويل]

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٢.
(٢) ترجمته تقع في المنقود من كتاب ذيل تاريخ بغداد لابن النجار، وهي غير موجودة أيضاً في اختصاره الذي عمله الدمياطي تحت عنوان المستفاد.
(٣) إضافة يقتضيها السياق.
(٤) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٥٢.

يــزورك فــي نــوى خـــشــوع وذلــة كــأنــك تــرجــى فــي الــطــريــح وتــرهــب
تــرى بــمــا قــد كــتــبــت مــمــتــدحــاً بــه فــيــحــزنــنــا مــنــك الــذي كــان يــطــرب

ومنهم:

٥٥ ـ أنوشروان بن خالد، شرف الدين[١]:

وزير كان لا يعبأ بمنصبه على أنه كان خليل، ولا يرفع على مخضبة ومرآه جميل، وكان له ببديع الأدب اعتناء، ومن فروع الطلب اجتناء، حتى كان ناديه لا يزال للأُدباء مجمعاً، وللأولياء مرتعاً، وسحاب كرمه ينهمر، وحرم بيته للحاج والمعتمر.

وزر للمسترشد والسلطان محمود وللسلطان مسعود، وكان يستقيل من الوزارة فيجاب إلى ذلك، ثم يخطب لها فيجيب كارهاً وهو الذي كان السبب في عمل المقامات الحريرية[٢].

وكان رجلاً عاقلاً شهماً دَيِّناً خيراً. وكان يتشيع إلا أنه لم يظهر عنه غلو ولا سب ولا تعصب لأهل ذلك[٣].

وكان إذا ولي عدل وأنصف، وكشف ظلم من جار وأَجحف، ثم إذا نزع رداء الوزارة عكف على معاناة الأدب، وله فيه يد ليست بالعليا[٤].

وتوفي في صفر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة معزولاً ببغداد، وحضر جنازته وزير الخليفة فمن دونه، ودفن في داره، ثم نقل إلى الكوفة، فدفن بمشهد علي كرم الله وجهه[٥] [١٠٢].

---

(١) السمعاني، الأنساب: ٤/٤١٩، ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/٣٣٣، ابن الأثير، الكامل: ١١/٧٠، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٥١٠ ـ ٥٤٠ هـ]، ص ٣٠٤، سير أعلام النبلاء: ٢٠/١٥، ابن الفوطي، مجمع الألقاب: ٤/٢/١١٢٣، رشيد الدين، جامع التواريخ: ٥/١٠٩، ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ: ١٢/٣٤٠، وانظر أيضاً: عصام عقلة، أنوشروان وكتابه نفثة المصدور بحث نشر في الكتاب التذكاري للدكتور مصطفى الحياري، الجامعة الأردنية، ٢٠٠١.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ١١/٧١.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/٣٣٤.

(٤) ابن الفوطي، مجمع الألقاب: ٤/٢/١٢٢٤.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/٣٣٤.

ومنهم:

٥٦ ـ الشريف علي بن طراد الزينبي، شرف الدين أبو الحسن[1]:

من بيت الشرف الرفيع، ولؤلؤ النسب الشريف، لا الصدف الوضيع، طلع قمراً في الأُسرة العلوية، وكوكباً في أفق الذرّية الدريّة، وشد عضد الخلافة العباسية منه بشقيق نسب وشفيق قربى كلاهما لأب[2]، ولم تزل الوزارة تعرض عليه عقيلتها. وتبيت لديه عقيدتها حتى وسمها بسمته، وعقد عليها وأصبحت في عصمته.

وزر مرات، وزر للمسترشد والراشد والمقتفي، وكان تارة يكون نائباً عن الوزارة، وتارة وزيراً مستقلاً بالوزارة[3].

وكان هو أحد من أشار بخلافة المقتفي على ما هو مذكور وتحالف هو والسلطان على إقامته واتّحَدت بينهما الصداقة[4].

ولما تزوج الخليفة بفاطمة أخت السلطان مسعود على صداقٍ مبلغه مائة ألف دينار كان الوكيل في قبول النكاح عن الخليفة وزيره الشريف ابن طراد المذكور، والوكيل عن السلطان في العقد وزيره كمال الدين الدركزيني[5].

قال ابن الأثير[6]: جرى بين المقتفي وبين ابن طراد منافسة[7]، وسببها أنه كان يعترض على الخليفة في كلّ ما يأمره به، فنفر الخليفة منه، فغضب ثم خاف فقصد دار السلطان في سميرية وقت الظهر، ودخل إليها فاحتمى بها، فأرسل إليه الخليفة في

---

(١) ابن الجوزي المنتظم: ١٨/٣٤، الأصفهاني، خريدة القصر (العراق): ١/٢٠٩، ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٥٣، ابن الطقطقى، الفخري: ٣٠٥، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٢٠/١٤٩، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢١/١٥٥.

(٢) ت: الأذب.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢١/١٥٦.

(٤) الصفدي ، الوافي بالوفيات: ٢١/١٥٦.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/٣٢١.

(٦) ابن الأثير، الكامل: ١١/٧٦.

(٧) ك: إلاّ منافرة.

العود إلى منصبه فامتنع، فكانت الكتب تصدر باسمه، واستنيب قاضي القضاة الزينبي وهو ابن عم الوزير، وأرسل الخليفة إلى السلطان رسلاً في معنى الوزير، فرخص له السلطان في عزله، فأسقط اسمه من الكتب، ورفع يد نائبه، وأقام بدار السلطان ثم توفي ابن طراد في رمضان سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة معزولاً، ودفن بداره بباب الأزج ثم نقل إلى الحربية.

ومنهم:

٥٧ ـ يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن الحسن من ولد عمر بن هبيرة الشيباني، عون الدين أبو المظفر الحنبلي(١):

فرد في الأئمة الأعلام، بل في الأمة والسلام، كان يتمذهب للإمام أحمد بن حنبل، وله تصانيف مشهورة، مفيدة، لا أدعى حضورها لأنها عديدة، وقد [١٠٣] شدَّ الله به أزر الخلافة بعد أن(٢) تهلهل بردها، وتناثر عقدها، قام مع المقتفي قيام أبي مسلم مع المعرق(٣) في خؤولة بني عبدالمدان(٤)، وابن العاص مع ابن أبي سفيان، وشمر له تشمير كاتبان في نصر أَفريدون، وطاهر بن الحسين في قتل أَعداء المأمون، حتى سل مهج السلجوقية، وحطَّ درج الدولة الشرقية، وجد لبلوغ الأرب، وأسجد تيجان العجم لعمائم العرب، وأجلى عن أقطار بغداد من أَمها، وجلَّى عن نهار دجلة المشرق ظلمها، حتى أجلى للمقتفي ذرى من برم، وجلى للمقتفي نَدى كوثره، وكان على شغله الشاغل بحمل هذه الأثقال، ومدافعة تلك السحب الثِّقال، لا يزال منتاب الأَندية بالعلماء، معمور الأَفنية لإِفاضة النعماء، ومع هذا كله يقوم بالعبادة دجى الليل الظلماء، ويكل ما وليه من أهل الأَرض إلى رب السماء، ولا يرى ما أَدركه بجميل سعيه إلَّا سنته المقادير، وأذِنته منه سابق المشيئة لا التدبير، وقد مر في ذكر المقتفي من حاله ما حلا، وطنَّ من خلايا النحل منه ما حلا.

---

(١) الأصفهاني، خريدة القصر (العراق): ١/٩٧، ابن الجوزي، المنتظم: ١٨/١٦٦، ابن الأثير، الكامل: ١١/٣٢١، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/٢٣٠، ابن الطقطقى، الفخري: ٢٦٠.

(٢) تضيف ت بعدها: كانت.

(٣) ك: المعروق.

(٤) إشارة إلى أبي العباس السفاح فإن أخواله من بني عبدالمدان.

قال ابن خلكان(١): أصله من قرية من عمل دجيل تعرف الآن بدور الوزير نسبة إليه، دخل بغداد، واشتغل بها، وجالس الفقهاء والأدباء، وسمع الحديث وتفنن، وحفظ ألفاظ البلغاء، وتعلم الإنشاء، قرأ الأدب على ابن الجواليقي، والفقه على ابن الفراء، وصحب الزبيدي الواعظ، وسمع الحديث من ابن ملة الأصفهاني، وأبي القاسم ابن الحصين الكاتب ومن بعدهما، وحدث عن المقتفي وغيره، وسمع منه خلق كثير منهم: أبو الفرج بن الجوزي، وتنقل في الوظائف حتى ولي ديوان الزمام ثم ترقى إلى الوزارة.

قال(٢): وكان سبب توليه أن المسعودي ويلدكز السلطاني قصداً بغداد بجموع كثيرة، وصدرت منه فتن عظيمة، فشرع الوزير ابن صدقة في تدبير الحال، فأخفق مسعاه، فاستأذن الخليفة ابن هبيرة في أمرهم، فأذن له فخاطب هؤلاء وأحسن التدبير حتى كف شرهم، ثم قوي عليهم حتى نهبت العامة أموالهم، وجرت المقادير في هذا(٣) لرفع ابن هبيرة ووضع ابن صدقة، فلما انقضى هذا [١٠٤] المهم استدعى المقتفي ابن هبيرة بكتاب على يد أميرين فركب إلى دار الخلافة في جماعة، وتسامع الناس بوزارته، فلما وصل إلى باب الحجرة استدعي، فدخل وقد جلس له المقتفي بميمنة التاج، فَقبل الأرض وسلم، وتحدثا ساعة ثم خرج، وقد جهز له التشريف على عادة الوزارة فلبسه، ثم استدعي ثانياً فقبل الأرض ودعا بدعاء أعجب الخليفة، ثم أنشد يقول: [الطويل]

سأشكر عمراً ما تراخت منيتي ... أَيادي لم تُمنن وإن هي جَلَّت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها ... وكانت بمرأى منه حتى تجلت

وهذان البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي، وإنما غير عجز البيت الثاني لأن أصله «وكانت قذى عينيه» فلم يرد مخاطبة الخليفة.

قال(٤): ثم خرج فقدم له حصان أدهم، سائل الغرة، محجل، كامل العدة بالحلى، وخرج بين يديه طائفة من الأمراء وأرباب المناصب والخدم والحجاب،

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٣٠.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٣٢.

(٣) ك: بهذا.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٣٣.

والطبول تضرب أمامه، والمسند محمول وراءه على عادتهم في ذلك، ودخل الديوان، ونزل على طرف[1] الإيوان، وجلس في الدست، وقرأ ابن الأنباري العهد، ثم قرأ القراء وأنشد الشعراء، وذلك يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

وكان عالماً، فاضلاً، ذا رأي صائب، وسريرة صالحة، وظهر منه في أيام ولايته ما شهد له بكفايته وحسن مناصحته، فشكر له ذلك، ولحظ بعين الرعاية، وتوفرت له أسباب السعادة، وكان مكرماً لأهل العلم يحضر مجلسه بحضوره، ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذكره، وصنف كتباً منها: «الإفصاح في شرح معاني الصحاح»، و«شرح الجمع بين الصحيحين»، وكتاب «المقتصد» وغير ذلك[2].

ولما أتى السلطان محمد بن محمود بن محمد ملكشاه وزين الدين علي أبو المظفر صاحب إربل لحصار بغداد سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة جدَّ المقتفي في حفظ البلد، وقام ابن هبيرة في هذا القيام الذي يعجز عنه غيره، وأمر المقتفي فنودي ببغداد من جُرِحَ له خمس دنانير، فحضر بعض العامة عند ابن هبيرة مجروحاً، فقال له: هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئاً، فعاد إلى القتال فضرب في جوفه فخرجت أمعاؤه [١٠٥] فعاد إلى ابن هبيرة، وقال: يا مولانا أبصر يرضيك هذا، فضحك منه، وأمر له بصلةٍ وأحضر له من عالجه[3].

ومضت أيام المقتفي، وابن هبيرة نظام جماعتها[4] وتمام طاعتها[5] فلما آل الأمر إلى المستنجد دخل عليه ابن هبيرة وبايعه، وكان خائفاً منه، فأقره على وزارته وأكرمه، ثم لم يزل على منصبه حتى أتاه أجله[6].

وحكى ابن الأثير[7]: أنَّ ابن هبيرة لما ولي يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر سنة

---

(١) ساقطة من ك.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٣٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٤) ت: جمعهما.

(٥) ت: طاعتهما.

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٧) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ١٤٧.

أربع وأربعين كان القمر على تربيع، قيل له: لو[1] أخرت لبس الخلعة لهذه التربيعات، فقال: وأي سعادة أكبر من وزارة الخليفة ولبس في ذلك اليوم.

ومنهم:

٥٨ ـ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعد بن البلدي، شرف الدين[2]:

تحمل بالوزارة إثماً. وابتدع سيرة سودت الصحف والأيام، وسولت لنا[3] الحتف والآثام، وأعادت ما قد نسي من المظالم، ونسب[4] إلى جور الظالم، فتقرب بما أبعده[5]، وقام بما أقعده فسلب ما لبس له جلد النمر، وحضر لا يؤذن له فيعترف، ولا يقبل منه فيعتذر.

قال ابن الأثير[6]: كان ناظراً بواسط، فبان عن همة عالية، وسيرة سديدة في تعميرها وتثميرها، وسداد عملها[7]، فأحضره المستنجد ووزره[8] سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وكان عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء قد تحكّم تحكماً عظيماً، فأمر الخليفة ابن البلدي بكف يده، وأيدي أهله وأصحابه، ففعل ذلك، ووكل بتاج الدين أخي أستاذ الدار، وطالبه بحساب نهر الملك، وكان يتولاه من أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره، فحصّل أموالاً جمة، وخاف أستاذ الدار على نفسه، فحمل مالاً كثيراً.

قال غير ابن الأثير: ملأ الخزائن وعمر البلاد وثمر الأموال إلَّا أنه قاد الناس بالعنف وحكم بالعسف، وامتد في غلو الجور. فاتفق عليه ابن رئيس الرؤساء ويزدن المقتفوي لما كان قد استحكم بينهما وبينه من العداوة لأن المستنجد كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها، فيظنان أنه هو الذي سعى بهما، فلما مرض المستنجد وأُرجف بموته، ركب الوزير ابن البلدي ومعه الأُمراء والأجناد بالعدة، ولم يتحقق خبر موته،

---

(١) ت: لولا أخرت لبس الخليفة.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٣٦١، ابن الجوزي، المنتظم: ١٨/ ١٩١، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/ ١٧٨، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٥٦١ ـ ٥٧٠]، ص٢٤٣، سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٥٨٧، ابن الطقطقى، الفخري: ٣١٧، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٧/ ٤٠١.

(٣) ساقطة من ت.

(٤) ت: ونسبه.

(٥) ت: فتقر به ما أقعده.

(٦) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٣٣٢.

(٧) ت: علمها.

(٨) ت: فأحضر المستنجد وزيره.

فبعث ابن رئيس الرؤساء، يقول له: إنَّ أمير المؤمنين قد خفَّ ما به من المرض، وأقبلت العافية، فخاف الوزير من دخول دار الخلافة بالجند، فعاد إلى داره، وتفرق من كان [١٠٦] معه، وكان ابن رئيس الرؤساء ويزدَن قد استعدا لما ركب الوزير بالعسكر خوفاً منه، فلما عاد غلَّق أستاذ الدار باب الدار، وأظهر وفاة المستنجد وبايعا المستضيء، وبلغ الخبر ابن البلدي فأسقط في يده، وقرع لعوده سنه ندماً حيث لا ينفعه الندم، فجاء من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء، فمضى إلى دار الخلافة فصرف إلى مكان وقُطع قطعاً، وأُلقي في دجلة، وأخذ جميع ما في داره، فرؤي فيها خطوط المستنجد يأمره بالقبض عليهما، وخطّ ابن البلدي الوزير يراجعه في ذلك ويصرفه عنه، فلما وقف ابن رئيس الرؤساء ويزدن عليهما علما براءته مما كانا يظنان به، وندما على التعجيل عليه، ووزر بعده ابن رئيس الرؤساء(١).

ثم لم يلبث حتى عزل لأنَّ قايماز أكره المستضيء على عزله فعزله، ثم أمر المستضيء بإعادته إلى الوزارة فمنعه يزدن، وأغلق باب النوبي وباب العامة، وبقيت دار الخلافة كالمحاصرة فأجاب المستضيء إلى ترك وزارته، فقال يزدن: لا أقنع إلَّا بإخراجه من بغداد، فأمر بالخروج منها فلجأ إلى شيخ الشيوخ صدرالدين عبدالرحيم بن إسماعيل فأخذ إلى رباطه ونقله إلى دار أقام بها ثم عاد إلى بيته. ثم لما آل الأمر إلى إقامة يزدن بالحلة خلع المستضيء على ابن رئيس الرؤساء، وأعاده إلى الوزارة وذلك سنة سبعين وخمسمائة(٢).

ومنهم:

٥٩ ـ محمد بن علي بن أحمد بن المبارك، مؤيد الدين أبو الفضل المعروف بابن القصاب الوزير(٣):

وزير الإمام الناصر، وحلَّ من الأيام محل الروح الباصر، وكان من الدولة

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٣٧٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٢/ ١٢٤، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٤/ ١٦٨، ابن الطقطقى، الفخري: ٣٢٤، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/ ٤٥٠، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٥٩١ ـ ٦٠٠]، ص١١١، سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٢٣.

العباسية في سويداء قلبها، وسواد شعارها، وحب خلبها، بعزم يسري منه في جحفل لجب، وحزم يري بصره ما يخفى ويحتجب، وكان قد كتب الإنشاء بالديوان العزيز، وكبت من شاء بالتقدم والتبريز، وكان ذا فضل متناصر، وفعل غير قاصر.

ومن نثره قوله: وبنينا لك موهبة خصتك، وعمت الورى وأولتك يداً اهتزَّ لها الغمام والنهى، وأولتك نعماً لا أصفها إلَّا أنها كما ترى. [١٠٧]، وقوله:

وأقبل الأقحوان يقبل جسمه حين رآك[1]، وحلف[2] النرجس لا يفتح على أحد عينيه حتى يراك، وأكل المشوَر أصابعه ومما يندم، وذبح الشقيق وامتلأت ثيابه من دم فعجل ولا تفرح، وأسرع ولا تنتظر القداح.

ومن شعره قوله: [السريع]

طال مقامي بريٍّ فارس	من غير نفع فالرواح الرواح
ما آفة الإنسان إلَّا المنى	طوبى لمن طلقها واستراح
أملتهم ثم بالمتهم ولاح	لي أن ليس فيهم فلاح

وتوفي في أول شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ومنهم:

٦٠ ـ ابن مهدي العلوي، نصير الدين[3]:

وزير لو أنصف لكان خليفة، ولو وصف لكان البحر حليفه، من خالص تلك السلالة[4]، وخالد تلك الجلالة، أعرق في الشرف نسباً، وأشرف في السدف كوكباً، وهطلت أَنواءه وبطلت أشعة النجوم لما بطلت أَضواءه، وطال ما عُلِّقت به آمال، وعبقت به صباً وشمال، وأمِلت له أيام كان يظن أن يدرك[5] منها ما فات أباه، ويدرك

---

(١) ت: وأقبل الأخوان يقبل بسمه مرآك.

(٢) ت: وخان.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٢/٢٧٦، أبو شامة، الذيل على الروضتين: ٢٢٤٠، ابن الطقطقى، الفخري: ٣٢٥، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٦١١ ـ ٦٢٠]، ص٣٨٥، سير أعلام النبلاء: ٢٢/١٠٦.

(٤) ت: السلامة.

(٥) ت: يرك.

منها ما يرد الآفات شباه، وتعجل منه مهدي الأمة المنتظر، ويورد منه شربه المحتضر، ويرد الحيل تدمى نحورها، والجيوش تلتطم بحورها، لولا ما عرف من تنكر الأيام، وتعذر المطالب على الكرام وهي الليالي والسيل حرب للمكان العالي.

قال ابن الأثير[١] فيه: من الري[٢] من بيت كريم، قدم بغداد أيام مؤيد الدين بن القصاب الوزير، ولقي من الخليفة قبولاً كثيراً، وجعله نائب الوزارة، ثم جعله وزيراً وحكمه، وجعل ابنه صاحب المخزن.

وقال غيره: وبسط يده وتصرف، وأعطى فأسرف، وحصل مالاً طائلاً، وجملاً جزيلة، وكانت أعداؤه توصل إلى الخليفة أمره، وتغري خاطره عليه[٣].

قال ابن الأثير[٤]: فلما كان في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة خمس وستمائة عزله [١٠٨] وأَغلق بابه، وكان سبب غلق بابه أنه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة ومنهم سنقر وجه السبع أمير الحاج[٥]، فهرب من يده إلى الشام سنة ثلاث وستمائة، وأرسل يعتذر من هربه، ويقول: إنني هربت من يد الوزير ثم تبعه قشتمر وهو أخصُّ مماليك الخليفة وأكبرهم عنده مضى إلى لرستان، وبعث يقول: إن الوزير يريد[٦] أن لا يبقي أحد في خدمة الخليفة من مماليكه، ولا شك أنه يريد يدعي الخلافة، وقال الناس في ذلك فأكثروا، ومما قيل: [الكامل]

ألا مبلغ عني الخليفة أحمداً ... توق وقيت السوء ما أنت صانع

وزيرك هذا بين أمرين فيهما ... فعالك يا خير البرية ضائع

فإن كان حقاً من سلالة أحمد ... فهذا وزير في الخلافة طامع

وإن كان فيما يدعي غير صادق ... فأضيع ما كانت لديه الصنائع

فعزله، وقيل في سبب ذلك غير ما ذكرناه.

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٢/٢٧٦.
(٢) ت: الرأي.
(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٣٨٦.
(٤) ابن الأثير، الكامل: ١٢/٢٧٦.
(٥) ت: أمير الحاجب.
(٦) «ثم تبعه قشتمر ... الوزير يريد» ساقطة من ت.

ولما عزل أرسل إلى الخليفة يقول له: إني قدمت وليس لي دينار ولا درهم، وقد حصل لي من الأموال والأعلاق النفيسة ما يزيد على خمسمائة ألف دينار، وأسأل أن يُؤخذ مني الجميع، وأمكن بالمقام بالمشهد أسوة العلويين، فأجابه الخليفة: بأننا ما أنعمنا عليك بشيء فنوينا استعادته منك، ولو كان ملء الأرض ذهباً، ونفسك في أمان الله وأماننا، ولم يبلغنا عنك ما يستوجب ذلك، غير أن الأعداء قد أكثروا فيك، فاختر لنفسك موضعاً تنتقل إليه موفراً محترماً، فاختار أن يكون تحت الاستظهار في جانب الخليفة لئلا[1] يتمكن منه عدو فيذهب بنفسه. ففعل ذلك[2].

وكان حسن السيرة، قريباً إلى الناس، حسن اللقاء لهم والانبساط معهم، عفيفاً عن أموالهم، غير ظالم لهم، فلما قبض عاد وجه السبع من مصر، وكان في خدمة العادل، وعاد قشتمر وأقيم[3] في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن أمسينا إلَّا أنه لم يكن متحكماً، ثم عزل وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة[4].

ومنهم:

٦١ - ابن العلقمي، محمد بن أحمد بن محمد بن علي، مؤيد الدين، أبو طالب[5]:

وزير ليته لا وُزِّر، وارتفع ليته رض بالحجر، وتصرف وليته صُرِفَ، وجهل أمره وليته عرف، كمن كمون الأرقم، وسقى [١٠٩] الناس من كأسه العلقم، وحمله تحامله على أهل السابقة الأولى على قطع شجرة الإسلام، وقلع مدة[6] دار السلام إذ كان في أهل السنة[7] من كبراء الدولة من يقف في طريق رفضه، ويرده عن كل ما رده[8] النبي

(١) ت: لأن لا.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ١٢/ ٢٧٧.

(٣) ساقطة من ك.

(٤) ابن الأثير، الكامل: ١٢/ ٢٧٧.

(٥) ابن الطقطقى، الفخري: ٢٣٦، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٦٥١ - ٦٦٠]، ص٢٩٠، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٣٦٢، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٢٥٢، عيون التواريخ: ٢٠/ ١٩٣، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١/ ١٨٤.

(٦) ت: مدن.

(٧) ساقطة من ت.

(٨) ك: مراده.

أو بغضه، وهو يأبى إلّا أن يزيد في غلوه ليبدل الإسلام كفراً، ويدع الدار قفراً، وأخذ في ممالأة التتار، وموالاة ما يعجل الدمار، حتى كانت تلك الكتابة التي هي في صحيفة عمله، وجر تلك البلية[1] بحبل حيله، وجلب تلك الرزايا، وصب تلك البلايا، وفعل في أكثر الدنيا ما لم يفعل بختنصر في البيت المقدس، ولا الضحاك ابن لهراسف حين تمجس، وكلف أمة محمد ﷺ ما لم يكلفه فرعون لبني إسرائيل، ولا سامه أهل مكة أبرهة عام الفيل، فإنه لم يكن[2] يقم بلية مثل بليته، ولا عرفت في قضايا الأيام مثل قضيته، فكم من نفوس ذهبت، ونفائس نهبت، ونعم أخفيت، وحرم سبيت، وأبكار افتضَّت، وأموال من الذهب ذهبت، ومن الفضة فضَّت، ونجوم من القصور أهويت، وأبنية نقضت وأفنية مع سكانها مضت، حتى بَلت عروس الخلافة[3]، وذهبت بقايا أهل الرحمة والرأفة، كل هذا بسوء فعل هذا المجرم والكافر المقرِّ بالشهادة كأنه مسلم، ووزير التدمير لا التدبير، وعون إبليس في التعكيس وما ارتكبه[4] من الخطر، وداس[5] فيه على الإبر، وسلط فيه عقاربه الضارية، وبث إليه مصائبه السارية، وما جرأه عليه إقدامه من سفك الدماء المحرمة وجناه على كل مسلم ومسلمة، وتهور فيه تهور من لا تعاوده الندامة، وتصور أنه إذا مات لا يبعث يوم القيامة، وهو آخر وزراء القوم، ومن أرخ عليه اللعنة إلى اليوم.

ولي وزارة المستعصم بعد ابن الناقد في ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وستمائة[6].

وكان فاضلاً، رئيساً عالي الهمة، مغالياً في التشيع. وذلك الذي حمله على فعل ما فعل، فإنه حصل بينه وبين الدوادار شحناء[7] بسبب المذاهب لأن الدوادار كان مغالياً في السُّنة وعَضده بعض أولاد الخليفة، فحصل عند ابن العلقمي الوزير الضغن ما حمله على السعي في دمار الإسلام، ولم يراقب الله تعالى، وانضم إلى هذا ركون

---

(١) «حتى كانت تلك الكتابة ... البلية» ساقطة من ك.

(٢) ساقطة من ك.

(٣) «بلت عروس الخلافة» ساقطة من ك.

(٤) ت: أتركبه.

(٥) ت: وكان.

(٦) ابن الطقطقى، الفخري: ٢٣٦.

(٧) ك: شحنه.

الخليفة له، وعدم تيقظه، فتم للوزير مراده [١١٠] ثم ندم على فعلته لأنه كان قد تقرر بينه وبين هولاكو أن هولاكو إذا ملك العراق يستنيبه فيه، ويقتل الخليفة وحاشيته حسب لا غير. فلما جرى ما هو مشهور عومل الوزير بأنواع الهوان من صغار التتر فضلاً عن الكبار منهم[١].

حكى أنه كان قاعداً في الديوان لتنفيذ الأشغال، فدخل بعض من لا يؤبه إليه من التتار راكباً فرسه إلى أن وقف بفرسه على البساط الذي الوزير عليه جالس وخاطبه بما يريد، واتفق أنْ بال الفرس على البساط فصاب رشاش[٢] البول ثياب الوزير، وكان مع هذا الهوان يظهر قوة النفس لكونه بلغ مقصوده ممن أراد[٣].

وحكى بعض البغاددة قال له[٤]: يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه حمية للشيعة، وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلق لا يحصون، وارتكب الفواحش من أُلوف من نسائهم، وافتضَّت الأبكار من بنات الشرفاء مما لا يعلمه إلا الله تعالى فضلاً عن غيرهم، فقال: بعد أن قتل الدوادار ومن كان على رأي مثله[٥] لا مبالاة بذلك، ولم تطل مدته بعد واقعة بغداد، وقدم على ما[٦] قدم وكانت له يد في صناعة الإنشاء[٧].

حكى ابن الأثير: أنه أول ما كان كاتباً للإنشاء ثم استنيب في الوزارة ثم وزر للمستعصم وبعث المستعصم إليه بسدة أقلام[٨]، فكتب إليه: قبل المملوك الأرض شكراً للإنعام بأقلام قلمت عنه أظفار الحدثان، وقامت له في حرب صرف الزمان مقام عواسد المران، وأجنته ثمار الأوطار من أغصانها، وحاوت له قصبات السبق يوم رهانها، فيا لله كم عقد ذمام في عقدها، وكم بحر سعادة أصبح في مدادها ومدها، وكم مُناد خط استقام بمثقفاتها، وكم صوارم خطوب فلت مضاربها بمرهفاتها[٩]، والله

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١/ ١٨٤.

(٢) ت: رشات.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١/ ١٨٤.

(٤) ساقطة من ك.

(٥) ك: ومن كان على رأيه لا مبالاة.

(٦) ساقطة من ت.

(٧) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١/ ١٨٥.

(٨) تضيف بعدها: قيل، ولا مكان لها.

(٩) ت: بمراهقاتها.

ينهض المملوك بفروض دعائه، ويوفقه للقيام بشكر ما أولاه من جميل رأيه وجزيل حبائه[1]. [البسيط]

خولتني نعماً كادت تعيد لنا | عصر الشباب وتدني منه أياما
تعطي الأقاليم من لم يبدِ مسألة | يوماً فلا عجب أن تعط أقلاما
إذا نسبن إلى خطٍّ فإن لها | سنًّا إذا أعملته يحرق الهاما
بالحمد والشكر أجريها لدولتكم | فالرأي يحصد من أعدائها الهاما [١١١]

وكتب إلى التاج محمد بن الصَّلايا العلوي يخدمه بدعاء ليلي، وثناء عطر مندلي، وينهى أنه خدم بها من النيل إلى سامي مجدك الأسيل، ومحل شوقه يغني عن التفصيل، وأبان شدة العزم إلى شريف تلك الشيم، ويعرض بعد الدعاء لأيامه لا أخلى الله من أنعامه، أنه[2] قد نهب الكرخ المكرّم، وديس البساط النبوي المعظم، وقد نهبوا العترة العلوية، واستأسروا العصابة الهاشمية، وقد حسن التمثيل بقول الشاعر من غزية[3]: [الوافر]

أُمور يضحك السُّفهاء منها | ويبكي من عواقبها اللبيب

فلهم أُسوة بالحسين حيث نهب حرمه وأريق دمه ولم يعثر فمه: [الطويل]

أَمرتهم أمري بمنعرج اللوى | فلم يستبينوا النصح إلّا ضحى الغد[4]

وقد عزموا ـ لا أتم الله عزمهم ولا أنفذ أمرهم ـ على نهب الحِلّة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمراً فصبر جميل. ونهى أن الخادم أسلف لهم الإنذار، وعجل لهم الأعذار، وخاطبهم سراراً، وراسلهم جهاراً[5]: [الوافر]

أرى تحت الرماد وميض نارٍ | ويوشك أن يكون لها ضرام
وإن لم يطفها عقلاء قومٍ | يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري | أأيقاظ أميّة أم نيام

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١/ ١٨٥.
(٢) ساقطة من ت.
(٣) ت: غيره. وهو الشاعر والفارس الجاهلي دريد بن الصمة القشيري.
(٤) ت: الغدر. والبيت للشاعر دريد بن الصمة أيضاً.
(٥) الشعر لوالي خراسان الأموي نصر بن سيار.

فكان جوابي بعد خطابي: لابد من الشّنيعة ومن قتل جميع الشيعة، ومن إحراق كتابي «الوسيلة» و «الذريعة»، وكن لما نقول سميعاً، ولما نأمر مطيعاً، وإلّا جرعناك الحمام تجريعاً، فبكلامك كلام، ولسلوتك سلام. ولتتركن في بغداد أخمل من الحناء عند الأصلع، والخاتم عند الأقطع، ولتنبذن نبذ الفلاسفة محذورات الشرائع، وتلقى إلقاء أهل القرى أسرار الطبائع، فلأفعلن بلتي كما قال المتنبي: [البسيط]

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ... ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... ما لا ينال بحد المشرفيات

ولآتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولأُخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون. [الكامل]

ووديعة من سر آل محمد ... أودعتها إذ كنت من أُمنائها [١١٢]
فإذا رأيت الكوكبين تقارنا ... فالجدي عند صباحها ومسائها
فهناك يؤخذ ثأر آل محمد ... بإطلابها بالترك من أعدائها

وكن لهذا الأمر بالمرصاد، وترقب أول النَّحل وآخر صاد، والمساعدة بالدعاء والخير يكون إن شاء الله تعالى(١).

ومن شعره قوله: [الكامل]

من لم ير الوجنات أول نظرة ... والكأس مترعة بكف الساقي
وتغازل الألحاظ عند فتورها ... لم يدر كيف مصارع العشاق

وقوله: [السريع]

قد عُقربت صدغاه واستجمعت ... عساكر النمل على الأشنب
تقدم الحاجب للعارض ... أن يكتب بالأسود في الأشهب
يا أمراء الحسن لا تركبوا ... فالقمر الأرضيّ في العقرب

وتوفي يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وستمائة، ومولده ببغداد في شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وخمسمائة(٢).

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٢) «ومولده ببغداد ... وخمسمائة» ساقطة من ت.

هذا[1] آخر مشاهير وزراء الخلفاء بالجانب الشرقي، فأما من يلحق بهم من مشاهير وزراء الملوك، ومن ينظم جوهره في هذه السلوك[2].

(١) تضيف ت قبلها: آخر الجزء الثاني عشر ويتلوه الثالث عشر إن شاء الله تعالى.

(٢) تنتهي هنا نسخة ت، وقد قام فؤاد سزكين بتكملة النقص فيها من نسخة ك، فلذلك أصبحت النسختان نسخة واحدة هي نسخة ك.



وزراء البويهيين



فمنهم:

٦٢ ـ أبو سعيد عبدالواحد بن علي بن ماكولا:

وكان له أدب كأنما فتق عنه الكمام أو فح الندى عليه الغمام، ولم يزل عقده وثيق السبب، وعهده وريق الجنى، كأنما صببت عليه الغيث من صب.

وزر لجلال الدولة أبي طاهر بن بويه وهو من بيت كتابة وفضيلة، وأدب ومجد، وسؤدد وعلو رتب.

وكان أبو سعيد عارضاً لعضد الدولة في ديوان جيشه ثم نقم عليه جلال الدولة وقبض عليه، وأخذ له ثلاثمائة ألف دينار عيناً غير الخيل والقماش وسائر العروض. وتوفي في ذي القعدة سنة عشر وثلاثمائة.

ومن شعره قوله: [الطويل]

وإن لقاء للشجاع لهين ... ولكن حمل الضيم منه شديد
إذا كان قلب القرن ينبو عن الوغى ... فإن جناني جلمد وحديد

ومنهم:

٦٣ ـ ابن العميد، أبو الفضل محمد بن أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب(١):

ولي الوزارة [١١٥] وشرَّفها، وتولى أمورها وصرفها، وساد الكبراء وسام درر الكواكب سعي السرى، وترك سعي الريح وراءه خافقاً، وعز في الغمام خلفه دافقاً حتى حطَّ بالسماء رجل رحلته، وحَلَّ داره البدر، وداس بحوافر خيله على أهلته، وكان أبوه عميد خراسان، ومفيد ما سَنَّ فيها من إحسان، صدراً من صدورها، وبدراً من

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ١٨٣، مسكويه، تجارب الأمم: ٦/ ٣١٤، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٠٣، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١٦/ ١٣٧، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢/ ٣٨١.

بدورها، ثم كان ابنه مطر قحوطها، ووطر شروطها، وعماد دولها، وعتاد خولها، لا تصدر أوامر الملوك إلّا تابعة لآرائه، رابعة على خطراته، تناضل بسهامه، وتناطح بسهامه، وتدخر منه للنوائب فرَّاجاً للكرب، وولاجاً على الأدب، ومجلياً للغماء، ومجلبياً بالنعماء.

وكان رحيب الفناء، قريب الغناء، مدنياً للمنى، ومحبباً للغنى، لا يستأذن على ماله، ولا يستأني بآماله، وكانت كوكب السابع، وخاطر أحفظ من الوعاء الصحيح ختم عليه بالطابع.

قال ابن خلكان(١): نعت والده بالعميد لغناه على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم، وكان فيه أدب، وكان ولده أبو الفضل هذا وزير ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه، وزر له بعد وفاة الوزير أبي علي التميمي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وكان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه أحد في زمانه، وكان يسمى الجاحظ الثاني، وكان كامل الرياسة، جليل المقدار.

وقال الثعالبي(٢): كان يقال بدئت الكتابة بعبدالحميد وختمت بابن العميد، ولما رجع الصاحب بن عباد من بغداد قال له ابن العميد: كيف وجدت بغداد، قال: بغداد في البلاد(٣) كالأستاذ في العباد، وكان يقال له الأستاذ.

وقصده جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد الشاسعة، ومدحوه بأحسن المدائح، وورد عليه أبو الطيب المتنبي أرجان بقصائد إحداها التي أولها(٤): [الكامل]

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا ... وبُكاك إن لم يجرِ دَمعك أو جرى

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار(٥).

وورد عليه أبو نصر عبدالعزيز بن نباتة السعدي الذي [١١٦] امتدحه بقصيدة أولها: [مجزوء الكامل]

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٠٣.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ١٨٣.

(٣) في الأصول: العباد والمثبت من الثعالبي.

(٤) المتنبي، الديوان: ٢/ ٥٣٧.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٠٤.

بَـــرْحُ اشـــتـــيـــاق وادكـــار ولـــهـــيـــب أنـــفـــاس حَـــرارِ

فتأخرت صلته عنه، فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة، فلم يزده ابن العميد على الإهمال مع رقة حاله التي ورد عليها إلى بابه، فتوصل إلى أن دخل عليه يوم الخميس وهو حفل بأعيان الدولة، ومقدمي أرباب الديوان، فوقف بين يديه، وأشار بيده إليه، وقال: أيها الرئيس، إني لزمتك لزوم [الظل][(١)] وذللت لك ذل البغل، وأكلت النوى المحرق، انتظاراً لصلتك، والله ما بي الحرمان، ولكن شماتة الأعداء، قوم نصحوني فاغتششتهم وصدقوني فاتهمتهم، فبأي وجه ألقاهم، وبأي حجة أقاومهم؟ ولم أحصل من مديح بعد مديح ومن نثر بعد نظم إلَّا على ندم مؤلم وبأس مسقم؟

فإن كان للنجاح علامة فأين هي وما هي؟ إن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك وإن الذين هجوا [كانوا][(٢)] مثلك فزاحم بمنكبك أعظمهم بأساً، وأنورهم شعاعاً، وأشرفهم بقاعاً، فحار ابن العميد وشُدِهَ. ولم يدر ما يقول، فلما أطرق ساعة ثم رفع رأسه، وقال: يا هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة عن الإطالة مني في المعذرة، وإذا تواهبنا ما دفعنا إليه استأنفنا ما نتحامد عليه، فقال ابن نباتة: أيها الرئيس هذه نفثة صدرٍ دوِيَ منذ زمان، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر، والغني إذا مطل [ليم][(٣)]، فاستشاط ابن العميد وقال: ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى، ولقد نافرت العميد من دون ذا حتى دفعني إلى قريّ عائم ولجاج قائم، ولست ولي نعمتي فاحتملك، ولا صنيعتي فأغضي عليك، وإن بعض ما قررته في مسامعي ينقض مرة الحليم ويبدد شمل الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب ولا استدعيتك برسول [١١٧]، ولا سألتك مَدحي ولا كلفتك تقريظي [فقال ابن نباتة: صدقت أيها الرئيس، ما استقدمتني بكتاب، ولا استدعيتني برسول][(٤)] ولكن جلست في صدر إيوانك بأُبهتك، وقلت: لا يخاطبني أحد إلَّا بالرياسة، ولا ينازعني في أحكام السياسة، فإني كاتب ركن الدولة وزعيم الأولياء والحضرة والقيم بمصالح المملكة، وكأنك دعوتني بلسان الحال ولم تدعني بلسان المقال، فثار ابن العميد مغضباً، وأسرع

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن خلكان.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن خلكان.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن خلكان.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن خلكان.

في صحن داره إلى أن دخل حجرته وتقوض المجلس، وماج الناس، وسمع ابن العميد ابن نباتة وهو في صحن الدار ماراً يقول: والله إن سفَّ التراب والمشي على الجمر أهون من هذا، فلعن الله الأدب إذا كان بائعه مهيناً له، ومشتريه مماكساً فيه مهيناً له، فلما سكن غضب ابن العميد وثاب إليه حلمه التمسه من الغد ليعتذر إليه، ويزيل آثار ما كان فيه، فكأنما غاص في سمع الأرض وبصرها فكانت حسرة في قلب ابن العميد إلى أن مات في صفر، وقيل: في المحرم بالري وقيل ببغداد سنة ستين[1].

وذكر أبو الحسن الصابئ: أنه توفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة[2].

وكان أبو الفرج حمد بن محمد الكاتب مكيناً عند مخدومه ركن الدولة، وله الرتبة العالية لديه، وكان ابن العميد لا يوفيه حقه من الإكرام فعاتبه فلم يفده، فكتب إليه: [السريع]

مالك موفور فما باله ... أكسبك التيه على المعدم
ولم إذا جئت نهضنا وإن ... جئنا تطاولت ولم تقم؟
إن كنت ذا علم فمن ذا الذي ... مثل الذي تعلم لم يعلم
ولست في الغارب في دولة ... ونحن من دونك في المقسم
وقد ولينا وعزلنا كما ... أنت فلم نصغر ولم نعظم
تكافأت أحوالنا كلها ... فصل على الإنصاف أو فاصْرِم[3]

[ص١١٨]

وللصاحب بن عباد فيه مدائح كثيرة وكان ابن العميد قد قدم مرة إلى أصبهان والصاحب بها فكتب إليه[4]: [مجزوء الكامل]

قالوا: ربيعك قد قدم ... قلت: البشارة إن سلم[5]

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٠٥.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٠٩.
(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٠٨.
(٤) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ١٨٧.
(٥) رواية البيت في اليتيمة:
قالوا: ربيعك قد قدم ... فلك البشارة بالنعم

هـذا الـربـيـع أخـو الـشـتـاء أم الـربـيـع أخـو الـكـرم[1]
قـالـوا: الـذي بـنـوالـه أمـن[2] الـمـقـل مـن الـعـدم
قـلـت: الـرئـيـس ابـن الـعـمـيـد إذاً؟ فـقـالـوا لـي: نـعـم

وكان ابن العميد كثير الإعجاب بقول بعضهم[3]: [الطويل]

وجاءت إلى ستر على الباب بيننا مجافٍ وقد قامت عليه الولائد
لتسمع شعري وهو يقرع قلبها بوحي تؤديه إليَّ القصائد
إذا سمعت معنى لطيفا تنفست له نفساً تنقد منه القلائد

ولابن العميد شعر منه قوله[4]: [المنسرح]

رأيت في الوجه طاقة بقيت سوداء عيني تحبُّ رؤيتها
فقلت للبيض إذ تروعها باللَّه إلا رحمت وحدتها
فقلَّ لبث السوداء في وطنٍ تكون فيه البيضاء ضرتها

ومنه قوله[5]: [مجزوء الكامل]

آخِ الرجال من الأبا عد والأقارب لا تقارب
إنَّ الأقارب كالعقا رب بل أضرُّ من العقارب

ومنه قوله: [البسيط]

لو كنت أملك قلبي كنت أعذله أو كنت أملك روحي كنت أنهاها
أو كنت أملك من عيني دمعهما لما بكيت بها من ليس يهواها

وقوله وقد قدمت إليه أترجة[6]: [الطويل]

وأترجةٍ فيها طبائعُ أربعٌ وللشرب في حالاتها للهوى جمع

---

(١) في اليتيمة: قلت.
(٢) في اليتيمة: أغنى.
(٣) الشعر في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/١٠٩.
(٤) الشعر في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/١٠٩.
(٥) الشعر في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/١٠٩.
(٦) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/٢٠٧.

وما اصفرّ منها اللون للحب والنوى ... ولكن أراها للمحبين تجزع

وحكي أن الصاحب بن عباد عبر على باب دار ابن العميد بعد وفاته [١١٩] فلم ير هناك أحداً بعد أن كان الدهليز يغص بالزحام، فأنشد[1]: [الخفيف]

أيها الربع لمَ علاك اكتئاب ... أين ذاك الحجاب والحجّاب

أين من كان يفزع الدهر منه ... فهو اليوم في التراب تراب

ولما مات رتب مخدومه ركن الدولة ولده [ذو][2] الكفايتين أبا الفتح عليا مكانه في دست الوزارة، وكان جليلاً نبيلاً، سرياً ذا فضائل، وهو الذي كتب إليه المتنبي الأبيات الخمسة الدالية وهي[3].

وذكر الثعالبي[4]: إن أباه كان قد بالغ في تهذيبه وتأديبه، وجعل عليه عيوناً لينظر ما يصدر عنه، فاعلمه أنه استدعى سراً بابن صديق له ليلة أنس، فوجه إلى ذلك الشخص، واستدعى الرقعة التي كتب فيها، فوجد فيها: قد اغتنمت الليلة ـ أطال الله بقاءك ـ رقدة من عين الدهر، وانتهزت فرصة من فرص العمر، وانتظمت مع أصحابي في سلك الثريا، فإن لم تحفظ علينا النظام بإهداء المدام [عدنا كبنات][5] نعش والسلام. فاستطار أبوه فرحاً وإعجاباً بهذه، وقال: الآن ظهر أثر براعته، وبرعت بجريه في طريقي، ووقّع له بألفي دينار.

ولم يزل أبو الفتح في وزارة ركن الدولة إلى أن توفي، وقام بالأمر بعده ولده مؤيد الدولة فاستوزره أيضاً عليه، فظهر له منه الشكر والإعزاز، وقبض عليه سنة ست وستين وثلاثمائة[6].

---

(١) الشعر في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١١٠.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن خلكان.

(٣) كذا في الأصول، لم يذكر الأبيات الدالية والخبر في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١١٠ دون ذكر الأبيات، والأبيات في ديوانه: ٢/ ٥٨ ومطلعها:

بكتبِ الأنام كتابٌ ورد ... فدت يَدَ كاتبه كلُّ يد

(٤) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من يتيمة الدهر.

(٦) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

قال الثعالبي[1]: [صادر][2] ماله وقطع في العقوبة أنفه، وجز لحيته، وقيل: قطع يديه. فلما أيس من نفسه فتق من نفسه جيب جبة كانت عليه، واستخرج رقعة منها تذكر بجميع ما كان له ولوالده من الذخائر، والدفاتر وألقاها في النار، فلما احترقت قال للموكل به: افعل ما أُمرت به، فوالله لا يصل إلى صاحبك من أموالنا درهم واحد، فما زال يعرضه على العذاب حتى تلف.

وكان القبض عليه في ربيع الآخر سنة ست وثلاثمائة، وفيه يقول بعض أصحابه[3]: [الكامل]

آل العميد وآل برمك ما لكم   قل المعين لكم وذلَّ الناصر [١٢٠]

كان الزمان يحبكم فبدا له   إنَّ الزمان هو الخؤونُ الغادر

وكان أبو الفتح المذكور قبل أن يقتل بمدة قد لهج بإنشاد هذين البيتين وهما[4]: [الرمل]

دخل الدنيا أناسٌ قبلنا   رحلوا منها وخَلَّوها لنا

ونزلناها كما قد نزلوا   ونخلّيها لقومٍ بعدنا

وتولى بعده الصاحب ابن عباد.

ومنهم:

٦٤ ـ الصاحب بن عباد[5]:

صحب ابن العميد فسمي الصاحب، ومشى على طريقه اللاحب، وكان ينتحل طريقته ويتمحل خليقته، نشأ في نعمائه، وكلأ بنظره شرخ سمائه، حتى تكيف بخلائقه، وتحيف أكثر حقائقه، وأشرقت عليه سماؤه، وصدقت أسماؤه وحذا حذوه، وجرى وراءه، وما لحق منه خطوه إذ كان يفرط به الإعجاب، ويسقط بأدبه وفور الحجاب،

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ٢٢٢.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٣) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ٢٢٣.

(٤) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ٢٢٢.

(٥) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ٢٢٥، ابن الأثير، الكامل: ٩/ ١١٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٢٢٨، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١٦/ ٥١١.

فإنه كان لا يكثر الجلوس، ولا يكثر أن تدثر له الشموس، هذا على أنه من نبلاء الوزراء، وفضلاء الكبراء، وفي صدر الدست إذا جلس، وعلى رأس الجوزاء إذا نكس يغضي له السيف حياء، ويخور الريح إعياء، وتفيض على البحر آثاره، ويفضل على الزمان إناؤه، ويعقد به الأهوية، ويطمح مكارمه في اللُيرْية، وتهرع الخلائق إليه كأن كل أيامه يوم التروية، وله من العلم طراز مرقوم العلم، مركوم السحاب، أبان العدم فلم ينقص له من علم ومن فضل نصيب موفور، ولاحظ صنيع الأيام فيه غير مكفور، إلَّا أنه مال إلى أهل الاعتزال، وبان على الاعتدال، ومال على اعتقاده الصحيح، وأدخل عليه الاعتدال، وكان غير وقور، ولا يربأ أحياناً أن يكون غير عقور، كان كثيراً ما يحرك رأسه وكتفيه، وتعجب بأكثر مما لديه فطاشت كفة ميزانه، وعرفت خفة أوزانه، ونسب في عقله إلى الاختلال، وفي أدبه إلى الإخلال، وأصبح يحلق إلى مرمى ابن العميد فيقع، ويستسقي نسور سربه.

ولما توفي مؤيد الدولة بجرجان سنة [١٢١] ثلاث وسبعين وثلاثمائة، ولي بعده فخر الدولة أبو الحسن فأقره على الوزارة، وبالغ في تعظيمه، وكان عالماً بفنون كثيرة من العلم، لم ير أنه في ذلك أنه وزير، وكان أفضل وزراء الدولة الديلمية، وأغزرهم علماً، وأوسعهم أدباً، وأوفرهم محاسن، وكان فصيحاً مفوهاً لكنه يتقعر في خطابه، ويستعمل وحشي اللغة حتى في انبساطه، وكان يعيب التيه ويتيه، ولا ينصف من ناظره، وقيل كان مشوه الصورة، وصنف في اللغة كتاباً سماه «المحيط» في سبع مجلدات، وله كتاب «الكافي»، وكتاب «الأعياد» وكتاب «الإمامة» ذكر فيه فضائل علي وثبت إمامة من تقدمه، وكتاب «الوزراء»، وكتاب «الكشف عن مساوئ شعر المتنبي»، وكتاب «أسماء الله وصفاته»، وكان شيعياً جلداً، كآل بويه، معتزلياً، ولم ينقل عنه سب[1] وله شعر مدون[2].

ومن بديع نظمه. قوله[3]: [الوافر]

تبسم إذ تبسم عن أقاحِ ... وأسفر حين أسفر عن صباح
واجتنى بكأس من نصاب ... وكأس من جنى ورد وراح

(١) المقصود سب أحد من الصحابة.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٢٣٠.
(٣) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ٢٩٩.

لـــه وجـــه يـــدل بـــه عـــلـــى ... تـمـرحـنـة فـيـسـكـر كـل صـاح
حـبـيـبـك والـمـقـلـد والـثـنـايـا ... صـبـاح فـي صـبـاح فـي صـبـاح

وقوله[1]: [المنسرح]

الـحـبُّ سـكـرٌ خـمـاره الـتـلـف ... يـحـسـن فـيـه الـذبـول والـتـلـف
عـابـوه إذ زاد فـي تـصـلُّـفـه ... والـحـسـن ثـوبٌ طـرازه الـصـلـف

وقوله: [الكامل]

قـامـت تـظـلـلـنـي مـن الـشـمـس ... نـفـس عـلـيَّ أعـز مـن نـفـسـي
قـامـت تـظـلـلـنـي ولا عـجـب ... شـمـس تـظـلـلـنـي مـن الـشـمـس

وقوله[2]: [الكامل]

رقّ الـزجـاج ورقَّـت الـخـمـر ... فـتـشـابـهـا فـتـشـاكـل الأمـرُ
وكـأنـهـا خـمـر ولا قـدحٌ ... وكـأنـه قـدح ولا خـمـر

[١٢٢] وعنوان نثره، قوله: وأمَّا هذا الفتح، فأوصافه لا تدرك بالعبارات، آثار تهدي بعد الظلام، وتاهت بأيامه الأيام فاعتذر الدهر الخؤون من نوائبه، واسترجع الدين ضالته به، فتباشرت بورود أخباره المنابر، وشهدت بفضله البواتر، ووفت فيه الخيل بعقيدة الضمان، وناب الخوف به عن ملاقاة الأقران، وجاء والحمد لله نادرة في الزمان.

وقوله: نحن سيدي في مجلس غني إلا عنك، لا يبذ شاكر إلا منك، قد تفتحت فيه عيون النرجس، وتوردت خدود البنفسج، وفاحت مجامر الاترنج، وفتقت فارات النارنج، وانطلقت ألسن العيدان، وقامت خطباء الأوتار، ونفق سوق الأنس، وقام منادي الطرب، وامتد سماء الند فبحياتي، إلَّا ما حضرت فقد أبت راح مجلسنا أن تصفو إلَّا أن تتناولها بمنال، وأقسم غناؤه لا يطيب حتى تعيه أُذناك، فخدود نارنجه قد احمرت خجلاً لإبطائك، وعيون نرجسه قد حدقت تأميلاً للقائك.

وكان الوزير أبو الفتح ابن ذي الكفايتين قصد ابن عباد وأزاله عن الوزارة، ثم

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ٢٩٩.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ٣٠٤.

نصر عليه وأعيد إليه. فذكر التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة[1]: أنَّ أبا الفتح هيأ مجلساً عظيماً بآلات الذهب والفضة والمغاني والفواكه، وشرب بقية يومه، وعامة ليلته، ثم عمل شعراً، وغنى به يقول فيه: [المتقارب]

إذا بلغ المرء آماله ... فليس لما بعدها منتزح

وكان هذا بعد تدبيره على الصاحب حتى أبعده عن مؤيد الدولة، وسيره إلى أصبهان، وانفرد الدست ثم طرب بالشعر، وشرب إلى أن سكر، وقال: غطوا المجلس لأصطبح عليه غداً، وقال لندمائه: باكروني ثم نام، فدعاه مؤيد الدولة في السحر [١٢٣] فقبض عليه، وأخذ ما يملكه، ومات في النكبة، ثم عاد الصاحب إلى الوزارة وبقي فيها ثمانية عشر عاماً، وفتح خمسين قلعة، وسلمها إلى فخر الدولة لم يجتمع منها عشرة لأبيه، وفيه يقول أبو سعيد الرستمي[2]: [الكامل]

ورث الوزارة كابراً عن كابرٍ ... موصولة الإسناد بالإسنادِ
يروي عن العباس عبادٌ وزا ... رته وإسماعيل عن عَبّادِ

وكان الصاحب محباً للعلماء، وكان ينفذ في السنة إلى بغداد خمسة آلاف دينار تفرق على الفقهاء والأدباء، وكان يبغض من يميل إلى الفلسفة، وقيل: إنَّ نوح بن منصور الساماني كتب إليه يستدعيه ليفوض إليه وزارته، فاعتل بأنه يحتاج لنقل كتبه خاصة أربعمائة حمل فما الظن بما يليق به من التجمل[3].

وعقد مجلساً للإملاء بعدما تاب إلى الله تعالى، واتخذ لنفسه بيتاً سماه بيت التوبة، ولبث أسبوعاً على الخير، ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته، وخرج متحنكاً متطيلساً بزي العلماء، وحضر خلق، وكان المستملي الواحد ما يقوم بالإملاء حتى انضاف إليه ستة كل مبلغ صاحبه، فكان الأول ابن الزعفران الحنفي.

ومرض الصاحب بالأهواز بالإسهال، فكان إذا قام عن الطست ترك إلى جانبه عشرة دنانير حتى لا يتبرم أحد من الخدم، فكانوا يودون دوام علته، ولما عوفي تصدق بنحو من خمسين ألف دينار، وكانت وفاته بالري ليلة الجمعة في صفر سنة خمس

---

(١) الخبر من المفقود من كتاب الفرج.
(٢) الشعر في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٢٣١.

وثمانين وثلاثمائة، ونقل إلى أصبهان، ودفن على باب دربه، وأغلقت مدينة الري، واجتمع الناس على باب قصره، وحضر مخدومه وسائر الأمراء وغيروا لباسهم، ولما خرج صاح النـاس صيحة واحدة، وقبلوا الأرض، ومشى مخدومه فخر الدولة أمام نعشه وقعد للعزاء[1].

ومنهم:

٦٥ ـ الوزير [١٢٣] أبو محمد الحسن بن محمد المُهلبي الأزدي[2]:

من ولد المهلب بن أبي صفرة، وممن وجد الكرم من مواريث تلك الأسرة، وزر لمعز الدولة بن بويه بعد ضائقة علت بالفاقة يديه، وملت بها نفسه الحياة وهي أحب ما إليه، ومرت بها أيامه ضياعاً، وهي محسوبة عليه، وكان قد سافر أيام إملاقه سفرة احتاج فيها إلى نفاضة المزاود، واحتال في قطع أميالها وهي أنكأ في عينه من حمى المراود، وقرم يوماً إلى اللحم، فلم يجد درهماً يشتري به ما يسد شبعه، ويسد ما وهن من القوة أن يتماسك معه، فاشترى له رفيق كان معه لحماً بدرهم وصنعه له طعاماً، ثم قربه إليه فأكل منه حتى قضى نهمته وأرضى شهوته البشرية لا همته، وكان قد قال وهو في ذلك الحال[3]: [الوافر]

ألا مــوتٌ يــبــاع فــأشــتــريــه ... فــهــذا الــعــيــش مــالا خــيــر فــيــهِ
إذا أبــصــرت قــبــراً مــن بــعــيــد ... وددت لــوَ انــنــي مــمــا يــلــيــهِ
ألا رحــم الــمــهــيــمــن نــفــس حــرٍّ ... تــصــدّق بــالــوفــاة عــلــى أخــيــهِ

ثم ما جاء سنته المخاض ولا عاجل سنته من غيره الكرى لانتهاض حتى وزر لمعز الدولة، وقهر بعز الصولة، وبلغ ما خيار إليه صاحبه اتفق عليه فاتاه قاصداً ومقصداً، وتوصل إليه حتى وقف ناشداً ومنشداً[4]: [الوافر]

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٢٣٢.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٦٥، مسكويه، تجارب الأمم: ٦/ ٢٣٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ١٢٤، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٢/ ٢٢٣، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ٣٥٣، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦/ ١٩٧.

(٣) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٦٦.

(٤) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٦٦.

ألا قل للوزير فدته نفسي		مقالَ مذكّر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضنك عيشٍ		ألا موت يباع فاشتريه؟

فلما نظر في رقعته تذكره، وقصت عينه أثره، وأقبل على شأنه، وقضى دينه بإحسانه، وهم الكرام كالشجرة الطيبة إذا نما فرعها واستطال، رعى للأرض حق البر وبته، فاكتنفها من الهجير بظلال، وأمر له بسبعمائة درهم ودارا بما تبعها عنه اللهم، ووقع على رقعته التهم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[(1)] ويوفي السبعة [١٢٥] من الأعداد لهذا الاستشهاد، ثم دعا به فأفاض عليه خلعاً وقلده خلعاً عملاً متسعاً، وكان معه كنزيل آبائه المهالبة الأول أو كالشمس نادت بالربيع لما نالت الحمل، وكان هذا الوزير على استغراق وقته في التدبير، له صدر متسع من الإحسان ما يقصر عنه المزن ويضيق الزمان. ويد تقل العيناء وتكف الظلم، وعدوله غاية في الأدب تفوت، ونهاية في الكمال إلَّا أنه يموت لقلبه إلى أهل الفضل روع، ولخاطره بالندي والبيان ولوع، أنساس قلب عطارد أو تكلم فكأنه يطارد انسجام سرثوب، واحتكاماً على قالب الإحسان مصبوب مصوب منصوب، فيختلس الألباب، ويحتبس الكتائب، ويبعث الكتاب، وبشعره يضرب المثل في الرقة، ويسهل فيطمع، لولا ما طريق تلك السهولة من المشقة، كما قال القائل[(2)]: [الخفيف]

بأبي من إذا أراد سراري		عبرت لي أنفاسه عن عبير
وسباني ثغرٌ كدرٍّ نظيمٍ		تحته منطق كدرٍّ نثير
وله طلعة كنيل الأماني		أو كشعر المهلبيِّ الوزير

ومن شعره قوله، وترقت إلى الوزارة قدمه، وكتب له جملة الأسنة مما كتب قلمه[(3)]: [مجزوء الكامل]

رقَّ الزمان لفاقتي		ورثى لطول تحرُّقي
فأنالني ما أرتجي		وأجار ممّا أتّقي
فلأصفحنْ عما أتاه		من الذنوب السُّبَّق

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦١.
(٢) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٦٥.
(٣) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٦٦.

حتى جناياته بما فعل المشيب بمفرقي

وكان لمعز الدولة غلام تركي أمرد يكاد لترفه يعقد ذلك من قد يَنْقَدّ سره العين نار وفراقاً ويشره إليه فانهل له مداها كأن الشعرى في أنفه وقلوب البشر تقلبها في كفه قد انهمك على الشرب فلا يعفيه، وجانب الضجر والخمر الجائل في صحن خده يكفيه، وكان به كثير الإعجاب شديد [١٢٦] المحبة له متى دعاه أجاب، فجعله رئيس سرية جردها لحرب بعض بني حمدان، وأبرز للناس آية من قمر يطيف به من كل نجم سنان، وكان عند المهلبي مفدى، يستحسن صورته جداً، ويستظرفه توجدا، كاد يكون وجدا، ويرى أنه من مدد الهوى إذا التوى لا من عدد الوغى فيما ابتغى، فقال فيه المهلبي: [مجزوء الكامل]

طفل يرق الماء في جنباته ويرق عوده
ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفاً ومنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكرٍ ضاع الرعيل ومن يقوده

فكانت كما قال[١] المهلبي سرية ولت خاسئة على عقبها، وانقلبت بالهزيمة شر منقلبها[٢].

ومن شعر المهلبي قوله في بعض غلمانه[٣]. [الكامل]

خطٌّ مقوّمةٌ ومفرق طُرّةٍ وكأنَّ سنَّةَ وجهه محرابُ
ورَّيْت عن كشف الذي ألقى به فتعطل النمَّام والمغتاب

ومنه قوله[٤]: [مجزوء الكامل]

يا من له رتب ممكنة الأواخي في الفؤاد
أيحلّ أخذ الماءِ من متلهِّبِ الأحشاء صادي

(١) في الأصل: الما يقال والمثبت من الثعالبي.
(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨ وفيه الشعر.
(٣) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٧٠.
(٤) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٧١.

ومنه قوله المجيد في وصف كتب ابن العميد[1]: [الكامل]

ورد الـــكـــتـــاب مـــبـــشـــراً ... نـــفـــســـي بـــإيـــراد الـــســـرور
وفـــضـــضـــتـــه فـــوجـــدتـــه ... لـــيـــلاً عـــلـــى نـــفـــحـــات نـــور
بـــنـــظـــام در كـــالـــثـــغـــور ... وكـــالـــعـــقـــود عـــلـــى الـــنـــحـــور
مـــثـــل الـــســـوالـــف والـــخـــدود ... الـــبـــيـــض زيـــنـــت بـــالـــشـــعـــور

وقوله[2]: [الكامل]

يـــا عـــارفـــاً بـــالـــداء مـــطَّـــرح ... الـــســـؤال عـــن الـــدواء
الـــعـــلـــم عـــنـــدي كـــالـــغـــذاء ... فـــهـــل نـــعـــيـــش بـــلا غـــذاء

وقوله[3]: [المتقارب]

هـب الـبـعـث لـم يـأتـنـا نـذره ... وأنَّ لـظـى الـنـار لـم تـضـرمِ
ألـيـس بـكـافٍ الـذي فـكـره ... حيـاء الـمـسـيء من الـمـنـعـم [١٢٧]

وقوله في وقت ضائقة[4]: [الوافر]

ولـو أنـي اسـتـزدتـك فـوق مـا بـي ... مـن الـبـلـوى لأعـوزك الـمـزيـد
ولـو عـرضـت عـلـى الـمـوتـى حـيـاة ... بـعـيـش مـثـل عـيـشـي لـم يـريـدوا

وقوله[5]: [الخفيف]

طـلـع الـفـجـر مـن كـتـابـك عـنـدي ... فـمـتـى لـلـقـاء يـبـدو الـصـبـاح[6]
ذاك إن تـم لـي فـقـد عـذبَ ... العيش ونِيلَ[7] الـمـنى ورِيشَ الـجـناح

ومنه قوله[8]: [الكامل]

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٧٤.
(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٥.
(٣) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٥.
(٤) الشعر في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ١٢٦.
(٥) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٧٤.
(٦) في الأصل: طلع البحر والمثبت من الثعالبي.
(٧) في الأصل: ورئيس المنى والمثبت من الثعالبي.
(٨) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٧٤.

ورد الكتاب فديته من وارد — فيه لقلبي من حياتي مورد
فرأيت درّاً عقده مُتَنَظِّمٌ — في كلِّ فصلٍ منه فصلٌ مفرد

ومنه قوله[1]: [الطويل]

إذا اختصر المعنى فشربة حائمٍ — وإن رام إسهاباً أتى الفيض بالمدِّ

وقوله[2]: [الطويل]

وكأنّ فطنته شهابٌ ثاقبٌ — وكأن نقد الحسن[3] منه يقين

ومنه قوله في جارية اسمها تجني[4]: [الخفيف]

ربّ ليلٍ لبست فيه التصابي — وخلعت العذار في اللهو عني[5]
في محلٍّ يحلّه لذّة العيش — ويُجنى سروره من تجني

وقوله فيها[6]: [المنسرح]

مرّت فلم تثن [طرفها][7] تيها — يحسدها الغصن في تثنّيها
تلك تجنّي الذي جننتُ بها — أعاذني الله من تجنّيها

ومنه قوله فيها[8]: [الخفيف]

كلّما سرت في فراقك ميلاً — مال من مهجتي إليكِ فريق
فحياتي مصروفة في طريقٍ — للمنايا عليَّ فيها طروق

وقوله فيها[9]: [الطويل]

لقد راضيت نفسي على الحب في الهوى — لإنسانةٍ ترعى الهوى وتواظبُ

---

(١) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٧٥.
(٢) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٧٥.
(٣) في يتيمة الدهر: الحدس.
(٤) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٠.
(٥) في اليتيمة: العذار والعزل عني.
(٦) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٠.
(٧) ساقطة من الأصل والإضافة من الثعالبي.
(٨) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٠.
(٩) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٠.

صفا ليَ فيها العيش والشيب شامل كما كان يصفو والشباب مصاحب

وقوله[1]: [الوافر]

أراني الله وجهك كُلَّ يومٍ صباحاً للتيمُّن والسرور
وأمتع ناظري بصحيفتيه لأقرا الحسن من تلك السطور

[١٢٨] وقوله في غلام اسمه غريب[2]: [الوافر]

رعى الرحمن قوماً ملَّكوني رشأ قصرٍ بلغت به المرادا
وسمُّوه مع القربى غريباً كنور العين سمَّوه سوادا

وقوله[3]: [الكامل]

الورد بين مضمّخ ومضرّج والزهر بين مكلَّل ومتوّجِ
والثلج يسقط كالندى فقم بنا نلتذ بابنة كرمة لم تمزج
طلع النهار فلاح نور شقائقٍ وبدت سطور الورد بين بنفسج
فكأنَّ يومك في غلالة فضةٍ والنبت من ذهبٍ على فيروزج

وقوله[4]: [الطويل]

ألا يا منى نفسي فإن كنت حتفها ومعناي في سرّي ومغزاي في جهري
تصارمت الأجفان منذ صرمتني فما تلتقي إلَّا على عبرة تجري

وقوله[5]: [السريع]

يا شادناً جدَّد حبّاً له من بعد حبٍّ سالف ساجي
بلحية قد واصلت جمّةَ مثل اتصال الطوق بالتاجِ

وقوله في غلام أبلَّ من علة[6]: [مجزوء الكامل]

---

(١) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨١.
(٢) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨١.
(٣) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٢.
(٤) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٢.
(٥) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٣.
(٦) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٣.

نـهـض الـعـلـيـل فـقـلـت ... حـيـن بـدا كـغـصـنٍ مـائـلِ
طـلـع الـهـلال لـلـيـلـةٍ ... بـضـيـاء بـدرٍ كـامـلِ

وقوله[1]: [الخفيف]

قال لي من أحب والليل قد حدَّ ... ر دمعي مواصلاً للشهيق
ما الذي في الطريق يصنع بعدي؟ ... قلت أبكي عليك طول الطريق

وقوله[2]: [المنسرح]

ولي حبيب ألوذ فيه بأو ... صافٍ وفحواه فوق ما أصف
كالبدر يعلو والشمس تشرق ... والغزال يعطو والغصنِ[3] ينعطف

وقوله[4]: [مجزوء الكامل]

إن كنت أزمعت الرحيل ... فإن رأيي في الرحيل [١٢٩]
أو كنت قاطنة أقمت ... وإن منعت لذيذ سُولي
كالنجم يُصحب في المسير ... ولا يزول لدى النزول

وقوله[5]: [الكامل]

عزمي وعزم صحابة ركّاضةٍ ... موصولة الإلجام بالإسراجِ
كالنبل عامدةً إلى أهدافها ... والطير قاصدةً إلى الأبراج

وقوله[6]: [الطويل]

وذي حسدٍ لو حلّ بي ما يريده ... لأصبح مفجوعاً بقبض بناني
ولم أعطه جهلاً ولكن سحائبي ... تعمّ ذوي الإخلاص والشنآن

وقوله[7]: [البسيط]

---

(١) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٣.
(٢) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٣.
(٣) في الأصل والغزال وصوبناه من اليتيمة وبذلك استقام الوزن.
(٤) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٤.
(٥) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٤.
(٦) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٤.
(٧) الشعر في الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٤.

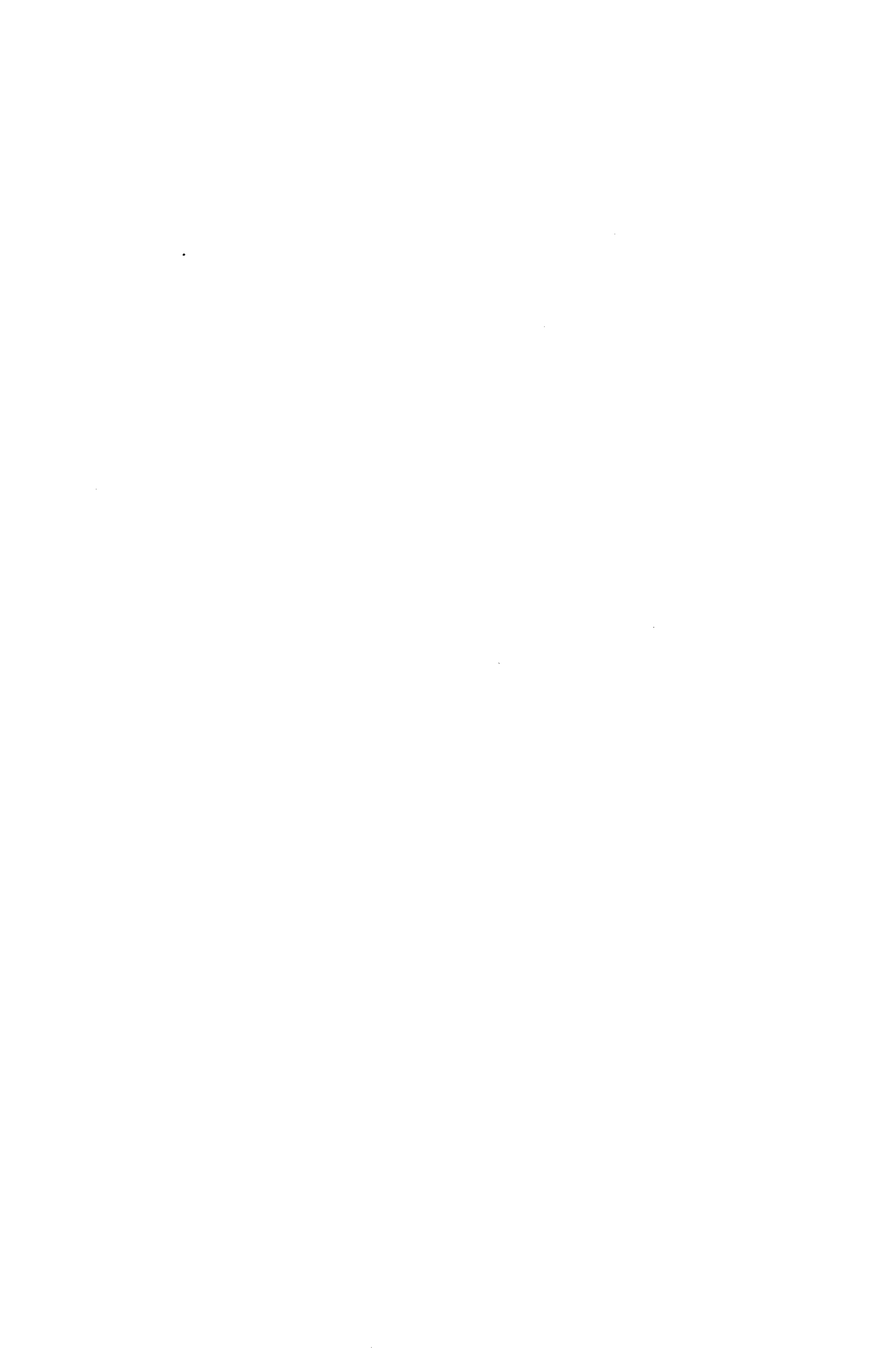
بَـرٍّد مـصـيـفـك[1] وافـرشـه بـمـيـثـرة ... فـإنّـنـي لـمـقـام الـخـلّ ارتـحـلُ
الـذّاكـريَّ وإن أُضـحـى حـتـى يـعـجـبـنـي ... أن تـسـتـريـح وأن تـكـنـفـتـك الـطـلـل[2]

(١) في الأصل: للصباب برّد مصيقل وصوبناه من يتيمة الدهر وبذلك استقام الوزن والمعنى.

(٢) كذا في الأصل وفي اليتيمة:

ألـذُّ كَـرِّي، وأن أضـحـي، ويـعـجـبـنـي ... أن تـسـتـريـح وأن يـكـتـنَّـكَ الـظُّـلَـلُ

وزراء السلاجقة



ومنهم:

٦٦ ـ أبو القاسم علي بن عبد الله الجويني[١]:

نشدته الوزارة لمعاقده، ومهدت الدار لمقاعده، وأمنت علائِه بأسائه لا عن خور ينوب، ولا ضجر رأي في إقال يوم حرب منسوب، لو لامس الصخر لتفجر أو الجهام لان عن جار.

هو أول وزير وزر لطغرلبك، ثم وزر بعده نظام الملك، أبو محمد الحسن بن محمد الدهستاني، وهو أول من لقب نظام الملك، ثم[٢] وزر عميد الملك الكندري وهو أشهرهم.

ومنهم:

٦٧ ـ عميد الملك[٣] الكندري[٤]:

وزير لا وزر عليه، ولا كبر ينسب إليه، وسع صدره الخلق، ورقع تدبيره الخرق، وقمع ضبطه العدا، ووقع صوته بالردى، وأصبح والأمم دون قدره، والظُّلَم لا تجلى إلّا ببدره.

وزر لطغرلبك بعد نظام الملك الدهستاني، وكان عميد الدولة أشهر وزرائه، وإنما اشتهر لأن طغرلبك عظمت دولته، وهو مستمر على وزارته، ووصل إلى العراق وخطب له بالسلطنة.

---

(١) هو ثاني وزراء السلاجقة إذ سبقه فيها أبو الفتح الرازي، انظر: عباس إقبال، الوزراء: ٦٠.

(٢) انظر عنه عباس إقبال، الوزراء: ٦٥.

(٣) في الأصل: الدولة.

(٤) البنداري، دولة آل سلجوق: ٣، ابن الجوزي، المنتظم: ٨٦/١٦، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٣٨، الحسيني، زبدة التواريخ: ٦٧، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٧١/٥، كرماني، نسائم الأسحار: ٤٨، خواندمير، دستور الوزراء: ٢٦٦.

ومنهم:

٦٨ - الوزير نظام الملك(١):

وزير تم السلك بنظامه، وفخر الملك بإعظامه، وتاهت به [١٣٠] الدولة السلجوقية حتى شمخ أنف سريرها، وأرجف صوت زئيرها، وطال لسانها، واستطال سنانها، وسرى في القلوب رعنها، وساءت السماء سحبها، وأخافت بوارقها، وأطاحت بها تيجان الملوك مفارقها، وطفقت صرخات سيوفها على بعد المسافة تسقط أجنة الحوامل، وتقصف أسنة العوامل، ولم يكن بين قلمه وسيف ملكه فرق، ولا تميز بينها ديمة وبرق، ولم يزل يذري بلطف تدبيره الفوارس، وينمي بحسن تعهده المغارس إلى أن جالت خيل سلطانه بأقصى المشرق، وعجاجها بأقصى المغرب، معقود السماء، ممدود الظلماء، قد ملك الأرض من أكثر أطرافها، وسلك خوفه قلوب أشرافها، وكان لدى الخلافة محمود الأثر، ممدوح السير، يجله آجال سلطانه ويحله قريباً من مكانه، والخليفة يستزيد بصباحه، ويستمير من رياحه، ولا يزال بينهما رسل تتردد لحوائج، وأمور على حكم إشارته تمضي، وسياحة من الدين يحوط نواحيه، ويحط من يلاحيه، ويوجب له على أعدائه ذل الرقاب، وتحصيل جل الرغاب.

أصله من طوس الدهاقين، وزالت نعمة أبيه، وماتت أمه، فكان أبوه يطوف به على المرضعات، فلما آن له سمع الحديث وتفقه، وعُدَّ من الفضلاء، واشتغل بخدمة السلطان، والدهر يعلو به وينخفض، حتى وزر لألب وكان ملكه لا يعدي خراسان، وظهرت له منه كفاية لا تظن في غيره(٢).

وكان عالماً ديناً، جواداً عادلاً، حليماً كثير الصفح عن أهل الذنوب والجرائم، طويل الصمت، ظاهر الورع، وأمر ببناء المدارس، لا يزال مجلسه عامراً، وأجرى لها الجرايات العظيمة(٣).

---

(١) السمعاني، الأنساب: ٣/٢٢١، ابن الجوزي، المنتظم: ١٦/٣٠٢، ابن الأثير، الكامل: ١٠/٢٠٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/١٢٨، خواندمير، دستور الوزراء: ٢٤٥، كرماني، نسائم الأسحار: ٤٩.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/١٢٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٢٠٨.

وأملى الحديث ببغداد وخراسان وغيرهما، وكان يقول: إني لست من أهل هذا الشأن لما أتولاه، ولكني أحب أن أجعل نفسي على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ[1]. وكان إذا سمع المؤذن يمسك عن كل ما هو فيه ويجيبه. ثم لا يبادر بشيء قبل الصلاة، وكان إذا أغفل المؤذن، ودخل الوقت يأمره بالأذان محافظة على حفظ الأوقات ولزوم الصلوات[2].

وأسقط المكوس في الضرائب. وأزال لعن الأشعرية على المنابر لأن الوزير عميد الملك الكندري كان قد حسن للسلطان [١٣١] طغرلبك لعن الرافضة، فأمره بذلك، فأضاف إليهم الأشعرية، ولعن الجميع ولذا فارق إمام الحرمين والقشيري وغيرهما بلادهم، فلما ولي نظام الملك لألب أرسلان أسقط هذه الفضيحة القطيعة، والقبيحة الشنيعة، وأعاد العلماء إلى أوطانهم[3].

وكان إذا دخل عليه إمام الحرمين والقشيري يقوم لهما، ثم يجلس إلى مسنده، فإذا دخل عليه أبو علي الفارمذي يقوم إليه ويجلسه ويجلس بين يديه، فقيل له في ذلك، فقال: لأن أولئك يثنون عليّ بما ليس فيَّ فأزداد عجباً وتيهاً، وهذا يذكر لي ما فيَّ من عيوب نفسي فأنكسر[4].

وقيل إنه كان ليلة يأكل الطعام، وإلى أحد جانبيه أخوه وإلى الآخر عميد خراسان وإلى جانبه فقير مقطوع اليد، فنظر نظام الملك، فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر وقرب المقطوع اليد إليه فأكل معه، وكانت عادته تحضر الفقراء طعامه، ويقربهم إليه ويدنيهم منه. ومحاسنه مشهورة مشكورة ألفت فيها الكتب، وجالت في كل مسمع، وقطعت عن رجاء اللحاق به كل مطمع[5].

ولما مات أرسلان وعهد إلى ابنه ملكشاه قام الوزير نظام الملك بتدبيره، وزاد

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ١٢٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٢٠٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٢٠٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٢٠٩.

(٥) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٢١٠.

الجند سبعمائة ألف دينار على إقطاعاتهم، ثم داخل الجند الطمع، فمدوا أيديهم إلى أموال الرعية، وتبسطوا فيها، وقالوا: ما يمنع السلطان أن يعطينا إلّا نظام الملك، فذكر نظام الملك ذلك للسلطان، وبين له ما في هذا من الوهن، وذهاب السياسة، وخراب البلاد، فقال له: افعل ما ترى، فقال نظام الملك: ما يمكنني أن أفعل شيئاً إلّا بأمرك، فقال له السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها لك، وأنت الوالد، وحلف له وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان بيده من جملته طوس وبلادها وخلع عليه ولقب ألقاباً من جملتها: أتابك ومعناه الأمير الوالد، وظهر من كفايته وشجاعته، وحسن سيرته ما هو مشهور(١).

قال [١٣٢] ابن الأثير(٢): وكان يغشى مجلس أبي الحسن بن طلحة الداودي، وكان عالماً عابداً خيراً، وكان يأتيه ويجلس بين يديه، فيعظه فيبكي حتى تبلّ دموعه لحيته.

ولما دخل ملكشاه بغداد أول قدمة قدمها نزل بدار المملكة، أرسل الخليفة إليه هدية كثيرة، وأرسل فرساً منها لنظام الملك، وطلب نظام الملك إلى نظام الخلافة ليلاً، فمضى في الزبزب، وعاد من ليلته، ثم سار مع السلطان إلى جهة البرية للصيد، فلما عادوا دخل السلطان على الخليفة، فخلع عليه الخلع السلطانية، ثم لما خرج من عنده لم يزل نظام الملك قائماً يقدم أميراً أميراً إلى الخليفة، ويقول: هذا العبد فلان [وخلع](٣) على نظام الملك خلعاً جليلة تقارب خلع السلطان(٤).

وذكر ابن الأثير(٥) ما معناه أن نظام الملك لما اتسع ذيل تحكمه، وتسلط بنوه، وتفرد كل منهم بملك جليل، بعث السلطان [إلى نظام الملك يقول: إن كنت شريكي في الملك، ويدك مع يدي في السلطنة](٦) فلذلك حكمه، وإن كنت نائبي وبحكمي [فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة، وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ١٣٠.

(٢) لم نجد الخبر في المطبوع من ابن الأثير.

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ١٣١.

(٥) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٢٠٥.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الأثير.

كورة][1] عظيمة وولي ولاية كبيرة، ولم يقنعهم هذا حتى تجاوزوا أمر السياسة، وفعلوا وصنعوا، فلما بلغته هذه الرسالة، قال: قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك، فاعلم فإنك ما نلت هذا الأمر إلّا بتدبيري ورأيي، أما يذكر حين قتل أبوه فقمت في أمره [وهو][2] يتمسك بي ويلازمني، ولا يخالفني، فلما قدت الأمور إليه ولما جمعت الكلمة عليه، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة، وأطاعه القاصي والداني، أقبل يجنى لي الذنوب ويسمع فيَّ السعايات، فقولوا له إنَّ ثبات ملكة تلك القلنسوة معزوق[3] بتلك الدواة، وإنَّ اتفاقهما رباط كل رغيبة، وسبب كل غنيمة، ومتى أُطبقت هذه زالت تلك، وأطال القول في هذا ومثله، فأوقع عليه التدبير حتى أتاه ديلمي في صورة صوفي مستميح، فلما التفت إليه ليكلمه ضربه بسكين فقتله، وهرب فعثر بطنب خيمة فأدركوه فقتلوه، وهاج العسكر فركب السلطان وسكنه، ثم مات السلطان بعده بخمسة وثلاثين يوماً، وانحلت الدولة ووقع السيف، وكان قول نظام الملك شبه الكرامة له.

ومما رثي به قول ابن عطية[4]: [البسيط]

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً	يتيمة صاغها الرحمن من شَرفِ
بدت فلم تعرفِ الأيامُ قيمتَها	فردَّها غَيرةً منه إلى الصَّدَفِ

٦٩ ـ ووزر بعده ابنه عز الملك لبركياروق[5]:

وكان عزالملك حاكماً بخوارزم وإليه كل أمورها، وكان قد أتى مؤدباً لخدمة السلطان وزائراً لأبيه فلما قتل أبوه ومات السلطان أقام بأصبهان، فلما حضر بركياروق، وكان معظم جيشه النظامية خرج إليه عز الملك وإخوته، فأكرمه واحترمه، ووزره وفوض إليه أمور دولته وحضر عزاء المقتدي[6].

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الأثير.
(٢) إضافة يقتضيها السياق.
(٣) عزق: لصق، انظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٨١٨ مادة عزق.
(٤) هو شبل الدولة مقاتل بن عطية، وانظر الشعر في ابن الأثير، الكامل: ١٠/٢٠٦.
(٥) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٢١٩، كرماني، نسائم الأسحار: ٥٢، خواندمير: دستور الوزراء: ٢٦٧، الراوندي، راحة الصدور: ٢١٤.
(٦) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٢٣٥.

ومنهم:

٧٠ ـ فخر الملك أبو المظفر بن نظام الملك[1]:

فريد من نظام، ووحيد من أبناء الكرام، عظام، تحلى بتقًى يعطر برديه، وكرم يعطل فيض السحب بيديه، وحب لأهل الخير سكن حبة قلبه، وسكت البحر فضالاً عند قلبه، فطالما عمروا أنديته الفساح، وصب عليهم سجال النوال فساح، وعمر على هذا وقضى شهيداً ومضى وأبقى عليه حزناً شديداً.

وزر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة لبركياروق، ثم لما فارق وزراته قصد نيسابور، وأقام عند السلطان سنجر بن ملكشاه ووزر له، وكان يتوالى آل بيت محمد ﷺ، وتعظيم أهل السنة وإكرام الأئمة والعلماء من مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه هذا إلى صدقة سر، والمحافظة على صدقات كثيرة وأصبح يوم عاشوراء سنة خمسمائة صائماً، وتصدق بجملة كثيرة من حل ماله، وقال لأصحابه: إني رأيت الليلة في المنام الحسين ابن علي رضي الله عنهما، وهو يقول عجل إلينا، وليكن إفطارك عندنا، وقد اشتغل فكري ولا محيد عن قضاء الله وقدره، فقالوا: يحميك الله ويقيك، والصواب أن لا تخرج اليوم من دارك، فأقام يومه يصلي ويقرأ القرآن ويتصدق حتى أنفذ شيئاً كثيراً، فلما كان وقت العصر خرج من الدار التي كان بها يريد دار النساء، فسمع صياح متظلم شديد الحرقة وهو يقول: ذهب المسلمون، ولم يبق [١٣٤] منهم من يكشف مظلمة، ولا يأخذ بيد ملهوف، فأحضره عنده رحمة له، فلما حضر لديه، قال له: ما شأنك فدفع إليه رقعة فبينما فخر الملك يتأملها إذ ضربه بسكين فقضى عليه، فأخذ الباطني الضارب له، وحمل إلى السلطان سنجر فقرره، فأقر على جماعة من أصحاب السلطان كذباً منه عليهم، وقال: إنهم هم جهزوني على قتله، وما أراد بهذا إلَّا قتلهم، وكانوا براء، فعلم السلطان سنجر هذا من الباطني، فأمر به فقتل. وكان عمر فخر الدولة نحو ثلاثين سنة[2].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ٩٩/١٧، ابن الأثير، الكامل: ٤١٨/١٠، كرماني، نسائم الأسحار: ٥٢، خواندمير، دستور الوزراء: ٢٧٥، الراوندي، راحة الصدور: ٢١٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ٤١٨/١٠ ـ ٤١٩.

ومنهم:

٧١ ـ كربد أخوه نظام الملك، أبو نصر أحمد بن نظام الملك الوزير[١]:

كان لا يبعد أنه يواخيه، ودام على هذا حتى مضى في سبيل أخيه، قتل مغتالاً وقصف غصنه، وما جرَّ ذيله مختالاً، وعلى هذا مات أبوه، وانقرض به الجود، فلا أحد يوصف به، ولا أحد يرجوه.

وزر للسلطان محمد بعد سعد الملك أبي المحاسن حين اتهمه وأخذ ماله وصلبه، ولما أمسك سعد الملك استشار فيمن يوزره فذكرت له جماعة، فقال السلطان: إن آبائي رأوا على نظام الملك البركة، وله عليهم الحق الكثير، وأولاده أغذياء نعمتنا، ولا نعدله عنهم. وكان أبو نصر هذا قد قدم باب السلطان شاكياً على الشريف أبي هاشم رئيس همذان لأنه لما رأى أبو نصر انقراض دولة أهل بيته لزم داره بهمذان فآذاه رئيسها المذكور، وأقام في جواره وهو يجور، فلما أنكته جراح أذيته وأبكته صراح بليته، قصد السلطان متظلماً فيه، فصادف السلطان في هذه النية التي تجددت بها معالم البيت النظامي وانتظمت أموره، فحالما وصل لديه ولاه الوزارة وخلع عليه وحكمه فيما لديه وفي هذا زيادة على ما يُحكى في الفرج بعد الشدة[٢].

ثم كان السلطان يقدمه على الجيوش ويبعثه على العساكر حيث يتعذر عليه المسير وبعثه لقتال الألموت وبها الحسن بن صباح، فهجم الشتاء عليه، ولم يبلغ [١٣٥] منها مبلغاً، فلما أتى الربيع الآخر سنة ثلاث وخمسمائة قصد نظام الملك أبو نصر الجامع، فوثبت به الباطنية فضربوه بالسكاكين، وجرح في رقبته، وبقي مريضاً مدة ثم برئ، وأخذ الباطني وسقي الخمر حتى سكر، ثم سئل عن أصحابه، فأقر على جماعة بمسجد المأمونية فأخذوا وقتلوا[٣].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/١٢٣، ابن الأثير، الكامل: ١٠/٤٣٧، ٤٨٣، الحسيني، زبدة التواريخ: ٨٣، الراوندي، راحة الصدور: ٢٣٤، كرماني، نسائم الأسحار: ٥٣، خواندمير، دستور الوزراء: ٢٧٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٤٣٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٤٧٧ ـ ٤٧٨.

واستمر نظام الملك على وزارته إلى سنة أربع وخمسمائة ثم عزله السلطان محمد واستوزر بعده الخطير محمد بن الحسين الميبذي(١).

فمنهم:

٧٢ ـ الأَعز، أبو المحاسن عبد الجليل الدِّهِسْتاني(٢):

وزير ملأ القلوب شغلاً، وأدنى البلاد شعلاً، وأتقن أمور التدبير فلم يهمل مالاً ولم يدع إلَّا مالاً وكان في دولة بني سلجوق أعز وزرائها، وأعزم آرائها، وزر لبركياروق، ونظم الشتات، وعمر البلاد، وثمر الأموال، ورد الأمور إلى قوانينها، وأعاد الحرمة إلى حالها، وأوقد جمرة السلطنة بعد أن خمدت، وأجرى يد الوزارة بعد أن خمدت، وأتى الدولة وقد اضمحلت، فقوى أسبابها، وشيد بنيانها، ومد الأعناق لوطأة قدمها، وخفض جناح النسر الطائر لعلو هممها.

وأسر في الوقعة الكائنة بين بركياروق وأخيه محمد على بغداد، فحمل إلى مؤيد الملك بن نظام الملك فأكرمه، ونصب له خيماً، وضرب له خركاه، وحمل إليه ما يحتاج من الفرش والكسوة، وضمنه عمارة ما خرب من بغداد، ثم أطلق سراحه(٣).

وكان يغرى بهلك الباطنية ولم يزل معهم يسعى بهم حتى أمر السلطان بقتلهم وجهد لو استطاع في اجتثاثهم من أصلهم، وقد عبرت تلك الأيام مدة فرقاً لا يخرج السلطان ولا الوزير الأعز فمن دونهما إلَّا وهو في درع مضاعفة خوفاً منهم(٤).

فلما نزل السلطان لحصار أصفهان، وكان قد ركب من خيمته إلى خدمة السلطان، فجاءه شاب أشقر، قيل: كان من غلمان أبي سعيد الحداد، وكان قتله الوزير الأعز، فانتهز الفرصة في الوزير وقتله، وقيل: بل كان باطنياً فجرحه عدة جراحات، وتفرق أصحابه عنه، ثم عادوا إليه، فجرح أقربهم منه جراحات أثخنته [١٣٦] وعاد إلى الوزير فتركه بآخر رمق(٥).

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٤٨٣.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/١٧، ابن الأثير، الكامل: ١٠/٣٣٥، الراوندي، راحة الصدور: ٢١٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٢٩٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٣٢٢.

(٥) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٣٣٥.

وكان كريماً واسع الصدر، حسن الخلق، كثير العمارة، وفعل أول وزارته لإقامة الحرمة ما خافه الناس بسببه، وكان حسن المعاملة مع التجار، استغنى منه خلق كثير حتى كانوا يسألونه أن يعاملهم، فلما قتل ضاع لهم مال كثير(١).

حكي أن بعض التجار باعه متاعاً بألف دينار وقال له: خذ بها حنطة من الزاد على أن كل كر بعشرة دنانير فامتنع التاجر وقال: لا أريد غير الدنانير، فلما كان من الغد دخل إليه التاجر، فقال له: يهنئك يا فلان قال: وما هو؟ قال: فائدة حنطتك، فقال: ما لي حنطة ولا أريدها، فقال: بلى قد بعت كل كر بخمسين ديناراً، فقال: أنى لي بهذا، وأنا لم أتقبل، فقال له الوزير: ما كنت لأرجع عن قول قلته، فاخرج فاقبض ثمن الحنطة بارك الله لك(٢).

وكان مع وفور عقل الوزير وما عرف به [من] التدبير قد نفق عليه عمل الكيمياء، ولم يصح له شيء منها(٣).

قال ابن الأثير(٤)عقيب ذكره حادثة يُعتبر بها قال: في سنة ثلاث وتسعين بيع رحل بني جهير ودورهم بباب العامة، ووصل ثمن ذلك إلى مؤيد الملك ثم قتل المؤيد وبيع ماله وأخذ ثمن الجميع، وحمل إلى الأعز وقتل الأعز وحمل ماله وبيع رحله واقتسمت أمواله وأخذ السلطان ومن ولي بعده أكثرها وتفرقت أيدي سبأ وهذه عاقبة خدمة الملوك.

ومنهم:

٧٣ ـ أبو طالب السُّميري(٥):

وزير حلَّق كثير على الجوزاء، وحلَّ عند الملوك محل الأعزاء، وكان أرزن من

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٣٣٦.
(٢) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٣٣٦.
(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٣٣٦.
(٤) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٣٣٧.
(٥) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/٢١٢، ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٠١، الراوندي، راحة الصدور: ٢٩٩، خواندمير، دستور الوزراء: ٢٨٩.

الطود وأرزم من الجود، على عميق باطن أكثر غوراً من البحر، وأعظم ضرراً من حط الخنجر من النحر، برأي أثقب من الزناد، وأمض للعذر من العناد، لو جلبب الليل لاضمحلت أو ألب على الصخر لانحل.

حكي أنه ما تخلى من ظلامة، ولا تحرر من ملامة [ص١٣٧] طلباً لتوسعة الحال، وترقيع كلف أيامه بالمحال فمقت وبغض، ووقت عليه زمانه حتى رفض، ثم أخذ من التقصير بما لا يحظى من مهام المساعي، ولا يبطئ من سمام الأفاعي حتى أخذ من صدر بيته بين أحبته وحطت عليه السكاكين بالعذاب وصب عليه ما لو أصاب الحجر لذاب.

استوزره السلطان بعد ربيب الدولة وزير السلطان محمود، وكان والد الربيب وزيراً للمسترشد(١).

وكان السميري رجلاً ظالماً، جباراً، عسوفاً، حسَّن للسلطان أخذ حق البيع، وتجديد المكوس بالعراق، وقدر هذا برأيه، وأشغلتهما شواغل القدرة بوقوع الحريق المتتابع، وسببه: أن جارية للسلطان كانت تختضب بدار بهروز التي بناها للسلطان محمد، فأسندت شمعة إلى الخيش فاحترقت، وعلقت النار منه في الدار كلها، وفطم خبطتها واحترق فيها من الجواهر والحلي والفرش والثياب ما لا يقوّم، ولم يسلم من الجوهر إلَّا الياقوت الأحمر. ثم أمر السلطان [أهل] الذمة بلبس الغيار فافتدوا منه بمال قرر عليهم بإشارة الوزير، وامتد في الظلم إلى فوق معطس أنفه، وخاض في الجور إلى الحلقوم فسكنت بغضته، ودارت مذمته على الألسنة، ووقع في أيامه في سنة خمس عشرة وخمسمائة ثلج عظيم عمَّ العراق جميعه من البصرة إلى تكريت وبقي به على الأرض خمسة عشر يوماً وسمكه فوق ذراع وهلك به أكثر الشجر، فقال بعض الشعراء يذكر ذلك ويعرض بظلمه: [الخفيف]

يا صدور الزمان ليس بثلج ... ما رأيناه من نواحي العراق

إنما عمَّ ظلمكم سائر الخلق ... فشابت ذوائب الآفاق

فلما مضى صفر سنة ست عشرة قتل الوزير السميري وأراح الله منه(٢).

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٥٦٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٥٩٤ ـ ٥٩٦.

وكان قد برز مع السلطان ليسير إلى همذان [١٣٨]، فدخل الحمام وخرج بين يديه الرجالة والخيالة، وهو في موكب عظيم ملوكي، فاجتاز بسوق المدرسة الخمارتكينية في مكان ضيق فيه حظائر شوك، فتقدم أصحابه لضيق الموضع، فوثب عليه باطني فضربه بسكين فوقعت في البغلة وهرب إلى دجلة، وتبعه الغلمان فخلا الموضع، فوثب عليه رجل آخر بسكين فضربه في خاصرته، وجذبه فألقاه إلى الأرض، وضربه عدة ضربات، وعاد أصحاب الوزير فحمل عليهم رجلان باطنيان، فانهزموا منهما، ثم عادوا وقد ذبح الوزير ذبح الشاة، والدم قد سهم ودام ووشاه، فحمل قتيلاً وبه نيف وثلاثون جرحاً وقتل قاتلوه(١).

ولما كان في الحمام كان المنجمون يأخذون له الطالع ليخرج، فقالوا: هذا وقت جيد وإن تأخرت فات طالع السعد فأسرع وركب، وأراد أن يأكل طعاماً فمنعوه لأجل الطالع، فقتل ولم يغن عنه شيء، وأخذ السلطان خزانته وانتهب ماله(٢).

وكانت زوجة الكمال قد خرجت في هذا اليوم في موكب كبير في مائة جارية، وجمع كثير من الخدم، والجميع بالخيول المثمنة، والمراكب الذهب، في ثياب الوشي والحرير، ونفائس الدر والجوهر، فلما سمعت بقتله رجعت بمن معها من الجواري حافيات حاسرات، وقد تبدلن بالعز هواناً، وبالمسرة أحزاناً. فلما قتل أبطل السلطان ما كان أحدثه من المظالم، وجدده من المكوس، ووضعه على التجار والباعة من العُكوس، وأزال الله ذلك السقم وشفى النفوس(٣).

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٠١.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٠١.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم: ١٧/٢١٣.

ومنهم:

٧٤ ـ الصاحب كمال الدين، رئيس الشام، أبو القاسم عمر ابن القاضي أبي الحسن أحمد بن أبي الفضل هبة الله بن أبي غانم محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة القيسي العقيلي الحلبي الحنفي الكاتب المؤرخ المعروف بابن العديم(١):

من بيت تتعلق [١٣٨] آماله، ويتحقق نقص البدر عند كماله، ضرب عرقه إلى معد بن عدنان، ولمع برقه في أسرة قيس بن عيلان، وأشرق في آهلة مضر، وأغدق نوءه فلما عدل عامر عن قيل عمر.

وكان لا يجلس أحد فوقه إذا حضر في مجلس السلطان، ولا يضرب معه بأعطان، وكان الملك الناصر بن العزيز يخاطبه بالوالد، ويحطم الألف منه بواحد، وكان محله منه محل الفتح بن خاقان من المتوكل، جارياً مجرى الوزارة، وإن كان لا يتقلدها، ويطلق فيها أوامرها ولا يقيدها، هذا إلى أدب لو هَب نسيمه على المخمور لأفاق، ولو شبه نظمه بالدر لما سمح منه الإنفاق، هذا مع خط ما وشي بقبله ديباج الخدود، ولا عطفت زرده أصداغ الغواني بزرود، خصوصاً قلم النسخ الذي كأنه ما رقمت به صحف الجمال والحواشي ولا بمثل خد العذراء عليها من خط الكمال.

ولد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وكان من رجال الدهر، علماً ونبلاً وذكاءً ورأياً، ومنظراً وبهاءً، وسؤدداً وفقهاً، وكتابة وإنشاءً، ودرس وأفتى، وترسل عن الملوك، وبحسن خطه يضرب المثل، وإليه يشير الصاحب فتح الدين بن القيسراني: [الوافر]

بوجه معذبي آيات حسن ... فقل ما شئت فيه ولا تحاشي
فنسخة حسنه قرئت فصحت ... وما خط الكمالِ على الحواشي(٢)

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء: ٥/٢٠٦٨، ابن الشعار، قلائد الجمان: ٥/٢٠٣، اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ١/٥١٠، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٣/١٢٦، عيون التواريخ: ٢٠/٤٢١، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٢/٤٢١، أبو شامة، الذيل على الروضتين: ٢١٧، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٦٥١ ـ ٦٦٠]، ص٤٢١.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء: ٥/٢٠٨٣، الذهبي، تاريخ الإسلام: ٤٢٣، وانظر: ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٣/١٢٦.

ذكره الدمياطي، فقال: ولي القضاء بحلب خمسة من آبائه متتالية، وله الحظ البديع، والخط الرفيع، والتصانيف الرائعة، منها: «تاريخ حلب»[1] أدركته المنية قبل إكمال تبييضه، وكان غزير العلم خطير القدر والأصل[2].

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي[3]: من نظر في تاريخه علم جلالة هذا الرجل ورتبته في العلم.

وقد ناب بدمشق في السلطنة عن الناصر وعلّم عنه إذ سار إلى مصر[4].

وحكى في تاريخه: أنه دخل مع والده على صاحب حلب الملك الظاهر غازي وأنه هو الذي [١٤٠] حسَّن له جمع التاريخ[5].

ومن بديع نظمه قوله[6]: [الطويل]

فوا عجبا من ريقه وهو طاهرٌ ... حلالٌ وقد أمسى عليَّ محرما
هو الخمر لكن أين للخمر طعمه ... ولذته مع أنني لم أذقهما

وقوله: [الكامل]

فكأنما قمر السماء لسبقه ... موسى من الفولاذ ذات صقال
وكأن سعد الذابح استضناه من ... عمل الدجنة قاطعاً لوصال

فنظم ولده مجد الدين هذا المعنى فقال: [البسيط]

يا ليلة الهجر بل يا أنكد العمر ... ما كان ضرَّك لو وافيت بالسحر
قد مزق الخوف ثوب النوم من ضجرٍ ... لما بدا لابساً ثوباً من السهر
وكنت أحسب أنَّ النوم ينقذني ... فقد غدا هارباً من شدة الحذر
خاف الدنو لسعد الذبح حُقَّ له ... فقد بدا قابضاً موسى من القمر

---

(١) إشارة إلى كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب، وهو منشور في عشرة أجزاء.
(٢) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٣/١٢٦ ـ ١٢٧.
(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٤٢٤.
(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٤٢٤.
(٥) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٤٢٤.
(٦) الشعر في ياقوت، معجم الأدباء: ٥/٢٠٨٩.

وأهدى الأمير سيف الدين المشد إلى الصاحب، «كتاب الأنواء» لأبي حنيفة الدينوري، فارتجل: [مجزوء الرجز]

يـــــا مـــــولـــــي الآلاء ومـــسبـــغ الـــنـــعـــمـــاء
لـــو لـــم تـــكـــن ســـمـــاءً مـــا جـــدت بـــالأنـــواء

ومن شعره قوله يفخر: [الطويل]

سألزم نفسي الصفح عن كل ما جنى علـيَّ وأعـفـو عـفـة وتـحـلـمـا
وقـائـلـة يـا ابـن الـعـديـم إلـى مـتـى تـجـود بـمـا تـحـوي ستصبح معدما
فـقـلـت لـهـا عـنـي إلـيـك فـإنـنـي رأيـت خـيـار الـنـاس من كـان منعما
أبـى الـلـؤم لـي أصـل كـريـم وأسـرة عـقـيـلـيـة سـنـوا الـنـدى والـتـكـرمـا

وقوله: [مخلع البسيط]

يـــشـــبـــه خـــده جـــلـــنـــاراً فـــي غـــصـــن شـــاهـــق مـــنـــيـــع
تـــمـــلـــك الـــقـــلـــب وهـــو بـــعـــض فـــلـــم ســـرى الـــرق فـــي الـــجـــمـــيـــع

وزراء المغول



فأما من بعده من وزراء الدولة الجنكيزخانية، فنقول: إن رتبة الوزارة لم تزل تتماسك زممها إلى انقضاء دولة الخلافة، ثم آخر ما حفظت هذه الرتبة العلية السامية في ممالك بيت هولاكو بن طولى بن جنكيز خان (١٤١) فإن الوزراء عندهم هم السلطان حقيقة، لا يشاور القان إلَّا في الأمور الكلية، وهو المتصرف في البلاد والممالك، كيف شاء يولي ويعزل، ويسمن ويهزل.

فمنهم :

٧٥ ـ شمس الدين، أبو المكارم محمد بن محمد بن محمد الجويني[1]:

وزير هولاكو، الصاحب الوزير، وزير قام في زمان الغدر بالوفاء، وأحيا في أيام التتار سنة الخلفاء، أمسك بيد الثريا اعتلاقاً، وحكى سميته الشمس انبلاقاً، انسكب جوده اندفاقاً، وحسن به وجوده اتفاقاً، ولم يزل يهب المواهب إرفاقاً، ويبذل الأموال إنفاقاً، ويصل دولة الإسلام حباً والتتار نفاقاً، ووظف عليه الوظائف، وأورف مما لديه من الطرائف، ومد ظلال النعم، واستجد الإحسان فوق ما ظن مكحوله.

وزر لأبغا قان في أول تلك الدولة، وجمرتها تتلظى ومرتها تعلق بأشطان الرماح فتتشظى في زمان كان السيف يقطر فيه دماء، وكاد الوجود فيه يُعدُّ عدماً، وملوك المغل تغلي مراجلهم حنقاً، وتشعل حبائلهم حرقاً، ودم الإسلام بعد ما جمع، وصوت الأذان إذ ذاك ما سمع، وأشلاء الخلافة مزقاً كقرع السحاب وفرقاً بأيدي النهاب، فألان بتلطفه تلك القسوة وصان بتعطفه عن تلك الأسوة وزوج ابنه. . . بنتاً من البيت العباسي جمع بها نسائب تلك النساء، وسمع بها من صريح أول الأباء صريح النداء، فكأنما رد ذاهب العصور، واستجد لبغداد وله المنصور، وقطع على هدى مدى زمانه، وهو جار في طلقه، سار في أفقه، والأيام لعنانه سلسلة القياد، ومنبجة الأيادي بأكثر مما حصل لابن أبي دؤاد في إياد، إلى أن نكر له الدهر معروفه، وكر عليه صروفه، ورماه من

---

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٢٣٨، خواندمير، دستور الوزراء: ١٣٦.

حيث لا يدري، وأتاه وكان يظن أن لا يستجري، فكور شمسه، وعمر بحلوله رمسه، واستل له سيفاً قتل به بأمر سلطانه الذي كان به ينتصر، وبسببه إذا حلق على النجوم قالوا إنه مقتصر، فقدَّ بالسيف قدة، ألقي بها طريحاً، وغودر بها جسداً لا يقلُّ روحاً، تصرف في الأقاليم بأقلامه، وترسل ونظم ونثر [١٤٢] ورزق صاحب الديوان، فكان جواداً ممدحاً ينطوي على إسلام وخير في الجملة، ولم يزل في رفعة وارتقاء إلى أن ولت سعادته وتنمر عليه القان، فقتل في رابع شعبان سنة ثلاث وثمانين وستمائة، ولما تسلطن آرغون سار إلى ركابه الوزير شمس الدين فصفح منه أياماً ثم تنمر له وعذبه وأخذ أمواله وقتله. ولقد كتب وصية يقول فيها: وإن رأى الوصي خللاً فليعذر فإني سطرتها وأنا عريان والسيف مشهور(١).

ومنهم:

٧٦ - أخوه الصاحب علاء الدين صدر العراق صاحب الديوان عطاء ملك ابن الصاحب بهاء الدين محمد بن محمد الجويني(٢):

تتبع كرم سجايا أخيه حتى كان شقيق نومته وشقيق روضه، ومتم مكارم أخلاقه، ومتمم سوابق أطواقه طلع مع شمسه نهاراً، وجمع من غرسه ثماراً، هذا إلى ما جبل في طباعه، وجهل فلم يعرف إلَّا باتباعه مع ما هو في أصل حتمه وفضل فخيمه، كان ببلاد العراق يجبر جلها، ويجاري دجلتها من بغداد، فأمسك رمقها، وملك حللها، ورتقها، ولحق قلقها، وتلافى وأدرك آخرها وقد كان يذهب تلافاً، وقد كان عهد بغداد قريباً بالخلافة، ونصرة إمامها، ومسيرة أيامها ورونق زمانها، وموثق أمانها، ونواصي الدهر بأيدي خلفائها، وعاصي الدول من خلفائها، وكرم سجايا الخلائف، ورقة الأسحار لا تقاس إلَّا بخفائها، وفرقه الكفار لا يذهبُ سبيل دجله إلَّا بجفائها، وسيوف الإسلام لو أغفت معها عيون الأعداء لروعتها في إغفائها، ولو عفت عن ولوغ الدماء لما سلمت إلا في إعفائها فقذف بريح تلك العدة، وقارب في تفريج تلك الشدة، وفعل كل جميل، وفضل كرمه على كل تأميل، وكان الجويني ينفح عقيب تلك الحيف الداهية الذاهبة عطراً، وتسفح مثل عونه الغمام قطراً، وبيد المارين ويشد من

---

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٢٣٨.

(٢) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٢١٣، خواندمير، دستور الوزراء: ٢٣٨.

شداه ما يعلم به أن جوين ما لا يوجد في دارين وعلى هذا وكان أديباً يقسم البصر أن مثل سلكه ما سلك، وأن مثل ما وهب لا يقدر عليه البشر لأنه عطا ملك إلَّا أنه أناف [١٤٣] له الأجل أتاه مفعماً مثلما وهب لا يقدر عليه، وفرش له القبر حسن الجندل بعد أن كان منعماً وأرت المنايا به المصرع لو كان من يتبصر من عمى، تأدب بخراسان وكتب بين يدي أبيه، وتنقل إلى أن ولي ممالك العراق بعد القزويني، فعمر القرى، ووفر الأموال، وأسقط المغارم عن الفلاحين، ولمَّ شعث الناس، وعمرت بغداد به ولم يزل في ارتقاء إلى ان قدم مجد الملك فأمسكه وصادره، وزالت أيامه، وله النظم والنثر والمكارم والسؤدد، وفيه رفق عظيم بالرعية، حفر نهراً مبدؤه من الأنبار ومنتهاه مشهد علي تجدد عليه مائة وخمسين قرية، وقدم القان أبغا العراق فاجتمع الأخوان علاء الدين وشمس الدين، فأحصيت جوائزهما في العيد فبلغت ألف جائزة، وكان الفاضل إذا ألف كتاباً وعمله باسمهما كانت جائزته ألف دينار، ولهما إحسان إلى الفقهاء والصلحاء، ولهما يد في المعقول والآداب، ويرجعان إلى إسلام(١).

قدم مجد الملك سنة ثمانين فغل صاحب الديوان، فأخذ أمواله وعقاره وعذبه، ثم بعد أباقا عظم دست الأخوين، وسلم مجد الملك إلى علاء الدين فقتله وسلخه، ونفذ إلى بغداد نائباً له، فحكم أشهراً ثم مات النائب نجم الدين الأصغر، وله سيرة طويلة، قتل مجد الملك قتلة شنيعة سلخه هارون بن الصاحب، وشربوا الخمر في جمجمته فلم يشن بعد علاء الدين(٢).

ولما عاد منكوتمر مهزوماً من الشام حمل صاحب الديوان إلى همذان فهلك أبغا ومنكوتمر، واختفى الأخوان فمات علاء الدين في الخفية سنة إحدى وثمانين وستمائة عن ثمان وخمسين سنة. ثم ظفر أرغون بالوزير فقتله(٣).

ومن محاسن علاء الدين أنه بنى مساكن كثيرة بظاهر بغداد، وهو الكشك الذي بين باب الحلبة وباب الظفرية لينزله أعيان التتار، وكانت بغداد على ما ذكره ابن النجار في أيام السلجوقية إذا قدمها العسكر من العجم دخلوها ونزلوا في بيوت الرعية وخالطوهم وامتزجوا بأهاليهم، وتصرفوا في القماش والحريم، فخربت بغداد، ونزح

(١) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٢/ ٤٥٣.
(٢) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٢/ ٤٥٢.
(٣) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٢/ ٤٥٣.

كثير منها لهذه المفسدة الكبرى، فأنشأ عطا ملك للمغول هذه الأماكن الفسيحة كفّاً لأذى العسكر، ثم أنشأ رباطاً كبيراً بالمشهد النجفي، وأجرى [١٤٤] إليها الماء، وإلى جامع الكوفة، وأنشأ المدرسة العصمتية على المذاهب الأربعة.

وفي سنة ست وسبعين وستمائة كان القحط بالعراق فعمل دار مضيف للضعفاء وبرّ للمستورين، وهمَّ بإنشاء قناطر على دجلة، فقال المعمار: يزيد ذلك على مائتي ألف دينار فأمر بعمل بركة في وسط المستنصرية يصعد إليها بدار بعد أن يحمل الماء إلى المدرسة في القرب، وكان له مجلس يجتمع فيه العلماء ويتناظرون ويبحث معهم ويكرمهم.

وقال البهاء علي بن عيسى الكاتب: كاتبني الصاحب عطاء ملك والغل في عنقه ويده في يوم بارد، وهو جالس على الرمل وعليه قميص، وهو صابر لله حامداً لله[1]: [مجزوء الكامل]

لا تــعــجــبــن لــمــا جــرى ... فــالــخــيــرُ فــيــه لــعــلَّــهُ
قــد كــنــت عــبــداً آبــقــاً ... يــعــصــي الإلــه فــغــلَّــهُ

قال ابن عيسى: وعمل الصاحب أيضاً[2]: [الوافر]

لــئــن نــظــر الــزمــان إلــيَّ شــزراً ... فــلا تــك ضــيّــقــاً مــن ذاك صــدرا
وكــن بــالله ذا ثــقــة فــإنــي ... أرى لله فــي ذا الأمــر ســرّا
زمــانــي إن رمــانــي لا أبــالــي ... فــقــد مــارســتــه عــســراً ويــســرا
وقــد صــاحــبــتــه ســتــيــن عــامــاً ... مــضــيــن وذقــتــه حــلــواً ومــرّا
ســلــكــت فــجــاجــه حــزنــاً وســهــلاً ... وخــضــت غــمــاره مــدّاً وجــزرا
رأيــت الــدهــر لا يــبــقــى بــحــال ... يــريــك الــوجــه ثــم يــريــك ظــهــرا
إذا دكــت جــبــال الــصــبــر دكّــا ... تــرى مــنــي فــؤاداً مــســتــقــرّا
فــفــي الــبــأســاء لــم أخــضــع لــبــؤس ... وفــي الــســراء لــســت أطــيــش كــبــرا

في أبيات.

ومن شعره: [الطويل]

---

(١) الشعر في بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٢١٤.

(٢) الشعر في بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٢١٤.

رعـى الله أيـامـاً لـنـا ولـيـالـيـا تـقـضَّت وبـرد الـعـيـش صـاف مُـوفـف
يـدور عـلـيـهـا الـكـأس كـأس فـكـاكـه يـلـذ لـديـنـا لا حـمـيًّـا ولا قـرقـف
نـأيـتـم فـلا الـعـيـن الـقـريـحـة بـعـدكـم رقـى دمـعـهـا يـومـاً ولا انـفـكَّ يـذرف
عـصـيـنـا أحـاديـث الـعـذول عـلـيـكـم وغـيَّـركـم قـول الـحـسـود الـمـحـرِّف
وكـم عـنَّ لـلـقـلـب الـحـزيـن مـقـرطـق عـزيـز كـمـا شـاء الـجـمـال مـشـرف
مـن الـتـرك أمـا قـلـبـه فـيـه قـسـوة الـحـديـد وأمـا جـسـمـه فـهـو مـتـرف
يـروم وصـالاً مـن فـؤاد مـعـذب بـحـبـكـم فـانـصـاع لا يـتـوقـف
ولـولا هـواكـم لـم أكـن عـنـه عـادلاً ولا بـت مـن تـقـريـبـه أتـعـفـف
تـعـالـوا بـنـا نـسـرق مـن الـعـمـر سـاعـة فنجني ثمار الوصل فيها ونقطف [١٤٥]
وإن كـنـتـم تـلـقـون مـن ذاك كـلـفـة دعـونـي أمـت وجـداً ولا تـتـكـلـفـوا

وقوله: [الطويل]

لـذكـر الـحـمـى يـصـبـو الـفـؤاد الـمـشـوق وذكـر الـحـمـى يـضـنـي الـمـحـبَّ ويـقـلـق
إذا هـم طـول الـعـهـد يـبـدي تـسـلِّـيـاً أبـت كـبـدي حـرَّى وجـفـنـي مـؤرق
وكـيـف ومـن أيـن الـسـلـوُّ لـعـاشـق يـحـنُّ إذا نـاح الـحـمـام الـمـطـوَّق
تـكـاد إذا مـا الـوجـد جـدد ذكـرهـا وكـيـف ولإنـسـان نـفـسـي يـزهـق
سقـاهـا الـحـيـا ربـعـاً ودهـراً قـد انـقـضـى ولـلـعـيـش مـن مـاء الـشـبـيـبـة رونـق
ولـلـقـلـب مـن بـعـد الـنـوائـب مـغـرب ولـلـعـيـن مـن وجـه الأحـبـة مـشـرق
فـيـا طـيـب ذاك الـعـيـش لـو كـان دائـمـاً ويـا طـيـب لـيـل الـوصـل لـولا الـتـفـرق

وقوله: [البسيط]

أحـبـابـنـا لـو درى قـلـبـي بـأنـكـم تـدرون مـا أنـا فـيـه لـذَّ لـي تـعـبـي
لـكـن أعـظـم مـا ألـقـاه مـن ألـم أنـي أمـوت ولا تـدري الأحـبـة بـي

وقوله[1]: [الطويل]

أبـاديـة الأعـراب عـنـي فـإنـنـي بـحـاضـرة الأتـراك نـيـطـت عـلائـقـي
وأهـلـك يـا نـجـلا الـعـيـون فـإنـنـي فـتـنـت بـهـذا الـنـاظـر الـمـتـضـايـق

---

(١) الشعر في بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٢١٤.

وقوله: [الكامل]

مضت الشبيبة وانمحى أثر الهوى والعيش من فقد الشباب مكدر

إنَّ الشبيبة جوهر وأرى الهوى عرضاً يزول إذا يزول الجوهر

٧٧ ـ خواجا رشيد الدولة فضل الله بن أبي الخير بن عالي الهمذاني الطبيب العطار(١):

والده داهية دهياء وبلية لا تطاق، ومصيبة لا يحل لها نطاق، وسم لا يمهل متجرعه، وأرقم لا يتجنب موضعه، أسد مفترس، وذيب يختلس، وعقاب يحلق بالمنون، وعقاب يأخذ بالظنون، ورجل دهر لا ينبدل له حصاه ولا يتقد الأجل لولاه. إلا إلى من عصاه، خدم السلطان محمود غازان بالطب إلا أنه سلم إليه روحه، وذلل له جموحه، وكان لا يأكل ولا يشرب إلَّا من يده، وكان يطبخ له الطعام في قدر فضة أعدها، فإذا فرغ منه غرفه في أواني من ذهب، وتولى عمله وغرفه بيده، ثم حمله [١٤٦] معه على رأس ابنه إليه ثم هو الذي يلقمه ويقطع له منه ويطعمه، وغازان لا يمس بيده، ولا يأكل إلَّا من يد خواجا رشيد أو ولده، وكان له على هذا بلدان يستغلهما، ويأخذ منهما كثير الأموال ويستقلهما(٢).

وكان له مع هذا جوار وإدرارات ورواتب ومقررات تفيض على مائة كاتب، هذا مع نظر الأوقاف الغازانية وهي ممالك، وجمل يقال فيها، وهي أضعاف ذلك، وكان كالمشير والجليس للملك إذا وقف الوزير، وكانت الوزراء معه في مثل حلقة الخاتم وشبه طاعة الخادم، لا يتصرف معهم متصرف إلَّا بمراجعته ولا يسعه غير الانقياد إلى مطاوعته، وبقي على هذا إلى آخر أيام غازان وصدراً من دولة أخيه على ما كان(٣).

وحكى لي شيخنا أبو الثناء الأصفاني أدام الله بقاءه: أن خواجا رشيد جمع أنواعاً من الحكم ضمها في تأليف ورسمه باسم السلطان غازان ثم أتى إليه، وقال له: أيها القان أنت أعظم من الإسكندر، وأنا أفضل من أرسطو، وقد كان أرسطو صنف كتاباً له فأجازه عنه ألف ألف دينار، فأجازه بذلك فأخذ به أملاكاً خربة في أقطار

---

(١) الصفدي، أعيان العصر: ٤/ ٤١، الوافي بالوفيات: ٢٤/ ٧٨، ابن حجر، الدرر الكامنة: ٣/ ٢٣٣، كرماني، نسائم الأسحار: ١١٢، خواندمير، دستور الوزراء: ٣٧٣.

(٢) النويري، نهاية الأرب: ٣٢/ ٢٩٢.

(٣) الصفدي، أعيان العصر: ٤/ ٤١.

البلاد ثمنت عليه بقيمة الخراب بالمبلغ ثم عمرها بجاهه فصارت لا قيمة لها ولا يحصى ما يستغل منها.

وقد حكى حسن الإربلي المتطبب المؤرخ رحمه الله ما معناه: أنه لما ضاق به باع الوزراء، وضاع بتدبيرهم معه أن بليهم رشاشة، أو أحرقتهم شرارة، فقسمت بينه وبين علي شاه التوريزي شطرين، وسلمت إليهما قطرين، وكان علي شاه هو الساعي في هذا بعد أن كان به منفرداً فأظله السجسج[1] متبرداً إلَّا أن خواجا رشيد كان فيما هو أجل من الوزارة موضعاً، وأقدر على ما يوعي به السلطان مسمعاً، فكان لا يزال يرميهم بالأوابد، ويصميهم بالسهام إصما اللوابد، لما يجده من السبيل إليهم، والطمن بالتصرف في الأموال عليهم، وهو مما يدخل تحت أيديهم، بريء الساحة، نقي الراحة، لا يقام منه جليس، ولا يقال إلَّا أنه أنيس، لا سيما وهو مع هذا طبيب وسمير إلى القلوب حبيب.

فلما دخل في الوزارة وحمل أحمالها، وقلد أعمالها، وصار يطلب بالمال، ويلام بخيبة الآمال، سكت لسان دلعه، وتحقق بيان طلعه، ولزم حكم ما هم عليه، ولم يبق إلَّا ما ينسب إليهم [١٤٧] وإليه، فانقاد صعبه الأرَن، وذل أنفه الشامخ، وسلم خطامه إلى يد الممتهن، وذلك أيام السلطان خدابنده، ومواهبه بحار، وعطاياه في عطاياه بحار، ودام في مقالبة الأحوال، ومقابلة الأهوال إلى أن أعطى السلطان خدابنده دواءً مسهلاً في مرضةٍ مرضها، ونوبة رمي بها من يديه الحياة الدنيا ورفضها فلما جُرَّ عن سريره، ونقل إلى حفرة مصيره، وجد علي شاه سبيلاً إليه لم يخط مقتله، ولم يعد وقته المؤقت أجله، فحين قضى نحبه، وأخلى من الفضاء رحب، دس طبيبه المباشر لعلاجه والمثابر على تعرف أحوال مزاجه، فخرج وقد سود ثيابه، وعلا بكاءه وانتحابه حتى سمع ولده السلطان أبو سعيد بهادرخان الخبر، ورأى من تصنع ذلك الطبيب العبر، وكان غرًّا لم يتبصر بمكائد الأعداء، ولا يعرف مقدار ما يستشري من الداء، فجازت عليه خدع باطلة، واستحالت بخلائق باسلة، وأمر بأن يقتل هو وأولاده ويؤخذ طارف ماله وتالده، فأسرع علي شاه أمضى الأمر وأوقد بها حرارة في قلوب كثيرة لا يطفأ لها جمر[2].

---

(١) السجسج: المعتدل لا حر ولا برد. انظر: ابن منظور، لسان العرب: ٢/ ٢٩٥ مادة سجج.

(٢) النويري، نهاية الأرب: ٣٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

اشتغل رشيد الدولة في الطب، وفي علم الأوائل، وأسلم ومات أبوه على يهوديته، واتصل هو بقازان وخدابنده وعظم شأنه جداً وكثرت أمواله وصار في رتبة الملوك[1].

ولما طبب خدابنده فهلك، شغب عليه أحد الوزراء علي شاه فداري عن نفسه بقناطير من الذهب وجواهر، فيقال أخذ منه النائب جوبان ألف ألف مثقال، ثم قتلوه، وقتلوا ابنه قبله، ولما طلبوا إلى الخدمة قيل: أنت قتلت القان؟ قال: أنى يكون ذلك، وقد كنت عطاراً طبيباً خاملاً، فصيرني متصرفاً في الممالك، وحصلت الأموال العظيمة، فأُحضر الطبيب جلال الدين بن الحزّان وسألوه فقال: أفرطت الهيضة بالقان، فاجتمع الأطباء بحضور هذا ورأوا أن يعطوه مقبضاً، فقال الرشيد: عنده امتلاء، ويحتاج إلى تنقية فسقيناه مائه مسهلاً خارت منه قواه، فقال الرشيد: صدق؟ فقال جوبان: فأنت قتلته يا رشيد، وصوت علي شاه: يا سُلطاناه، فقتلوه وابنه إبراهيم ابن ست عشرة سنة، وطيف برأسه في نصف [ص١٤٨] جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وسر بمصرعه خلق، وتوجع آخرون، وفصلت أعضاؤه وبعث بكل عضو إلى بلد وأحرقت جثته[2].

وخلف عدة بنين وبنات، وعمائر فاخرة، وأموالاً غير منحصرة، وكان فيه حكم وتواضع، وسخاء وبذل للعلماء والصلحاء، وله رأي ودهاء ومروءة، وله تصانيف واهية أحرقت بعده، وقد فسر القرآن، وأدخل في ذلك فلسفة، وكان الشيخ تاج الدين أفضلي يذمه ويرميه بدين الأوائل فحلم عنه وصفح، وقيل: كان جيد الإسلام، وعاش بضعاً وسبعين سنة[3].

ومنهم:

٧٨ ـ علي شاه[4]:

وزير لا ينكر لخلقه، وهو الحسن، وقد أصلح الله [به] بين فئتين، ولا لفعله وهو

---

(١) الصفدي، أعيان العصر: ٤/ ٤١ ـ ٤٢.
(٢) الصفدي، أعيان العصر: ٤/ ٤٣.
(٣) الصفدي، أعيان العصر: ٤/ ٤٣.
(٤) الصفدي، أعيان العصر: ٣/ ٣٠٦، كرماني، نسائم الأسحار: ١١٦، خواندمير، دستور الوزراء: ٣٧٨، ابن حجر، الدرر الكامنة: ٣/ ٣٤، النويري، نهاية الأرب: ٣٣/ ٧٧.

الجميل إذ عم الجمعين، قام في الصلح بين الجانبين، وتكفل برضى المتجانبين، وأحسن كل الإحسان، وأراد الإحسان بين اثنين فعم كل إنسان، وذلك بعد تمادي مدد لم تضع فيها الحرب أوزارها، ولا أطفأت السيوف أوارها، ولا باتت فيها خيل ثغر على مرابط، ولا ليل ليس فيه لسرى الغارات خابط، عدد سنين شيبت الأطفال، وسبيت بالأجفال، وقطعت الأطراف، وهتمت الثغور، وأغلقت المعاقل، وأخافت الرعايا، وأنابت على الوجل، وبتت حبال الأمل، دعته إليها نية صالحة، وسريرة صحيحة، وهمة قادرة، وعزمة حاضرة، وفكرة في عواقب الأمور ناظرة، وبذل فيها ذخائر الأموال، ونفائس الجواهر، وسعى لها سعيها، وبذل لها فوق الجهد حتى استمر مريرها واستقر لا بغير تقديرها، فهذا الوساد وهَد ـ ولله الحمد ـ الفساد[1].

وحكى لي الخواجا الكبير السفير مجد الدين إسماعيل السلامي: أنَّ دمشق خواجا ابن جوبان، وهما في تلك الدولة من هما، والأكابر كلهم منهما، وأشرف الملوك من يقبل قدمهما، كان قد بدا منه من نزق الشبيبة ما فيه تنقص بالوزير علي شاه، فبلغ ذلك أباه جوبان، وحرمته في زمانه تقارب حرمه جنكيزخان، فعظم عليه ما فعله دمشق خواجا ابنه، وضاق به ذرعاً لما عنده من عظيم حرمة الوزارة، فأخذ ابنه وركبا إلى وطاق [١٤٩] الوزير فخرج إليهما وتلقاهما، فحلف جوبان أنه لا يجلس إلَّا بين يديه، ثم أخذ يعتذر لابنه، ويسأله الصفح والعفو، فلما انصرفا لام ابنه، وقال له: أنت مجنون بلا عقل ما تعرف المقادير من نحن حتى تتجرى على الوزير[2].

ومنهم:

٧٩ ـ محمد بن خواجا رشيد[3]:

فقام بأمر السلطان، وأشبه الملك فعُوذ من الشيطان، وساس البلاد فعمر الأوطان، وأفاض الكرم حتى ضرب الناس بأعطان، بلغ ما لم يبلغه وزير، ولم يسوغه

---

(١) كل ما سبق هو إشارة إلى سعيه في إصلاح العلاقات المغولية المملوكية زمن السلطان أبي سعيد والسلطان الناصر محمد بن قلاوون. انظر: الصفدي، أعيان العصر: ٢٠٦/٣.

(٢) هذه من الروايات التي انفرد به العمري ومصدره بها السلامي وهي رواية شفوية.

(٣) الصفدي، أعيان العصر: ٥٨/٥، الوافي بالوفيات: ٣٢٩/٤، ابن حجر، الدرر الكامنة: ١٣٥/٤ن خواندمير، دستور الوزراء: ٣٨٠.

إلَّا من هو للمؤمنين أمير، قاد الجيوش وليس غير الرماح أشطان، ومدَّ الأسباب وليس غير الليل والنهار خيطان.

ولي والسلطان أبو سعيد في غفلات لهوه، وغلبات زهوه، فاستقل بالأمور، واستقبل سُرور أيامه الجمهور، فحفظ الممالك وساسها، وحطم الأعداء وداسها، وحمى الأطراف، ورمى بكل شرارة كالطراف، والسلطان أبو سعيد تحت قفل عناقه، وبين خاتونه وأنياقه، مكباً على الذماء، ومنصباً إلى ما نصب الزق له من الدماء، لا ينطق لديه إلَّا ناي ووتر، ولا يسبق رأي إلَّا إلى وطر، واتفق له خلو الدست من جوبان وبنيه، وهم الشُّعلة التي كانت تتحامى والسهام التي كانت لا ترامى، فسرح في سوام الملك ورتع، وامتد له طالع النهار ومنع، وكان هو السلطان والمسمى أبو سعيد، والخليفة وإن لم يكن ابن زبيدة فإنه ابن الرشيد، وتجاوز قدره أمر الآلوس، وشمخ وانحطت رؤوس، وسارت وراءه العساكر، وحمد آراءه الشاكر[1].

وكان ممن قرأ العلم، ووقر بالحلم، ورقى وهو لا يفكر في سلم إلَّا لحرب، ولا في حرب إلَّا لسَلم، أو الداخل إلى الأندلس لما رضي من ذلك الجانب بما قسم، أو المعصوم المتحيز بأصحابه العشرة إلى الجبل لحصل الإجماع على أنه عصم، بل لو كان حصل لأخي بني سهم لأصاب من بالعراق ورامیه بذي سلم، أو صاحب الربا لبلغ مرامه ولم يخدع، له في غير بيته شمم.

وقطع المدة مع ملوك جانبنا على المداهنة، ودفع بالمواعيد عن الساعة الراهنة، ثم لم يزدد بعد موت سلطانه إذ ملك أرباكاؤن[2] إلَّا تسلطاً ولا قبض يده إلَّا مُتَبَسطاً، ولا أرهب إلَّا بالسيف لا بالسطا، ولا طلب أمراً فاغلق دونه بابه، ولا قيدت له خطا [١٥٠] ثم لم يكن بأعجل مما دهي وضربت عنقه، وهو غافل يلتهي[3] ولد في الإسلام ولما نكب والده وقتل، سلم هذا واشتغل مدة، وصحب أهل الخير، فلما توفي علي شاه الوزير، طلب أبو سعيد محمد هذا، وفوضَ إليه الوزارة، ومكَّنه ورد إليه مقاليد سائر الأمور، وحصل له من الارتقاء والملك ما لم يبلغه وزير في هذه الأزمان،

---

(١) الصفدي، أعيان العصر: ٥/ ٥٨.

(٢) رسمه ابن فضل الله بأكثر من صورة وقيده الصفدي: أَربَكَوون، انظر: أعيان العصر: ١/ ٤٤٧.

(٣) الصفدي، أعيان العصر: ٥/ ٦٠.

وكانت رتبته من نوع رتبة نظام الملك في وقته، وكان يتصرف في أمر التوامين تصرف القان يقرب منهم إلى الأردو من شاء، لا ينزل رسول إلَّا ببابه، ولا يثاب إلَّا بثوابه، ولا يرد إلَّا بكتابه، ولا يصدر إلَّا بجوابه(١).

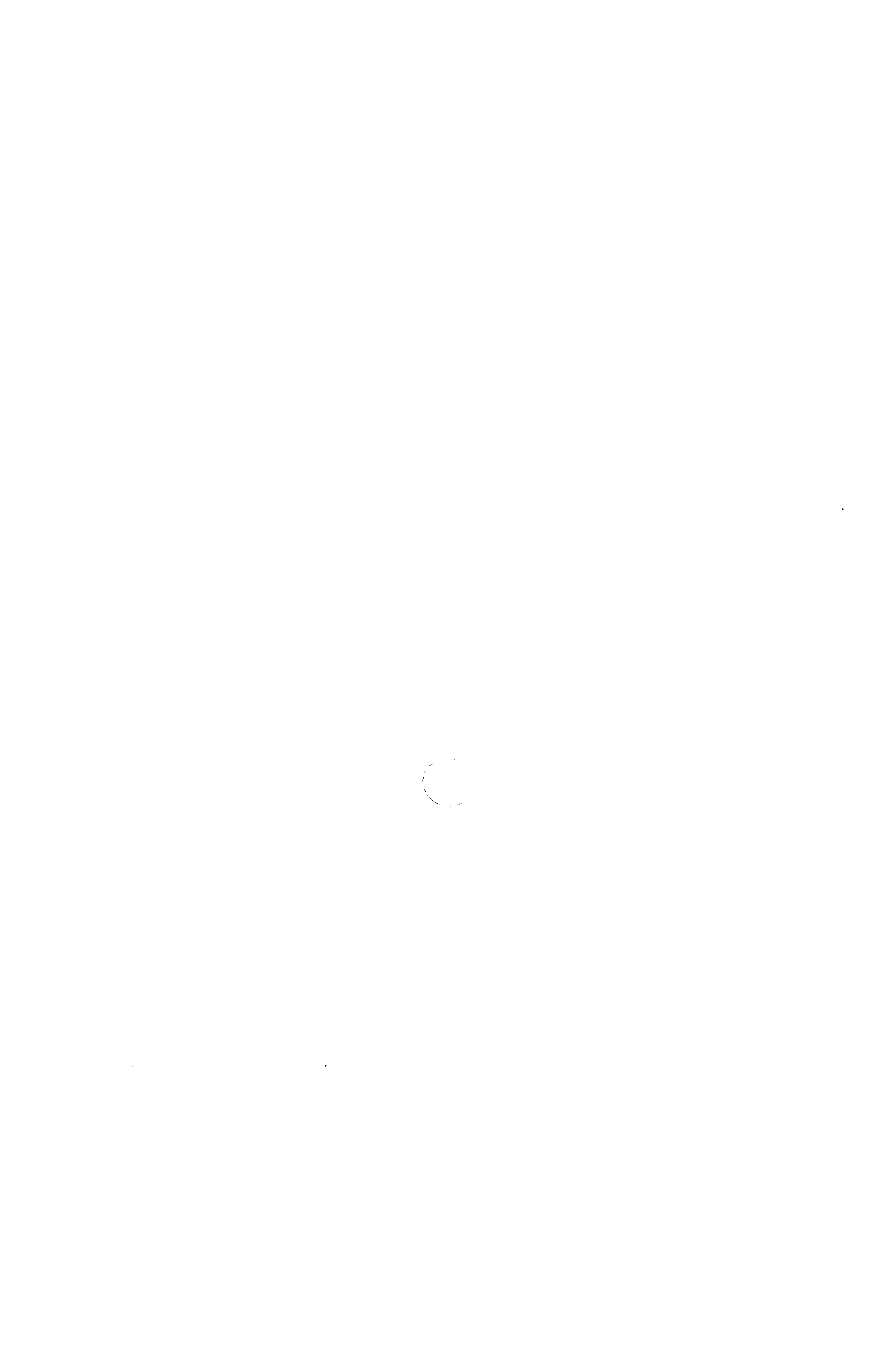
وكان من أجمل الناس صورة، وأمه تركية، وله عقل ودهاء، وغور مع ديانة، وحسن إسلام، وكرم وسؤدد، وخبرة بالأمور، وله آثار جميلة، خرب كنائس بغداد، ورد أمرَ المواريث إلى مذهب أبي حنيفة وغيره(٢).

وفي الجملة له ذنوب، ومع هذا فهو خيرٌ من وزراء وقتنا، وكان إليه تولية نواب الممالك وعزلهم، ولا يخالفه القان في شيء أبداً.

ولما احتضر القان أبو سعيد نهض الوزير محمد إلى شاب من بقايا النسل يقال له أرباخان فسلطنه، وأخذ له البيعة على الأمراء، واستوسق أمره، فخرج عليهم علي باشه، وابن بيدو، فانفلّ الجمع، وقتل أرباخان والوزير في رمضان سنة ست وثلاثين وسبعمائة(٣).

---

(١) الصفدي، أعيان العصر: ٥/ ٥٩.
(٢) الصفدي، أعيان العصر: ٥/ ٥٩.
(٣) الصفدي، أعيان العصر: ٥/ ٦٠.



وزراء
الدولة التركية في الشام



وأمَّا من نذكره من وزراء الدولة التركية بالشام فمنهم:

٨٠ ـ ابن مطروح، أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين، جمال الدين[١]:

وزير حَلَّ من الدولة محل العقود من الترائب، والعهود من السحائب حتى صار ذكره مسكاً في فم كل ناطقٍ، وملكاً لا يسمح به لكل المناطق. ولد بالصعيد ونشأ، وصاح الفريد وأنشأ، واعتنى بالأدب حتى اقتاد نوافره، واجتلى سوافره، وراض حتى الضرعامة الأسد فما سن أنيابه، ولا حدَّ أظفاره.

وكان هو وبهاء الدين زهير الكاتب رضيعي لبان، وخليعي عذار وعنان، وكانا يتنازعان المعاني كؤوساً دهاقاً، ويتسارعان إلى المعالي فيها لحاقاً، وكانا ربيبة نصرهما، وشغل أهل [١٥١] عصرهما وشعرهما دوس أهل ذلك الزمان، ودور ما كانت تتعاطاه الندمان، وبينهما من المراجعات ما يكفل للغشيان بأن لا يهجع، وبخل الزمان بمثله فآلى ألَّا يرجع.

خدم في الدواوين يخلع وظيفة ويلبس وظيفة، ويباشر رتبها خاضعة ومنيفة، اتصل بالخدمة الكاملية اتصالاً ظهر سعده في ابنه الصالح، وبهر مجده، وصاح به الصائح.

وولي وزارة الشام مدة كانت كأنها أحلام نائم، أو أوقات ولائم إلى أن فطن الدهر، وقد كان غفل، وآب تصرفه وكان قد قفل، فعزل وتعزلت الدنيا من أيامه الحسان، ورحل ومعه جملة الإحسان.

اتصل بخدمة الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لحال نيابته عن أبيه الكامل

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/ ٢/ ٧٨٨، أبو شامة، الذيل على الروضتين: ١٨٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٥٨، الذهبي، تاريخ الإسلام: وفيات [٦٤١ ـ ٦٥٠]، ص٤٣٣، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٢٧٣، ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ٥٤.

بالديار المصرية، ولما اتسعت مملكة الكامل بالبلاد الشرقية، فصار له آمد وحصن كيفا وحران والرها والرقة ورأس عين وسروج وما انضم إلى ذلك، سَيَّر إليها ابنه الصالح نائباً عنه سنة تسع وعشرين وستمائة، وكان ابن مطروح المذكور معه، ولم يزل يتنقل في تلك البلاد إلى أن وصل الصالح إلى مصر مالكاً لها سنة سبع وثلاثين[1].

ثم وصل ابن مطروح بعد ذلك إلى الديار المصرية في أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة، فرتبه السلطان ناظراً في الخزانة، ولم يزل يقرب منه، ويحظى عنده إلى أن ملك الصالح دمشق في الدفعة الثانية سنة ثلاث وأربعين، ورتب لدمشق نائباً، فكان ابن مطروح في صورة وزير لها، وحسنت حاله، وارتفعت منزلته[2].

ثم إن الصالح توجه إلى دمشق فوصلها في شعبان سنة ست وأربعين وجهز عسكراً إلى حمص لاستنقاذها من نواب الناصر يوسف، فسير ابن مطروح مع العسكر المتوجه إلى حمص، وأقام الصالح بدمشق إلى أن ينكشف له ما يكون من أمر حمص، فبلغه أن الفرنج اجتمعوا بجزيرة قبرص على قصد الديار المصرية فسير إلى عسكره المحاصرين لحمص، وأمرهم أن يتركوا ذلك القصد، ويعودوا فعاد بالعسكر وابن مطروح في الخدمة والملك الصالح متغير عليه، متنكر له لأمور نقمها وطرق الفرنج البلاد سنة سبع وأربعين، وملكوا دمياط، وخيم الصالح بعسكره على المنصورة، وابن مطروح [١٥٢] مواظب الخدمة مع الإعراض عنه[3].

ثم مات الصالح في نصف شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة، ووصل ابن مطروح إلى مصر، وأقام بداره إلى أن مات ليلة الأربعاء مستهل شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة، ومولده يوم الاثنين ثامن رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وكانت أدواته جميلة، وخلاله حميدة، جمع بين الفضل والمروءة، والأخلاق الرضية[4].

وله ديوان شعر[5]، فمن مختار شعره قوله من قصيدة يمدح بها الإمام المستنصر

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٥٩.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٥٩.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٥٩.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٦٠.

(٥) نشر ديوان شعره ملحقاً بديوان العباس بن الأحنف في مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٢٩٨هـ.

بالله أبا جعفر أمير المؤمنين[1]: [الكامل]

شرفاً بني العباس ما أبقيتم ... فخراً لمفتخر به يستنجح
لكم المقام ويثرب دون[2] الورى ... إرث ومكة والصفا والأبطح
أوليس جدكم الذي استسقى به ... عمر فجاد له الغمام الدلح[3]
لا يدَّعي هذي المناقب مُدَّعٍ ... فالبيت أملك والسجية أسجح
فوق السماء خيامهم مضروبة ... فلخيلهم مسرى هناك ومسرح
حيث النجوم تعد من حصبائها ... والبرق منها بالسنابك يقدح
أخليفة الله الرضى هل لي إلى ... بحبوحة الفردوس باب يفتح
حتى [أطوف[4]] بذلك الحرم الذي ... ما فاز إلَّا من به يتمسح
وأقوم أُنشد ما يكاد مبالغ[5] ... إن لم يطر[6] طرباً له يترنح[7]
هذا الذي نزل الكتاب بمدحه ... فبأي شيء بعد ذلك يمدح
هذا هو الملك الذي لا ينبغي[8] ... لسواك والشرف الذي لا يرجح
لا درَّ دري إن ونت بي همة ... عن قصد دار ظلها لا يمصح[9]
وإلى أمير المؤمنين زففتها[10] ... عذراء تنفر من سواه وتجنح[11]
محجوبة وحديثها بين الورى ... إنَّ الإناء بما وعاه ينضحُ
تسري الكواكب طالبات ثنائها[12] ... فتبيت في نهر[13] المجرة تسبح
حتى وصلت بها سرادق أبلج ... من وجهه سر النبوة يلمح[14]
من مبلغ قوماً بمصر تركتهم ... فرداً وأعينهم لعيني[15] تطمح

---

(1) ابن مطروح، الديوان: ١٧٢.

(2) في الديوان: بين.

(3) الدلح: السحاب كثير الماء. انظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ١٩٧ مادة دلح.

(4) إضافة من الديوان.

(5) في الديوان: الصفا.

(6) في الديوان: يسر.

(7) في الديوان: يتزحزح.

(8) في الديوان: يبتغي.

(9) في الديوان: يبرح.

(10) في الديوان: رفعتها.

(11) في الديوان: تجمع.

(12) في الديوان: شأوها.

(13) في الديوان: بحر.

(14) في الديوان: يشرح.

(15) في الديوان: لعودي.

ما نلت من شرف ومجد باذخٍ وعلا لها[1] فوق الكواكب مطرح [١٥٣]
فبذلك الشرف الذي أوتيته وبحسن منقلبي إذاً فليفرحوا
إني لأربح متجراً من معشرٍ أضحت بضائعهم تذال وتطرح
جلبوا الذي يفنى وينفد عاجلاً وطلبت[2] ما يبقى فمن هو أربح
الله حسبك يا ابن عم محمد فلسمط ذي اللآلئ تصلح
لا ثل عرش خلافة مذ حُطتها قرأت على أعدائها لن تفلحوا
إن الخلافة لم تكن إلّا لكم من آدم وهلم جرّا تصلح

وقوله يمدحه من أخرى[3]: [مجزوء الكامل]

عذلوا عليك فأكثروا لو أنني أتأثر
وتحيروا حتى روا ك تحيروا
بهتوا لُحسنِكَ وانثنى من كان يعذل يعذر
قل للعواذل طولوا إن شئتم أو تصبروا
لا أنتهي لا أنثني لا أرعوي لا أصبر
قالوا وقد نظروك بعـ ـد الشمس هذا أكبر
أغنيتني وسبيتني فأنا المقل المكثر
يا دهر لا تمدد إليَّ يداً فباعك أقصر
الله أكبر من كل ما أخشاه والمستنصر

وقوله يمدح الملك الكامل بن العادل من أبيات[4]: [الكامل]

إن الملوك بأسرهم خول له حاشا أبيه كلاهما سيان
صَان المعالي حيث كان لها أباً وكذا تكون حمية الغيران

وقوله يمدح الملك الأشرف بن العادل من أبيات[5]: [الكامل]

وافى وأقبل في الغلالة[6] ينثني فأزال حظ المُجتلي والمجتني

---

(١) في الديوان: وغدا بنا.
(٢) في الديوان: جلبت.
(٣) لم نعثر على القصيدة في ديوانه المطبوع.
(٤) ابن مطروح، الديوان: ١٧٥.
(٥) ابن مطروح، الديوان: ١٧٦.
(٦) في الديوان: الغلائل.

ورنا فما تغني التمائم والرقى | وأبيك من لحظات تلك الأعين
قل للعواذل في هواه [ألا انتهوا][1] | لا انتهي لا أرعوي لا أنثني
وبليتي من صائد لي نافرٍ | ومتى ينال الوصل من متلون
عهدي به ويدي مكان وشاحه | والوجد باقٍ والتصبر قد فني
وشدا بشعري فافتتنت ويا لها | من فتنة شنعاء لو لم أفتن
شعري ومحبوبي يغنيني به | وهناك تحسن صبوة المتدين
لا شيء يطرب سامعاً كحديثه | إلَّا الثناء على عُلا شاه أرمن
الأشرف الملك الكريم المجتبى | موسى ويمِّم بالكريم[2] المحسن
ملك إذا أنفقت عمرك كله | في نظرة من وجهه لم تغبن
[١٥٤] وإذا انتخبت له دعاءً صالحاً | لم تلق غير مشارك ومؤمِّن
يا أيها الملك الذي من فاته | نظر إليه[3] فما أراه بمؤمن
أفنيت خيلك والصوارم والقنا | وعُداك والأملاك فماذا تقتني
أبقت لك الذكر الجميل مخلداً | شيم لها الأملاك لم تتفطن
وشجاعة رجف العراق لذكرها | وتهامة وبلاد عبدالمؤمن
ولَّى الخوارزمي منها هارباً | وهلمَّ جرّا [قلبه[4]] لم يسكن
ما كان أشوقني للثم بنانه | ولقد ظفرت ببنانها فليُهنني
ودخلت من أبوابه في جنة | يا ليت قومي يعلمون بأنني
يا مكثري الدعوى اخفضوا أصواتكم | ما كل رافع صوته بمؤذِّن
يا من يحدث عنه في أقطارها | من كان في شك فليتيقن
ملك الملوك إليكها من ناظم | مترسلٍ متنوع متفنن
لا تخدعن بظاهر عن باطن | قد يظهر الإنسان ما لم يبطن
عاشت عداك ولا أشح عليهم | عمي النواظر عنك خرس الألسن

وقوله من أخرى يمدح الملك المسعود بن الكامل من أبيات[5]: [الطويل]

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من الديوان.
(٢) في الديوان: بالرحيم.
(٣) في الديوان: إليك.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الديوان.
(٥) ابن مطروح، الديوان: ١٧٩.

وإنـي عـلـى مـا فـيَّ مـن حـضـريـة ... لـيـعـجـبـنـي ظـل الـخـبـاء الـمـشـرع
ومـا أنـس لا أنـس الـمـلـيـحـة إذ بـدت ... دجـى فـأفـاق[1] الأفـق مـن كـل مـوضـع
فما شك طرفي في أنها الشمس أشرقت ... ولا أنـــنـــي أوتـــيـــت آيـــة يـــوشـــع
تـمـنـيـت مـنـهـا قـبـلـة فـتـمـنـعـت ... وجـادت بـوصـلٍ بـعـد طـول تـمـنـع
وعـانـقـتـهـا حـتـى تـنـاثـر عـقـدهـا ... ولـو رضـيـت قـلـدتـهـا[2] دُرَّ أدمـعـي
وقـالـت وعـقـد الـقـاف[3] منـهـا سجـيـة ... أقـم عـنـدنـا مـا شـئـت غـيـر مـروع
والـلَّـه أمـا أن يـكـون كـلامـهـا ... من السحر أو فالسحر خامر مسمعي

وقوله في ختان المغيث بن العادل من قصيدة[4]: [الوافر]

فـلـولا أنـه فـرض عـلـيـنـا ... لـمـا مـدت لـخـتـنـتـه يـدان
فـقـط الـشـمـع يـكـسـبـه ضـيـاءً ... وقـص[5] الـظـفـر أطـول لـلـبـنـان

وقوله يمدح الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر عند مسيره [155] إلى حلب سنة ثلاث وأربعين وستمائة[6]: [الرمل]

لا وعـيـنـيـك ويـكـفـي ذا الـقـسـم ... مـا رأت عـيـنـاي نـومـاً مـنـذ كـم
أيـهـا الـراقـد فـي لـذاتـه ... نـم هـنـيـئـاً إن عـيـنـي لـم تـنـم
ويـح قـلـبـي مـن هـوى مـسـتـهـترٍ[7] ... مـا رأى جـفـنـاً بـكـى إلَّا ابـتـسـم[8]
شـاهـدوا مـبـسـمـه مـع أدمـعـي ... وانـظـروا أيّ أقـاح وعـتـم[9]
قـمـرٌ تـم عـلـى عـشـاقـه ... كـل نـقـص[10] مـنـه لـمـا قـيـل تـم
أشـتـكـي سُـقـمـي إلـى أجـفـانـه ... ومـتـى يـشـفـى سـقـام بـسـقـم
بـذوي الـرأي إلَّا أنـه ... لا يـخـاف الـعـار فـي نـقـض الـذمـم
ربـمـا هَـمَّ بـلـثـمـي هـازئـاً ... فـإذا مـا مـسـتـه الـلـثـم الـتـثـم

---

(1) في الديوان: فأضاء.
(2) في الديوان: عوضتها.
(3) في الديوان: القول.
(4) ابن مطروح، الديوان: 181.
(5) في الديوان: وقط.
(6) ابن مطروح، الديوان: 174.
(7) في الديوان: مستهزئ.
(8) العجز في الديوان هكذا: ما رآني حنقاً ألا ابتسم.
(9) العتم: شجر الزيتون البري، الفيروز آبادي، القاموس المحيط: 1023 مادة عتم.
(10) في الديوان: كيد.

لا تــراه نــاســيــاً لــفــظــه لا كــصــلاح الــديــن لا يــنــســى نــعــم
عــجــبــي مــن قــلــم فــي كــفــه لــيــس يــمــضــي الــسـيـف إلَّا إن رسـم[1]
أنــتــم مــن مــعــشــر ذكــر الــنــدى عــنــدهــم حــتــى وإن كــانــوا رمــم
هــم جــبــال الــحــلــم إن أغــضــبــتــهــم فــإذا اســتــجــديــتــهــم كــانــوا ديــم
كــلــمــا مَــدَّ كــريــم راحــة أَخــرتــهــا لــلــعُــلا مــنــكــم قــدم
مــن يَــرُدُّ الــغــيــث إن قــيــل هــمــى؟ مــن يــصــدُّ الــلــيــث إن قــيــل هــجــم؟
مــلــك الــعــلــم تــراه أبــداً نــاشــراً مــن عــلــمــه أعــلــى عــلــم
حــارت الأفــكــار فــي وصــف فــتــىً عــلــوي الــعــلــم عــلــوي الــهــمــم
حــاولــوا الــقــســمــة فــي أمــوالــه ودعــوا عــلــيــاءه لــيــســت تــقــتــســم
يــا وزيــر الــدســت خــذهــا جــمــلــة فــإذا مــا فــصــلــت كــانــت حــلــم
وابــق لــلــســؤدد ســوراً لا دهــي وســواراً لــلــمــعــالــي لا انــفــصــم

وقوله من أخرى يمدح المظفر تقي الدين ويهنيه بملكه حماه[2]: [الطويل]

سـلا خـاطـري عـن زيـنـب ونـوار مـورد خَـدٌّ فـوق آس عـذار
وأَصبحت بـالـظبي الـمـمـنطق مغرماً ولا رأي لـي فـي عـشـق ذات سـوار
وإنـي عـلـى حـب الـعـذار ووصـفـه أعـف وإن قـالـوا خـلـيـع عـذار
سـكـرت بـكـأس[3] مـن بـديـع جـمـالـه ومـا حـب [كـأس][4] بـالـجـمـال بـعـار
وعـهـدي بـه يـجـلـو الـمـدامـة بـيـنـنـا ويـجـلـو الدجـى عـنـا بـشـمـس[5] عـقـار
سقـى وجنتيه الحسن والدمع وجنتي فـيـا وردتـيـه رحـمـة لـبـهـاري
وقـد خـيـر الـسـبـع الـدراري بـحـسـنـه فـمـا هـف إلَّا فـي هـواه جـواري[6]
ومـا عـاذلـي فـي هـجـر هـنـدٍ وزيـنـب وقـد لاح عـذري كـالـصـبـاح لـسـاري

---

(١) هذا البيت وما بعده ليس في الديوان.
(٢) ابن مطروح، الديوان: ٢٠٩.
(٣) في الديوان: وسكرى كأس.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الديوان.
(٥) في الديوان: بكأس.
(٦) هذا البيت ليس في الديوان.

أترضى بأن أمسي أسير أسيرة ... محصنة أو من وراء جدار

وما فضل ربّ الطيلسان إذا عدا ... يجوز عليه حكم ذات خمار[1]

أَخُو عَزَماتٍ لا جُفُونُ سُيوفهِ ... ولا جَفْنُهُ مستمتع بغرار

وتغضي له الأبصار ثم مهابة ... فتلقاه وهو الظاهر المتواري

وقوله عندما أراه الدار التي بناها بالقلعة، وكتبها على بعض نواحيها[2]: [مجزوء الكامل]

يا دار بالملك المظفر ... خيمت فيك السعادة

ملك غدت في كل جيد ... من صنائعه قلادة

الفضل طبع والسماح ... وراثة والخير عادة

شرف لعمر أبيك ما ... فيه احتمال للزيادة

وقوله في الطواشي صواب عندما أرسله إليه الكامل، وهو بحران[3]: [الطويل]

وَلَمَّا تيممناك قال رفاقنا ... إلى أين تبغي قلت خير جناب

وقلت لصحبي شرِّفوا نبلغ المنى ... فغير صواب قصد غير صواب

وقوله يمدح الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ[4]: [الكامل]

هي رامة فخذوا يمين الوادي ... وذروا السيوف تقرُّ في الأغماد

وحذار من لحظات أعين عينهم ... فلكم صرعن بها من الآساد

من كان منكم واثقاً بفؤاده ... فهناك ما أنا واثق بفؤادي

وأغنَّ مسكيّ اللمى معسوله ... لولا الرقيب بلغت منه مُرادي

ومن المنى لو دام لي فيه الضنى ... ليرق لي فأراه من عوادي

ومفند لي في هواه ومسمعي ... والعذل فيه كناظري ورقادي

ماتت يطيل الله عمرك سلوتي ... يا عاذلي فيه وضل رشادي

[١٥٧] أصبحت مالي في الصبابة مشبه ... وكذاك فخر الدين في الأجواد

---

(١) هذا البيت والأبيات التالية ليست في الديوان.

(٢) لم نعثر على القصيدة في ديوانه المطبوع.

(٣) ابن مطروح، الديوان: ١٨٣.

(٤) ابن مطروح، الديوان: ١٨٥.

ملك تملك بالشجاعة والندى ... قلب الخميس معاً وصدر النادي
لا آل برمك إن جرى ذكر الندى ... بلغوا مداه ولا بنو عباد
من معشر تروي العدا خبر العلا ... عنهم وتسنده إلى الحساد
أطواد أحلام غيوث مواهب[1] ... أقمار أندية ليوث جلاد
خيرتكم فوجدتكم خير الورى ... والتبر لا يخفى على النقاد
يا دهر لا تمدد لظلمي بعدها ... كفّاً فمالك طاقة بعنادي
أنا في حماية واحد لكنه ... وأبيك أغناني عن الأعداد
بقدومه قدم السرور[2] كأنما ... كانا فلا افترقا على ميعاد
واستبشرت مصر ومن فيها به ... بشر الثرى بحيا السحاب الغادي

وقوله يمدحه من أخرى[3]: [الطويل]

أخنساء ما قلب المتيم من صخر ... فيقوى على حمل الصبابة والهجر
رويداً لمضنًى فيك أما جفونه ... فغرقى وأما قلبه فعلى الجمر
وماذا الذي يجدي وسالمك الردى ... عليك تلافى في هواك وما تدري
وتكسر لي أجفانها عند ضمها ... فتجبر في ذلك الضم والكسر

وقوله يمدح الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللمطي من قصيدة[4]: [الكامل]

لم أنس ما قالت وقد لمست يدي ... ماذا لقينا منه أو ماذا لقي
خافت عواقب محبتي من أجلها ... فبكت لشمل دموعي المتفرق
ولكم لها من خلوة لي حلوة ... كعتابها كرضابها كتملقي

وقوله في حمّام عمره عماد الدين بن شيخ الشيوخ[5]: [السريع]

حمام مولانا وسيدنا ... شيخ الشيوخ صفا له العمر
تمت محاسنه فليس به ... للعيب لا عين ولا أثر

---

(١) في الديوان: مكارم.
(٢) في الديوان: البشير.
(٣) ابن مطروح، الديوان: ١٩٨.
(٤) ابن مطروح، الديوان: ١٩٩.
(٥) ابن مطروح، الديوان: ١٩١.

تزهو السماء بأن حوت قمراً وبكل ناحية به قمر
قالوا فصفها قلت مختصراً هي جنة وسراجها عمر

وقوله ارتجالاً يهنئ أولاد الشيخ ليلة العيد[1]: [الرمل]

آل حمويه ما أنصفكم من يهنيكم بشهر أو بعيد
[١٥٨] إنما الدهر حقيقاً عبدكم والموالي لا تهنى بالعبيد

وقوله حين صادف الصاحب معين الدين بن الشيخ عند قبر الإمام الشافعي[2]: [الكامل]

لله أي فضيلة أدركتها في خدمة المولى الوزير الناسك
عند الإمام الشافعي وجدته[3] فظفرت عند الشافعي بمالك

وكتب إلى صديق أهدى له كساءً[4]: [مجزوء الكامل]

مولاي عبدك واثق بكريم ودك والإخاء
فلذاك أرسل ما يليق من الهدية في الشتاء
أنت الخليل حقيقة فجمعت شملك بالكسائي

وقال يشكر بعض الأمراء، وقد أحسن إلى أهله في غيبته، ولم يمكنه الاجتماع به عند حضوره[5]: [المنسرح]

يا من أياديه قبل رؤيته راشت جناحي وطوقت عنقي
ما امتنع العبد أن يزوركم لكبرياء فيه ولا حمق
لكن لفرط السماح عندكم ألبسني جُملة من الفرق
ومن يرى السيل ثم يزحمه فاحكم عليه بسرعة الغرق

وقال ارتجالاً في مرض القاضي الأشرف بن الفاضل[6]: [مجزوء الرمل]

ليتني كنت فداءً لفتى عبدالرحيم
ذي المعالي والمعاني والكريم بن الكريم

---

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٢) ابن مطروح، الديوان، ١٩٢.
(٣) في الديوان: لقيته.
(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٥) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٦) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

ولئن أضحى عليلاً فاستمع قول عليم
داره الروضة حسناً وهو فيها كالنسيم

وكتب إلى من زاره احتجب عنه[1]: [مجزوء الكامل]

لا غرو أن حجب الأمير ووجهه بدر التمام
فالبدر من عاداته أن يختفي تحت الغمام
فليهنه إن كان قد زفت له الشمس المدام
وليبق محروس الرماح[2] معاً ومحروس النظام

وقال يشكر البهاء زهير[3]: [الطويل]

أقول [وقد توالى منك][4] برٌّ وخير لا برحت لكل خير
ألا لا تذكروا هرماً بجود فما هرم بأكرم من زهير

وكتب إليه يستهديه ورقاً[5]: [المنسرح]

أفلستُ يا سيدي من الورق فابعث بدرج كعرضك اليقق[6]
[١٥٩] وإن أتى بالمداد مقترناً فمرحباً بالخدود والحدق

وكتب إليه في المعنى[7]: [المتقارب]

ولم أر أعجب من كاتب يشاحح إخوانه في الورق
فأرسل به كبياض الثغو ر يحكى بمثل سواد الحدق

وكتب صدر كتاب إلى مختص الصالحي[8]: [البسيط]

أصدرتها والعوالي في الطلى ترد في موقف فيه ينسى الوالد الولد
وما نسيتك والأرواح سائلة على السيوف ونار الحرب تتقد

---

(١) ابن مطروح، الديوان: ١٩٣.
(٢) في الديوان: المزاج.
(٣) ابن مطروح، الديوان: ١٩٤.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الديوان.
(٥) ابن مطروح، الديوان: ١٩٥.
(٦) اليقق: المتناهي في البياض، انظر: ابن منظور، لسان العرب: ٣٨٧/١٠، مادة يقق.
(٧) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٨) ابن مطروح، الديوان: ١٩٦.

وكتب[1]: [الطويل]

أباعثها ملء المسامع حكمة قوافي تجلى كالعذارى العرائس
شوارد عن أذهان قوم شوارد أوانس تزري بالحسان الأوانس
مهذبة لجأت لنا من مهذب تذل له كل القوافي الشوامس
تعز على من رامها غير ربها وتطغى فما تعطي قياداً للامس
سداسية لو قال آتي بسابع لها ابن سليمان أتى بعد خامس[2]
ولو رامها حصن العريض وحابس لما ظفرا إلَّا بحصن وحابس[3]
وحاولت منها الراء والسين فاحتمت علىَّ بحامٍ ذي اقتدار وحارس[4]
حميت حماها ثم أغلقت بابها وحصنت منها كل بيت بفارس

وكتب إليه بعد ذلك من أبيات[5]: [الوافر]

أتاني من علاك بديع نظم كسمط الدُّرِّ في حسن اتِّساق
بيوت ستة شرفت محلاً على الست الجهات بلا اختلاق
ولو أنَّ السلافة مازجتها حلت بعد المرارة في المذاق
ولو كانت حصوراً أو بحوراً لأفتتها ملازمة العناق

وقال يهنئ بتشريف[6]: [الكامل]

بك أصبح التشريف يشرف قدره يا من به كل الملابس تشرف
كالبيت يكسى لا لرفع مزية لكنها سُنن وَرَسمٌ يُعرَفُ

وقال[7]: [الوافر]

[١٦٠] أرى قلبي يطير إليك شوقاً وما أنا من لقائك بالبعيدِ

---

(١) ابن مطروح، الديوان: ١٩٧.
(٢) البيت في الأصول مضطرب غير واضح الألفاظ لذلك اثبتنا رواية الديوان.
(٣) البيت ساقط من الديوان.
(٤) في الديوان: وحابس.
(٥) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٦) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٧) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

كذاك العيس أكثر ما تراها حوائم حين تدنو للورود

وقال[1]: [السريع]

يا يوم عاشوراء قد هيجت لي حزناً وكم أفرحت من مُلحد
كل قليل الدهن إن قدته بمحكم الأرسان لم ينقد
يأتيك كالفتية مكحولة عيناه مخضوب بنان اليد
يا ابن رسول الله من سره يومك فالويل له من غد

وقال[2]: [السريع]

قالوا الرشيديُّ على ما به من أُبنة رتب للشد
فقلت من أعجب شيء جرى عزلكم للسيف بالغمد

وقال[3]: [السريع]

لا سقيت دار ولا أهلها ولا ابن قاضيها الوقاح البذي
ولا رعى الله له ذمة أعني شهاب الدين ذاك الذي

وقال[4]: [مجزوء الرجز]

ودولة خالية من كل فن وأدب
الفاعل رأسها وهو كما تدري ذنب

وقال[5]: [مجزوء الكامل]

يا من تعصب للئام وظل بالكرماء يعبث
باللّه قل لي هل تعصب في الرجال سوى مخنث

وقال[6]: [مجزوء الرمل]

دخل الشيخ فلان في الدين بمره

---

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٢) ابن مطروح، الديوان: ٢٠٦.
(٣) ابن مطروح، الديوان: ٢٠٥.
(٤) البيت ليس في ديوانه المطبوع.
(٥) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٦) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

وتـعـاطـى الـزهـد جـداً		فـكـفـانـا الله شـره

وقال[1]: [الوافر]

اتـعـبـث حـيـن عـرضـك مـن زجـاج		عـذرتـك إن وجـهـك مـن حـديـد
ولـيـس بـمـنـكـر فـعـل قـبـيـح		أتـى مـن عـنـد شـيـطـان مـريـد

وقال في صباه يذكر الداوودي رئيس اليهود[2]: [الكامل المرفل]

أَأَبَـا الـبـيـان ومـا دعـا		ك إلـى الـتـحـكـك بـالأفـاعـي
سـر فـي الـوهـاد وخـلِّ قـو		مـاً سـيـرهـم فـوق الـيـفـاع
لا يـحـلـفـون بـنـابـح		مـا لـلـكـلاب ولـلـسـبـاع
قـسـمـاً لـئـن أحـوجـتـنـي		فـلأبـسـطـن يـدي وبـاعـي

وقال[3]: [الخفيف]

مـا اعـتـكـاف الـفـقـيـه مـن فـرط زهـد		بـحـكـم يـقـضـى بـه رمـضـان
هـو شـهـرٌ تـغـلُّ فـيـه الـشـيـاطـيـن		ولا شـك أنـه شـيـطـان

[١٦١] وقال[4]: [البسيط]

ولـيـلـة بـسـمـنـود شـقـيـت بـهـا		لا بـارك الله يـومـاً فـي سـمـنـود
بـاتـت بـراغـيـثـهـا تـعـدو عـلـى جـسـدي		فـلـم تـدع فـيـه عـرقـاً غـيـر مـفـصـود

وقال[5]: [البسيط]

إذا قـربـت مـع الـحـسـنـى إلـيـك أشـيـاء		فـذاك مـن شـؤم طـبـع فـيـه قـد حـدثـا
فـارفـضـه رفـض الـقـلـى واهـجـر مـودّتـه		هـجـراً بـجِـد[6] ولا تـسـتـعـمـل الـعـبـثـا
فـالـمـصـطـفـى وإلـيـه كـل مـعـجـزة		تُـرْوَى[7] وعـنـه الـهـدى والـصـدق قـد ورثـا

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع، والبيت الأول مكسور ضبطناه ليستوي الوزن والمعنى.
(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٥) ابن مطروح، الديوان: ٢٠٤.
(٦) في الديوان: بحق.
(٧) في الديوان: تردى.

قـد قـال صـلـى عـلـيـه الله فـي مـلأٍ ... ما طاب [مني][1] وللشيطان ما خَبثا

وكتب إلى ابن القوصي[2]: [مجزوء الرمل]

أيـهـا الـسـاحـب بـالـفـضـل ... عـلـى سـحـبـانَ ذيـلا

لـسـت بـالـمـجـنـون حـاشـاك ... فـلـم ذا زرت لـيـلـى

وقال[3]: [الطويل]

إذا مـا سـقـانـي ريـقـه وهـو بـاسـم ... «تـذكـرت مـا بـيـن الـعـذيـب وبـارق»

ويـذكـرنـي مـن قـده ومـدامـعـي ... «مـجـر عـوالـيـنـا ومـجـرى الـسـوابـق»

وقال في كتاب كتبه إلى أهله بالقاهرة[4]: [الوافر]

إذا فـكـرت فـي زمـن اجـتـمـاعـي ... بـكـم وذكـرت حـادثـة الـفـراق

وضـعـت يـدي عـلـى قـلـبـي احـترازاً ... مـخـافـة أن يـطـيـر مـن اشـتـيـاقـي

وقال[5]: [السريع]

يـا سـاكـنـي مـصـر أمـا عـنـدكـم ... مـن رحـمـة يـحـظـى بـهـا عـاشـق

لا تـتـهـمـونـي بـهـوى غـيـركـم ... كـل هـوى فـي غـيـركـم طـالـق

وقال[6]: [الكامل]

مـا زلـت مـرتـقـبـاً طـلـوعـك دائـمـاً ... والـنـجـم لـيـس بـمـنـكـر أن يـطـلـعـا

حـتـى أتـى عـنـك الـبـشـيـر فـيـالـهـا ... مـن مـنـة ويـد إلـيَّ بـهـا سـعـى

فـلـوَ اَن قـلـبـي فـي يـديَّ وهـبـتـه ... لـمـبـشـري وحـلـفـت أن لا يـرجـعـا

هـو فـي ركـابـك مـذ رحـلـت مـلازم ... فـلـي الـهـنـا بـمـالـكـي وبـه مـعـا

وقال في الآس أصفر[7]: [المنسرح]

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من الديوان.

(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع، وهي في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٦٣.

(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٥) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٦) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٧) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

أقبل يختال في غلائله | والسكر بادٍ على شمائله
وقد غدا ساحباً ذوائبه | قوموا انظروا الظبي في حبائله
وماس في حُلة معصفرة | يا من رأى الغصن في أصائله
أسأله رحمة فينهرني | ما عنده رحمة لسائله

[١٦٢] وقال في ملسوع[1]: [البسيط]

قالوا حبيبك ملسوع فقلت لهم | من عقرب الصدغ أو من حية الشعر
فقيل لا من أفاعي الأرض قلت لهم | من أين ترقى[2] أفاعي الأرض للقمر

وقال في صبي اسمه بدرون، وكان حاجباً[3]: [الطويل]

أيا حاجب الوالي فعلت بنا | لحاظك ما لم تستطعه القواضب
ترفق على قلبي لأنك حاجب | فأنت على عيني لأنك حاجب

وقال فيه[4]: [السريع]

ما ضرَّ بدرون عذار له | فالورد يسعى فوقه الأرقم
فخده لا شك ديباجة | وأحسن الديباج ما يرقم

وقال فيه[5]: [مجزوء الرمل]

لك يا بدرون وجه | حاز عنوان السعادة
لا تخف نقصاً ومحقاً | أنت بدر وزيادة

وقال في نصرانيّ[6]: [المتقارب]

من القبط علقته جؤذراً | حوى سحر بابل في جفنه
مضى نحو بيعته راجياً | حصول الثواب على ظنه

---

(١) ابن مطروح، الديوان: ٢٠٤.
(٢) في الديوان: تسعى.
(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٥) ابن مطروح، الديوان: ٢١٨.
(٦) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

يقرب لكن إلى مهجتي وقدس لكن على حسنه

وقال في ترجيح السمر[1]: [مجزوء الرمل]

أعشق البيض ولكن خاطري بالسمر أعلق
إن في البيض لمعنى غير أن السمر أرشق
وظلال الأيك عندي من هجير الشمس أوفق
وشذا العنبر والمسك من الكافور أعبق
وكذا التِّبْرُ من الفضة عند الناس أنفق
وإذا أنصفت فالإنصاف بالغافل أليق
فبديع الحسن يهوى كيف ما كان ويعشق

وقال في تفضيل البيض[2]: [مجزوء الرمل]

اسمعن نصحيَ يا من فيه للعشق بقيه
لا نحب البيض إلَّا مُؤْمِنٌ فيه تقيه
والتي جاء بها المختار بيضاء نقيه

وقال يتغزل في بدوي[3]: [الكامل]

علِّقته من آل يعرب لحظه أمضى وأفتك من لسان عُرَيْبِهِ
أسكنته في المنحنى من أضلعي شوقاً لبارق ثغره وعذيبه
[١٦٣] يا عائبي ذاك الفتور بعينه خلوه لي أنا قد رضيت بعيبه
لَدْنٌ وما مر النسيم بعطفه أرجٌ وما عبق العبير بجَيْبِهِ

وقال فيه أيضاً[4]: [مجزوء الرمل]

بات في أثناء صدري غصن نيط ببدر
بدوي نازل من شعره في بيت شعر

---

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

حامل نجداً وجوزاء منه ... في ردف وخصر
ما رنا واهتز إلَّا ... كان في بيض وسمر
وتعانقنا فما قولك ... في ماء وخمر
وتعاتبنا فقل ما شئت ... من غنج وسحر
ثم لما أدبر الليل ... وجاء الفجر يجري
قال إياك رقيبي بك ... يدري قلت يدري

وقال[١]: [الكامل]

قلبي عليك أرق من شعري ... أعْدَتْهُ منك نَحافةُ الخَصْرِ
أَوَلَا ترق لعاشق دنف ... حي الصبابة ميت الهجر
ما كنت أعلم قبل مقلته ... أن الجفون معادن السحر
يا بدر إن أنا مت فيك هوى ... لي أسوة الشهداء في بدر

وقال[٢]: [الكامل]

بأبي غزال تائه متصلف ... لانت معاطفه ولا يتعطف
حلو الشمائل والتثني واللمى ... من يجتلي من يجتني من يرشف
شاكي السلاح وما تكلف حمله ... اللحظ سيف والقوام مثقف
هجر الكرى جفني وواصل جفنه ... يا قوم حتى النوم لي يستضعف
وسرى إلى جسدي ضنا أجفانه ... لأنا ضنا جسدي أرق وألطف
لما بدا للغانيات وقد بدا ... من حسنه ما لا يحدُّ ويوصف
أشكو إليه وما عسى أن أشتكي ... هو بالذي ألقاه مني أعرف
ووحقه لم يبق فيَّ بقية ... ولقلما يلق الكئيب المدنف
وإذا سمعت بعاشق متعفف ... فاعلم بأني العاشق المتعفف

وقال[٣]: [الكامل]

---

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

ذكر الحمى فصبا وكان قد ارعوى ... صَبٌّ على عرش الغرام قد استوى
تجري مدامعه ويخفق قلبه ... فترى العقيق على الحقيقة واللوى
وأنا نذير العاشقين فمن يرد ... طول الحياة فلا يذوقن الهوى
قالوا أفيه سوى رشاقة قده ... وفتور عينيه وهل موتي سوى

وقال[1]: [البسيط]

بالله يا بانة الجرعاء والعلم ... هل الأحبة لي موفون بالذمم
أم قد تغير ما قد كنت أعهده ... منهم وإن كان ما بالعهد من قدم
وما نسيت فلا أنسى بها خلسا ... حلت ومرت مرور الطيف في الحلم
ومجلساً طلعت من كل ناحية ... منه بدور دياجيها[2] من اللمم
وراح يفتنني من بينهم صمم ... يا من رأى مسلماً يصبو إلى صمم
وحلوة فسقت فيها نواظرنا ... وإنما طهرتها عفة الشيم
هذا هو الحب لا إثم يدنسه ... أستغفر الله ما يخلو من اللمم
لما خلونا تعاقدنا يداً بيد ... على الوفاء وتعاهدنا فماً لفم
وكيف يجحد بعدما شهدت ... له غلالة خدٍّ ضرجت بدم
يا فارغ القلب قلبي منك في شغل ... يا نائم العين عيني فيك لم تنم

وقال[3]: [مجزوء الكامل]

يا قلب جاءك من تحبه ... وحنا عليك ورقَّ قلبه
أرضى وزاد على الرضى ... فخشيت من أغراه ربه

وقال[4]: [الطويل]

أحبابنا ذاك الغرام بحاله ... وإن لم يكن قد زاد شيئاً فما نقص
أقصُّ عليكم من حديثي عجائباً ... فإن شئتم أسمعتكم أحسن القصص

---

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٢) الدجى: سواد الليل مع غيم. انظر: ابن منظور، لسان العرب: ١٤/٢٤٩ مادة دجا.

(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

وقال من أبيات[1]: [الكامل]

فـي كـل مـتـن حـيـة مـن شـعـره ... وبـكـل خـدٍّ مـن عـذار أرقـم
مـن كـل رام حـاجـبـاه قـسـيـه ... وعـلـى الـقـيـاس فـمـقـلـتـاه أسـهـم

وقال[2]: [البسيط]

قـالـوا الـشـبـاب جـنـون والـمـشـيـب نـهـىً ... فـقـلـت والـقـول مـنـي غـيـر مـردود
[١٦٥] الـحـق قـلـتـم ولـكـن مـا يـفـيـدكـم ... مـزيـة الـحـلـم عـنـد الـغـادة الـرود
فـيـا وقـار مـشـيـبـي لـسـت مـن أربـي ... ويـا رعـونـة أيـام الـصـبـا عـودي

وقال من أبيات[3]: [الطويل]

أعـلـل طـرفـي عـنـك بـالـبـدر طـالـعـاً ... وبـالـظـبـي وسـنـانـاً وبـالـغـصـن يـانـعـا
أفـي كـلِّ يـوم لـلـتـفـرق واقـف ... يـرى عـنـده لـلـعـاشـقـيـن مـصـارعـا
كـأن الـنـوى يـبـغـي ذحـولاً قـديـمـة ... إلـيَّ وإلَّا يـقـتـضـيـنـي ودائـعـا
وقـفـت أحـلـي الأرض مـن داء أدمـعـي ... فـجـاء الـعـذارى يـلـتـقـطـن الـمـدامـعـا
يـغـرن عـلـى الـلـيـالـي لأنـهـا بـقـيـة ... مـا أودعـن مـنـي الـمـسـامـعـا
ومـا كـان ذاك الـقـرب إلَّا لـدى الـنـوى ... فـيـا لـيـت أن الـدسـت أصـبـح مـانـعـا

وقال من قصيدة[4]: [البسيط]

أضـحـى مُـعَـنًّـى وأمـسـى والـهـاً قـلـقـا ... وراح مـصـطـبـحـاً بـالـدمـع مـغـتـبـقـا
إن فـاض سـيـل فـقـل أجـفـانـه ذرفـت ... أو لاح بـرق فـقـل قـلـب لـه خـفـقـا
فـيـا طـلـوعـي لـقـد أشـعـرتـنـي لـهـبـاً ... ويـا دمـوعـي لـقـد أنـذرتـنـي الـفـرقـا
هـذا حـديـثـي عـن يـقـيـنـي وذا خـبـري ... بـالله مـن كـان مـثـلـي فـلـيـقـل صـدقـا
اسـتـودع الله مـن ودعـتـه يـومـاً ... وقـد يـشـرب مـنـي قـلـبـه حـنـقـا
وكـم شـرقـت بـدمـعـي عـنـد ذكـرهـم ... مـن يـشـرب الـدمـع مـعـذوراً إذا شـرقـا

---

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

وقال في أرمد[1]: [الطويل]

رقت كل عين عين مالكي الشكوى وقيل عيون الناس عيني ومن يهوى

ويا رب عجل بالشفاء لمقلة تغض عن الفحشاء في السر والنجوى

وما الرمد العادي عليها بمبتغ أذاها ولكن قصده شرف المأوى

فهلّا نهاه الحاجبان فطالما نهى الحاجب الجافي فهل قبل الرشوى

وكم أرى أندى منك عيناً لسائل لكل أخي قصد لدرك الذي يهوى

ومشترك الألفاظ في العين غيرة إلى أن غدا يستمطر في الجدوى

وقال[2]: [الطويل]

أما وقدود الشمس غير الذوابل ولكنها ما ماس تحت الغلائل

[١٦٦] وسود عيون لو لقيت بها العدى اثنيتهم عن بيض المناصل

لقد راعني للمالكية منزلٌ غدا مقفراً من أهله غير آهل

وقفت به والدمع حار مسائلاً فلم أر في أطلاله غير سائل

وقال[3]: [السريع]

يا ساقي الراح ووجدي به أورث لوني صفرة زائده

إرث لحالي في الهوى واسقني من كل كأس جرعة واحده

وكتب إلى الأمير فخر الدين بن الشيخ في يوم مطير[4]: [مجزوء الرمل]

لا تدع يومك هـ ـذا عاطلاً بالله يذهب

وأدر فيه كؤوساً من مدام تتلهب

حشها شقراء ما دا م أديم اليوم أشهب

فلجين الكأس لا يعجب إلّا وهو مذهب

وانهب العيش فقد أفلح من للعيش ينهب

وكتب إليه[5]: [الرمل]

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٥) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

مـا تـرى الـروض ومـا أحـسـنـه
مـزنـة تـبـكـي وروض[1] يـضـحـك

فـهـي أرواح الـنـدامـى والـتـي
مـن كـل زق تـسـفـك

وقال من أبيات[2]: [الطويل]

خذوا حذركم من طرفها فهو ساحر[3]
فـليس بـنـاج مـن دعـتـه الـمـحـاجـر

فـإن الـعـيـون الـسـود وهـي فـواتـر
تـقـدُّ الـسـيـوف الـبـيـض وهـي بـواتـر

ولا تـخـدعـوا مـن رقـة فـي حـديـثـهـا[4]
فـإن الـحـمـيَّـا لـلـعـقـول تـخـامـر

من الـقـاصـرات الـطـرف غـارت لـحـسـنـهـا
ضـرائـرهـا والـنـيـرات ضـرائـر

بـعـيـدة مـا بـيـن الـمـخـلـخـل والـطـلا
تـرى الـطـرف عـنـهـا يـنـثـنـي وهـو حـاسـر

إذا مـا اشـتـهـى الـخـال أخـبـار قـرطـهـا
فـيـا طـيـب مـا تـمـلـي عـلـيـه الـضـفـائـر

وقال[5]: [مجزوء الكامل]

لـم أنـس لـيـلـة زارنـي
والـلـيـل مـمـدود الـجـنـاح

فـي لـيـلـة قـصـرت فـكـان
عـشـاؤهـا بـيـد الـصـبـاح

لـم الـتـفـت لـلـقـائـه
حـتـى تـلـفـت لـلـرواح

لـو كـنـت حـاضـرنـا رأيـ
ـت فـنـون جـدٍّ فـي مـزاح

ورأيـت سـلـطـان الـغـرام
أسـيـر سـلـطـان الـمـلاح

[١٦٧] خـوفـت فـيـه مـن الـفـضـيـحـة
مـا الـهـوى لـولا افـتـضـاحـي

تـنـهـى الـلـواحـي عـن هـواه
ولا كـرامـة لـلـواحـي

وقال[6]: [السريع]

بـنـتـم فـصـبـري بـعـدكـم مـعـوز
وسـلـوتـي لـيـس إلـيـهـا سـبـيـل

ويـا جـفـونـي أيـن أيـن الـكـرى
ويـا فـؤادي أيـن صـبـري الـجـمـيـل

---

(١) في الأصل: الرِّضُ: وهو القطر من المطر الصغار. انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ٥٧٨ مادة رضض وصوبناها ليستقيم الوزن والمعنى.
(٢) ابن مطروح، الديوان: ١٩٧.
(٣) في الديوان: ساهر.
(٤) في الديوان: من كلامها.
(٥) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٦) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

وقال[1]: [الوافر]

فمذ فارقته كرها وأعوز بأن أفارق عن فواني
فطرفي والكرى طرفا نقيضٍ ودمعي والحيا فرسا رهان

وقال من أبيات[2]: [الطويل]

حذار سيوف الهند من أعين الترك فما شهرت إلَّا لتؤذن بالفتك
ورب غزال بات منهم مضاجعي وقد عبقت منه المضاجع بالمسك

وقال[3]: [الكامل]

يا من لبست عليه أثواب الضنا صُفْراً موشَّعة بحُمْرِ الأدمعِ
أدرك بقية مهجة لو لم تذب شوقاً إليك نفيتها عن أضلعي

وقال[4]: [الوافر]

قتلت الخلق يا ملك الملاح وليس عليك فيهم من جناح
بذابل ناظرٍ وحسام لحظ أما أتعبت من حمل السلاح

وقال[5]: [الكامل]

عانقته فسكرت من طيب الشذا غصن رطيب بالنسيم قد اغتذا
نشوان ما شرب المدام وإنما أضحى بخمر رضابه متنبِّذا
كتب الجمال على صحيفة خده يا حسنه لا بأس أن يتعوذا
يا ناظري اهنأ وقد شاهدته والله لا رمداً تخاف ولا قذا
مهما اكتحلت بخده وعذاره لم تلق إلَّا عسجداً وزمرذا
أضحى الجمال بأسره في أسره فلأجل ذاك على القلوب استحوذا

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٥) ابن مطروح، الديوان: ٢٠٣.

وأتى العذول يلومني من بعد ما أخذ الغرام عليَّ فيه مآخذا
[١٦٨] لا انتهي لا أرعوي لا أنثني عن حبه فليهذ فيه من هذا
إني ليعجبني تلافي في الهوى ويلذ لي ما قد لقيت من الأذى
والله لا خطر السلوُّ بخاطري ما دمت في قيد الحياة ولا إذا
إن عشت عشت على هواه وإن أمت وجداً به وصبابةً يا حبذا

وقال من أبيات أولها[1]: هزوا القدود واطرحوا سمر القنا [الكامل]

شبهته بالبدر قال ظلمتني يا عاشقي والله ظلماً بيِّنا
البدر ينقص والكمال لطلعتي فلذاك قد أصبحت منه أحسنا

وقال[2]: [الوافر]

بحقك حدّث الأحباب عني وشافههم بما شاهدت مني
وقل لهم لقد خلفت يحيى يموت جوىً ويحيى بالتمني
وكم أشكو إلى من ليس يرثي ولا يلوي على فرحي وحزني
عذولي لا أسميه حبيباً أميل إليه وهو يميل عني
جفاءً قلًى وإعراضاً وقيداً هوانا بالهوى كم ذا التجني

وقال من أبيات[3]: [المتقارب]

خذوا قودي من أسير الكلل فيا عجباً لأسير قتل
وقولوا عليَّ إذا نحتم طعين القدود جريح المقل
وبي قمر ما بدا في الدجى وأبصره البدر إلَّا أفل
وقد أخجل الشمس من حسنه ألم تر فيها اصفرار الخجل
وقد عدل الحسن في خلقه[4] على أنه جار لما عدل
فعمَّ معاطفه بالنشاط وخصَّ روادفه بالكسل

(١) ابن مطروح، الديوان: ٢٠٨.
(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٣) ابن مطروح، الديوان: ٢١٧.
(٤) في الديوان: حكمه.

أحـنُّ إلـى الـغـور مـن خـصـره ... وأصـبـو إلـى نـجـد ذاك الـكـفـل
وجـاد الـزمـان بـه لـيـلـة ... وعـمَّـا جـرى بـيـنـنـا لا تـسـل
فـأنـحـلـت قـامـتـه بـالـعـنـاق ... وأذبـلـت مـرشـفـه بـالـقـبـل

وقال من أخرى: [المتقارب]

[١٦٩] وكم تُهت في غور خصرٍ له ... وأصـبـو[1] إلـى نـجـد ذاك الـكـفـل
وأذنـت حـيـن تـجـلـى الـصـبـاح[2] ... بـحـي عـلـى خـيـر هـذا الـعـمـل
وقـد عـلـم الـنـاس أنـي امـرؤ ... أحـبُّ الـغـزال وأهـوى الـغـزل
وهـا أثـر الـمـسـك فـي راحـتـي ... وهـاك فـمـي فـيـه طـعـم الـعـسـل

وقال من أخرى[3]: [مجزوء الكامل]

أَنَـظَـرْتَ أم فـوَّقْـتَ سـهـمـا ... فـلـقـد أصَـبْـتَ الـقـلـبَ لَـمّـا
لا يـا مـعـذب مـهـجـتـي ... والله مـا أخـرمـت خـرمـا
يـا عـاذلـي وأخـو الـصـبـابـة ... لا بُـلِـيـتَ أصـم أعـمـى
لـو كـنـت ثَـالِـثَـنـا وقـد ... زار الـحـبـيـب عـجـبـت مـمـا
وبـدا الـحـيـاء بـخـده ... حـتـى خـشـيـت عـلـيـه يـدمـى
ووددت مـن شـغـف أن ... عـطـفـه الـمـمـشـوق ضـمـا
ولـو اسـتـطـعـت جـعـلـت مـن ... لـثـمـي عـلـى شـفـتـيـه خـتـمـا
بـل لـو قـدرت أكـلـتـه ... وشـربـتـه عـضـاً ولـثـمـا
ولـربـمـا عـاطـيـتـه راحـاً ... تـفـوق سـنـاً وشـمـا
كـانـت تـضـيء كـأنـمـا ... أَوْ دَعْـتَ مـنـهـا الـكـأس نـجـمـا

وقال[4]: [المتقارب]

وقـال الـعـواذلُ قَـدْ شـانَـهُ ... عِـذارٌ أراحَـكَ مـن صَـدِّهِ

---

(١) في الديوان: وأشرفت.

(٢) في الديوان: وأذنت من فوق ذاك الكثيب.

(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

فقلت وهمتم فإنِّيْ الذي خلعت العذار على خده

وقال من أبيات[1]: [الطويل]

تعشقته حلو الشمائل واللمى فريد صفات الحسن أجيد أغيدا
رأيت بخديه بياضاً وحمرة فقلت لي البشرى اجتماع تولدا

وقال[2]: [الطويل]

لك العمر ماتت سلوتي ورقادي ويهنيك عاشت صبوتي وسهادي
وشنع أني قد سلوت معاشر نعم صدقوا لكن سلوت فؤادي

وقال من أبيات[3]: [السريع]

[١٧٠] أما تخاف الله فيمن يرى حبك توحيداً وإيمانا
يا من حوى الرقة في خصره إرثِ لصبٍّ فيك حرانا

وقال[4]: [السريع]

من عجب الدنيا وما تنتهي عجائب الدنيا وما تنقضي
تغاير الورد على خده فامتزج الأحمر بالأبيض

وقال[5]: [الطويل]

ألا لا أرى فيمن أرى من أحبه كأن لم تضق إلّا به رَحْبَةُ الأرض
وحلو اللمى غض الشباب قشيبه فيا من رأى حلوًا يقال له غض

وقال[6]: [الطويل]

دنوت وقد أبدى الكرى منه ما أبدى وقَبَّلْتُه في الخد تسعين أو إحدى
وأبصرت في خديه ماءً وخضرةً فما أملح المرعى وما أعذب الوردا

---

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٥) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٦) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

وقال[١]: [الطويل]

ولما جفاني من أحب وخانني ... حفظت له الود الذي كان ضيّعا

ولو شئت جازيت التجني بمثله ... ولكنني أبقيت للصلح موضعا

وقد كان حسن العهد بيني وبينه ... أكيداً ولكني رعيت وما رعى

سعى بيننا الواشي ففرَّق بيننا ... لك الذنب يا من خانني لا لمن سعى

وقال في ضوء البدر على البركة[٢]: [السريع]

انظر إلى البركة مملوءة ... والبدر في أحشائها يلعب

كأنها مرآته فاغتدى ... لما رأى صورته يطرب

وقال في النوفر[٣]: [مجزوء المنسرح]

كأنما النوفر الغض ... غب قطر السحاب

أنامل العيد ضمت ... فيها بقايا خطاب

وقال في النرجس[٤]: [المنسرح]

كأنما النرجس الذكي وقد ... باتت تغذيه درها السحب

جواهر في رؤوسها ذهب ... يحملها من زمرد قضب

وقال في ناعورة[٥]: [الرجز]

[١٧١]ناعورة بالري أضحت كافلة ... لتربة عنها الغوادي غافلة

كأنها طالعة وآفلة ... وحوش قفر من ضوارٍ حافلة

فارغة طوراً وطوراً حافلة ... لها حنين كرغاء القافلة

وقال في يوم مثلج[٦]: [الكامل]

انظر ترى وجه البسيطة أبيضا ... لم تبد فيه شامة سوداء

---

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٤) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٥) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

(٦) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

كرم السحاب فعم بالثلج الثرى إن الكريم له اليد البيضاء

وقال وكتبه في سيف[1]: [مجزوء الرمل]

الأماني والمنايا بين حدي ومتني
يفني الأعداء فتكي ويروق العين حسني
فتأمل هل ترى فيـ ـما ترى أعجب مني
لم يذق جفني غراري وغراري ملء جفني

وقال في فرس أدهم[2]: [الرجز]

ومشرف الهادي رحيب الصدر يمشي على مثل طوال السُّمر
أدهم يزري بالدجى والحبر ذعره قام مقام البدر
فهو على ضوء سناها يسري

وقال يستهدي قصب سكر من فخر القضاة[3]: [الرمل]

نحن من ذكراك في طرب ولها من دأبها طرب
فعسى يهدي لنا قصبا فقديماً أطرب القصب

وقال وقد أهدته من يحب ورداً ونرجساً[4]: [الكامل]

بعثت بنرجسة إليَّ ووردة ففهمت أفديها حقيقة قصدها
لما تعذرت الزيارة أرسلت بشبيه ناظرها إليَّ وخدها

وقال في هدية التفاح[5]: [الطويل]

وتفاحة جاءت لنا هدية فيا حبذا المُهدى ويا حبذا المهدي
وما ضره والغصن يشبه قده وأفديه لو حيّا بتفاحة الخد

وقال[6]: [السريع]

---

(١) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٢) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٣) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٤) ابن مطروح، الديوان: ٢٠٣.
(٥) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.
(٦) الأبيات ليست في ديوانه المطبوع.

مــولاي قــد أرســلــت تــفــاحــة أودعــتــهــا ســرّاً وقــبــلــتــهــا
لــمــا خــلــت خــدك فــي لــونــه هــمــت بــهــا عــجــبــاً ونــقــطــتــهــا

ومنهم:

٨١ ـ ابن وداعة، عزالدين[١]:

وزير فاتك وأمير [١٧٢] باتك، ولي الوزارة فلبس لبيسة الناسك، وجلس جلسة المتماسك، شمخ به العجب كأنه بذوائب الجوزاء ماسك، ونفخ فيه الحمق، وقال له: إياك أن تتطامن فتطأ أم رأسك.

وكان على هذا لا يدع زي الفقراء، ولا يظهر عليه زي الوزراء، مداوماً على هذا غير متكثر ولا يحبر في لباس متكبر، وهو لا يرى السماء إلَّا بمؤخر طرفه، ولا النجوم إلَّا ما سقط من خروق كفه، وفي هذا قال السامري من أرجوزته.

وحكى أنه كان يظهر التشيع، ويبطن[٢] اعتقاد النصيرية، وكان عقله يملك فلتات لسانه، فما ظهر عليه أحد في اعتقاده إلَّا أنه طال جلوسه يوماً في مجلس خدرت فيه رجله فلما أراد القيام اتكأ بيده على الأرض ليقوم ثم قال: يا علي، يا عظيم، ثم قام وكان في المجلس رجل من العلماء المتكلمين، فقال لهم: نصيريٌّ والله، فسمعها ابن وداعة ملء صماخيه، ففار دم وجهه وانصرف، ولم يتكلم ثم لم تسمع منه بعدها أبداً.

قلت: ولعل هذا كان الجامع [بينه][٣] وبين أحد شيوخنا في الأدب كاتبه علي بن المظفر الكندي فإنه هو الذي جذب بضبعه وأسدى إليه يد معروفه وجذبه إليه، واستكتبه بين يديه، ولزمه حتى فرق بينهما الموت المشتت، وقطع حبال صحبتهما الدهر المبتت، وفي صحبتهما الطويلة يقول الكندي: [مجزوء الكامل]

ولــقــد صــحــبــت الــصــاحــب ابــن وداعــة دهــراً طــويــلا

---

(١) اسمه عبدالعزيز بن منصور، وانظر أخباره: اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٢/ ٣٩٠، الصقاعي، تالي كتاب الوفيات: ١٠٠، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٦٦١ ـ ٦٧٠]، ص ٢٢٥، النويري، نهاية الأرب: ٣٠/ ١٥٥، ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ٣٧٠، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٨/ ٥٦٢.

(٢) في الأصل: ويبطل، والصواب ما أثبتناه.

(٣) إضافة يقتضيها السياق.

فــرأيــت مـــنـــه مـــا رأى أنـــس وقـــد صـحــب الـرســـولا

وحكى لي والدي رحمه الله قال: كان الصاحب ابن وداعة يلازم الصلوات المكتوبات في الجامع الأموي، وكانت داره جوار الدار الفاضلية بحضرة باب الجامع، وكان يصرف في كل يوم ديناراً بدراهم خفاف يتصدق بها في مروره إلى الجامع إذا ذهب إلى الصلاة، فإن عاقه عائق عن الصلاة في الجامع يوماً من الأيام تصدق في اليوم الثاني عنه وقضى الفائت لا يخلُّ بهذا أبداً.

وحكي أن الملك الظاهر لما ملك وولاه الوزارة وقع بينه وبين نائب الشام جمال الدين النَّجيبي، فكان يهينه ويسمعه كلاماً يتعلق بالرفض، فكتب ابن وداعة إلى السلطان يطلب منه مشداً تركياً، وظن أنه يكون في تصريفه ويستريح من النجيبي، فرتب له السلطان عزالدين الشُّقَيري [١٧٣] فوقع بينه وبين الشقيري، وبقي يهينه أيضاً، ثم كاتب فيه الشقيري، فجاء الأمر بمصادرته فصودر، وعصره الشقيري وضربه وعلقه في قاعة الشد، وباع أملاكه التي وقفها، وحمل شيئاً كثيراً، ثم حمل إلى مصر فمرض ودخل القاهرة مثقلاً، ثم مات في آخر سنة ست وستين وستمائة، ولم يعقب، وله أوقاف ومسجد وتربة بقاسيون، وكان المحدث علاء الدين الكندي صاحب التذكرة يكتب بين يديه فنُسب إليه[١].

ومنهم:

٨٢ ـ الصاحب محيي الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم الأسدي الحلبي الحنفي عُرف بابن النحاس[٢]:

نشأ على القراءة والطلب حتى أقر على القضاة بحلب، وهو ممن يعد في بيوتها ويزداد في ثبوتها، وكان من أعلامها الشوامخ وقدماء أهل أقدامها الرواسخ، ثم أتى دمشق وأقام بها متديراً وفي رتبها متخيراً، حتى جد مطارق الوزارة ووقع له من الملوك بالإشارة، وحل في الدست محل الصدر من الجوانح، والبدر من الليالي الكوالح، وسلك من الأمانة سبيلاً جهلت بعده مناسكها وأضحى به عيناً وقد كان يمشي وما له أثر.

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩٢.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٥/ ٢٢٤، النويري، نهاية الأرب: ٣١/ ٣٢٧، النعيمي، الدارس: ١/ ٥٢٤.

ولد في شوال سنة أربع عشرة وستمائة بحلب وتفقه بها وسمع الحديث بعدة بلاد، ودخل بغداد سنة اثنتين وأربعين، وجالس بها العلماء وناظر وتكلم وبان فضله، وكان صدراً معظماً جليلاً وجيهاً إماماً فقيهاً عارفاً بالمذهب وغوامضه، علّامة في فنون المتفاضل، متبحراً في علم الخلاف والمناظرة، موصوفاً بالإنصاف في البحث[1]، وولي قضاء الحنفية بحلب في الدولة الظاهرية، وكان صدر أصحاب أبي حنيفة في زمانه وانتهت إليه رئاسة المذهب بدمشق، ودرّس بدمشق بالمدرسة الريحانية والظاهرية، وكان يحب الحديث والسنة ويعظم السلف. وكان يقول: أنا على مذهب أبي حنيفة في الفروع، وعلى المذهب الأحمدي في الأصول. ـ أعني أحمد بن حنبل ـ[2]، وحج سنة خمس وأربعين مع بني عمته واستوطن دمشق وحج ثانية سنة خمس وسبعين من دمشق، فَولي إمرة الحاج فساس الركب أحسن سياسة وحمدت إمرته وولي الوزارة في عاشر جمادى الأولى سنة أربع وثمانين.

وكتب له تقليد عن المنصور قلاوون من إنشاء تاج الدين ابن الأثير[3]، فمنه: الحمد لله على كل نعمة يؤتيها ورتبة يوليها وسيادة يربيها وسعادة يرتبها محيي دست الوزارة بمحيي علوم الدين في الدنيا ومجبيها. ومنه: وبعد فإن الرتب شرفها بمتوليها ومتوقلها يزيد، والعقل ما امتاز على السلوك إلا بواسطة حسن بها نظام كل مريد [١٧٤] والمملكة ما لم يؤازرها ذو إزر شديد ورأي سديد وقلم يقلم ظفر الملم ويقوم بعبء المهم لما افتخرت الدولة ولكانت مضطربة لولا ابتناؤها على الأقلام والأسل، وكان أولى من عول على تدبيره، واهتدى في الأمور بنوره، وتحاسدت الوزارة والأحكام عليه وكان لها منه رفع المكانة وله منهما تنوع المكان إلى أن نالت الوزارة عنها ميسرة هو الحد حتى تفضل العين أختها، ولذلك رسم أعلى الله الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري السيفي لا زالت أوامره مشرفة، ومراسيمه في الأقاليم بأقاليم العلماء مصرفه، أن يفوض إليه الوزارة الشريفة بالشام المحروس على قاعدة الوزارة في النواهي والأوامر والموارد والمصادر إلى الأموال وتقريرها، والمصالح وتدبيرها، والخيرات وتأثيرها، والبركات وتثميرها والاستخدام وصرفها

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٥/ ٢٢٤.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٥/ ٢٢٤.

(٣) هذا التقليد من الوثائق الديوانية التي انفرد بذكرها العمري عن غيره من المصنفين.

والحرم الذي يطرف عن الأموال عن الخونة كل طرف، ويكف كل كف فليقبل على ما استقبله به من هذا الأمر العظيم، وليدخل في هذا الحكم الذي يحكم فيه من له قدرة التحكم والتحكيم، ووصايا الأموال فلا يوصي بها من إذا رضي قال إني حفيظ عليم وأرباب الأقلام فلا نعرف بهم وهو العارف بكل قلم وإقليم.

توفي بالمزة سلخ سنة خمس وتسعين وستمائة وصلي عليه غرة المحرم سنة ست وتسعين ودفن بتربة له هناك وحضر نائب السلطنة والقضاة وأعيان الناس والفقهاء وخلق كثير رحمه الله تعالى[1].

ومنهم:

٨٣ ـ التقي توبة بن علي[2]:

وجدت الدول منه توبة نصوحاً، وأوبة صادفت منه كافياً نصيحاً وقى من رتبها العالية صفيحاً، وتخلق بسجايا كرم لم يزل بها صفوحاً، أفضل بالمنصور قلاوون زمان الإمرة، وخدمه خدمة انفق بها في عنفوان الشباب عمره، وكان يشتري من الرقيق ما أضحت مماليكه ملوكاً، وأفراده سلوكاً، فلما وطئ الملك المنصور بقدمه السرير، ورضي لديه السفير، وكان التقي توبة قد صار مبيعاً [١٧٥] للسلطان، ومبيعاً لتجار الترك تتدفق في بُعد الأوطان إلى غيرها مما كان يبتاعه من أنواع المتاع للخزانة العالية ويملأ صدرها بما لو رأى قارون مثاله لارتاع، مما آل به حالي هذا الحال إلى التمتع بظهرها والتنزه في نظرها، فلما انبسطت يد السلطان بعد سنقر الأشقر بالشام حين نزل عن سلطانها وذيد عن استيطانها، وتسلم الكرك من بقية البيت الظاهري وصارت عقيلتها في ملكه وفريدتها في سلكه، ولم يبق إلا أن يسيل من الحضيض أولياءه ويفيض على أهل السابقة آلاءه، ألقى إليه مقاليد الوزارة بدمشق وسائر بلاد الشام وحكمه فيها حكماً إليه مقاليد الوزارة وكان لا يزال يراجعها ولا يقر لها قرار إلا حيث يضاجعها.

وكان واسع النفس، وافر الكرم، كثير التجمل، مليح الهيئة، حسن الشكالة، أصله من بلاد تكريت، وقدم البلاد كثيراً وتوصل حتى بلغ هذا المبلغ فولي الوزارة في

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٥/ ٢٢٤.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٠/٤٣٨، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ٢٦١.

العشرين من ربيع الأول سنة خمس وثمانين وستمائة[1].

وكتب عن المنصور قلاوون تقليد مؤرخ بالتاريخ المذكور، وكتب له المجلس السامي الصاحبي الوزيري التوبي وهو أول من كتب له بالياء من وزراء الشام، والتقليد من إنشاء محيي الدين بن عبدالظاهر وأوله[2]: الحمد لله مصطفي من كان تقياً، ومعلي درجة من رفع إلى هضب العلياء فأحسن لها رقيًا، الذي يقبل التوبة عن عباده ويقبل عن من قربه جميل ارتياده، ومنه: خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري السيفي أن يفوض إليه الوزارة الشريفة المنيفة بدمشق المحروسة وما معها من الممالك الشامية ولما معها من مصافات وأعمال وولايات ذوات دواوين وعُمَّال وما بها ولهما من وجوه مطالب ومتحصلات أموال ولتجرِ في العزل والتوليه والتعطيل والتملية في العقد والحل. قال: كل منهم دق أو جلّ وفي الإمضاء والتوقف وفي المنع والتصريف وفي المصالح جميعها وأصولها وفروعها على حكم ما استقرت الحال عليه لمن كان قبله مباشراً [١٧٦] وفي هذا المنصب قبل مؤازرته مؤازراً وقد علم أن المجلس العالي الأميري الحسامي لاجين المنصوري كفيل السلطنة المعظمة بالممالك الشامية حرس الله عزائمه هو من الأعمال السامية وممالكها وثغورها روح جسدها ونظير يدها وهو القائم مقامنا في تدبير أمورها وسداد ثغورها فليستصحب معه من الاتفاق ما يشكر على استصحابه ولا يحاول إلا معه ولا يجاوب إلا به.

قلت: وكتب له في الأيام المنصورية الحسامية لاجين تقليد من إنشاء شيخنا القاضي شهاب الدين رحمه الله فمنه[3]: وبعد فإن أولى من دعي ليجدد تقليده بما تحسد الدراري مطالع سعوده والدر بحامع عقوده وتعرف بالطاعة ولما كان المجلس العالي الصاحبي الوزيري وبقية الألقاب ما برح يثمر الأموال من معادنها عبرته وتظهر المصالح من مكانها بما جبله الله عليه من فطنة فطرته، ويصونها بإشفاقه ويحررها بحسن الضبط بين فيض المال وإنفاقه، اقتضت آراؤنا الشريفة أن تجعل إحضاره إلى أبوابنا الشريفة مقروناً ببلوغ المآرب وإدراك المطالب وتجديد السعود التي هي أجمل ما وفد عليه الوالد متقلباً به إلى أهله اللائب فلتجل هذه الرتب أمنت بمجده من العطل،

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٠/٤٣٨.

(٢) هذا التقليد من الوثائق الديوانية التي انفرد بذكرها العمري عن غيره من المصنفين.

(٣) هذا التقليد من الوثائق الديوانية التي انفرد بذكرها العمري.

ويحل هذه الهضبة التي لا يثبت على المحافظة عليها إلا كل بطل، وهو ذاك البطل وكان فيه ستر على الكُتَّاب وأرباب الديوان يعطيهم جزيل الإعطاء وقد بدت له مساوئهم ويعفو عن زلاتهم وكان فيه إقدام على الدولة المنصورية لسابق خدمته ولأن أكثر الأمراء مشتراه للملك المنصور حتى ورطه، عرض مملوكاً على العادل كتبغا حين قدم دمشق وهو سلطان وكان في رقبته طلوع فظنه العادل شيئاً كان قد طلع فيه مثله حين كان في جملة المماليك، فقال له: هذا يخشى منه، فقال له: لا هذا ما هو مثل الذي كان في رقبتك فضربه على أكتافه وعزله، وولى شهاب الدين الحنفي عوضه وكان الحنفي وكيله بدمشق وله عليه حقوق خدمه إلا أن جدوله صادف تياراً وريحه لاقت [١٧٨] إعصاراً، فإنَّ العادل لم يلبث إلَّا بما عاد من دمشق إلى يدعرش ثم نزع وخَلى من سرير ملكه الفرش، فأتى دمشق طريداً، وأقام بالقلعة والحنفي ينفذ الأمور، ويظن أنَّ الدائرة له تدور، وكان حساب الدهر غير حسابه، وبَت الزمان يده من أَسبابه، وخلع العادل، وأتى التقي توبة لا يهمه إلَّا القبض على الحنفي لولا أن علاء الدين علي بن معبد هَرَّبه وخلصه من يده، وقد أعلق به تعلقه ثم باشر التقي توبة الوزارة من غير وصول تقليد له، ولا مرسوم له بالمباشرة، وعلم وسدد الأمور ومشاها، وكان يُعَلِّم علامة الشاد كلٌ يخطه بأقلام مختلفة، ويدبر أمور المملكة حتى استقرت قواعد الملك المنصور لاجين، وبعث إليه بالتقليد والخلعة، واستمر على أكمل ما كان من الرفعة.

ومنهم:

٨٤ ـ نجم الدين البصراوي(١):

بيت خرج منه جملة من الكبراء، ودرج منه جُلة من القضاة والوزراء، وسمت نفوس أواخرهم إلى أن عدوا من الأمراء وردوا رداء الجلالة في الدولة الغراء، مطلعهم مدينة بصرى صدوراً في مدارسها، وبدوراً في مجالسها، وأربَاب الوظائف بها جميعاً، وأصحاب العوارف الذين طال ما أحسنوا صنيعاً، ولما حل الركاب الناصري بالكرك حيث صرف عما كان عزم عليه من الحج ووجه ركابه وفاض على ما جاورها غمامه بانسكابه أكد به معرفة سابقة وخدمة تقرب فيها بكل سابقة، وكان من قناة الخيل يرسلها ألواناً وعلى مقاصده أعواناً ثم أمّ جهته وإخوته في خفية من المظفر بيبرس

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٤/ ٨٩، ابن حجر، الدرر الكامنة: ٤/ ٤٦.

ونائبه بالشام أقوش الأفرم، وطافوا بكعبته طواف من حج وأحرم، حتى ثم عادوا واتخذهم له بطانة من دون كل رداء، وألسن تبلغ عنه صوت كل نداء، وبعث منهم إلى أهل طاعته لتأكيد ما في أعناقهم من أيمان بيعته، فتخطوا كل خطر وتخللوا كل صعب حتى عادوا بالوطر، فلما رجع الحق إلى نصابه، وعاد مربع الملك إلى عادة إخصابه، صارت حدائد زبرتهم سيوفاً، وأسمال خيرهم سقوفاً، وفوض إليه بالشام أمر الوزارة حتى استقال، وقفل إلى أمره، وبقي عليها حتى مات بلا انتقال.

وكان كريماً رهوباً [١٧٨] عالي الهمة، بعيد العزمة، صحب العرب وأهل البادية وتخلق بأخلاقهم الكرام، وسجاياهم في حب كرائم الخيل والإبل وانتخاب الهجان المحبورة، واشترى صوافن الخيل بجليل المال واستوفد منها أحاسن الجياد وجعل عليه رسماً يقوده إلى الأبواب السلطانية(١).

وولي كبار الوظائف بدمشق الحسبة ونظر الخزانة ثم الوزارة كما تقدم، ثم قلق لكلفة الملازمة والمباشرة بالنفس، والدأب في التحصيل والإنفاق، وضاق عطنه بهذا ومثله، وثقلت عليه رفقة قراسنقر الجوكندار المنصوري، وكان إذ ذاك في نيابة الشام، وطلب دستوراً من السلطان، فأعطي فتوجه يقوده إلى الحضرة، وسأل السلطان في الإعفاء، وأخرج خطاً كان السلطان كتب له بالكرك مضمونه، الوعد بالإمرة، فأعطي إمرة عشرة كبير يقوم بالطبلخاناه، ثم نقل عن الإقطاع إلى غيره ثم أعيد وجرت له أمور من حسد الأمراء الترك له على كبر الإقطاع وكثرة متحصله، وكان يميل إلى الشراب، مغرى بحب الغلمان، ولم يزل متنقلاً بين دمشق وبصرى وجهات إقطاعه وما قرب من البوادي حتى جاءه أجله.

ومنهم:

٨٥ ـ الصاحب عز الدين أبو يعلى حمزة بن أَسعد بن المظفر بن التميمي، ابن القلانسي(٢):

من بيت الرئاسة القديمة، والسياسة القويمة، والأصالة في تميم، والجلالة من

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٤/ ٨٩.

(٢) الصفدي، أعيان العصر: ٢/ ٢٩٧، ابن كثير، البداية والنهاية: ١٤/ ١٤٧، ابن حجر، الدرر الكامنة: ٢/ ٧٥، النعيمي، الدارس: ١/ ٧١.

منبت النسب الصميم، كانت آباؤه بعد بني الصقافي رؤساء دمشق، وكبراء أهلها في دفع ما شق، ولابن القيسراني الشاعر في بعضهم مدائح ذكر فيها بصرى، وهي في مواضع سكنهم، وموطىء موطنهم، وكانت الملوك بدمشق إذا احتاجوا في حروب الفرنج وأتاواتهم، وأخذ ما لا بد منه لدفع ضررهم أو مداراتهم، طلبت رئيس البلد واستعانت بسعاته وتركته، وبث دعاته فيوظف هو الطلب على قدر ما تسعه الأموال، وتقتضيه الأحوال، وكان لا يزال من الأيام النورية في هذا البيت بقية من تلك الإضاءة، وشارقة من تلك الوضاءة وولي منهم بعده هذا الوزير للأفضل كتابة إنشاء ثم [١٧٩] وزارة لم تطل له باع الرشا، ولبعضهم كتاب تاريخ(١) إلَّا أنه كثير على مثله ممن لم يجعل الطلب ديدنه، والعلم معدنه، وكان جلة أجلاء هذا البيت يرجعون إلى عقاراتهم، ولا يخدمون الملوك إلا لمداراتهم حتى كان والد هذا الوزير مؤيد الدين أسعد بن المظفر، وكان من أهل الغنى، وممن لا يُعد بأحد من الأمناء، فأقامه الظاهر بيبرس لوكالة بيّنها، فوليها على كره أغصته بشجاها، وأشرقه بما تجرع من كؤوسها المرة خوف عقباها.

وحكي من أمانته أن رجلاً أعجمياً قدم للحج تفضل معه مبلغ ألفي دينار عيناً، فسمع بأمانته فأتى إليه والذهب معه وسأله أن يستودعه، فقال: ضعه في ذلك المكان وأشار إلى مكان من الرواشن المطلة على داره فطلع العجمي إليه ووضع فيه المال ثم نزل للحج ولم يقدر له العود إلى سنين، فلما أتاها أتى مؤيد الدين في طلب الوديعة، وكان قد أنسيها مؤيد الدين، فقال له: أي وديعة لك عندي، فقال له: يا سيدي أرجع إلى الله من قريب، فغضب مؤيد الدين، وقال له: إليّ تقول هذا إن كنت صادقاً فذكرني بشيء أتذكر به فقص عليه العجمي القصة حتى قال له: وأنا وضعتها بيدي في روشن في دارك صفته كذا قال له مؤيد الدين: يا أخي أبشر إن كنت صادقاً فمالك مكانه، فإني هناك أضع الأمانات، فاصعد إلى الروشن فخذ مالك فصعد إلى الروشن فوجد ماله بعينه، وقد علاه الغبار، ولم يُلمس منذ وضع هناك إلى يومه ذاك فأخذ الذهب وانصرف. قلت: ويحكى عنه من هذا وأمثاله أشياء ليس هذا موضعها، وإنما جاءت هنا عرضاً.

(١) المقصود به ذيل تاريخ دمشق وهو مطبوع.

فأما ابنه هذا الوزير فكان صدر وقته وسر الكبر ما في سجيته قدم الملوك والأمراء بوداده واستغرق أوقاتهم باسترداده واستعد الجلة في استلابه صفاتهم حتى حطم الدروس وهم الرؤوس، وصار لا يقف قرن في طريقه إلا تنحى ولا يكتب بإزائه اسم إلا يمحى، وكان لا يقدر على تجرع صبره، ولا يثبت جلد له خرائره، تشرى أراقمه بليل [١٨٠] وتطل قشاعمه بويل، وتوكل للسلطان بالشام في خاص ماله، وسلك به سبلاً لآماله ثم عينه السلطان للوزارة فوليها وهو كان قد سمر الكره عرينته وأعرق التجشُّم لمُشتقتها جبينه، وكتب له نظير ما كتب للنائب الجناب العالي، وهو بها لا يبالي، وباشرها وهو لها غير مُريد، ووليها وكان يود لو أن بينه وبينها جبالاً من حديد.

وكان الملك المنصور قد صادره على مال أخذه منه فيمن صادره من الناس، فلما دانت أيام المنصور لاجين، وكان له به سابق معروفه توجه إليه بهدايا من ثمار الشام وألطاف، فأقبل عليه وأحسن إليه، وكان يهش لدمشق ولمن أتى منها لما تقدم من نبات فيها وتعرف أهلها، فعوضه من الأَملاك المخلفة عن المنصور قلاوون بعقار عما كان أخذ منه، واستمر له مكاتيب شرعيّة كتبت له، وأتقنت فلما ولي كراي المنصوري بالشام النيابة اتخذه شجن صدره وشجى حلقه، وتمحل له الذنوب، وأظهر منه خفي العيوب، وحَصَل هذه الأملاك سبباً تعلق به عليه، وتوصل منه إلى مضرته، وغير عليه خاطر السلطان، وكدر عليه موارد الإحسان، وأجج عليه النيران، ونبه له كائن الحقد حتى أمر به، فجذب منه عنان الوزارة، وأمسكه واعتقله في مكان ضيق عليه فيه الخناق، وقامت رجال كان قد ملأ صدورهم أحقاداً، وشب جوانحهم بنار البغضاء له إيقاداً، فواجهوه بالبهتان واستزلوه ليقطع وحوله حقربان، ويحرصوا له قولاً مأموناً، ونبشوا ما كان له من الستر مدفوناً، وأراد كراي نفسه، ولكن الله سلمه ونجاه، وأخذ من ظلمه بينما كان في تلك الضيافة التي التقت عليه حلقتاها، وأنشده التي برقت له عارضاها، إذ ورد من السلطان بإمساك كراي واعتقاله وربطه في أوثق من اعتقاله، وأذنت ضائقته ودنت عاشقته من الانبلاج، ونقل من المكان [الذي][1] سدت عليه فيه منافسه، وسلط عليه فيه منافِسُه، ونزل بدار الحديث الأَشرفية حيث مشارق الأنوار اللامعة، والأنواء الهامعة، والسنة الشريفة النبوية تتضح شهباً [١٨٠] وتطل منها ونفس في مقامه بها منه وثيق الخناق، وشديد الحبل الملتف بالأعناق، ثم لم يلبث أن وصل

---

(١) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق.

أقوش الأشرفي نائباً، وأتاه بالفرج مبشره، وعم إطلاقه بالفرح أهل بلده، فلم يبق منهم إلّا من يبشره(١).

ثم قصد باب السلطان، فوجد من عفو السلطان، وإسعاف الأمير الكبير المحدث أبي سعيد سنجر الجاولي، وكريم الدين وكيل السلطان ما آمن روعته، وبرّد لوعته وأمضى السلطان له ذلك التعويض، وأعاده إلى الوكالة على ما كان عليه قبل الوزارة، فأقام عليه مدة ثم عزل عنها، وأجري عليه راتب سلطاني دام عليه إلى أن مات، ووجد من السعادة الوافرة، وحصل من النعم الظاهرة ما كان محسوداً عليه، منظوراً إليه، ولقد جمع بين وكالة السلطان ووكالة كافل الممالك بيبرس الجاشنكير رأس البرجية وكبير الأمراء في وقت واحد ثم لما انقطع الملك الناصر بالكرك، وملك المظفر بيبرس استمر عز الدين جامعاً بين وكالتيهما ووكالة سلار، وطلبه الملك الناصر إلى الكرك على أنه يحاسبه، وقصده أن يبطش به لأمور كان يحقدها عليه منها أخذ ذلك العقار منه في الأيام اللاجينية، وكان أورثه من أبيه وأخيه إلى غير ذلك، فشفع له الأفرم في كتب كتبها على يده، وجهزه إليه فلم ينله بسوء وخلع عليه وأحسن إليه وأعاده مكرماً على عادته، ولم يزل في نفس السلطان منه لسبب هذا لا لقدر العقار، ولكن لما يرى أن عامياً اهتضمه في وقت واستضعفه وأخذ منه ملكه بيد القهر وعفا له عن هذا غير مرة، وكان خاطره لا يلطف له ولا يصفو له كدره.

حكى لي والدي رحمه الله قال: كنا بين يدي السلطان مرة وفخر الدين محمد المعروف بكاتب المماليك عنده، فسألني السلطان عن عز الدين، فقلت له: إنه حَيٌّ يرزق يذكر صدقات السلطان، ويدعُو له، فقال: ذاك إنسان نحسٌ أخذ منا ملكنا، فقال له الفخر: كانت المماليك وكان يدل على السلطان ذاك الإدلال، إنه والله أخذ ملكك ومد أبيك أو كما قال، وكلنا نعرف هذا، ونشهد له، فقال السلطان: لا أنا تركته [١٨٢] له، وكان والدي يتخوفها عليه دائماً، ويقول: لا آمن له يوماً نية.

قلت: ولقد جرى مرة أخرى ذكره بحضوري، وقال فيه نحو هذا الكلام، وقال الفخر نحوه، ثم لما تضمنت المطالعة الواردة من الشام ذكر وفاة عز الدين. قال السلطان: استراحت دمشق منه.

وكان عز الدين من ذوي المروءات والمواراة، قائماً بحقوق كل قادم يقدم عليه،

---

(١) الصفدي، أعيان العصر: ٢/٢٩٨ ـ ٢٩٩.

ومريضاً بمرض، وميتاً بموت، يتردد إلى الناس على كبر مكانته، ويمشي في حوائجه بنفسه وحده ماشياً في المدينة على رجله، يتردد إلى دور القضاة والحكام، ويثبت كتبه الشرعية، ويؤدي ما يتعين عليه من الشهادات، هذا على إفراط شممه وإباء أنفه، وترفعه عمن فوقه، فضلاً عن النظراء والأشباه، كان يبعث إلى الحجاج في كل سنة من يتلقاهم إلى معان ومما قاربها بالحلوى والفاكهة، ووقف أملاكه وعقاره على بنيه وبعض معتقيه واتخذ منها جهات بر وكان من رجال الدهر نبلاً وحشمة وسعة باع وعلو[١].

ولد في(. . . . . . .)[٢] وتوفي(. . . . . . .)[٣] ودفن بتربته بسفح قاسيون قريب الجهاركسيّة.

---

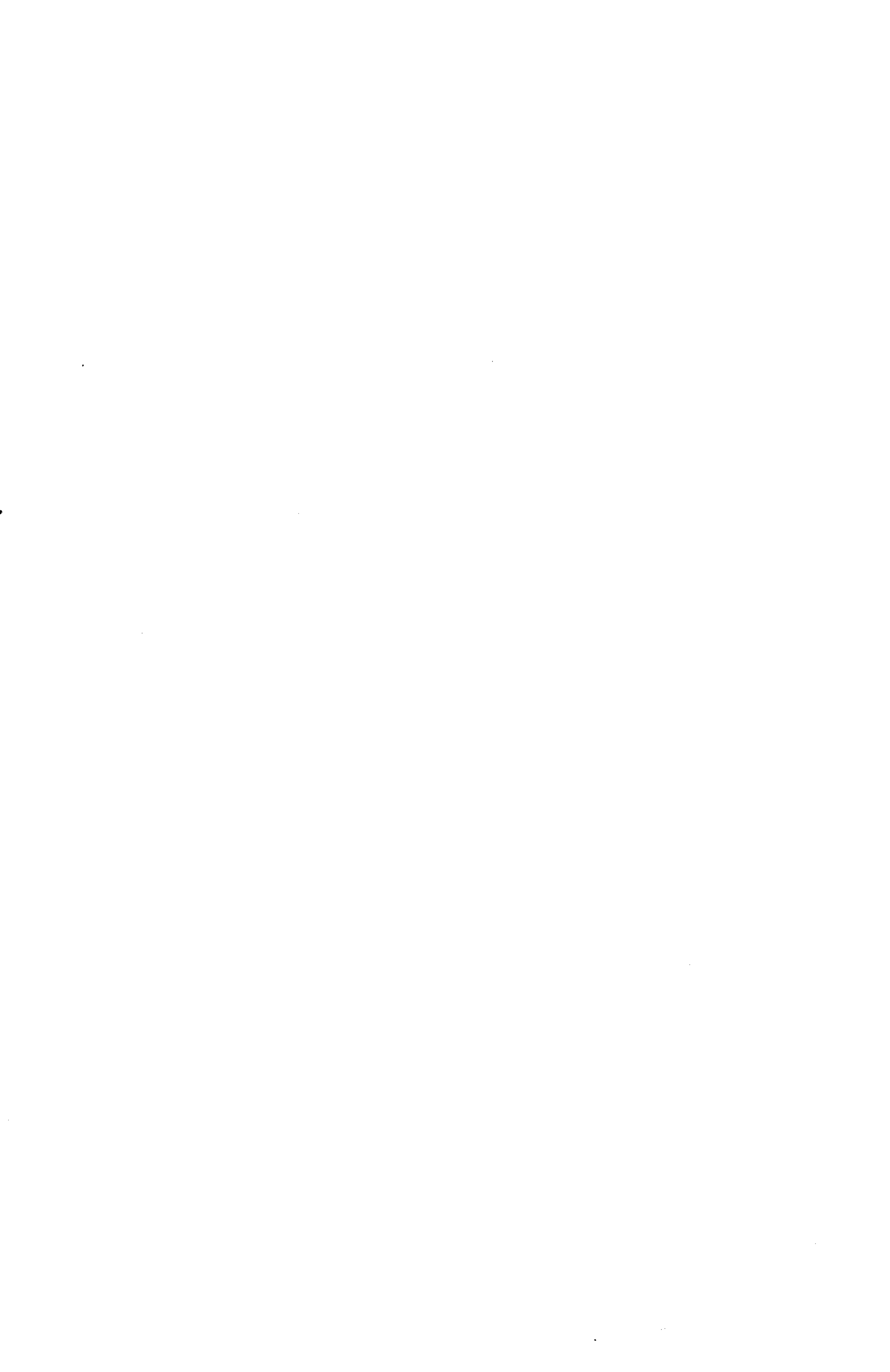
(١) الصفدي، أعيان العصر: ٢/٢٩٨.

(٢) فراغ بالأصل، وفي الصفدي، أعيان العصر: ٢/٢٩٩، ولد سنة ٦٤٩ هـ.

(٣) فراغ بالأصل، وفي الصفدي، أعيان العصر: ٢/٢٩٩، توفي سنة ٧٣٩ هـ.



وزراء
المغرب والأندلس



وأما وزراء الغرب فنقول قد سألت الشيخ العلامة ركن الدين أبا عبد الله محمد ابن القويع عن رتبة الوزير بالمغرب، فقال: ليست بطائل، ولا لصاحبها شيء من الأمر، بل هو كالجاويش يخرج قدام السلطان يوم الجمعة حقيقته دون السمعة.

فمنهم:

٨٦ ـ الوزير عيسى بن سعيد[١]:

وزير لا وزر عليه، ولا كبر لديه، ولا فضل إلَّا لآثار يديه، ضرب على السماء مضارب المآرب، وشرق ذكره في المشارق، وثوى في المغارب، أخذ من السحاب عنان العنان، وعرف من عرف ببابه جنان الجنان، ولا يعبر على منازل النجوم إلَّا ماراً، ولا سحَّت ديمه على المجرة إلَّا جارا، وكلاءه السعد في أقلامه، وجعل السيوف خدم أقلامه، وطالت الرماح قصبتها اللداني وساعدها النصر والتأييد اللداني.

قال ابن بسام[٢]: كان قيم دولة أبي عامر، وحامل لوائها، والمستقل بأعبائها، وملك [١٨٣] زمام إِعادتها وإبدائها طَلَعَ في فَلَكها قبل دورانه، ودلَّ على ما في كتابها دون عنوانه، ويناد ذكر كيف كان غروبه وطلوعه، ومن أين اتفق طيرانه ووقوعه.

قال أبو[٣] مروان: لم يكن له مأثرة سلف، ولا بيت تقدم، خلا أنه كان عَربي النجار من بني الجبر، فاختلف إلى الديوان، وصحب المنصور بن أبي عامر وقت حركته في دولة الحكم، فبلغ به المنازل الجليلة، وتبحبح بعد مهلك ابن أبي عامر، ثم تنكر له عبد الملك هو وولده وصنائعه، ولم ينفذ توقيع إلَّا بأمره ووالى وجوهاً من أهل الدولة وصاهرهم، ثم صاهر آل أبي عامر، ثم تنكر له عبد الملك بن المنصور بعد أبيه فسعى عيسى إلى الغدر بالعامرية، والانقلاب مع المروانية، وراسل هشاماً المؤيد وأعدَّ

---

(١) ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٧٥.

(٢) ابن بسام، الذخيرة: ١: ٧٥ ـ ٧٦.

(٣) في الأصل: ابن والصواب ما أثبت.

رجالاً للفتك بعبد الملك، وكاد يتم له الأمر فوشى به أحد رجاله، فاهتم عبد الملك بمبادرته واستدعاه إلى مجلس الشراب وهو لا يفطن بشعوره، فأتاه ثم عاتبه ثم صب عليه سيفه، وشاركه أصحابه في قتله حتى برد، وحزَّ رأسه، وعلقه على باب الزاهرة، وقبض على جميع موجوده، وسجن أَبناءه، وعظَّم الناس قتل عيسى لجلالة قدره وغلبته على صاحبه.

وقال فيه صاعد اللغوي[1]: [البسيط]

فتلك هامته في الجو ناطقة تحدث الناس من آياته عِبرا
مكتوبة الوجه بالهندي يقرؤه من ليس يقرأ مكتوباً ولا سطرا

ومنهم:

٨٧ ـ الوزير أبو جعفر أحمد بن عباس[2]:

رجل أفرط في الشح، وأفرغ جهده في القبح، لو كان بيده البحر لانكدر، أو داس على منبع الماء لما تفجر، أو صافح الغمام الممطر لخلاه جهاماً، أو قابل الصباح المسفر لأعاده ظلاماً، لو قدر على الفضاء لسده، وعلى خيط السحاب لشده، أو مرَّ بالروض لأصبح حمماً، أو لامس المسك لعاد دماً، لو نفخ في الهواء لما نفح أو أمسك بحجر الزناد لما قدح، لو كان في عصر لما در، ولما ضرب به المثل في اللوم، أو سكن في المدن العوام لصاحبه على أرجائها البوم، أبخل من ربِّ كلب، وأكز من باب ضب، أشح من باب التحنين، وأضن من الكندي بالملاء المسمومة للحين، لا يفتح كفه ولو ثقب [١٨٤] بمسمار، ولا يجري النحل معه في مضمار.

قال ابن بسام[3]: كان أبو جعفر هذا قد بذّ الناس أهل وقته في أربعة أشياء: المال والبخل والعجب والكتابة.

قال[4] وقد ذكر بخله: لو أن أبا بحر رآه لما ضرب في البخل مثلاً، ولا ذكر

---

(١) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٧٨.

(٢) ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٤٠٠.

(٣) ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٤٠٠.

(٤) ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٤٠٠.

معه في رسالته رجلاً، له فيها أخبار تخرق سُجف العادة، وتضيق عن قبول الزيادة.

وقال[1]: حدّثت عن الوزير ابن الجد، وكان امرأ صدق، قال: سافرت أيام الشبيبة في معسكر زهير فتى ابن أبي عامر قبل أن يظهر ويشتهر بصحبة السلطان ذكري، فرحلنا في بعض الأيام وقد خلص إلى الأحشاء برد الأجسام، أو سوى برس السماء بين السما والآكام حتى كأنّ الأرض صفحة حسام، أو صير غمام، وعَب السماء مطر قد غادر الكثبان وعوثاً وصير المسالك تلاعاً ميثاً[2]، فكبت بي فرسي، وقد تأخرت عن صحبي، وساخت رجله في بعض ذلك الخَبار[3]، فصرت لحيني، وكانت عندي فروة فنك أعدها لأيام القر، فاستظهرت بها يومئذ على شدة ما كنت فيه على الجهد، وخفته من عادية ذلك البرد، فأصابه من الطين ما كاد يشككني في عيانه، وأقمت عامة يومي على إصلاح ما فسد من شأني وشأنه، فوردت العسكر وقد زاحمت الليل وبث الوزير المذكور في طلبي الخيل فساعة رآني. قال: ما غالك، وأي شيء حبسك لا أبا لك؟ فطفقت أقص عليه أمري وهو يضحك، وكان آخر ما راجعني به أما عندك إلا هذا الفنك؟ ثم انتفخ واستدعى قهرمان ثيابه، وقال: كم أودعت عيابي وأدرجت في أثناء ثيابي في سفري هذا من الأفناك، فجاءه بعدد ما ظننتها تجتمع لأحد، ولا يحيط بها ملك يد، قال أبو محمد: ولم أشك في تحصيل فروة وجر ذيل كسوة، فوالله ما زاد على أن عَدها، وأمر القهرمان فردها ثم قال: يا أبا محمد هذه ثياب سفري ومهنتي، وكيف لو رأيت ثياب المدينة وملابس الزينة.

وقال ابن بسام[4]: وقد ذكر عجبه، والعجب فلم يكن الفضل بن يحيى، ولا معلمه عمارة بن حمزة، ولا عبيدالله بن ظبيان، ولا مطعم بن جبير في ذلك إلا بعض قوى سببه، وعيالة واطئ عقبه.

وقال[5] وقد ذكر كتابته: والكتابة [وهي أقل][6] [١٨٤] أربعته، وعلى كل حال

---

(١) ابن بسام، الذخيرة: ١/٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٢) الميث: الأرض السهلة.

(٣) الخبار: الرخو من الأرض.

(٤) ابن بسام، الذخيرة: ١/٤٠٠.

(٥) ابن بسام، الذخيرة: ١/٤٠١.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن بسام.

فله بها يد ونفس ممتد، وله فيها يوم وغد.

وقد ذكر ابن حيان[1]: كيف غَربَ وطلع وكيف طار حتى وقع ومما قال فيه: كان جامعاً للآداب الملوكية، مؤثراً للدفاتر مغالياً بها بلغت عنده أربعمائة ألف مجلد وأما الدفاتر المخزونة فلم يوقف على عدتها على كثرتها وكان مع ذلك أغنى ملوك الأندلس ورث من أبيه خمسمائة ألف مثقال جعفرية سوى الفضة والآنية والحلية وأما الأمتعة في المخازن والكسوة والطيب والفرش فحسب ذلك، ثم حاط هو تلك النعمة بالبخل الشديد القبيح وحماها بالإمساك الصريح، وأثلها بالتكسب والترقيع، حتى صارت أضعافاً مضاعفة، ولم يوفق فيها لبر مُزْلفٍ ولا لصنيعة مشكورة، بل أسمن جسمه وأهزل عرضه، وأشبع بطنه وأجاع ضيفه، يطوف مقاصيره على خمسمائة من مثمنات القيان وربما لم يكن حظ الحسناء منهن غير لدغة العضة ثم لا يعود الدهر إليها فاتهم بعهر الخلوة للذي شهر به من قلة الجماع إلى بخل لا كفاء له بحمل الناس عنه في ذلك أحاديث شائعة.

من أحضرها ما حكاه إلي أبو الوليد بن زيدون عن أبي الباجي كاتب الرسائل[2] قال: دعاني ابن عباس يوماً مع خواص من أصحابه إلى داره فصرنا إلى مجلس فاهتك به مشاكل الحسن في فرشه وستوره وآلته وآنيته قد صنفت فيه فواكه غريبة وأنقال ملوكية على طوله، ما وقعت عيني قط على أكثر منها ولا أغرب من أجناسها ولا أنفس من أطباقها وقد غطي جميعها بمناديل شرب تبين صورتها من تحتها فتضرب العيون والقلوب إليها فأخذ في ملاعبتها بالشطرنج وهي من سائر ما أرادنا إليه وأوصل اللعب بها نهاره كله وبعض ليلته لا يرفع رأسه يدعو لنا بطعام ولا غيره إلى أن رجعنا وألححنا عليه بالانصراف فانصرفنا ولم نرزأه شيئاً مما كان أعد لنا وما اعتذر إلينا وما منا إلا من أَسِي على حرمه مما كان بين يديه،و تعجبنا من قحته وبخله واستخفافه بمن دعاه.

ومن نثره قوله[3]: وكتابي هذا إليكم وقد اتفقت الكلمة في وضع رأس الإمارة

---

(١) ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٤١٣.

(٢) ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٤١٤.

(٣) ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٤٠٦.

على كاهله ونصل الإمامة في نصابه، وأَعدنا [١٨٦] الحق إلى أهله، وأصفقنا على بيعة رضىً واتفاق وطاعة لعبد الله أمير المؤمنين المتأيد بالله ـ أيده الله ـ وطهرنا المنابر من دنس تلك الدعوة استعارة، وهتفنا هتف التباشير، وقامت بها الخطباء على المنابر، وانجلت العناية على فلق الصبح، واقتلعت الظلمة عن وضح الشمس، وأزاح الله غُصَّة الشرب، وسجى الإفك، والرمز يكفيكم، والإيماء يغنيكم، ولما استوسق الأمر على منهاجه، واستتم الأمر على أدراجه، هززنا لكم هزة التذكير ورمينا إليكم باليسير.

ومنه قوله[1]: قرأت الرقعة الكريمة التي ناولتنيها اليد العزيزة وكأن البدر مدَّ إليَّ يداً تختمت بالنجوم الزاهرة، أو الدهر أعطاني أماناً من خطوبه الزاهرة، وعاينت وشياً منمنماً وأبصرت ربطاً مسهماً، وطفقت ألتمس المجازاة وأروم المباراة، فإذا شأوي حسير، وباعي قصير، وفمي ملجم، ولساني مفحم، لأني تعاطيت مباراة أسد العرين وهو خادر، وموج البحر وهو زاخر.

ومنهم:

٨٨ ـ الوزير الرئيس أبو عبدالرحمن محمد بن طاهر[2]:

ما دنا ابن خاقان في تعريضه وتقريب ما بعد البرق من وميضه وتقرير ما لا يأتي الليل والنهار بوميضه وتفريع الدر بما لا يقدر أن يجيء في معاريضه.

قال[3]: بُدِئ به البيان وختم، ولديه ثبت الإحسان وارتسم، وعنه افترَّ الزمان وابتسم، واستقرَّ الملك لديه استقرار الطِّرْسِ في يديه، واختال التاج بمفرقه اختيال اليراع في مهرقه.

ومن نثره قوله يستدعي أقلاماً[4]: قد عدمت بهذا القطر القلم والأقلام، وبها يتشخص الكلام، وهي حلبة البيان، وترجمة اللسان، عليها تُفْرَعُ شِعَابُ الفكر، وذكرها

---

(١) ابن بسام، الذخيرة: ٤٠٦/١.

(٢) الفتح بن خاقان، القلائد: ١٧٠/١، ابن بسام، الذخيرة: ١٣/٣، العماد الأصفهاني، الخريدة: ٢/ ٢١٣، ابن سعيد، المغرب: ٢٤٧/٢، المقري، نفح الطيب: ١٧٣/٢.

(٣) الفتح بن خاقان، القلائد: ١٧٠/١.

(٤) الفتح بن خاقان، القلائد: ١٩٣/١.

مُنَزَّلٌ في محكم الذكر، وأريد أن ترتاد لي منها سبعة كالأقاليم، حسنة التقليم، فِضِّيَّةَ الأديم، ولا تعهد إلا صلبها، والطوال أنابيبها، وإذا استمدت من أنفاسها أتاك الشكر من طيب أنفاسها.

ومنه قوله(١): كتبت والجَدُّ قليل، والذهن كليل بما حَدث من عظيم الخرق على جميع الخلق [١٨٧] فليقم على الدين نوادبه، فقد جُبَّ سنامه وغاربه، ولتفض عليه مدامعه وعبراته، فقد غشيه حِمامُهُ وغمراته، وكان منيع الذرى، بعيداً أن يلحظ أو يرى، تحميه المناصل البتر، والذّوابل السمر، والمُسَوَّمةُ الجرد، ومشيخة كأنهم من طول مشيخة ما التثموا مُرد، فأبى القدر إلَّا أن يفجع بأَشمخ مدائنه؛ ولا يترك له سوى سواحله.

ومنه قوله(٢): ووافاني لك كتاب كريم، كما طرز البدر النهر، وكما بلل القطر الزهر، طوقني طوق الحمامة، وألبسني ظل الغمامة، وأثبت لي فوق النجم منزلة، وأراني الخطوب نائية عني ومعتزلة، فوضعته على رأسي إجلالاً ولثمت كل سطر احتفاءً واحتفالاً، وفتحته وأخذت منه للسعادة فألاً.

ومنه قوله(٣): أطال الله بقاء الأمير، منيعاً حرمه، رفيعاً علمه، إن الذي تثبته الدنيا من مناقبك العُليا، فتجللت منه أقاصيها، وتكللت له نواصيها، لجاذب نحوك أحرارها، وجالب صممت به إلى ذراك همم عوال كأنها للرماح عوال، كأنها الخلوق تنفح مسكاً وتشوق وإن الوشي ما خطه، وربما أزرى به وخطه، والخبر يغنيه عن الخبر، ويعلمه بالعين لا بالأثر.

وقال الفتح في ذكره(٤): وكتب إلى المنصور بن أبي عامر يخبره بخبر السيل الذي سال بمرسية فعفى آثارها وهَدَّ أسوارها واحتمل ديارها، وقد كان ورد كتابه مستفهماً عن خبره، ومنتهى عبره.

وردني أيده الله كتابه الكريم مستفهماً عما طار به إليه الخبر عن السيل الحافل

---

(١) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ١٩٤.

(٢) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ١٧٦.

(٣) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ١٧٩.

(٤) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ١٨٧.

الذي عظم منه الضرر، وقد كنت آخذاً في الإعلام، بحوادثه العظام فإنه أذهل الأذهان، وشغل البيان إذ أقبل يملأ السهل والجبل، والجنوب كما اضطجعت، والعيون كما هومت للنوم وهجعت، فمن ماض قد استلبه، وناج قد حزبه، وفازعٍ قد أثكله، والبرق يجب فؤاده، والودق ينسرب مُزاده، والكُلُّ قد استسلم للقدر، واعتصم بالله تعالى عز وجل من وَزَر، حتى أرانا الله آية إعجازه وبراهينه، وغيض الماء لحينه، وطلع الصباح على معالم [١٨٨] قد غيرها، ولم يبق إلا خبرها، وآكام قد حدرها لا ينقضي منها عجب لنا، ولا يسمع بمثلها في الزمن الغابر، فالحمد لله على وافي دفعه وتلاقي غوثه ونفعه لا إله إلا هو.

قال ابن بسام[١]: حين ذكره أحد من جمع الحديث إلى القديم وارتقى من رئاسة الأقلام إلى سياسة الأقاليم، واتفق لبني طاهر بالفتنة المطغية رئاسة كورة مرسية، كان أبو عبدالرحمن يكتب عن نفسه بهذا الأفق كالصاحب ابن عباد بالشرق، وله رسائل تشهد بفضله، وتدل على نبله، ولا سيما إذا هزل، فإنه يتقدم الجماعة، ويستولي على ميدان الصناعة، ولما خبط أبو بكر بن عمار سَمُرات ملوك الأندلس بعصاه، وتردد ينتجعهم بمكائده ورقاه، وإنما كان يطلب سلطاناً ينثر في سلكه، وملكاً يخلع عليه عطفه جعل أبا عبدالرحمن بن طاهر مرتع همه ووجه أَمِّه، ولما ألقى المعتمد بن عباد إلى ابن عمار بيده، وقلده تدبير دولته وبلده، بعثه على حرب ابن طاهر بغاءً لنفسه وبناءً على أُسِّه، فأقبله وجوه الجياد، وأخذ عليه بالثغور والأسداد حتى فتَّ في عضده، وانتزع سلطانه من يده، ولما قال عزمه وفعل، وقام وزن أمره واعتدل، مدَّ يده وبسطها، وكفر نعمة ابن عباد وغمطها، وانبرى من حينه على مرسية، وقعد بها مقعد الرؤساء، وخاطب سلطانه مخاطبة الأكفاء، مستظهراً على ذلك بجرِّ الأذيال، وإفساد قلوب الرجال، معتقداً أن الرئاسة كأس يشربها، وملاءة مجون يسحبها، فقيض له يومئذ من عبد الرحمن بن رشيق عدو في ثياب صديق، كان في ذلك الأوان، فخلص أبو عبدالرحمن خلوص الثريا من يد الدَّبران، والتقى هو وابن عمار ببلنسية بعد ذلك، وقد استوى الغالب والمغلوب، وضعف الطالب والمطلوب.

وأورد من نثره قوله[٢]: قد تصرفت بي سهوب الإسهاب، وقد تعلقت بأطناب

---

(١) ابن بسام، الذخيرة: ٣/١٣ ـ ١٤.

(٢) ابن بسام، الذخيرة: ٣/١٨.

الإطناب، وسلكت من البلاغة مسالك لا تجد حَيّات الأذهان فيها مدبًّا، ولا أرواح الأفكار في جوِّها مهبّاً، فإن قرعت بابها معك، وقد باشرت بدعك، زادني انغلاقاً، وكنت ككودن مع عتيق لا يرجو له لحاقاً، بحجمي بذي الحجى [١٨٩] سلوك سبيل الاختصار، والإنجاز، إذ لا بدَّ من الوقوع تحت الاقتصار والإعجاز، والله يبقيك لإحياء رسم الأدب، وإقامة أود لسان العرب.

وقوله[١]: مثلي مثلك ومثل رجل من العرب، استقرى عقيلة ربرب، بل سليلة فضل وحسب فأجزلت قراه، وأكرمت مثواه، فلما اطمأنَّ المجلس، وانتظم التآنس سعت إلى بعض أوطارها، فراقه ما تحت إزارها، فجعل ينشد: [الرجز]

يا خير أخت [خير[٢]] البدو والحضاره ... ماذا ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حُرّةً مِعطاره ... إياك أعني واسمعي يا جاره

وكذلك غيرك المخاطب في شؤوني وأنت المراد، وإليك الإيماء، وفيك يبدأ القول ويعاد، وأنت ما أعطر خلالك، وأكبر اهتبالك،لا زالت أياديك كالأطواق ومعاليك معطرة الآفاق.

وقوله[٣]: وتوفي فلان عفا الله عنه وكان البقية التي يرضى ببقائها، ويغشى إلى أضوائِها، فاختلسته المنية، وفجعت به الدنيا الدنية، فمن شأنها أن تذهب بالأفاضل، وتذهب على الأماثل، نقله الله إلى رضوانه، وحَفَّه بغفرانه، وأحسن العزاء عنه، وإن عزَّ العوض منه.

وأما عهدنا فقد درس منا العهد، بخطوب يتمنى معها الفقد. بلاد لحقها التغيير، واستولى عليها التدمير، وأكلت الجوعة بينها، وتعطل الشرع والدين فيها، فلا صلاة تجمع، ولا منبر يرفع، والكلُّ ذاهل، وفي حوض الردى ناهل، فلينح على الإسلام نائح، وليجبه من جانب القبر صائح.

وقوله[٤]: وفيما ذكرت فرغ من الطنابيب، وشرع الأنابيب، وهرج يشتمل البعيد

---

(١) ابن بسام، الذخيرة: ٣/ ٤٥.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من الذخيرة.

(٣) ابن بسام، الذخيرة: ٣/ ٤٧.

(٤) ابن بسام، الذخيرة: ٣/ ٥٥.

والقريب، ومحض ودي، وصحيح عقدي، وما لا يشك فيه عندي، يحملني لك على الانتصاح، شُحّاً مني ورغبة في الصلاح، وحسماً لأسباب الفتنة التي تعظم معها المحنة، فإن وافق قولي قبولاً، وكان على أحسن التأويل محمولاً، فذلك الذي عرضت وله تعرضت، وإن كان ما سواه فهي أمور يدبرها الله.

ومنهم:

٨٩ ـ أبو بكر محمد بن عمار(١):

لطائفه ألذ [١٩٠] من تبريح الكرى، وأرق من النسيم إذا سرى، وقوله: أَدِرِ الزجاجة ألطف مما تشعشعه، وأميل بالأعطاف مما تضعضعه مثل الطيف إذا سرى، قوله: والنجم قد صرف العنان عن السُّرى بل هي أبدع استعارة وأبعد من الحبيب النازح استزاره إذا أنشدت له هي أو سواها من بدائع فطرته التي سواها قلت الصباح أهدى إلينا كافوره واسترد الليل غيره والأكل من وقت السحر والمشافهة مكنون سرها وغيره.

وذكره الفتح بن خاقان(٢) قال: أتى عليه حين من الدهر ثم كسي بعد إشراقاً ونوراً، فأصبح راقي منبر وسرير، ولمح ما شاء بطرف غير ضرير، واصطفاه العدو، فاتفق به السكون والبدو، وطاعت له اللُّبانات والأوطار، حتى رأس بتدمير وجلس مجلس الأمير، ثم رأى أن ينتزى على موليه، ويجتزي بتوليه، فحصل في قبضة المعتمد قنيصاً، وعاد معنى خلاصه مبهماً عويصاً، إلى أن طوقه الحسام طوقاً، وذوقه الحمام فما استعذبه ذوقاً، قتله بيده وأنزله ليلاً في ملحده. قلت: وكماله فما لم يُرصع به القلائد من الفوائد، قوله من نثره: وإن كان هذا الفعل لتوبة نصحت، وطريقة من التقوى وضحت، فما يصنع مولاي من تلك الآلات، ومن يستحلف على الضلالات، وهيهات لقد مرد شيطانه، وصعبت أشطانه وإنما هو الآن يرجى ليجتذب ويجتمع لكي يثبت.

---

(١) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/٢٥٣، ابن بسام، الذخيرة: ٢/٢٢١، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/٤٢٥، ابن سعيد، المغرب: ١/٣٨٩، المقري، نفح الطيب: ١/٦٥٢.

(٢) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/٢٥٣.

وقال الفتح[1]: ودخل سرقسطة فلما رأى غباوة أهلها وتكاثف جهلها، عكف على راحِهِ معاقراً، وعطف بها على جيش الوحشة عاقراً، فبلغه أنهم نقدوا شرابه وفلّوا بالملام غرابه. فقال[2]: [الطويل]

نقمتم عليَّ الراح أدمن شربها ... وقلتم فتى لهوٍ ليس فتى جد
ومن ذا الذي قاد الجياد إلى الوغى ... سواي ومن أعطى كثيراً ولم يكد
فديتكم لم تعلموا السرَّ إنما ... قليتكم جهدي فأبعدتكم جهدي

[١٩١] ثم قال: وأهدى الناس في يوم عيد إلى المعتمد واختلفوا وقضوا الغرض وتنفلوا واقتصر هو على ثوب صوف بحري أهداه وكتب معه[3]: [الكامل]

لما رأيت الناس يختلفون في ... إهداء يومك جئتهم من بابه
فبعثت نحو الشمس شبه إهابها ... وكسوت متن البحر نحو ثيابه

وقال يتغزل في غلام رومي لمؤتمن بن هود قد لبس درعاً وهو يرنو بنرجسة ويعطر بسوسنة[4]: [الوافر]

وأغيَدَ من ظِباء الرُّوم عَاطٍ ... بسالفتيه من دمعي فريدُ
قسا قلباً وسَنَّ عليه درعاً ... فباطنه وظاهره حديد

وقال[5]: [الوافر]

رَشَاً يرْنُو بنرجسةٍ ويَعْطُو ... بسَوْسَنَةٍ ويبسم عن أقاحِ
يُشير إليَّ قرطاه وتصغي ... خلاخله إلى نغم الوشاح

وقال[6]: [مخلع البسيط]

يا عَضُدَ الدَّولة المُصَفَّى ... من جَوْهرِ النُّبل والذَّكاء

---

(١) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ٢٥٦.
(٢) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ٢٥٦.
(٣) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ٢٥٧.
(٤) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ٢٥٥.
(٥) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ٢٥٦.
(٦) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ٢٥٧.

ماذا ترى في اصطباح يومٍ مُذَهَّبِ الصَّباح والمساءِ
نسرقه من يدي زمانٍ لم يَقْسِمِ الرِّزق بالسواء

قال الفتح[1]: واستدعى منه في إحدى سفراته مشروب بموضع ليس فيه غير القتاد، ومحل المرتاد، فبعثه وقرن معه تفاحتين ورمانتين، وقال[2]: [الوافر]

خذوها مثل ما استهديتموها عَروساً ما تزف إلى اللئام
ودونكم بها ثديي فتاة أضفت إليهما خَدَّي غلام

وقال يصف مكاناً عليًّا حبس به: [الكامل]

ومعارج أَدَّتْ إلى حَرَجٍ حتَّى من الأنواء والقطْرِ
عالٍ أَظُنُّ الجنَّ إذ مردت جَعَلته مرقاة إلى النسر
وَحشٍ تناكرت الوجوه بهِ حتى استربت بصفحة البدر
قصر تمهد بين خافيتي نسرين من فلك ومن وكرِ
متحيز سال الوقار على عطفيه من كِبَرٍ ومن كِبْرِ [١٩٢]
ملكت عنان الرِّيح راحتُهُ فجيادها من تحته تجري

ومنهم:

٩٠ ـ ابن العطار:

بدر الأفق الغربي، ومالك عنان اللسان العربي، المسك ما مجه يراعه، والسلك ما مده صواعه، أعلته الدول اعتلاء النجاد، واعتقلته اعتلاق النجاد.

ومن نثره الذي أقطعه سرى الآفاق، ومجرى النجوم بين الغروب والإشراق قوله: جددت يا حزبي هذه أكرمكم الله العهد بكم، ووجدت أكثرها من ثمرات أدبكم، ومن حرم نفس عصام حرم الإعظام، ففلان ممن كان يلوذ بالفقيه الأستاذ واقتدى به، وأخذ عن آدابه ما اقتبس من أنواره، وآنس بجواره ثم حرمته الأقدار وتناءت به الدار، فأهل أن يشرق بماء مقلته، وأن يوثق بنجوم ليلته وما أجزاه أن يصلح من أخراه وأخلقه أن

(١) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ٢٦٨.

(٢) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ٢٦٨.

يثوب إلى من خلقه، فبذنبه ذهب عنه من قربك بصيبه، وإن الرجل ليحرم الرزق بذنب يُصيبه كيف ما هو إحياء النفوس من القوت، وأعلى قدراً من نفيس الياقوت، والله سبحانه وتعالى يغفر لمن عصاه، ويدني بحوله من أقصاه، فيقتضي البين، ويلقى عصاه وينشد قول الأول: [الطويل]

فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافرُ

ومنه قوله: لقد قال رأى في نزوحي عنه ونأيي ولو علقت لما انتقلت عن قَطر وهو من رباه عن عطر، ولا تركبت محلاً هو بفخره محلًّى، ولا فارقت سيدي الأستاذ ولو سمحت لي دنياي لملك بغداد، فطالما أفادني من رباع الحلم عالي جوهر، وأورد فيَّ من رائع الكلام صافي نهر، ولرب مقال تميز عن أشكاله، وأعجز لإشكاله فحرم عن الذهن الصقيل معنى ذلك القبل حله ويحله فأضحك ثغره ولمعت ثناياه وذكرك فتضعفت ثناياه والله يبقيك للعلم تعلي أعلامه وتجلي ظلامه.

وكتب إليه أبو عبدالرحمن بن طاهر: في إحاطتك الوافية ودرايتك الوافرة أني بك راجح ميزان الذخر، منهل ماء الفخر ترى أرض الود قطر رائحة العهد، وأن بشراي تتابعت [١٩٣] أن هلالك في الوزارة طلع بدراً، وأن نداك بها صار شفعاً وكان وتراً، فقلت: ساقها شغفها وراءه شرفه لا شرفها فليهنها حلولها بفرقديها، وحمل بين نيرها وأنك مقلدها من خلالك فذًّا وتوأماً، وملبسها من صفاتك طرزاً، وأعلى فأحسن بعين ومتانة دين وطيب خدم، ورسوخ ورع وعلم، وأدباً كالروض بنهر الصبا وكرماً كالغيث غمر الربى، ولقد نفذت للتهنئة فأقبلت على هواديها، وانثالت عليَّ من حاضرها وباديها، فإن تقدمت فلفرط أطفته وإن تعظمت فلعظم الهيبة.

ومنهم:

٩١ ـ ذو الوزارتين أبو عامر بن الفرج[1]:

أيكة مجد مد الله أيامه وأدامها، وثبت في السعادة أقدامها، فذلت له المصاعب وانقادت له بعقيصها انقياد الكاعب، فوطد دولة ملك قربه، وأمضى له عزيمة تولت الملك لربه، لم تزل أيامه سامية الذوائب شامخة الأنف على النوائب لا تكلم الدهر إلَّا

---

(١) الفتح بن خاقان، القلائد: ٢٩٧/١، ابن بسام، الذخيرة: ٦٤/٣، ابن سعيد، المغرب: ٣٠٣/٢.

بغمز حواجبها، ولا بتقدم الليالي، ولا للقيام لواجبها إلى آخر مدة أيامه، ومفاجأة ما كان يتوقعه من أيامه، وطالما لبس الأيام أفوافا، ووعد المرام فوافى فأخذ من الأيام غفلاً، وصحب الزمان في أول شبيبته وكان طفلاً.

قال ابن بسام[1]: من بيت رئاسة، وعترة نفاسة، ما منهم إلا من تجدى بالإمارة، وتردى بالوزارة، فأومض في آفاق الدول، ونهض بين الخيل والخول، وفاقهم أبو عامر هذا أدباً ونبلاً، وباراهم كرماً تخاله وبلاً، إلام بقي وذهبوا، ولقي من الأيام ما رهبوا فعاين منكرها وشرب عكرها فجال في الآفاق واستدر أخلاف الأرزاق، وأجال للرجاء مداها متواليات الإخفاق، وقد أثبت له بعض [ما قاله][2]، وحاله قد أدبرت والخطوب قد أنبرت فمن ذلك: [الكامل]

الشمس أنت وقد أظلَّ طلوعها ... فاطلع وبين يديك فجر صادق

وكان له ابن مكبود قد أعيا علاجه، وتهيأ للفساد بذلك مزاجه، فدل على خمرٍ قديم، فلم يعلم بها إلَّا عند فتى وسيم، فكتب إليه[3]: [١٩٤] [مجزوء الرمل]

أرسل بها مثل ودّك ... أرق من ماء خدك

شقيقة النفس فانضح ... بها جوى ابني وَعبدك

وكتب معتذراً إلى تخلفه عمن جاء منذراً[4]:

ما تخلفت عنك إلَّا لعذر ... ودليلي في ذاك حرص عليك

فقيل إن الفراق من غير عذر ... أتراه يكون إلَّا إليك

ومنهم:

٩٢ ـ أبو محمد بن القاسم[5]:

أثنى عليه ابن خاقان بجهده، ووصف له حال حمول كفنه ببرده، وكحله بشهده

---

(١) ابن بسام، الذخيرة: ٣/ ٦٤.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من الذخيرة.

(٣) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ٣/ ٦٥.

(٤) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ٣/ ٦٥.

(٥) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ٣٧٧.

إلا أنه قال ما معناه: أنه أقبل على ربه وأقبل نظره بيد أكتبه. وقال وقد وصفه في الأدب بأعلى الرتب: وقد أتيت من نثره المنتخب، ونظمه المستحل المستعذب، ما تعاطيه المدامة، ولا يدانيه قدامة، قلت: وهو كما وصفه به الفتح وفوقه، تناول بيده ذهب الشمس، وفضة القمر، وصاغ الثريا خاتمه، والبلال طوقه، وسرى إلى الأفق والنجوم رواكد، وأشار وأغار على شرب الكواكب وأخذ فرائد.

قال الفتح[1]: فمن ذلك ما راجعني به من رقعة كتبتها إليه مودعاً ووصفت فيها النجوم: عذيري من ساحر بيان، وناثر جُمان، ومظاهر إبداع وإحسان، ما كفاه أن اعتام الجواهر اعتياماً، وجلاها في أبهج مطالعها نثراً ونظاماً، حتى حشد الكواكب والأفلاك، وجلبها كتائب من هنا ومن هناك وقدماً حمل له النباهة، وأعجز أَدواء البداهة، وليس الغمر كالنزل، رويدك أبا النصر، فما سميت فتحاً لتفتح علينا أبواب المعجزات، ولا ملئت سروراً لترتقي علينا إلى الأَنجم الزاهرات، فنأتي بها قبيلاً، وتريد منا أن نسومها كما سمتها قوداً وتذليلاً. وأنَّى لنا أن نساجل احتكاماً، أو نباسل إقداماً، من أقدم حتى على القمرين، وتحكم حتى في انتقال الفرقدين، وقص قوادم النسرين ثم ورد المجرة، وقد تسلسلت غدرانها، وتفتح في حافاتها أقحوانها، وهناك اعتقد النجم التنجيم، وأحمد المراد الكريم حتى إذا رفع قبابه، ومد كما أحب أطنابه سئم الدهماء وصَمم المضاء، واقتحم على العذراء رواقها، وفصم على [١٩٥] الجوزاء، وتغلغل في تلك الأرجاء واستباح ما شاء أن يستبيحه من نجوم السماء، ثم ما أقنعه من بَهرها بإدلاله حتى ذعرها بجياد أقواله،وغمرها باطراد سلساله، فله ثم خيل وسيل، لأجلها شمر عن سوق التوأمين ذيل، وتعلق برجل السفينة سهيل، هناك سَلَّم المسالم، وأسلم المعارض والمقاوم، فما الأَسد وإن لبس الزبرة يَلَبًا[2]، واتخذ الهلال مخلباً، وإنما انتهض تحت صبا أعنته وقبض على شبا أسنته، وما الشجاع وإن هال مقتحماً، وفغر عن الدواهي فماً، وقد أطرق مما رآه، ولا وجد مساغاً يأباه، وما الدامي وقد أقعص عن مرامه، ووجئت لبته بسهامه، أو السماك وقد قطر دفيناً، وغودر بذابله، وتجاوز لمقتي وصفوي، ومنعني بفكري فقد رجع قليلاً، ودع لي ذهني عسى أن يتودع قليلاً.

---

(١) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/٣٧٨.

(٢) الزبرة، الشعر المجتمع بين كتفي الأسد، واليلب: جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرؤوس خاصة.

قلت: ولما أشاع ذكره ما كتب به الفتح وما أجابه ابن القاسم من هذا الجواب كتب القاضي عياض إلى ابن القاسم رقعة مضمونها: قد وقفت أعزكما الله على بدائعكما الغريبة ومنازعكما البعيده القريبة ورأيت ترقيكما من الدهر إلى الزهر وقفلتكما إلى الدراري بعد الدر، فأبحتما حمى النجوم وقذفتماها من ثواقب أفهامكما بالرجوم وتركتماها بعد الطلاقة ذات وجوم، فحللتما بسيطها بغاره سعولها ما عوت أكلب العواء هناك افترست الدوارس ولم تغن عن السماك الداعس، وغودرت النثرة نثاراً، وأعشى لألاؤها نقعاً مثاراً كأنَّ لكما قبلها ثاراً، وأشعرت الشعريان ذُعراً، وقطعت إحداهما أواصر الأخرى، فأخذت بالحزم العيون، وبدرت خيلكما وسيلكما بالعبور، وحذرت اللحاق أن تعود عن منعى العيون، فخلفت أختها جهدها في الاختفاء، كأن الثريا حين ثرتم بقطينها، اتقتكم بيمينها، فجذذتم بنانها، وبذلتم للخضيب أَمانها، فعندها استسهل سهيل الفرار، فأبعد بيمينه الفرار، وولى الدبران مدبراً وذكر البعاد فوقف متحيراً وعادت الفوائد بشامها وألقت الجوزاء الأمان بنطاقها ونظامها، فمهلاً سكنا غوغاء الدهماء، فقد ذعرتماً حتى نجوم السماء فغادرتماها في حمدكما قليلاً واجعلا بعدكما [١٩٦] للناس إلى البيان سبيلاً فقد أخذتما بآفاق المعالي والبدائع لكما قمراها والنجوم والطوالع[١].

فكتب إليه، هذا ابن القاسم رسالة منها: هببت أنت هبوب زيد الفوارس، وقربت تقريب الألد المداعس، تومض في وجوم، وتمتعض للنجوم فاستخرجتها ومن هناك صبحت الفيالق، وفتحت المغالق فأذعن لبشر وظل الشرطان وازدحمت بالبطين حلقتا البطان وثار بالثريا وعصفت بالدبران الدبور وهكذا استعرضت واستهضت للخطب النازل ثم تيامنت نحو الجنوب فواها للمعاصم والجنوب: [البسيط]

لم يبق غير طريد غير منقلب   أو موثق في حال القد مسكوب

استخرجت السفينة من لججها وحالت الناقة بهودجها وغودرت العقرب يخفق فؤادها وذعرت النعائم فخاطب طرادها ولما مسحت تلك الآفاق ما نحت فيها وشددت الوثاق عطفت ذات الشمال وانبعثت أسباب الشمال فلا تتطلع إلا لتلقي إليك باليمين

---

(١) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/ ٣٨١.

واستدارت حولك الفكه فسميت قصعة المساكين وأنهيت إلى القطب فكان عليه المدار وتبوأته ففيه من جلالتك افتخار(١).

ومن نظمه قوله وقد كتب إليه بعض أصدقائه(٢): [البسيط]

واحسرتا لصديق ما له عوض ... إن قلت من هو؟ لا يلقاك معترض
ألقاه بالنفس لا بالجسم من حذر ... لعلَّةٍ ما رأيت الحر ينقبض

فكتب إليه من قطعه(٣): [البسيط]

ناشدتك الله والإنصاف مكرمة ... أما الوفاء بحسن الود مفترض
هب المزار لمعنى الريب مرتفع ... ما للوداد بظهر الغيب منخفض

ومنهم:

٩٣ ـ الصاحب ذو الرئاستين أبو مروان عبدالملك بن رزين(٤):

وهو من نوع الأول هو من الأمراء، ويعد من الكتاب والشعراء يرفع له بين الكتائب علمه، وبين الكتاب قلمه، وقد ذكره الفتح بعد أن ألم بذكر كريم ذكره سلفه وقد تم شرفه [١٩٧] فقال(٥): شيد بنائهم وتقبل غناهم لا يعرف جبناً ولا خوراً ولا يتلو غير سور الند أسواراً، وكانت دولته موقف البيان ومقذف الأعيان، يرتضع فيها للمكارم أخلاف، وتدار بها للأماني سُلاف، فوردت الآمال نداه تميراً ووجد الأحمال في ذراه سميراً.

ومن نثره قوله(٦):

ما زلت ألقاك بالود على البعد، فأعلم مقدمك في الأعيان، وإن لم أرك بالعيان، وأستخبر الأخبار فأسمع، ما يقرع صفاة الكبد ويصدع، إلى أن ورد فلان فاستفهمته

---

(١) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/٣٨٣.
(٢) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ١/٣٨٩.
(٣) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ١/٣٩٠.
(٤) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/١٥٧، ابن بسام، الذخيرة: ٣/٦٩، ابن سعيد، المغرب: ٢/٤٢٨.
(٥) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/١٥٧.
(٦) الفتح بن خاقان، القلائد: ١/١٦٥.

عن حاله فذكر [ما][1] أزعج، ارتماضاً لمثلك أن يعوزه مرام، أو ينبو به مقام فجردت عن ساعد الشفاعة عند القائد الأعلى فوقع الاعتذار بأنه أمر محظور وقد تقدم به جد محذور وأنا أعرض ما هو الأولى لي والأليق بي عن عزيمة مكينة ورغبة وكيدة من الانتقال إلى جهتي وأن يبقي عليك الكون بها لبرد هوائها وبعد أنحائها فها هي شنتمرية أقف ظاعنها عليك وأصرف أمرها إليك وعندي من العون على الارتحال ما يقتضيه لك رفيع الحال.

ومن نظمه قوله[2]: [الطويل]

وروض كساه الطلُّ وشيًا مجدداً ... فأضحى مقيماً للنفوس ومعقدا

إذا صافحته الريح خلت غصونه ... روا قص في خُضر من العَصب ميَّدا

إذا ما انسكاب الماء عاينت خلته ... وقد كسرته راحة الريح مبردا

وغنت به ورق الحمام حولنا ... غناءً ينسيك الغريض ومعبدا

فخذها مداماً من غزال كأنه ... إذا ما سعى بدرٌ تحمل فرقدا

ومنه قوله[3]: [الخفيف]

برح السقم بي فليس صحيحاً ... من رأت عيونه مراضا

إن للأعين المراض سهاما ... صيرت أنفس الورى أغراضا

ومنه قوله يخاطب ابن عمار حين تجنى عليه[4]: [الطويل]

تحقق أبا بكر ودادي وحقّق ... وصدق ظنوني في ودادك واصدق

أيجمل بيعي في كسادٍ ببهرج ... وقد كان ظني ضد ذا وتحققي

[١٩٨]

ثنائي على مرِّ الزمان محلقٌ ... عليك وإن أبديت بعض التخلق

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ... ولكن من يبصر جفونك يعشق

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من الفتح بن خاقان.

(٢) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ٣/٧٦.

(٣) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ١/١٦٨.

(٤) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ١/١٦٨.

ومنه قوله(١): [الطويل]

دع الدمع يُغني الجفن ليلة ودَّعوا إذا انقلبوا بالقلب لا كان مدمع
إذا سلت الألحاظ سيفاً خشيته وفي الحرب لا أخشى ولا أتوقع

ومنه قوله في شمعة(٢): [مجزوء الرمل]

رب صفراء تردَّت في شحوب العاشقينا
مثل فعل [النار](٣) فيها تفعل الآجال فينا

ومنهم:

٩٤ ـ أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون(٤):

كان في الأندلس مُتيم ذلك الحي، وعاشق ولادة لا مي، زاد على مجنون ليلى وقيس لبنى وابن أبي ربيعة صاحب الثريا، لا يغترف إلّا من صبابته، ولا تركه هواه، أنحف من قلم من نار على علم، وله مع ولادة أخبار ما حكى مثلها ابن أبي عتيق، ولا الأصفهاني عن سكان وادي العقيق، ولا الأصمعي عن ذلك الفريق، أندى من نسيم الصباح، وأرق من ريق الغوادي في ثغور الأقاح.

وكاتب ولادة ذات يوم بوادر يشيب لها رأس الوليد، ونوادر ندر تذر مثل لبيد كالبليد.

حكى ابن زيدون على ما كان عليه وتنوع الفضل لديه كان منهم الجلوة أنه هو الأعلى فمرت ولادة يوماً، وأتى إليها ابن زيدون كان يبلغها يوماً فما ترددت حتى أنشدت: [السريع]

ما لابن زيدون على فضله يوسعني شتماً ولا ذنب لي
يلحظني شزراً إذا جئته كأنني جئت ليخفى علي

---

(١) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ٣/ ٨٠.

(٢) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ٣/ ٨٠.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن بسام.

(٤) الفتح بن خاقان، القلائد: ٢/ ٢٠٩، ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٢٠٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ١٣٩، ابن سعيد، المغرب: ١/ ٦٣.

وذكره الفتح[1] فقال: بهر بنظامه، وظهر كالبدر ليلة تمامه، فجاء من القول بسحر، وقلد أبهى نحر، ولم يصرفه إلَّا بين ريحان وراح، ولم يطلعه إلَّا في سماء مؤانسات وأفراح.

وقال ابن بسام[2]: كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة، وضرع أدبه، وجاد شعره، وعلا شأنه ثم انتقل عن قرطبة إلى المعتضد صاحب إشبيلية سنة إحدى وأربعين وأربعمائة [١٩٩] فجعله من خواصه يجالسه في خلواته، ويرتكن إلى إشاراته، وكان معه في صورة وزير. قلت: توفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

ومن نثره قوله[3]:

إني وإن سلبتني لباس إنعامك، وعطلتني من حلي إيناسك، وأظمأتني إلى برد إسعافك، ونقضت بي كف حياطتك، وغضضت عني طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأملي، وسمع الأصم ثنائي عليك، فقد يغص بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتى الحذر من مأمنه، ويكون منية المتمني في أُمنيته والحين قد يسبق جهد الحريص: [الكامل]

كل المصائب قد تمر على الفتى   وتهون غير شماتة الحساد

وإني لأتجلد، وأرى أني لا أتضعضع، وأقول: هل أنا إلَّا يدٌ أدماها سوارها، وجبين غص به إكليله، ومشرفيّ ألصقه بالأرض صاقله، وسمهري عرضه مثقفه، وهذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع، رأي يريني أن سيدي وإن أبطأ معذور سعيه، أو تأخر غير ضنين غناؤه فأبطأ الدلاء أملاها، وأبقل السحاب أثقلها وأنفع الغيث ما صادف جدباً، وألذُّ الشراب ما صاب غليلاً، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب.

ومن نظمه قوله[4]: [الطويل]

وليل أدمنا فيه شُرب مُدامهِ   إلى أن بدا للصبح فيه تأشير

---

(١) الفتح بن خاقان، القلائد: ٢/ ٢٠٩.

(٢) ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٢٠٨.

(٣) ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٢٠٩.

(٤) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ٢/ ٢٤٥.

وجاءت بوادي الصبح تضرب في الدجى ... فولت نجوم الليل والليل معمور
فحزنا من اللذات أطيب طيبها ... ولم يعرنا همٌّ، ولا عاق تكدير
خلا أنه لو طال دامت مسرتي ... ولكن ليالي الوصل فيهن تقصير

ومنه قوله(1): [البسيط]

وللنسيم اعتلال في أصائله ... كما رق لي فاعتلّ إشفاقا
والروض عن مائه الفضيِّ مبتسم ... كأنما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذَّات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سُرّاقا
لو كان وفّى المنى في جمعنا بكم ... لكان من أكرم الأيام أخلاقا [٢٠٠]
لو شاء حمل نسيم الريح حين هفا ... وافاكم بفتى أضناه ما لاقا
والآن أوثق ما كنا نودكم ... سلوتم وبقينا نحن عشاقا

ومنه قوله(2): [الكامل]

ولقد شكوتك بالضمير إلى الهوى ... ودعوت من حنق عليك فأمّنا
منيت نفسي من صفائك ضلّة ... ولقد تغرُّ المرء بارقة المنى

ومنه قوله(3): [مجزوء الكامل]

راحت يصح بها السقيم ... ريح يعطرها النسيم
مقبولة هبت نسيما ... فهي تعبق بالشميم
إيه أيا عبدالكريم ... نداء مغلوب الغريم
ذكرى لعهدك كالسهاد ... سرى فبرح بالسليم
عهد كما لوف الرضاع ... يشوق ذكراه الفطيم
أيام أعقد ناظري ... بذلك المرأى الوسيم
والله يعلم أن حبك ... من فؤادي في الصميم
إن الذي قسم الحظوظ ... حباك بالخلق العظيم

---

(1) الشعر في الفتح بن خاقان، القلائد: ٢/٢٢٦.
(2) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ١/٢٦٨.
(3) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ١/٢٢٧.

لا أستزيد الله نعمى ... لي فيك بل أستديم

ومنه قوله(١): [الطويل]

وإني لتنهاني نُهاي عن التي ... أشار بها الواشي ويعقلني عقلي
أأنقض فيك المدح من بعد قوة ... فلا أفتدي إلَّا بناقضة الغزل
هي النعل زلت بي فهل أنت مكذب ... لقِيلِ الأعادي إنها زلّةُ الحِسْلِ
ألا أن ظني بين فعليك واقف ... وقوف الهوى بين القطيعة والوصل

ومنه قوله(٢): [البسيط]

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والدهر قد غض من أجفان واشينا
سِرَّان في خاطرِ الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

ومنه قوله(٣): [البسيط]

أما رضاك فشيءٌ ماله ثمن ... لو كان سامحني في ملكه الزمن
تبكي فراقك عين أنت ناظرها ... تدلج في هجرها عن هجرك الوسن

[٢٠١]

إن الزمان الذي عهدي به حسن ... قد حال مذ غاب عني وجهك الحسن
والله ما ساءني أني جفيت ضنًى ... بل ساءني أن سري في الهوى عَلَنُ
لو كان أمري في كتم الهوى بيدي ... ما كان يعلم ما في قلبي البدن

ومنه قوله(٤): [مجزوء الرجز]

يا ليل طل أو لا تطل ... لابد لي ما أسهرك
لو بات عندي قمري ... ما بت أرعى قمرك

---

(١) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٢١٧.

(٢) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٢٢٣.

(٣) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ١/ ٢٢٩.

(٤) البيت الثاني في الديوان ص ٢٠٨، والأول جاء في الديوان صفحة ٢٠٨:

يا ليل طلْ، لا أشتهي ... إلا بوصلِ قِصَرَكْ

ومنهم:

٩٥ ـ ابن عبدوس:

وزير ما تقلد مثله عبء ملك، ولا أخرج نظيره خب فلك، فما دار على شبيه ذكائه الفلك الدوار، ولا تفتح على ملك زهره الندى النوار، إلّا أنه لم يقع لي من مختار نظمه وبديع شعره على عظمه أليق بالتخليد مما أورد له ابن سعيد، وهو قوله في فرس أبيض في غرته لمعة حمراء: [الخفيف]

حسن هذا الجواد حين بدا ... في شبه لم يكن لذي بلق
وقام عليه النهار مذعنا ... فاعترفت عرفه يد الشفق

ومنهم:

٩٦ ـ أبو عامر بن مسلمة[١]:

الوزير في الأيام الأموية والمنير شمساً في آفاقها الضويه، والنمير في مواردها الروية، والمساوي لبدور أهلة أو الجائي بالسوية، لا بل زاد على سلفه، وزان معاقد شرفه، وزال وذكره لم يزل في خلفه.

قال ابن بسام فيه[٢]: من قوم لم يزالوا أقماراً في آفاق الكتّاب، وصدوراً في صدور المراتب. وكان أبو عامر من شرفهم بمنزلة الفص من الخاتم، وبمكان السر من صدر الحازم فلما ثُلت العروش الأموية تحيز إلى المعتضد لأملاك قديمة كانت له بالبلد، فعاش بفضل زنده، ومصون عن الدخول في شيء من أمره إلّا عن زيادة إلمام، ومنادمة في بعض الأيام، جذبه إليها، وغلبه مضطراً عليها، ولم يزل يتخادع له عن ذلك استدفاعاً لشره، ومداراة على بقية عمره حتى مات مستوراً بماله سيداً على أشكاله.

ومما أنشد له قوله[٣]: [المجتثّ]

---

(١) الفتح بن خاقان، القلائد: ٢/٢٤٩، ابن بسام، الذخيرة: ٢/٦٢، ابن سعيد، المغرب: ١/٩٦.
(٢) ابن بسام، الذخيرة: ٢/٦٢.
(٣) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ٢/٦٢.

أيـا شـقـيـقـي إخـائـي ويـا قـسـيـمـي صـفـائـي

ومـن هـمـا فـي ذوي الـفـهـم جـوهـر الأدبـاء [٢٠٢]

تـفـضـلا وأجـيـبـا إلـى نـدي نـداء

لـتـأنـسـا بـحـديـثٍ وقـهـوة وغـنـاء

وقوله[1]: [الكامل]

لا تـسـقـنـي راح الـكـؤوس بـل اسـقـنـي سـحـر الـعـيـون يـقـمْ مـقـام الـراح

فـأقـام لـي مـن لـحـظـه ورضـابـه راحـاً وقـام الـخـد بـالـتـفـاح

(١) الشعر في ابن بسام، الذخيرة: ٢/ ٦٥.



وأما الوزراء
بالديار المصرية



فمنهم:

٩٧ ـ أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كِلِّس وزير العزيز نزار[1]:

وزير عبق بكافور ردفه، وأورد يسقي ابن الفرات غصنه، وتردى بشعار فترقى وتجنب إلَّا هامة تخت بيضاء الفضة، وصفراء الذهب فتونى، ومضت أيام الإخشيد وتمام بنائه قد شيد، وواتته الأقدار ووافته لمقدار وذلك بإطلال طبيعة الدولة العبيدية على مصر، فإنه سار حتى أتى برقة، وقدمت مقدمتها، وجلت الأنوار بعثير العجاج ظلمتها، فتحلى نضاره بجوهرها وتبدل كافوره المفتت بعنبرها، فمن قائل إنه استمر حتى اتصل بالمعز تميم، وعاد بالعز معه في كنف غير ذميم، ومن قائل وهو الأغلب أنه حيث وجد مقدمة جيشه المطل مع القائد جوهر عاد تحت ألويته يروع سيفه المجوهر ويروق إكليله الذي ذهب وهو ذهب، وعاد وقد تجوهر.

وقدم المعز فأعز مكانه وأمد لشدّ قواعد الممالك أركانه، ولم يصرح له بالوزارة إلَّا أنه كان هو المتحدث، وأمره مُصرَّف، وقدره مشرَّف، هذا وجوهره في الذخيرة، وسفره يرى له في إعزازه الخيرة، فرتب دولة الخلافة ترتيباً جرت عليه وجرّت التصريف إليه فلم يبق ليعقوب حاجة في نفسه إلَّا قضاها، ولا عزمة تناط وسيفه المجوهر إلَّا أمضاها.

وزاد في أيام العزيز جلالاً ورق ماء ابن الفرات فلم يدع في فمه بلالا، وفوضت إليه الوزارة فردت إليه الأمور كلها، وطاب به جناها وظلها، وكان خفيف الأحمال في مؤنة كلفه، عفيف الأنام عن الأموال لإفراط صلفه، مظاهراً بالتدين بدين الإسلام والتزين بشعار الأعلام يؤثر خصاصه ويتجر من الثراء [٢٠٣]، ويزعم أنه من ولد

---

(١) ابن القلانسي، الذيل: ٣١، ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/ ١٨١، ابن سعيد، المغرب: (مصر: ٢١٥، ابن الأثير، الكامل: ٩/ ٧٧، ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة: ٤٧، ابن ميسر، أخبار مصر: ١٦٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٢٧.

هارون أخي موسى بن عمران ﷺ. وقيل: كان يزعم أنه من ولد السموأل بن عاديا اليهودي[١].

ولد ببغداد ونشأ بها عند باب القز، وتعلم الكتابة والحساب، وسافر به أبوه إلى الشام، وأنفذه إلى مصر سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، فانقطع إلى بعض خواص الأستاذ كافور فجعله كافور على عمارة داره، ثم صار ملازماً لباب داره، فرأى كافور من نجابته وشهامته وصيانته ونزاهته وحسن إدراكه ما نفق عليه، فاستحضره وأجلسه في ديوانه الخاص، فكان يقف بين يديه، ويخدم ويستوفي الأعمال والحسابات، ويدخل يده في كل شيء، ثم لم تزل أحواله تتزايد مع كافور حتى صار الحجاب والأشراف يقومون له ويكرمونه، ولم تتطلع نفسه لاكتساب مال، وأرسل له كافور شيئاً فرده عليه وأخذ منه القوت خاصة، وتقدم كافور إلى سائر الدواوين أن لا يمضي دينار ولا درهم إلَّا بتوقيعه، فوقع في كل شيء، وكان يبر ويصل من اليسير الذي يأخذه هذا كله وهو على دينه[٢].

ثم أسلم في شعبان سنة ست وخمسين وثلاثمائة، ولزم الصلاة ودراسة القرآن الكريم، ورتب لنفسه رجلاً من أهل العلم شيخاً عارفاً بالقرآن والنحو، حافظاً كتاب السيرافي، فكان يبيت عنده ويصلي به ويقرأ عليه، ولم يزل حاله تزيد وتنمو مع كافور إلى أن توفي كافور فقبض وزيره على جميع الكتاب وأصحاب الدواوين، وقبض يعقوب بن كلس في جملتهم للحسد، فلم يزل ابن كلس يتوصل ويبذل المال حتى أفرج عنه، فلما خرج من الاعتقال اقترض من أخيه وغيره مالاً وتحمل به، وسار مستخفياً قاصداً بلاد المغرب فلقي جوهراً مولى المعز في الطريق، وهو متوجه بالعساكر والخزائن إلى الديار المصرية ليملكها فرجع صحبته، وقيل: إنه استمر على قصده وانتهى إلى إفريقية وتعلق بخدمة المعز ثم رجع إلى الديار المصرية، ولم [يزل][٣] يترقى إلى أن ولي الوزارة وزيراً للدولة الفاطمية بالديار المصرية. وكان من جملة كتاب كافور، فلما وصل المعز أحسن في خدمته وبالغ في طاعته حتى استوزره[٤].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٢٧.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٢٨.

(٣) إضافة يقتضيها السياق وفي الأصل: ولم يز قي.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٢٨.

وقال غيره: كان ابن كلس يحب أهل العلم ويجمع عنده العلماء، ورتب لنفسه مجلساً كل ليلة جمعة، ويقرأ فيه بنفسه مصنفاته، ويحضره القضاة والفقهاء والعلماء والنحاة، وجميع أرباب الدول، وأعيان العدول، وغيرهم من وجوه الدولة [٢٠٤] وأصحاب الحديث، فإذا فرغ من مجلسه أقام الشعراء ينشدونه المدائح، وكان في داره قوم يكتبون القرآن، وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب حتى الطب، ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها، وكان من جملة جلسائه: الحسين بن عبدالرحيم الزلازلي مصنف كتاب «الأسجاع» ورتب في داره القراء والأئمة يصلون في مسجد اتخذه في داره، وأقام فيها أيضاً المطابخ لغلمانه وحاشيته وأتباعه، وكان ينصب كل يوم خواناً لخاصته من أهل العلم والكتاب ومن يستدعيه وينصب موائد عديدة يأكل عليها الحجاب، ولا يخاطب أحد منهم إلّا بالقائد، وكان من جملتهم القائد أبو الفتوح فضل بن صالح الذي ينسب إليه منية القائد فضل وهي بالأعمال الجيزية من أعماله[١].

ثم شرع الوزير يعقوب في تحصين داره، ودروب غلمانه بالحرس والديرونه والسلاح والعدد، وعمرت ناحيته بالأسواق وأصناف ما يباع من الأطعمة ومن المطعوم والمشروب والملبوس، ويقال إن داره كانت في القاهرة في موضع مدرسة الوزير صفي الدين بن شكر المختصة بالطائفة المالكية وأن الحارة المعروفة بالوزيرية التي بالقاهرة منسوبة لأصحابه لأنهم كانوا يسكنوها[٢].

وكان الوزير ابن الفرات يغدو إليه ويروح، ويقرأ عليه محاسبات القوم الذين يريد محاسبتهم ويعول عليه فيها ويجلس معه في مجلسه، وربما حبسه لمواكلته، فيأكل معه بعد أن جرى عليه منه ما سبق ذكره[٣]، وكانت هيبته عظيمة وجوده وافراً وأكثر الشعراء مدحه[٤].

قال ابن خلكان[٥]:

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٢٩.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٣٠.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٣٠.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٣٠.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٣١.

سمعت جماعة من المصريين يقولون: كان للوزير يعقوب طيور فائقة أصيلة، مختارة للسبق تسبق كل طائر يسابقها، وكان لمخدومه العزيز أيضاً طيور سابقة فاخرة، فسابقه العزيز يوماً ببعض طيور الوزير، فسبق طائر الوزير يعقوب فعز ذلك على [العزيز][1] ووجد أعداؤه سبيلاً إلى الطعن، فقالوا للعزيز: إنه قد اختار من كل صنف أجوده وأعلاه، ولم يبق منه إلَّا أدناه حتى الحمام وقصدوا بذلك الإغراء به حسداً منهم لعله [يتغير عليه][2]، فاتصل ذلك بالوزير فكتب إلى العزيز: [السريع]

قــل لأمــيــر الــمــؤمــنــيــن الــذي	لــه الــعــلا والــنــســب الــثــاقــب
طــائــرك الــســابــق لــكــنــه	جــاء وفــي خــدمــتــه حــاجــب

فأعجبه ذلك وسري عنه ما كان وجده عليه قيل إن هذين البيتين لولي الدولة أبي محمد بن خيران الكاتب.

وذكر أبو القاسم علي بن منجب الكاتب[3]: أن سبب حظوة [٢٠٥] الوزير يعقوب عند كافور أن يهودياً قال له: إن في دار ابن البلدي بالرملة ثلاثين ألف دينار مدفونة في موضع أعرفه، وأنا أخرج أحملها، فأجابه إلى ذلك، وأنفذ معه البغال لحملها، وورد الخبر بموت بُكَير التاجر فجعل إليه النظر في تركته، واتفق موت يهودي ومعه أحمال كتان فأخذها وفتحها فوجد فيها عشرين ألف دينار، فكتب إلى كافور بذلك فتبرك به، وكتب إليه بحملها، فباع الكتان، وحمل الجميع، وسار إلى الرملة، وحفر الدار الذي لابن البلدي، وأخرج المال وهو ثلاثون ألف دينار فكتب إلى كافور عرَفْتُ الأستاذ أنها عشرون ألف دينار ووجدت ثلاثين ألف دينار، وازداد محله عنده وتصوره بالثقة.

ووقعت رقعة في دار الوزير سنة ثمانين وثلاثمائة وهي السنة التي توفي فيها، نسختها: [الخفيف]

احــذروا مــن حــوادث الأزمــان	وتَــوَقَّــوا طــوارق الــحــدثــان
قــد أمــنــتــم مــن الــزمــان ونــمــتــم	رب خــوف مــمــكــن فــي أمــان

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن خلكان.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن خلكان.

(٣) ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة: ٤٧.

فلما قرأها قال: لا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم، واجتهد أن يعرف كاتبها فلم يقدر على ذلك[١].

فلما اعتل علة الموت آخر السنة ركب إليه العزيز عائداً، وقال له: وددت أنك تباع فأبتاعك بملكي، أو تفدى فأفديك بولدي، فهل من حاجة توصي بها، فبكى وقبَّل يده، وقال: فيما يخصني فأنت أرعى بحقوقي من أن أسترعيك إياها، وأرأف على من أخلفه من أن أوصيك به، ولكني أنصح لك فيما يتعلق بدولتك: سالم الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالسكة والدعوة، ولا تبق على مفرج بن دغفل إن عرضت لك فيه فرصة، ومات فأمر العزيز بدفنه في داره بالقاهرة داخل باب النصر، وأمر بغلق الدواوين أياماً بعده، وكان إقطاعه من العزيز كل سنة مائة ألف دينار، ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، ووجد له جوهر بأربعة آلاف دينار، وبز من كل صنف بخمسمائة ألف دينار، وكان للتجار عليه ستة عشر ألف دينار فقضاها عنه العزيز من بيت المال وفرقت على قبره[٢].

وكانت وفاته لخمس خلون من ذي الحجة سنة ثمانين وثلاثمائة، وكفن في خمسين ثوباً، واجتمع الناس كلهم من القصر إلى داره، وخرج العزيز وعليه الحزن ظاهر، وركب بغلته بغير مظلة، وكانت عادته لا يركب إلَّا بها، وصلى عليه وبكى [٢٠٦] وحضر مواراته، ويقال إنه ألحده بيده، ويقال إنه: كفن وحنط بما مبلغه عشرة آلاف دينار، وذكر من سمع العزيز، وهو يقول: وا طول أسفي عليك يا وزير، وبكى عليه القائد جوهر بكاءً شديداً، وإنما كان على نفسه لأنه عاش بعده سنة واحدة، ووفد الشعراء إلى قبره وقيل إنه رثاه مائة شاعر وأخذت قصائدهم وأجيزوا[٣].

وقيل إنه مات على دينه، وكان يظهر الإسلام، والصحيح أنه أسلم، وحسن إسلامه. قال يوماً: ـ وقد ذكر اليهود في مجلسه ـ كلاماً يسوء اليهود سماعه ثم بيّن عوراتهم وفساد مذهبهم، وأنهم على غير شيء، وأن اسم النبي ﷺ في التوراة وهم يجدونه. وكانت ولادته سنة ثمان عشرة وثلاثمائة[٤].

---

(١) ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة: ٥١.
(٢) ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة: ٥١.
(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٣٣، ٣٤.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٣٤.

ومنهم:

٩٨ ـ أمير الجيوش بدر الجمالي[١]:

وزير ذهب جلابيب الشفق، وذهب زمانه على نسق، وأسوق بدره في الدولة الفاطمية، وكان من الرجال المعدودة، في ذوي الآراء والشهامة، وقوة العزم، استنابه المستنصر صاحب مصر بمدينة صور، وقيل عكا، فلما ضعف حال المستنصر، واختلت صورته، وصف له بدر هذا فاستدعاه وركب في البحر في الشتاء وقت لم تجر العادة بركوبه في مثله، وركب إلى القاهرة في جمادى الأولى، وقيل الآخرة سنة ست وستين وأربعمائة فولاه المستنصر تدبير أموره، وقامت بوصوله الحرمة، وأصلح الدولة، وكان وزير السيف والقلم، وإليه قضاء القضاة، والتقدم على الدعاة، وساس الأمور أحسن سياسة، ويقال إن وصوله كان أول سعادة المستنصر وآخر قطوعه، وكان يلقب أمير الجيوش، ولما دخل على المستنصر قرا قارئ بين يدي المستنصر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣][٢] ولم يتم الآية، فقال المستنصر: لو أتمها ضربت عنقه، ولم يزل كذلك إلى أن توفي في أواخر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة[٣].

وهو الذي بنى الجامع بثغر الإسكندرية بسوق العطارين، وبنى مشهد الرأس بعسقلان[٤].

ولما مرض وزر ولده الأفضل موضعه في حياته، فلما توفي المستنصر أقام الأفضل ولده المستعلي أحمد مقامه، وتم على وزارته، وقضية الأفضل مع نزار بن المستنصر وغلامه أفتكين الأفضلي، وأبي الإسكندري مشهورة في أخذهما، وإحضارهما إلى القاهرة، فأما أفتكين فقتل ظاهراً، وأما نزار فقيل إن أخاه المستعلي بنى في وجهه حائطاً فمات [٢٠٧] وإلى نزار هذا ينسب ملوك الإسماعيلية أصحاب

---

(١) ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة: ٩٤، ابن ميسر، أخبار مصر: ٣٩، المقريزي، الخطط: ١/ ٣٨٢، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٣١١، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٤٨، ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/ ٢٢٩.

(٢) ما بين الحاصرتين من ابن خلكان.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٤٩.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٥٠.

الدعوة أرباب قلعة الألموت وما معها من القلاع في بلاد العجم[1].

وكان الأفضل المذكور حسن الرأي، ولما توفي المستعلي أقام ولده الآمر مقامه كما فعل بأبيه، ودبر دولته، وحجر عليه، ومنعه من ارتكاب الشهوات لأنه كثير اللعب، فحمله ذلك على قتله، فأوثب عليه جماعة، وكان يسكن مصر في دار الملك التي على النيل، وقد صارت دار الوكالة فركب الأفضل من داره وتقدم إلى ساحل البحر، وقتلوه في سلخ شهر رمضان سنة خمس عشر وخمسمائة[2].

وحكى صاحب الدول المنقطعة[3]: أنه خلف ستمائة ألف ألف دينار عيناً، ومائتين وخمسين إردباً دراهم نقد مصر، وسبعين ألف ديباج أطلس، وثلاثين راحلة إحقاق ذهب عراقي، ودواة فيها جواهر قيمتها اثنا عشر ألف، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب منها لبس، وخمسمائة صندوق كسوة لخاصه، وخلف من الرقيق والخيل والبغال والمراكب والطيب والتجمل والحلي ما يعلم قدره إلَّا الله، وخلف خارجاً عن ذلك من البقر والجواميس والغنم ما بلغ ثمن ألبانه سنة وفاته ثلاثين ألف دينار. ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسم النساء والجواري.

وحكى ابن الأثير[4] في ترجمة والده ما معناه: أن علقمة بن عبدالرزاق العليمي. قال: قصدت بدر الجمالي بمصر فرأيت أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ولم يصلوا إليه. قال: فبينا أنا كذلك إذ خرج بدر يريد الصيد، فخرجت في أثره وأقمت إلى أن رجع من صيده. وقفت على نشز من الأرض وبيدي رقعة أنشد منها قولي: [الكامل]

نحن التجار وهذه أعلاقنا ... دُرٌّ وجود يمينك المُبتاع

وافاك يحملها إليك تجارها ... ومطيُّها الآمال والأطماع

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٥٠.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٥٠.

(٣) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/ ٤٣٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٢٢٦.

حتى أناخوا حول بابك والرجا — من دونك السمسار والبياع

فوهبت مالم يعطه في دهره — هرم ولا كعب ولا القعقاع

[٢٠٨] وسبقت هذا الناس في طلب العلى — فالناس بعدك كلهم أتباع

يا بدر أقسم لو بك اعتصم الورى — ولجأوا إليك جميعهم ما ضاعوا

وكان على يده بازي فألقاه. وانفرد عن الجيش وجعل يسرد الأبيات وأنا أنشدها إلى أن استقر في مجلسه، ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته: من أحبني فليخلع على هذا الشاعر، فخرجت من عنده ومعي سبعون بغلاً محملة خلعاً وتحفاً ثم أمر بعشرة آلاف درهم.

ومنهم:

٩٩ ـ المأمون أبو عبد الله بن البطائحي(١):

وزير حلق إلى مصر بين البطائح، وحقن دمه بمنهل الدماء الطوائح، وساس سائب التدبير وضبطه، وعقد نظام الملك وربطه، تيسرت له الأسباب حتى تنبه جفنه الغضيض، وطلع إلى الأوج من الحضيض، ومشى له الأمر مثل الآمر، وظهر كرمه مع وجود سحابة الهامر، وحذر بأسه والأمر مظل الظلماء، والمأمون مع هذا البأس الشديد، والمراس الذي يلين دونه الحديد، متوقد الجمرات، مصلت السيف، لا يرده في مرات بلسان مطلق، وجنان على البأساء مطبق، إلى أن نكبه الآمر في جملة أهل النكبة التي ضيق فيها على ثعالبهم الأوجار، ورفعهم لو كان ما قيد لهم من تربيط النجار.

قال ابن الأثير(٢): ابتداء أمره أنه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، مات أبوه ولم يخلف شيئاً، فتزوجت أمه وتركته فقيراً، فاتصل برجل يعلم البناء بمصر، ثم صار يبيع الأمتعة بالسوق الكبير، فدخل مع الحمالين إلى دار بدر الجمالي أمير الجيوش مرة

---

(١) ابن ميسر، أخبار مصر: ٨٧ ـ ١٠٥، ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/٢٣١، ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة: ١٠٣، ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٢٩، ابن أيبك، كنز الدرر: ٦/٤٩٣، النويري، نهاية الأرب: ٢٦/٨٦، المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/٦٤، ابن المأمون، أخبار مصر: ٢٠، ابن الطوير، نزهة المقلتين: ١٠

(٢) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٢٩.

بعد أخرى فرآه خفيفاً رشيقاً، سريع الحركة، حلو الكلام، فأعجبه فسأل عنه فقيل له هو ابن فلان فعرفه، واستخدمه مع الفراشين، ثم تقدم عنده، وكبرت منزلته، وعلت حاله حتى صار وزيراً.

وكان كريماً، واسع الصدر، قتّالاً، سفّاكاً للدماء، وكان شديد التحرز، كثير التطلع إلى أحوال الناس من العامة والخاصة بمصر والشام، وكثر العيارون، وتراسل هو وجعفر أخو الآمر ليقتل الآمر، ويجعله خليفة، وتقرر هذا بينهما، فسمع بذلك أبو الحسن بن أبي أسامة، وكان خصيصاً بالآمر، وأعلمه الحال، فقبض عليه وصلبه هو وإخوته وذلك سنة تسع عشرة وخمسمائة[1].

حكي أنه وجد له ألف دست كامل من القماش الفاخر برسم ملبس جسده، ووجد له جمل أموال لا تحصى من العين الذهب والفضة والجواهر الغوالي [٢٠٩] والنفائس، والأمتعة، والخيل والبغال، والجمال، والبقر، والغنم، وأنه كان له ثمانون جملاً برسم الماء من شاطئ النيل إلى أُدره التي بالقاهرة خارجاً عن أدره التي بمصر، وغالب أدره. بمصر، هذا مع ما كان موصوفاً به من سعة الكرم، والتمخرق في العطاء، وإن كان ربما يعطي في اليوم الواحد ألف ألف درهم، وكان يلومه خواص أصحابه وخلطائه على إفراطه في الإفراط والكرم، فقال: سجية طبعت عليها، لا أقدر على إزالتها ثم يقول: لولا حملقة الأسد لأكثرت الحرز، يشير إلى خوفه من بأس الآمر، ويقال: لا يرى إلَّا رأي الإمامية، وأنه كان يريد يقلب الأمور ليجعلها إمامية، والذي أقوله إن الكرم يستر كل قبيح رحمه الله وغفر له[2].

ومنهم:

١٠٠ ـ أبو علي بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي[3]:

ورث الوزارة وحازها وذهب، ذهب في النفاق وسولت له نفسه أمراً قال له

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٢٩ ـ ٦٣٠.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/٦٤.

(٣) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/٢٤١، ابن أيبك، كنز الدرر: ٦/٥٠٦، ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٧٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/٢٣٥، ابن ميسر، أخبار مصر: ١١٦، النويري، نهاية الأرب: ٢٦/٢٩٧، المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/١٤٠

الحافظ: فصبر جميل، وطال عليه إعطاؤه، وفي قلبه له غليل، حتى كان هذا سبب حنقه ومؤتشب ما لم يفده معه تقليب كفه، ولم تغن عنه أمواله التي أعدها، ولا عزائمه التي أشدها.

ذكر ابن الأثير(١): أن السبب في قتله أنه كان قد حجر على الحافظ، ومنعه من أن يحكم في أمر من الأمور، وأخذ ما كان في القصر إلى داره، وأسقط من الدعاء ذكر إسماعيل جد هذا البيت، وأبطل وأسقط من الأذان حي على خير العمل، ولم يخطب للحافظ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهي: السيد الأفضل، سيد ممالك أرباب الدول، الحامي عن حُرمة الدين، ناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر غمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بتصرفه بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح [بيانه](٢) وإرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، وملك فضيلتي السيف والقلم، السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش.

قال: وكان إماميَّ المذهب يكثر ذم الحافظ والتنقص به، فنفرت منه الشيعة وكرهوه، وعزموا على قتله، فخرج [٢١٠] في العشرين من المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة إلى الميدان ليلعب بالكرة، فأكمن له جماعة منهم مملوك إفرنجي كان للحافظ فأخرجوه من الخزانة التي كان فيها، وحمل عليه الفرنجي فطعنه وقتله، وحزوا رأسه، وخرج الحافظ من الخزانة التي كان فيها، وأمر الناس فنهبوا داره وأخذ منها ما لا يحصى، وركب الحافظ إلى داره، وأخذ ما بقي، ثم بويع الحافظ فخافه الحافظ(٣)، وتحيل منه يانس، فاحتاط، وتحيل الحافظ عليه بأن وضع له طعاماً في الطهارة ماء مسموماً فاغتسل به، فوقع الدود في مخرجه، وقيل له: متى قمت من مكانك هلكت، وكان يعالج بأن يجعل اللحم الطري في المحل فيعلق به الدود ويخرج، ويجعل عوضه، فقارب الشفاء، فركب إليه الحافظ كأنه يعوده، وقعد عنده، ثم خرج من عنده فتوفي في تلك الليلة(٤).

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٦٧٢.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الأثير.
(٣) المقصود أنه خاف وزيره الجديد يانس الحافظي.
(٤) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣.

قال ابن الأثير[١]: إنما ذكرت ألقابه تعجباً منها، ومن حماقة هذا الرجل انتهى كلامه.

فائدة قال: استوزر الحافظ ابنه حسناً، وخطب له بولاية العهد سنة ست وعشرين وخمسمائة، فتجرأ في سفك الدماء، وتغلب على الأمر جميعه، واستبد به، ولم يبق لأبيه معه حكم، وقتل من الأُمراء الكبراء كثيراً حتى أنه قتل في ليلة واحدة أربعين أميراً، فلما رأى أبوه هذا منه أخرج له خادماً من خدم القصر فجمع الجموع، وتقدم إلى القاهرة ليقاتل ابنه حسناً، ويخرجه منها فأخرج حسن لأبيه جماعة من خواصه وأصحابه فقاتلوهم فانهزم الخادم واستكان الحافظ، وصبر تحت الحجر، ثم اجتمعت بقية الأُمراء على قتل حسن وأَرسلوا إلى الحافظ، وقالوا: إما أن تسلم إلينا ابنك لنقتله، أو نقتلكما جميعاً، فاستدعى ولده إليه، واحتاط عليه، فلم يرض الأُمراء إلَّا بقتله فسمَّه، ثم أدخل خواصهم عليه فرأوه وخرجوا حتى تيقنوا بموته[٢].

وفيه قيل[٣]: [البسيط]

لم تأتِ يا حسن بين الورى حسَناً	ولم تر الحق في دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا حق ولا سبب	والجور في أخذ أموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا أدب	تيه الملوك وأخلاق المجانين

ومنهم:

١٠١ - [رضوان بن ولخشي][٤]:

كان في دولة الحافظ إلَّا أنه مالكها، وصباحها إلَّا أنه تجلى به حالكها، أملك بيده أَسرَّتها وقيم مسائها كما شاء ومشربها، إلا أنه اسقم بسوء تدبيره ذلك الأوان، وجاء من العقاب ما عند مالك وهو رضوان، ولم يزل حتى أنجز له سابق وعيده، وجر

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٦٧٣.

(٢) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/ ٢٤٣.

(٣) الأبيات في ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٢٣، وهي منسوبة للمعتمد بن الأنصاري.

(٤) الاسم ساقط من الأصل، والإضافة من مصادر ترجمته وهي: ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٤٨، ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/ ٢٤٤.

إلى مصرعه بحبل وريده، وحمل رأسه كأنه هدي يزف [٢١١]، وقتل كأنه من شيعة الشمر بن ذي الجوشن، وما هو إلَّا من شيعة أهل الطف.

وزر للحافظ باليد واستتبت له الأمور، وفلت أيدي معانديه، وكان السبب في هذا أن الحافظ استوزر بعد ابنه حسن المسيء الفعل أشرّ منه وأشأم وأردى والأم، وذلك بهرام النصراني ولقبه بالأمير تاج الدولة فاستعمل الأرمن على الناس، فاستذلوا المسلمين، وامتدوا إلى أموالهم ونعمهم وتحكموا وجاروا، وأهان ذوي الأَقدار هو والأَرمن الذين ولَّاهم فطمعوا فيهم، ولم يكن في مصر من أنف من ذلك إلَّا رضوان، فإنه قلق لهذا وجمع جمعاً كثيراً، وقصد القاهرة، وسمع به بهرام، فهرب إلى الصعيد من غير حرب ولا قتال، وأتى أَسوان فمنعه واليها من الدخول إليها، وقاتله فقتل كثير من الأَرمن، ثم لما لم يقدر على الدخول إلى أسوان أرسل إلى الحافظ يطلب الأمان فأمنه، فعاد إلى القاهرة فسجن بالقصر، فبقي مدة، ثم ترهب، وخرج من الحبس[١].

وأما رضوان فإنه وزر للحافظ، فعمل[٢] الحافظ في إخراجه، فثار الناس عليه في منتصف شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة فهرب من داره وتركها بما فيها، فنهب الناس منها ما لا يعد ولا يحصى، وركب الحافظ فسكن الناس، ونقل ما بقي في دار رضوان إلى قصره، وسار رضوان يريد الشام ليستنجد بالأتراك، فأرسل إليه الحافظ ابن مصال ليرده بالأمان والعهد أنه لا يؤذيه، فقيل إنه رجع فحبسه الحافظ. وقيل: بل أتم إلى الشام وإلى صرخد، ونزل على صاحبها كمشتكين، فأكرمه، وأقام عنده ثم عاد إلى مصر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ومعه عسكر، وقاتل المصريين فهزمهم وأقام ثلاثة أيام، ثم تفرق كثير ممن معه، فعزم على العود إلى الشام، فأرسل إليه الحافظ ابن مصال فرده وحبسه عنده في القصر، وجمع بينه وبين عياله، فأقام في القصر إلى سنة ثلاث وأربعين، ثم ثقب الحبس وخرج منه وقد أعدت له خيل فركبها، وعبر النيل إلى الجيزة فحشد وجمع، وعاد إلى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون فهزمهم، ودخل القاهرة فنزل عند الجامع الأقمر، وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالاً ليفرقه على عادتهم، فإنهم كانوا إذا وزروا وزيراً أرسلوا إليه عشرين ألف دينار، فأرسل إليه

(١) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٢) في الأصل: فعهد والصواب ما أثبت.

الحافظ بها وفرقها، وكثر الناس عليه بطلب زيادة، فأرسل إليه مثلها ففرقها، وتفرق الناس عنه وخفوا عنه، فإذا الصوت قد رفع وخرج إليه جمع كثير من السودان جهزهم الحافظ عليه، فحملوا على غلمانه فقاتلوهم، وقام ليركب فقدم إليه بعض أصحابه قريباً، فلما أراد ركوبه ضرب رجل رأسه بالسيف فقتله، وحمل رأسه إلى الحافظ، فأرسله [٢١٢] إلى زوجته فوضعته على حجرها فاكتنفته، وقالت له: هكذا يكون الرجال. ثم لم يستوزر الحافظ بعده أحداً بل كان يباشر الأمور بنفسه[١].

ومنهم:

١٠٢ ـ أبو الحسن علي بن السلار المنعوت بالملك العادل سيف الدين[٢]:

وزير الظافر العبيدي؛ ومميز تلك الأيدي، كان في تلك الأيام التي أظلمت بدعها، وعلت شيعها، علة في تلك الدهماء، وفجراً متألقاً في تلك الظلماء، ممن لا يرى أهل تلك الفرق المضلة أعرض عنها متصامماً وأظهر الرضى بها فكأنما وقد عقد ضميره على إزالتها، وعهد إلى عزيمة في أعلى السنة وإدالتها، واستقدم من الفقهاء من كان يسر مجالسته، ويديم مؤانسته، ويستنصح برأيه في ظلم ذلك الضلال، ويتردد بصحبته في ضحى ذلك الهوى حر كالظلال، ولو عمر وساعدته الأقدار للمَّ شعث الجماعة، ونظم مواضع تلك الطماعة، ولكنه كان موقد الحنق لا يمرض غضبه، ولا يخمد لهبه، ولا يستقر سيفه في القراب حتى يغالبه ثوبته.

قال ابن خلكان[٣]: رأيت في بعض النسخ من تواريخ المصريين: أنه كان كردياً زرزارياً، وكان تربية القصر بالقاهرة، وتقلبت به الأحوال إلى الولايات بالصعيد وغيره إلى أن ولي الوزارة للظافر في رجب سنة ثلاث[٤] وأربعين وخمسمائة.

ثم وجدت في مكان آخر أن الظافر استوزر أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ١١/٤٨ ـ ٤٩.

(٢) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/٢٤٩، ابن القلانسي، الذيل: ٤٧٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/٤١٦، ابن ميسر، أخبار مصر: ١٤١، النويري، نهاية الأرب: ٢٨/٣١١، المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/١٩٣.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/٤١٦.

(٤) «ثلاث» ساقطة من الأصل والإضافة من ابن خلكان.

نحواً من خمسين يوماً، وكان شهماً مقداماً، مائلاً إلى أرباب الصلاح والفضل، عمر بالقاهرة مساجد، وكان ظاهر التسنن، شافعي المذهب، ولما صارت إليه ولاية الإسكندرية زاد في إكرام الحافظ أبي طاهر السلفي، واحتفل به،وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه، وهي معروفة به إلى الآن[1].

وكان ذا سيرة جائرة، وسطوة قاطعة، يؤاخذ الناس بالصغائر والمحقرات، ومما يحكى عنه أنه قبل وزارته بزمان، وهو يومئذ من آحاد الأجناد دخل يوماً على الموفق أبي الكرم ابن معصوم التنيسي، وكان يتولى الديوان، فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية، فلما أطال عليه الكلام، قال له أبو الكرم: والله إن كلامك ما يدخل في أذني، فحقد عليه ذلك، فلما ترقى إلى درجة الوزارة طلبه فخاف منه واستتر مدة، فنادى عليه في البلد وأهدر دَم من يخفيه، فأخرجه من خبأه عنده، فخرج في زي امرأة بإزار وخف، فعرف وأخذ، وحمل إلى العادل فأمر بإحضار لوح خشب ومسمار طويل، وأمر به فألقي على جنبه، وطرح اللوح تحت أذنه ثم ضرب المسمار في الأذن الأُخرى، وصار كلما صرخ يقول: دخل كلامي في أذنك لمَ لا، ولم يزل كذلك حتى [٢١٣] نفذ المسمار إلى الأذن الأخرى التي عليها اللوح ثم عطف المسمار على اللوح ويقال إنه شقه بعد ذلك[2].

وكان قد وصل من إفريقية أبو الفضل عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، وهو صبي، ومعه أمه فتزوجها العادل المذكور، وأقامه عنده زماناً، ورزق ولداً سماه نصراً، فكان عند جدته في دار العادل والعادل يحنو عليه ويعزه، ثم إن العادل جهز عباساً إلى جهة الشام بسبب الجهاد، وكان معه أسامة بن أسعد بن منقذ، فلما وصل إلى بلبيس وهو مقدم الجيش الذي سار في صحبته تذاكرا طيب الديار المصريّة وحسنها، وما هي عليه وكونه يفارقها ويتوجه للقاء العدو، ويقاسي البيكار، فأشار عليه أسامة على ما قيل بقتل العادل وأنه يستقل هو بالوزارة، ويستريح من البيكار، ويقرر بينهما أن ولده نصراً يباشر ذلك إذا رقد العادل، فإنه معه في الدار، ولا ينكر عليه ذلك وحاصل الأمر أن نصراً قتله على فراشه يوم الخميس في

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤١٦.

(٢) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/ ٢٥١.

المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة بدار الوزارة بالقاهرة. وقيل قتل يوم السبت حادي عشر المحرم منها[1].

ومنهم:

١٠٣ ـ أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح[2]:

كان هو السلطان لا الوزير، والملك ودونه كل أمير، والخليفة وإن كان غيره الجالس على السرير، امتطى السنام وسطا فروَّع رعبه حتى في المنام، وكان نهر الندى، ويهتم البرق ولا يبلغ له مدى، أجود من ابن مايد يداً، وأوضح من نار حاتم مدى، وأسرى من الأنواء تهب في السحب الدوائج، وأسرع من الأضواء ظلماً في نشب الهوادج، وكان مجلسه مجال الأدب وتحمال الأدب، ولا علوا من مديد مواهب وجديد على آثار ذواهب كأنما أعيد به زمان آل جفنة وقد عبر، وقام حسان في آل غسان وقد نسي الخبر، وكان الفائز معبراً لم يكد يفارق القوايل، ولا يخرج بهمه من يد النائل، قد ذهب دعاء شيعته يـوم الباغية يومه، وأذن عن الآمر بعزله، فتفرد الصالح أبو الطلائع بكل إمضاء، وكل دونه كل مضاء إلا أنه ألف القلوب وما نفرها وتتبع بحسنات زمانه سبّة كل دهر وكفرها، ونظر في المصالح وساس الرعية سياسة الملك الصالح، وشرع في عمارة البلاد حتى كأنما كانت مدة أيامه تكتسي جليل الديباج، وتوقد لها في كل ناحية سراج، لا ترى إلّا بسط فضاء فرش بالأزهار، وبديع شقائق [٢١٤] خضر طرزت بالأنهار، وعميم أثر لا يلتمس فيه وجه المريب ولا يروع الشامت، هذا وسيفه لا يرى منه إلّا خلته، وجواده لا يعرف منه إلّا حسن شيته، إلى أن أتت الأرزاء ودهته حيث لا يَمنع الأعزاء.

ذكر ابن الأثير[3]: أن عباساً لما قتل الظافر، وأقام الفائز ظن أن الأمر يتم له على قدر ما يريده فكان الحال خلاف ما اعتقده، فإن الكلمة اختلفت وصار إذا أمر

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤١٧.

(٢) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/ ٢٥٥، ابن الأثير، الكامل: ١١/ ١٩٣، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٩٣، ابن ميسر، أخبار مصر: ١٥٢، النويري، نهاية الأرب: ٢٨/ ٣١٩، المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ٢٣٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل،: ١١/ ١٩٣ ـ ١٩٤.

بالأمر لا يلتفت إليه، ولا يسمع قوله، وأرسل من بالقصر والخدم إلى الصالح طلائع ابن رزيك يستغيثون، وأرسلوا شعورهن على الكتب، وكان في منية بني خصيب والياً عليها وعلى أعمالها، وليست من الأعمال الجليلة، وإنما كانت أقرب الأعمال إليهم، وكان فيه شهامة، فجمع ليقصد عباساً، وسار إليه، فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الأموال التي لا تحصى كثرة والتحف والأشياء [التي][1] لا يوجد مثلها مما كان أخذه من القصر، وسار معه ولده نصر وأسامة بن منقذ، فلما سار وقع به الفرنج فقتلوه وأخذوا جميع ما معه فتقووا به وسار الصالح فدخل القاهرة بأعلام سود، وثياب سود حزناً على الظافر، والشعور التي أُرسلت إليه من القصر على رؤوس الرماح، وكان هذا من الفأل العجيب فإن الأعلام السود العباسية دخلتها، وأزالت الأعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة.

فلما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلعة الوزارة، واستقر في الأمر، وأحضر الخادم الذي شاهد قتل الظافر فأراه دفنه، وأخرجه، ونقله، وذلك في ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة إلى مقابرهم بالقصر، وقتل الفرنج عباساً وأسروا ابنه فأرسل الملك الصالح بذل لهم مالاً، وأخذه منهم، فسار من الشام مع أصحاب الصالح، فلم يكلم أحداً منهم كلمة إلى أن رأى القاهرة، فأنشد: [الطويل]

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وأدخل القصر، وكان آخر العهد به، وقيل إنه قتل وصلب على باب[2] ثم أخذ الصالح في استقصاء بيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية، فأهلك أهلها، وأبعدهم عن ديارهم، وأخذ أموالهم، فمنهم من تفرق في بلاد الحجاز واليمن وغيرها، وكان قد فعل ذلك خوفاً من أن[3] يثوروا عليه وينازعوه الوزارة، وتحكم في الدولة التحكم العظيم[4].

واستبد بالأمر والنهي وجباية الأموال إليه لصغر العاضد، ولأنه هو ولاه وزوج ابنته من العاضد [٢١٥] فعاداه أيضاً الحرم فأرسلت عمة العاضد الأموال إلى الأمراء

---

(١) إضافة يقتضيها السياق.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٩٣، وفيه صلب على باب زويلة من أبواب القاهرة.

(٣) في الأصل منهم، وصوبناه ليستقيم السياق.

(٤) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/ ٢٥٨.

المصريين، ودعتهم إلى قتله، وكان أشدهم في ذلك رجل يقال له ابن الراعي، فوقفوا في دهليز القصر، وضربوه بالسكاكين على دهش، فجرحوه جراحات مهلكة، وحمل إلى داره وفيه حياة، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضى بقتله، فحلف العاضد أنه لم يعلم بذلك، ولا رضي به فقال: إن كنت بريئاً، فتسلم عمتك لي حتى أنتقم منها، فأمره بأخذها فأرسل إليها وأخذها قهراً، وحضرت عنده فقتلها، وأوصى بالوزارة لابنه[1] رزيك، ولقب العادل، فانتقل الأمر إليه بعد وفاة أبيه في رمضان سنة ست وخمسين وستمائة[2].

وكان كريماً فيه أدب ومعرفة، وكان لأهل العلم عنده نفاق، ويرسل إليهم العطاء وبلغه أن محمد ابن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل شرح بيتاً من شعره وهو: [الطويل]

تجنب سمعي ما يقول العواذل ... وأصبح لي شغل من الغزو شاغل

فجهز [هدية] سنية ليرسلها إليه فقتل قبل إرسالها.

وبلغه أن إنساناً من أعيان الموصل قد أثنى عليه بملكه، فأرسل كتاباً يشكره ومعه هدية.

وكان إمامياً لم يكن على مذهب العلويين المصريين، لما ولي العاضد الخلافة وركب، سمع الصالح ضجة عظيمة، فقال: ما الخبر؟ فقال: إنهم يفرحون بالخليفة، فقال: كأني بهؤلاء الجهلة يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا، وما علموا أني من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم[3].

قال عمارة اليمني[4]: دخلت عليه قبل قتله بثلاثة أيام، فناولني قرطاساً فيه بيتان من الشعر، وهما: [الخفيف]

نحن في غفلة ونوم وللمو ... ت عيون يقظانة لا تنام

قد رحلنا إلى الحِمام سنيناً ... ليت شعري متى يكون الحِمامُ

---

(١) في الأصل: لابنها والصواب ما أثبت.

(٢) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٣) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة: ١/ ٢٦٠.

(٤) عمارة اليمني، النكت العصرية: ٤٩.

فكان آخر عهدي به.

قال عمارة[1]: ومن عجيب الاتفاق أنني أنشدت ابنه قصيدة أقول: [الطويل]

أبوك الذي تسطو الليالي بحده ... وأنت يمينٌ إن سطا وشمالُ

لرتبته العليا وإن طال عمره ... إليك مصير واجب ومآلُ

تخالسك اللحظ المصون ودونها ... حجاب شريف لا انقضى وحجالُ

فانتقل الأمر إليه بعد أيام.

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة جهزت عمة العاضد على الصالح أبي الغارات من قتله بالسكاكين، وهو في دهليز القصر، فحمل إلى بيته وبه رمق [٢١٦] فأرسل يعاتب العاضد، فحلف العاضد أنه ما علم بذلك، وأمسك العاضد عمته فأرسلها إلى طلائع فقتلها، وسأل العاضد بأن يولي ابنه رزيك الوزارة فولي ولقب العادل، ومات الصالح طلائع فاستقر ولده في الوزارة[2].

ولما مات الصالح دفن بالقاهرة ثم نقله ولده العادل في تابوت من دار الوزارة وهي المعروفة بإنشاء الأفضل شاهنشاه، وركب خلفه العاضد إلى تربته التي بالقرافة الكبرى، فعمل في ذلك عمارة قصيدة طويلة أجاد فيها، ومن أبياتها: [الكامل]

وكأنه تابوت موسى أودعت ... في جانبيه سكينةٌ ووقارُ

وهذا الصالح هو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة[3].

أما ولده العادل رزيك فكان الصالح أوصاه أن لا يتعرض لشاور بمساءة، ولا يغير عليه حاله، فإنه لا يأمن عصيانه والخروج عليه، وكان كما أشار قدم شاور من الصعيد على الواحات فاخترق ودخلها ثاني عشر من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، فهرب العادل وابنه وحاشيته من القاهرة ليلة العشرين من المحرم منها، وحمل من الذخائر معه ما لا يحصى، واستجار بسليمان وقيل يعقوب بن النيص اللخمي وكان من خواص أصحابهم، وحصل من جهتهم نعمة وافرة، فأنزلهم عنده وهو

---

(١) عمارة اليمني، النكت المصرية، : ٤٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٢٧٤.

(٣) عمارة اليمني، النكت العصرية: ٦٣ ـ ٦٤.

باطفيح وسار من ساعته إلى باب شاور، فأعلم بهم، فندب معه جماعة ومضوا إلى العادل وأخذوه أسيراً، وأحضروه إلى باب شاور فوقف زماناً طويلاً ثم حبسه، ثم قال شاور لابن النيص: لقد خبأك الصالح ذخيرة صالحة لولده، وأنا أيضاً أخبأك لولدي ثم شنقه، وبقي العادل في الاعتقال مدة ثم قتله وأخرج رأسه لأمراء الدولة[1].

ومن العجائب أن الصالح ولي الوزارة في التاسع عشر وقتل في التاسع عشر ونقل بتابوته في التاسع عشر، وزالت دولتهم في التاسع عشر. وفيهم يقول عمارة اليمني من أبيات: [البسيط]

ولت ليالي بني رزيك وانصرمت ... والمدح والشكر فيهم غير منصرم
كأنَّ صالحهم يوماً وعادلهم ... في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم[2]

ومن نظم الصالح أبي الغارات من قصيدة[3]: [البسيط]

آدابك الغُرُّ بحر ماله طَرفُ ... في كل سمعٍ بدا من حسنه طرف
تقول لما أتانا ما بُعثت به: ... هذا كتاب أتى، أم روضة أنف
رقت حواشي كلام أنت ناظمه ... فيه فجاء كزهر الروض يقتطف
[٢١٧] وردت بحر القوافي فاغترفت كما ... قد حل يوماً بمدِّ النيل مغترف
قرطست رمياً وكم رام بأسهمه ... إذا تحقق منه يسلم الهدف
إذا تطلع فوق الأرض ذو أدب ... فأنت منه على العيوق تشترف
لأعين الناس نهب من محاسنها ... كما القلوب يلاقيها فتختطف
إذا ذكرناك مجد الدين عاودنا ... شوق تجدد منه الوجد والأسف
ولو عرفت الذي في القلب منك لما ... إن كنت عنا على الأحوال تنصرف[4]
ولا عجيبٌ إذا خاف الزمان على ... حُرٍّ وكل قضاياه بها جنف[5]

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/٥٢٩.

(٢) عمارة اليمني، النكت العصرية: ٦٩.

(٣) طلائع، الديوان: ٩٨.

(٤) في الديوان: تختلف.

(٥) الجنف: الميل والجور.

يا من جفانا ولو [قد شاء][١] كان إلى جنابنا دون أهل الأرض ينعطف
وحق من أمّه وفد الحجيج ومن ظلت إلى بيته الركبان تختلف
إنا لنوفي على حال البعاد كما نوفي لمن ضمّه في قربنا كنف
ونغفر الذنب إن رام [المسيء][٢] بنا عفواً [ونستره][٣] في حين ينكشف
وإن جنى من رأى أنا نعاقبه يردنا الصفح إذ يعتاقنا الأنَف
نعم ونحفظ عند الغيب صاحبنا وليس يدركنا كبرٌ ولا صلف
فما لإيعادنا يوم الوغى قِبَلٌ ولا لموعودنا يوم الندى خلف
وقد أجبنا إلى ما أنت طالبه فالآن كيف [تروى][٤] فيه أو تقف
فإن يبالغ أناسٌ في الثناء على أوصافكم قصَّروا في كلٍّ ما وصفوا

وكتب إلى أسامة بن منقذ قصيدة ميمية منها[٥]: [الطويل]

ألا هكذا في الله تمضي العزائم وتمضي لدى الحرب السيوف الصوارم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما مضى نصفه حتى انثنى وهو غانم
وناهيك من رمل[٦] الجفار إذا التظى بجنبيه مشبوب من القيظ جاحم
يسير بها الضرغام في كل مأزق وما يصحب الضرغام إلَّا الضراغم
وبرقية شاموا السيوف فلم يعش لبارقها في ساحة الشام شائم
وسنبس قد شادوا المعالي بفعلهم وليس لهم إلَّا العوالي دعائم
وثعلبة أضحوا بنا قد تأسَّدوا فما لهم في المشركين مقادم
[٢١٨] وإنّ جذاماً لم يزل قط منهم قديماً لحبل الكفر بالشام جاذم
إذا ما أثاروا النقع فالثغر عابس وإن جردوا الأسياف فالثغر باسم
كذلك ما ينفكُّ تُهدى إلى العدا وللوحش أعراسٌ بنا ومآتم

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من الديوان.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من الديوان.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من الديوان.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الديوان.
(٥) طلائع الديوان: ١٣٥.
(٦) في الديوان: أرض.

وتسري لهم آراؤنا وجيوشنا ... بزاهيةٍ تبيضُّ منها المقادم

فقولوا لنور الدين لا فلَّ حده ... ولا حكمت فيه الليالي الغواشم

تجهز إلى أرض العدو ولا تهن ... وتظهر فتورًا إن مضت منك حازم

فأجابه أسامة بقصيدة منها[1]: [الطويل]

لك الفضل من دون الورى والمكارم ... فمن حاتمٌ، ما نال ذا الفخر حاتم

وصلت فأغنيت الأنام عن الحيا ... وصُلت فخافت في سطاك الصوارم

رميت العدا بالأُسد في أجم القنا ... على الجرد تقتاد الرَّدى وهو راغم

بسيل أتى السيف[2] ضاق به الفضا ... وضاقت على الأعداء منه المخارم

يبارين شهب القذف يحل مثلها ... وفي الحتف للباغي الرجيم رواجم

تعرض منها فوق غزة عارض ... سحاب المنايا فوقه متراكم

فليس لراجٍ منك غير عفوك ملجأٌ ... وليس لعاص لم يُنب منك عاصم

تنزهت عن أموال من أنت قاتلٌ ... فقد جُهلت بين الجيوش المقاسم

فنهبك أرواحٌ تُنفِّلُها الظُّبا ... وسمر العوالي، والبلاد مغانم

فلا مورد إلَّا يُمازِجُهُ دمٌ ... ولا مرتع إلَّا رعته المناسم

فسيفك للخصم المعاند خاصمٌ ... وعدلك للشكوى وللجود شاكم

خلطت السُّطا بالعدل حتى تألَّفَتْ ... أسود الشَّرى والمُطفلات الروائم

يشن أبو الغاراتِ غارات جوده ... على ماله وهو المطيع المسالم

ويبعثها شُعث النواصي كأنها ... ذئاب الفضا[3] تردي عليها الضرائم

فويح العدا من بأسها إنما سرى ... إليها ولم تشعر ردًى وأداهم

فلما أبادتهم[4] سيوفك وانجلت ... عن الأرض منهم ظلمة ومظالم

غزوتهم في البحر حتى كأنما ... الأساطيل فيه موجه المتلاطم

بفرسان بحر فوق دهم كأنها ... على الماء طير ما لهنَّ قوادم

(١) أسامة، الديوان: ٢٧٤.

(٢) في الديوان: السيل.

(٣) في الديوان: الفلا.

(٤) في الأصول: أبادتك والمثبت من الديوان.

[٢١٩] يصرفها فُرسانها بأعنَّةٍ جرت حيث لم توصل بهن الشَّكائم
إذا دفعوها قلت فرسان غارة سروا بجياد ما لهنَّ قوائم
يسوق أساطيل الفرنج إليهم حمامٌ وطير للفرنج أشائم
دماؤهم في البحر حمر سوابح وهامهم في البر سحم جواثم
ولم يخف في فج من الأرض هاربٌ ولم ينج في لجٍّ من البحر عائم
وعاد الأسارى مُردفين وسفنهم تُقاد كما قاد المهادي الخزائم
وقد شمَّر الملكان في الله طالبي رضاه بعزم لم تعقه اللوائم
وقاما بنصر الدين والله قائم بنصرهما ما دام للسيف قائم
أمير الجيوش اسمع مقالة بائح بشكرك يبدي مثل ما هو كاتم
ولولا رجاءُ الملك الصالح الذي[1] بدولته الدهر المقطب باسم
وإني أُمنِّي النفس لثم بنانه وما كان قبلي للسحائب لاثم
قضيت لبعدي عن داره ندامة ولا عجب إن مات بالهمِّ نادم

وكتب أيضاً الصالح إلى أُسامة قصيدة[2]: [مجزوء الكامل]

تلك القسيُّ من الحواجب ترمي بأسهمها الصوائب
لما افتضحن بنورهن كسين في الليل الذوائب
وكذا بدور التمِّ لا يبرزن إلَّا في الغياهب
من كل آنسة تجلل شعرها بيض المناكب
ما زال يحلف طالع منها بأفق المجد غارب
وترى لساحتنا الصواهل والعواسل والقواضب
وظلال أرماح غدت ثغر النحور بها مسارب
شهدت لنا بالبأس حين غدت مفللة المضارب
والسابغات تزر فوق شموسنا منها سحائب
ولنا إذا ما أظلمت أعراض قوم بالمثالب

(١) في الديوان: ولولا رجاء الصالح الملك الذي.
(٢) القصيدة ليست في ديوانه المطبوع.

فـجـر كـضـوء الـشـمـس قـد ... مـلأ الـمـشـارق والـمـغـارب
ولـقـد أخـذنـا الـمـلـك ... بـاسـتـحـقـاقـنـا لا أخـذ غـاصـب
والـحـرب تـعـلـم إذ تـروع ... بـيـضـهـا بـيـض الـكـواعـب
مـن ظـل يـطـعـن فـي مـضـائـقـهـا ... ويـطـعـم فـي الـمـسـاغـب
مـا كـان إلَّا الـخـمـر إذ ... تـصـفـو وتـسـكـر كـل شـارب
[٢٢٠] ولـرب تـرفـد خـامـلاً ... بـلـغـتـه أعـلـى الـمـراتـب
ورفـعـت مـنـه فـصـار ... مـرتـفـعاً عـلـى أعـلـى الـكـواكـب
غـرٌّ حـديـث الـسـن سـن ... الـعـذر فـي كـل الـمـذاهـب
فـدفـنـتـه حـيًّـا ومـا قـا ... مـت بـمـصـرعـه الـنـوادب
وإلـيـك مـجـد الـديـن بـكـراً ... لـم تـهـن يـومـاً لـخـاطـب
تـأوي لـرحـب الـبـاع ... يـكـرم عـنـده مـثـوى الـغـرائـب

فكتب إليه أُسامة قصيدة منها[1]: [مجزوء الكامل]

أطـع الـهـوى واعـصِ الـمـعـاتـب[2] ... واصـرف عـن الـواشـي الـمُـراقـب
وانـظـر إلـى الأغـصـان حـامـلـة ... شـمـوسـاً فـي غـيـاهـب
فـحـذار يـا أُسـد الـشَّـرى ... مـن فـتـك ألـحـاظ الـرَّبَـارب
غـضـبـان أفـديـه عـلـى ... مـا كـان مـنـه مـن مَـغَـاضـب
دع ذا فـمـا عُـذر الـفَـتـى ... فـي غـيِّـه والـفـودُ شـائـب
والأريـحـيـة تـمـنـع الـكـرمـاء ... أن يـغـشـوا الـمـعـايـب
والـجـهـل يـأبـى أن يـكـون ... لـه أخـو الـسـنـيـن صـاحـب
قـل لـلـسـيـد الـجـزل ... الـعـطـايـا والـمـواهـب[3]
الـصـالـح الـمـلـك الـذي ... مـنـه تـفـرعـت الـمـنـاقـب
فـابـسـط يـمـيـنـك فـهـي بـحـر ... لـم يـزل عـذب الـمـشـارب

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان: ٥٥، ٢٨١.

(٢) في الأصول: المتاعب والمثبت من الديوان.

(٣) هذا البيت وما بعده غير موجود في المطبوع من ديوان أسامة.

واغمرهم بندى يكون لهم ... إذا خانوك طالب
فإذا تساوى في ولائك ... شاهد منهم وغائب
فاحفظهم فهم سيوفك ... في الحوادث والنوائب
هذا وفي صدري شجون ... صفى عنهن الترائب
وأقبل عن ولاءك بمن ... عاداك تختلف المذاهب
أظننته إحدى ملوك ... الروم أرباب المناصب
هلا أمرت بقتله بين ... الملا قتل العقارب
أم كنت قد قاسمته ... فصدقت وهو أغش كاذب
هذا الوفاء لمن يجاهر ... بالنفاق ولم يراقب
اقتله واسمعنا لموتته ... النواعي والنوادب
هذا هو السحر الحلال ... سماعه باللب لاعب
وعلام يلتزم الوفاء ... لخائن ما زال خائب
واجعله موعظة لمن ... رام العظيم من المطالب
تتنافس الأسماع فيه ... فكل سمع منه ناهب

[٢٢١] ومما كتبه الصالح إلى أسامة من قصيدة[١]: [الخفيف]

أيها المنقذي أنت على ... البعد صديق ونعم الصديق
وأهم المهم أمر جهاد الكفر ... فاسمع فعندنا التحقيق
واصلتهم منا السرايا فأشجاهم ... بكور منها لهم وطروق
وانتظرنا بزحفنا بُرء نور ... الدين علماً بأنه سيفيق
وهو الآن في أمان من الله ... وما يعتريه أمرٌ يعوق
قل له لأعدائه رأي ولا ... زال لديه لكل خير طريق
أنت في حسم داء طاغية ... الكفار ذاك المرجو والمرموق

فأجابه أسامة[٢]: [الخفيف]

---

(١) طلائع، الديوان: ١٠٣.

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان: ١٨٦، ٢٣٨.

كم إلى كم يُلحَى المحبُّ المشوقُ وهو من سكرة الهوى لا يفيقُ
حمَّلوه وهو الضعيف من التعنيف فيهم واللّوم ما لا يُطيقُ
شجَّعوه على القطيعة والصَّبُّ من الصد والفراق فروق
ولجوه من ساحل البحر والمسكين في لجة الغرام غَريق
وأخو الوجد ما إلى قلبه المحجوب بالحب للسُّلو طريق
وإذا نهنه الدموع استجمعت وهمت وهي لؤلؤ وعقيق
مثل مُنهل أنعم الملك الصالح يروى دان به وسحيق
ملك زاده التواضع لله جلالاً يروع ثم يروق
يا أمير الجيوش ما زال للإسلام والدين منك ركن[1] وثيق
ملك عادل أنار به الدين فعمَّ الإسلام منه الشروق
ماله عن جهاد الكفر والعدل وفعل الخيرات شغل يعوق
هو مثل الحسام صدر صقيل لين مسّه حدٌّ ذليق[2]
فاسلما للإسلام كهفين ما طرزت يوم الظلام برق خفوق

وكتب الصالح إلى أسامة: أَصدرنا هذا الكتاب إلى المظفر المنصور الكامل لما تجدد قبلنا بعد توجه الرسل السائر من حضرتنا إلى الملك العادل نور الدين أدام الله له التأييد والنصر من تواصل العساكر إلينا، وقدوم الحشود المتوافرة العدد [٢٢٢] علينا، ووفود الأجلين فارس المسلمين وركن الإسلام زاد الله في علائهما وكبت حسدتهما وأَعداءهما إلى الباب في الجيوش التي سدت الفضاء، وملأت البيداء، وبهرت النواظر عدة وعديداً، وأَوسعت المُباهي المكاثر خيلاً مسوَّمة وحديداً، وجاء النفير من العربان والراجل التي يخشى قبل إحصائهم وبتيترة متجرهم، وقائدهم على أَنَّ نسوقهم سوق العضاد في نهار يوم الأحد لاثنتي ليلة خلت من رجب استخرنا الله تعالى وبرزنا مخيمين قبالة منظرة الفتوح برأس الطابية في مقيمين لما خلعنا عليه من النهوض النفقة في الجنود وتفرقة العطاء الموفر في سائر العربان والحشود طالبين بذلك وجه الله وثوابه الذي هو أكبر غنم وأجل قسم.

---

(١) في الأصل: وكرة والتصويب من الديوان.

(٢) في الأصل: له مسه حدود ليف والتصويب من الديوان.

وكأنَّ بنا ـ ولله المشيئة ـ قد نهضنا بأنفسنا وسرنا بجموعنا، وآثرنا فضل الجهاد على لين المهاد، ومشقة العمل بالفرض على طيب الدعة والخفض، وكنا قد أصْحَبنا الرسل إلى الملك العادل قصرناه عن استنهاضه وضرب ميعاد بيننا وبينه إلى مكان معلوم في وقت محدود نجتمع معه فيه، ونستعين بالله جميعاً على استئصال هذا الغواء اللعين، وإنقاذ الشام من أيدي الكفرة الملحدين، وحلفنا له يميناً مؤكدة على أنَّا لا نخلف الميعاد، وأنَّا واعدنا ولا نتَّكل أو نقصر في جهاد من حاربنا وعَاقدنا ولا يثنى عزمنا عما شرطنا، ولا تنتهي وجهتنا التي نتوجه لها دون ما صمدنا له وقصدناه.

والأمير يعلم ما يلزمنا من الكلف في هذه الحال الذي سد طرق الإفرنج هذه البلاد، ولم يتكلفها أحد من ملوك الديار المصرية سوى الأفضل بما حاز من الذخائر وملك من الأموال الجمة والعساكر، وقد تعاطينا فعله مع تأخر الزمان، راجين أنَّا إن شاء الله نربي عليه، ونجري من الغاية القصوى إلى ما لم يجر إليه، فليصف عند الملك العادل هذه الحال بصورتها، ويقررها بهيئاتها، وليستأنف في المطالعة لنا بما تجدد قبله، وحدث في البلاد من الأمور التي نتطلع إلى معرفتها، فإنه قد أخلَّ به وأهله، فهو يعلم لم سكوننا إليه وتعويلنا في المهمات عليه لفرط رغبتنا في التحريض والاستنفار فضمنا ما تضمنه كتابنا إلى الملك العادل في قصيدة ليكون أسير لذكره، وأشهر لأمره، وقد جعلناها ثني هذه المكاتبة ليقف عليها، ويصلح خَللاً إن كان فيها ومعيرها بتوليته لإذاعتها جمالاً ويزيدها بتكلفه لإشاعتها رواءً وجلالاً، فاستماع الأدباء إليه أسرع ومنه أسمع، وإيراده لها فيما يحاوله ألمع وأنجع، والأمير لا يعيب مطالعتنا، ولا يهمل مكاتبتنا ومراسلتنا، فهو عندنا القوي الأمين، وله من أنفسنا المكان المكين، فليعلم ذلك، وليعمل به.

فكتب إليه أُسامة [٢٢٣] جواباً: وينهى وقوفه على المثال العالي المشتمل على إنعامه الضافي عليه السابغ، وفضله الذي حيث حمل فهو واصل إليه بالغ، مايته وهو جوار الصعب من كتب، ويلج إذا تباعد عنه وأغرب في الطلب، ينقب عنه في البلاد، ويباري إليه سبيل العهاد، فهو غيثه الحامي، وغوثه المانع الحامي، يعقل ثناءه بشوارد الفضل، ويمرع جنابه في أزمة المحل بشكره وتمليك رقه لا يقومان بأيسر حقه، فللّه در أوراق تضمنت منا منقلاً للأعناق، لكنها خرقت العادة في الملوك، وعدلت من السنن المسلوك، يؤمر فيه بالمثول بمجلس المولى الملك العادل، ومفاوضته في ميعاد يضربه للقاء على مناجزة الأعداء.

وكان المملوك بل أهل الشام في ذلك الوقت لمرض المولى المالك في عدد الأموات لا يفرقون بين ما مضى وبين ما هو آت، ألبابهم حائرة، وقلوبهم طائرة، والعدو عليهم كلب، وحلمهم مضطرب، فكان تقصير الملوك لهذا السبب الذي أحمد الله فيه العاقبة والمنقلب.

وقد خامر المجلس العالي من ذلك على البعد ما اشتهر، وظهر من تأسفه وتوجهه ما ظهر، فكيف يُلام المملوك على تدلهه، وتشعب فكره وولهه، على من ملك بفضله رقه، وطوق بإنعامه عنقه، ونجا إلى ظله، والخطوب تكربه، والحوادث تطلبه، فأجله رأس غمدان، وجعله ينظر من علٍ إلى الزمان، ورأس جهاجه الكسير، وأنهضه وغمره من إنعامه ما ثقله كلما كان يجده، ومسيره إلى الجهاد بالعديد والعدد، وقد ندب مملوكه الأمير نجم الدين لإحضار الأُمراء الأرتقية وعساكرهم، وهو الجم الغفير والعدد الكثير، وسير من الأُمراء الأماثل جماعة كل واحد منهم إلى جهة يستدعي العساكر، وظهر من شريف الاهتمام وماضي الاعتزام في إنفاق الأَموال وجمع الرجال واستدعاء الأُمراء الأكابر أرباب الممالك والعساكر، ما لو كان يقدم في السنين الخالية ما كان بقي للكفرة باقية، والله تعالى يمده بنصره ويجعل الملائكة من أعوانه وجنوده، فهو في هذا الجانب قبة الإسلام التي يلجأ إليها، ونصرته التي يعتمد عليها.

وهذا وقت إرهان العزائم الملكية الصالحية أمضاها الله وأَعلاها، ومكن سيوفها من هام أَعدائها، ومواصلة بلاد العدو لعنة بالمقانب والعساكر، وتجهيز أول في ذكره آخر حتى يَقطع الله دابر أُولي الكفر والعناد، ويسترجع بسيوف الملكين الصالح والعادل البلاد، والله تعالى ينصرهما، ويقرب بالأعداء ظفرهما.

ينهى أنه قد شاع [٢٢٤] في بلاد الشام أَنَّ العساكر المنصورة لا تقف الغارات على العدو وطروق بلاده في الرواح والغدو والأيدي بالدعاء لمالك الرق مرفوعة والأَدعية الصالحة مجابة مسموعة، على أن الآمال في الهمم العالية منطلقة إلى أكثر من هذه الأحوال الجارية لما في النفوس منها من الإجلال والإعظام، وما جمعه الله تعالى للمجلس العالي من الورع والكرم والإقدام، فلهذا يستصغر له الكبير، ويستقل له العظيم الكثير، وقد تيسّر المطلوب، واتفقت النيات والقلوب، فما عذر الصوارم عن مد القصر والجماجم، وما إحجام الأُسد الضارية عن الكلاب العادية، أليس هم سور السيوف، وبقية صرعى الحتوف، فإذا شرعت فيهم السيوف المالكية الصالحية من هناك، والملوك العادلية أوردتهم موارد الهلاك.

وإن ترتب ذلك بمشيئة الله تعالى، ولا يتأخر، وهو تعالى يتعجل منه ما يتوقع وينتظر، والمملوك ينهي إلى همنا من مطالعته لما تضمنت الإجابة الكريمة الملكية العادلية، فإنها تشتمل على ما يتطلع إليه، ويفصح عما يعول عليه، وللآراء العالية مزيد العلو والقدرة[١].

ومنهم:

١٠٤ - أَبو شجاع شاور بن مجير بن نزار من ولد أبي ذؤيب عبد الله وهو والد حليمة مرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢]:

وزير لم يمض له أمر غالب مدته، ولا أخذ فواق نفس من خناق شدته، اتسعت في ميل تدبيره الخروق، وسعت في زمانه أكثر من ملها الفتوق، وأَحوجته غِير الحوادث، وبلايا الكوارث إلى أن انتجع حمى الشام ملحياً إلى عناية، مرتجياً لرعاية، حتى أصرخه أسد يقطع نياط القلوب زئيره، ويحرق لجج البحار زفيره، سري يوم المقام النوري،ويستوضح بزناده الوري، فرد عليه نافراً عفائة، وأنهد معه الجيوش بحكماء لعقد وفائه على أمور ضمنها للشهيد نور الدين، ثم ما وفى منها إلَّا وفاء أبي وائل، ولا قام بها إلا قيام الكوشاني لأهل بابل، فساومهم حتى إذا سكنت له دهماء مصر وأخاله بارق النصر منعهم حتى موارد الأقوات، واستدرك حتى كاد يطالبهم بالفوات، ودافع بالجيش المطل منيته، عاد فكان بالسيف الصلاحي سبب إدناء أجله، رحل به حيث أمر عاقبه وجعله.

قال ابن خلكان[٣]: كان الصالح بن رزيك قد ولاه الصعيد الأعلى، ثم ندم على توليته، وكان الصالح يعد لنفسه حين جرح وأشرف على الموت ثلاث غلطات: إحداها

---

(١) هذه الرسائل المتبادلة بين الصالح طلائع بن رزيك وأسامة بن منقذ لم نجد لها ذكراً فيما اطلعنا عليه من مصادر، ولعلها مما استفاده العمري من وثائق ديوان مصر.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية: ٣٦، العماد الأصفهاني، سنا البرق الشامي: ١/ ٧٨، ابن العبري، مختصر الدول: ٢١٢، عمارة اليمني، النكت العصرية: ٦٧، ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٣٣٥، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/ ٢٧٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٣٩، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٦/ ٩٥.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٣٩.

توليته شاور، وثانيها بناء الجامع خارج باب زويلة فإنه صار عوناً على من يحاصر القاهرة، وثالثها: خروجه إلى بلبيس [٢٢٥] بالعساكر ورجوعه بعد أن أنفق أكثر من مائتي ألف دينار حيث لم يتم إلى بلاد الشام، ويفتح بيت المقدس، ويستأصل شأفة الفرنج، وقد تقدم في ترجمة الصالح بن رزيك قدوم شاور من الصعيد إلى القاهرة، وهروب العادل بن الصالح، ولما قتله أخذ موضعه من الوزارة واستولى.

ثم توجه سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في شهر رمضان منها إلى الشام مستنجداً بالشهيد نور الدين محمود بن زنكي لما خرج عليه أَبو الأَشبال ضرغام بن عامر الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري بجموع كثيرة وغلبه وأخرجه من القاهرة، وقتل ولده طيّاً، وولي الوزارة مكانه كعادة المصريين، وأنجده أسد الدين شيركوه، وتردد معه إلى القاهرة دفعات وقتل شاور في ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة، ودفن في تربة ولده طي بالقرافة الصغرى[١].

وذكر صاحب تحفة الخلفاء: أن السلطان صلاح الدين أوقع به، وكان إذ ذاك صحبه عمه أَسد الدين، وإن كان قتله كان في منتصف جمادى الأولى من السنة المذكورة.

وذكر ابن شداد في سيرة صلاح الدين[٢]: أن شاور المذكور خرج إلى أسد الدين في موكبه فلم يتجاسر عليه أحد إلَّا صلاح الدين فإنه تلقاه وسار إلى ركابه وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر بقصد أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وأنزل شاور في خيمة مفردة، وجاء في الحال توقيع على يد خادم خاص من جهة المصريين يقول: لا بد من رأسه جرياً على عادتهم مع وزرائهم، فحز رأسه، وأنفذ إليهم، وسير إلى أَسد الدين خلع الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر وترتب وزيراً.

وذكر ابن عساكر[٣]: أن شاور وصل إلى نور الدين مستجيراً فأكرمه واحترمه وبعث معه جيشاً فقتلوا خصمه، ولم يقع منه الوفاء بما ورد من جهته، ثم إنَّ شاور بعث إلى ملك الفرنج واستنجده، وضمن له أموالاً، فرجع عسكر نور الدين [وحدث

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٤٠.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية: ٣٩.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٥٧/ ١٢٢.

متملك الفرنج نفسه بملك مصر طامعاً فتوجه إليها بعد عامين راغباً في انتهاز الفرصة، فأخذ بلبيس وخيم من مصر بالفرصة، فلما بلغه][1] ذلك جهز إليها عسكراً فلما سمع العدو بتوجه جيشه رجعوا خائبين، واطلع من شاور على المخامرة، وأنفذ يراسل العدو، طمعاً منه في المظافرة، لما خيفه من شره تمارض أسد الدين فجاءه شاور عائداً، فوثب جرديك وبزغش مولياً نور الدين، فقتلا شاور، وكان ذلك برأي الملك الناصر صلاح الدين، فإنه أول من تولى القبض ومد يده بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين، فظهرت السُّنة بالديار المصرية، وخطب فيها للدولة العباسية.

وللفقيه عمارة اليمني في شاور مدائح [٢٢٦] منها قوله[2]: [الكامل]

ضجر الحديدُ من الحديد وشاورٌ ... من نصر دين محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتينَّ بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفِّر

وحكى الفقيه عمارة أنه لما تم لشاور الأمر، وانقرضت دولة بني رزيك جلس شاور وحوله جماعة من أصحاب رزيك وممن لهم عليهم إحسان وإنعام، فوقعوا في بني رزيك تقرباً إلى قلب شاور، وكان الصالح بن رزيك وابنه العادل قد أحسنا إلى عمارة عند دخوله إلى الديار المصرية، فأنشده: [البسيط]

صحت بدولتك الأيام من سقم ... وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
زالت ليالي بني رزيك وانقرضت ... والحمد والذم فيها غير منصرم
كأن صالحهم يوماً وعادلهم في ... صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
كنا نظن وبعض الظن مأثمة ... بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر جاءهم ... من كان مجتمعاً من ذلك الرخم
وما قصدت بتعظيمي عداك سوى ... تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم
ولو شكرت لياليهم محافظة ... لعهدها لم يكن بالعز من قدم
واللّه يأمر بالإحسان عارفه ... منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن عساكر.

(٢) عمارة اليمني، النكت العصرية: ٨٢.

قال: فشكرني شاور وولداه على الوفاء لبني رزيك[1].

وأما الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام بن سوار اللخمي فإنه لما وصل شاور بالعساكر من الشام خرج من القاهرة، وقتل في جمادى الآخرة وقيل في رجب سنة تسع وخمسين، وحزوا رأسه، وطافوا به على رمح، وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام يأكل منها الكلاب ثم دفن عند بركة الفيل وعمرت عليه قبة[2].

ومنهم:

١٠٥ ـ أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان، أبو الحارث الملك المنصور[3]:

أسد لا يقدر على لقائه، ولا يحذر إلَّا من عدم إبقائه، قاد الجيوش وساسها، ووطئ البلاد وداسها حتى ولج من مصر عريشه، ودخل من دار الوزارة جيشه، كان من الأُمراء النورية وأهل الآراء النورية، معروفاً بقوة الجلد، موصوفاً بالشجاعة التي هي من صفات الأسد، وكان مثرياً من المال مورياً نار راية في فحمة الليالي، اقتنى من الملك والعقار ما استقطع مواقع الأمطار، حتى ظن نور الدين أنه ربما ظلم، وحصل هذا بما صدع به زجاج الرعايا وثلم، فبنى داراً ليجلس فيها بعض الأيام ويحكى فيها شكايات الأنام وسماها دار العدل جعل من رسمها أن يكون فيها مجلسه مجلساً غاصاً لا يمنع عليه فيه والج، ولا يعترض [٢٢٧] داخل ولا خارج، وكان باطن قصده أن يتوصل إليه من له شكوى على أسد الدين، وهيهات أن يخلص من الأسد فريسة أو يخلد عليه حسيسه، وفطن أسد الدين لمراده وفهم قصده بما صدر له قبل إيراده، وجمع وكلاءه ونوابه، فأطلعهم على ما هجس في خاطره، ورأى من لوامع البرق النوري قبل مواطره. وقال: أقسم بالله لئن تركتموه يبلغ أملاً أو يقف له من يشكو إليه

---

(١) عمارة اليمني، النكت العصرية: ٦٩.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/٤٤٢.

(٣) عمارة اليمني، النكت العصرية: ٧٨، ابن الأثير، الكامل: ١١/٣٤١، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/٤٧٩، ابن شداد، النوادر السلطانية: ٣٦، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/١٧٨، الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث [٥٦١ ـ ٥٧٠]، ص ١٩٤، سير أعلام النبلاء: ٢٠/٥٨٧، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٦/٢١٤.

بسببنا محقاً أو مبطلاً لآخذن ما فيه لئن تركتموه يبلغ، فلما تمت تلك الدار وجلس بها نور الدين لم يرفع إليه فيها بسبب أسد الدين قصة، ولا نفست له بالشكوى عليه عصمة، فما زاد على أن قال: الحمد لله الذي جعل أهل دولتنا ينصفون من أنفسهم، ثم قام من بين جماعته، ولم يعد إلى مجلسهم.

ولما استضرت كلاب الفرنج على مصر وسايرهم الدنية وزلزلوا بصاحب القصر أركانه المبنية، أتى شاور إلى الأبواب النورية مستنجداً فأنجدهم بجيش قدم عليهم من شيركوه أسداً، فلما سكن بأهل القصر الزلزال، ورفع حكم النزال غدر شاور وختر، وقطع موارد الجيش الأسدي وتبرأ، فعاد أسد الدين يرهق وجهه من الغضب، وعاد أسر الفرنج موقد جمرهم، وكان قد فتر، فكرّ شاور راجعاً ليستنجد نور الدين فأنجده ببأس ذلك الأسد الضرغام وأكرهه ليدرأ عن غيله بالإرغام، وأخرج معه كارهاً صلاح الدين ابن أخيه لأمر أراد الله تمامه، وألقى إليه زمامه، فكان من أمر هذه الكرة ما كان وقتل شاور وطل دمه وهان، وخطب العاضد أسد الدين للوزارة وقلده طوقها وحمله أوقها ثم لم تطل أيامه حتى دهمه ما كان يتوقعه من جماعة وكأن قد، والموت كأس سواء فيها الأسد القسورة والنقد، تقدم من حديثه نبذة في ترجمة شاور.

وقال ابن شداد[1]: كان أسد الدين كثير الأكل والمواظبة على تناول اللحوم الغليظة، متواتراً عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد مقاساة شديدة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم، فقتله يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة. ودفن بالقاهرة ثم نقل إلى مدينة رسول الله ﷺ بعد مدة بوصية منه، ولم يخلف ولداً سوى الملك القاهر ناصر الدين محمد.

ولما مات أسد الدين أخذ نور الدين منهم حمص في رجب سنة أربع وستين، فلما ملك صلاح الدين الشام، أعطى حمص لناصر [٢٢٨] الدين المذكور، ولم يزل يملكها حتى توفي يوم عرفة في إحدى وثمانين وخمسمائة، ونقلته زوجته بنت عمه ست الشام بنت أيوب إلى تربتها التي بمدرستها بدمشق ظاهر البلد، ودفنته عند أخيها شمس الدولة توران شاه بن أيوب.

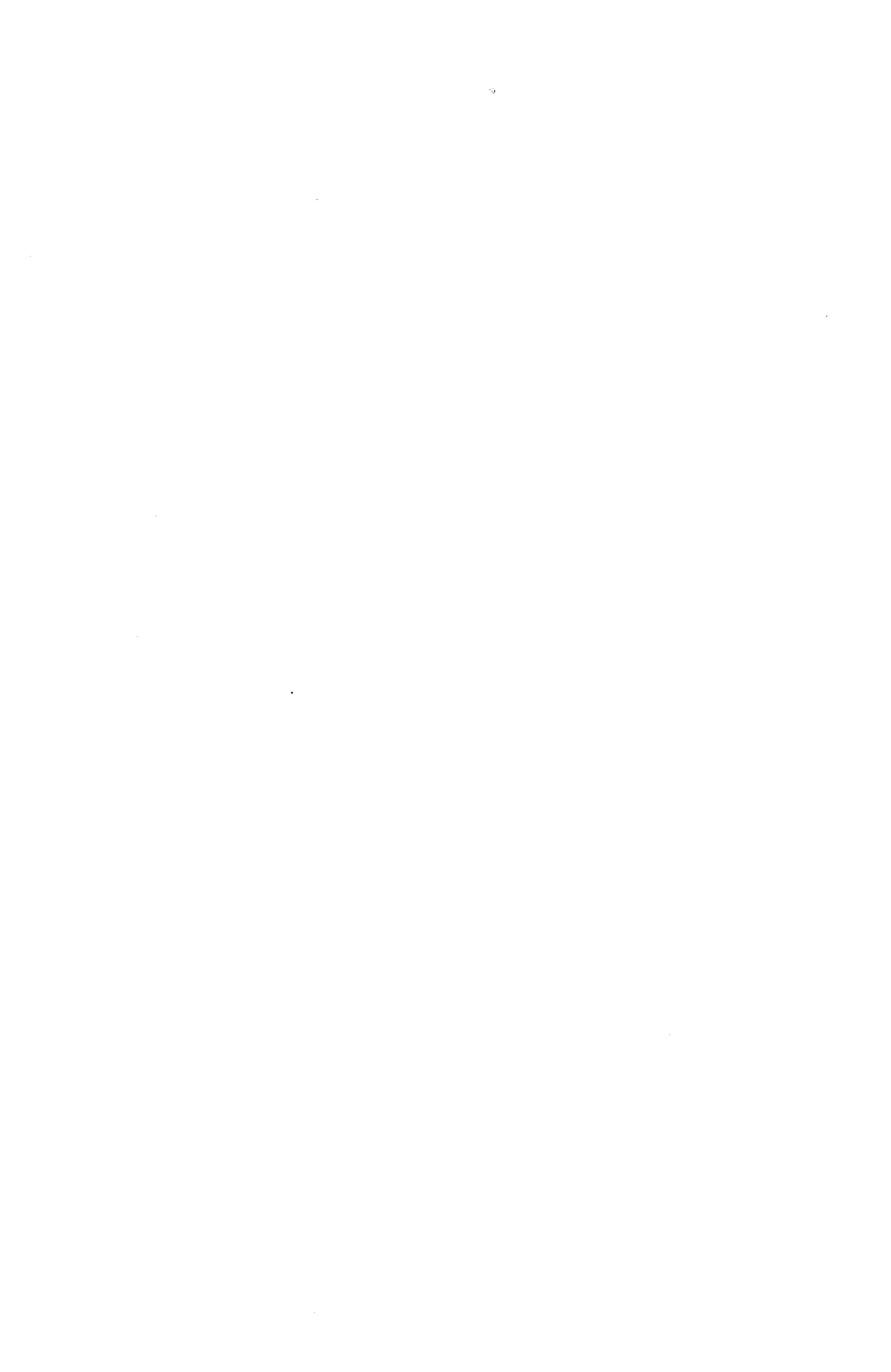
وملك بعده ولده أسد الدين شيركوه ومولده سنة تسع وستين وخمسمائة وتوفي في

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية: ٣٨.

رجب سنة سبع وثلاثين وستمائة، وكانت له أيضاً الرحبة وتدمر والماكسين من بلد الخابور. وخلف جماعة من الأولاد.

فقام في الملك مقامه ولده الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم ولم يزل حتى توفي في صفر سنة أربع وأربعين وستمائة بالنيرب من غوطة دمشق، ونقل إلى حمص، وترتب مكانه ولده الأشرف مظفر الدين، أبو الفتح موسى ومولده سنة سبع وعشرون وستمائة. ولما بشر به والده قال للملك الأشرف: يا خوند قد زاد في مماليكك واحد، فقال له: سمِّه باسمي فسماه الأشرف مظفر الدين أبا الفتح موسى، وكانت وفاة الأشرف هذا بحمص في صفر سنة اثنتين وستين، وحج شيركوه سنة خمس وخمسين وستمائة من دمشق على طريق تيماء وخيبر، وكانت ولاية أسد الدين للوزارة يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام رحمه الله تعالى.



وزراء
الأيوبيين والمماليك بمصر



ومنهم:

١٠٦ ـ الوزير صفي الدين بن شكر[1]:

وزير يعد من العلماء، وتعيب أيامه امتداد الظلماء، أعرق في نسبه الفخار، وضايق السحاب حتى تمنى منه الفرار، إلى سعة في المهام، ورفعة عن المدام، إلَّا أنه كان يحب التقدم عند الملوك لا يبالي بما يحتمل ولا يعبأ بسحاب الدم ولو احتفل.

وكان أقوى من الصخرة الصماء لمساً، وأشد من الحديدة الخشناء مسًّا، ولي أولاً النظر وبصره مثل قلبه حديد، وبأسه مثل بؤسه شديد، وذلك على العهد الناصري الصلاحي، فكثر في تشكيه الإلحاح، ورأى انتكاساً في زمن ذلك الصلاح.

وكان الفاضل يمقته مقت المريض الدواء، ويبغضه بغض الكلاب الماء، كان يقصد تقييد قلمه، وتقليل كلمه، والفاضل قد جمع تلك الدولة في يمينه، وقمع تلك الفرق بتمكينه، وكان على هذا لا يقدر على هضمه، ولا يجد له، فقال مرة: وأما ابن شكر فهذا الذي لا يشكر، وإذ ذكرت الأَشياء فهو الشيء الذي لا يذكر.

وقال مرة أخرى وقد بلغه أنه وزر وكان خيراً طائحاً [٢٢٩] إلا أنه أهمه، وحمل ما تحقق صحته وهمه، فقال: وأما ابن شكر قد قال أناس وزر وقال أناس: كلا لا وزر. انتهى كلامه.

قلت: كان ابن شكر من الفقهاء العلماء اشتغل على مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه، وتقدم فيه، وحضر الدروس، وناظر الفقهاء، وأفتى، ثم علق يخدم السلاطين، وباشر أمور الدواوين، وكان يقول إنه من قريش وسمعت بقايا بنيه يقولون إنهم من بني مخزوم ورأيت بخط من يوثق به في علم النسب أنهم من العرب، وليسوا

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/ ٦٧٧، النويري، نهاية الأرب: ٢٩/ ١٣٠، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٦٢٠ ـ ٦٢١]، ص١٠٩، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ٢٩٤، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ٤٦٣، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٧/ ٣٢٧. واسمه عبد الله بن علي.

من قريش، ولا يحضرني الآن إلى من نسبهم، ولا من أي الآخرين قيس وبمن حسبهم.

وترقى في المباشرات إلى أن ولي نظر الدواوين بمصر سنة السلطان صلاح الدين، وشرع في قطع الأرزاق وإحداث المطالبة، وكان الفاضل يتقصد عزله، ويصفه بالظلم والقسوة، ولا يقدر لأن الملك العادل كان ظهيراً لابن شكر وممشياً لأموره، وكان كافياً في عمله يسد الأعمال، ويثمر الأموال وينهض بتكاليف الكلف، وأعباء المهمات، وكان يعجب السلطان منه كفايته ويلبسه على علاته.

وكان سمحاً جواداً كريماً، صنف كتاباً في الفقه وجعل لمن يحفظه مائة دينار، فعرضه عليه زيادة على مائتي نفر، وأعطاه وأجفل لهم، وبنى بالقاهرة المعزية مدرسة على المدرسة المالكية، وهي من مدارس مصر الجليلة المذكورة معنى وصورة.

وكان ممدحاً مجزلاً في جوائز الشعراء، وكان مغرماً بالنساء وبالجواري، كثير النكاح مجازفاً في إتيانهن، قال به كثرة النظر في هذا العمى.

وولي الوزارة بعد العهد الصلاحي، وعظم مكانه، وكان على هذا كله إذا سافر السلطان وخرج معه يخرج ببغلة واحدة تجنب معه، وركب هو على جمال الثقل توطأ له على بعض الحمول ليركب، ولا يأخذ معه غلاماً، ولا طباخاً بل غلمان السلطان تخدمه، وتنصب له الخيمة، ويأتيه الطعام من مطبخ السلطان، والشراب من شربخاناته على كفايته، لا يتجاوز قدر ما يحتاج إليه، يكتفي بالزبدية الواحدة، ولا يزيد عليها، ولم يزل على عليائه، وهبوب رياحه إلى أن كف بصره، وأخذ من سواد عينيه جوهره، وكان مع هذا يحضر عند السلطان ويخرج، ويباشر الديوان وقد أخذ عادة بالطريق التي يسلكها حتى يجلس بين يدي السلطان، ويده على كتابة ما يحتاج الوزير إلى كتابة مثله من الكلمات إلى أن نبه السلطان على [٢٣٠] تجلده حباً لدوام الرئاسة فأنكر السلطان هذا، وقال: لم أفقد شيئاً منه حال صحته، فقيل له لو اختبره السلطان لظهر له هذا بالعيان، فقال: كيف؟ قال: أن يقعد السلطان في موضع غير مقعوده الذي جرت عادته به فجلس ثم طلبه، فأتى على عادته ثم جلس في مكانه الذي كان يجلس فيه بين يدي السلطان، فقال له السلطان: ما أنا هناك، قم إليَّ، فقام لا يعرف كيف يمشي حتى أخذ بيده من حضر. ثم قال له السلطان: اكتب لي كذا وكذا، واقترح عليه شيئاً مطولاً يكتبه، فلم يقدر، فتحقق السلطان ما قيل له، فقال له: ما حملك على ما صابرت

نفسك عليه، فقال حُباً لقرب السلطان، فقال له: هذا حاصل وابدأ بما فيه الراحة لك. توفي ابن شكر، ودفن بقبة بناها جوار مدرسته[1].

ومنهم:

١٠٧ ـ شرف الدين الفائزي، واسمه هبة الله بن صاعد[2]:

وزير عنه لا تسل إذا اعتنق الأسل، دونه الملك الكندي المغترب، وصاحب الصمصامة عمرو بن معدي كرب، لو لاقى ابن الصِّمَّة لأصمّه، أو ذا الخمار لقتله ووهب الخمار أمه، وكان على هذه الشجاعة والسطاء التي يأمن بها سباع الطير المجاعة، لا تحصى فوائده، ولا تحضر في الكرم عوائده، ولا تطوى للقرى موائده، ولا تطفأ به للقراع نار لآنست مثلها، ولا يده كان خرق اليدين طرق الغمام، لو وطئ هام الفرقدين.

اقتنى من الغلمان الأَتراك ما أصبحوا أمراء وامتضوا من السيوف الأتراك، وكان يغالي فيهم أثماناً، وينتقي منهم أغصاناً تثمر أقماراً، وتقل كثباناً، وكان على هذا لا يبيت ضجيعه إلَّا العفاف، ولا رضيعه من عناقيد السوالف إلا السلاف، وكان أعرابي الكرم في طغامه، زعيم بره وأنعامه، رحابه معمورة بالمنائح، مملوءة بالذبائح، كأن كل أيامه أيام منى، وكأن كل أوقاته أَوقات هناء، لا تزال لياليه شريقة ويده للدماء مريقة، وساحاته رياضاً زواهر كأنها كلها شقيقة.

وهو جد الصاحب تاج الدين بن حنا لأمه، وبه كان يفتخر من جديه، ويملأ إذا ذكر يديه، فقد كان واحداً لا تخلف له مواعد، وكريماً لا تزمجر له مواقد، وعليًّا لا ينكر له وجده كأبيه صاعد، هذا إلى ستر يسبل على الجرائم، ويسبغ على الرعايا إسباغ مثله منه على الكرائم ولم يستطع مماثل أن يجيث أقله، ولا ولد [٢٣١] الزمان بعده مثله.

قال ابن اليونيني[3]: كان في صباه نصرانياً، ويلقب بالأسعد، وهو منسوب إلى

---

(١) توفي سنة ٦٢٢ هـ، الذهبي، تاريخ الإسلام: ١٠٩.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ١/ ٨٠، ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ١٢٧، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٦٥١ ـ ٦٦٠]، ص٢٢٠، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٧/ ٢٧٦.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ١/ ٨٠ ـ ٨١.

الملك الفائز إبراهيم بن العادل لأنه كان يخدمه أولاً، ثم أسلم وترقى، وكانت عنده رئاسة ومكارم، ونفسه تسمو إلى الرتب العالية، وخدم الكامل بعد موت الفائز ثم خدم ابنه الصالح، وتنقلت به الأحوال حتى استوزره المعز بعد قاضي القضاة تاج الدين العلائي ابن بنت الأعز، ومكن عنده حتى مكن في خواص الأمور، وتقدم على الجيش في الحرب.

قلت: كان الركن الصرمي عند اختلال الدولة، وانحلال الصولة قد خرج بالصعيد، واستمال أكثر سكانه، وسائر عربانه وتلقب بالمنصور، ورام الملك ورامى فما أخطأه الهلك، فخرج إليه الفائزي في الطائفة من العسكر، وقدم قدامه مملوكه شهاب الدين جلدك إلى الشريف تغلب ليسترد له نوافر العربان، ويمهد لمقدمه، فأنجح سعي جلدك، ومهد له المسلك، فقال السراج الوراق في ذلك: [الخفيف]

نجحت إذ بعثت تلك الرسالة ... وعلى نجحها أقمت الدلالة
ضل من لم يؤمن بها وكفى اللَّه ... بها من هديت شر الضلاله
فسللت الأضغان من كل صدر ... فيه نفس محتالة مغتاله
ردد الجهل ما استعار وما ... أمهله الدهر أن يطيل بطاله
كلما احتال في حبالة كيد ... لسواه صادته تلك الحباله
إن من عانه السعادة ما ... أظهر إلا جنونه واختلاله
للوزير ابن صاعد صانه الله ... سعوداً أجرت على النصر فاله
ونجاح يلوح في كل أمرٍ ... وفلاح يبين في كل حاله
ولقد أنذر العدى بشهاب ... يتلظى شجاعة وبساله
قلت لما اقتفى إلى المجد مسعاه ... أجل ما ورثها عن كلاله

ثم أتى الصاحب في جيش يضيق به الفضاء، ويحين به القضاء فما لبث ملك الصرمي أن انصرم، وترك ولده وانهزم، فقال السراج الوراق: [الخفيف]

صحبت عزمة الوزير النجاحا ... وأرسى صبح الفلاح فلاحا
واختلينا وجهاً يجلله البشر ... فعمنا بما شفاه علاجا
واجتنينا ثمار ما غرس ... النصر وليس الغصون إلَّا رماحا
إن للعزم موقعاً من نفوس ... لم تجد في ركوب هول جناحا

حصد الله شأفة الفساد شافها للمسلمين صلاحا
ورمى عصبة النفاق بسهم لم يزل سهمه المعلى قداحا
بالذي جدَّ يتعب النفس حتى سكن الملك وادعاً واستراحا
سرت والنصر عاقد اللواء مَدَّ نسر السماء منه جناحا
واستعاد الجيشين ملأ البسطين رجالاً ونجدة وسماحا [٢٣٢]
فكأن البطاح سالت بحوراً وكأن البحور سالت بطاحا
ركبوها جرداً وفلكاً وسارت فاستطارت بوارقاً ورماحا
وبك شانيك لا أقلته أرض كيف قد رام السماء نطاحا
ويح من أعلن النباح فلما رأى الليث كان يخفي النباحا
ولئن فارق ابنه فمن الاحتشام ذعراً ما فارق الأرواحا
ويميناً لو استماحك صفحاً لتداركت بالغمود الصفاحا
ابدا يابن صاعد جدك الصاعد فاصحب في كل أمر نجاحا
علا فطال دله لا أراها الله من ريك السعيد أتراحا
سقتها نحو غنائم من خيل ومال سد العنان الفياحا

قال ابن اليونيني[1]: وكان المعز يكتب إليه المملوك، وكان في الفائزي كرم الطباع وأريحية وحسن نظر في حق من يصحبه وينتمي إليه، ولم تزل منزلته عند الملك المعز في تزيد إلى أن قتل وتملك ولده فباشر وزارته وهو مضطرب متحيل متوقع للنكبة فقبض عليه قطز، وكان مدبر دولة المنصور ابن المعز وأخذ خطه بمائة ألف دينار لنفسه وبقي معتقلاً وكان يتهم بالأموال الكثيرة.

وحكى عن البرهان السخاوي أنه قال: دخلت إليه في محبسه، فسألني أن أتحدث في إطلاقه على أن يحمل في كل صباح ألف دينار، فقلت له: كيف تقدر على هذا، فقال: أقدر عليه إلى تمام سنة، وإلى سنة يفرج الله، فلم يلتفت المعزية إلى ذلك، بل عجلوا هلاكه، فخنق وحمل إلى القرافة ودفن بها.

وذكر ابن اليونيني[2]: أن بطريق مصاهرة فخر الدين محمد بن حِنا له لتزويجه

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ١/ ٨١.
(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ١/ ٨١ ـ ٨٢.

ابنته ترقى أبوه الصاحب بهاء الدين إلى الوزارة، قال: ونالت ابنة الفائزي من السعادة في الأيام ما لا يوصف، وتوفيت وكانت كثيرة البر والمعروف، مفرطة في السمن، قال: وقد آل الحال بابن الفائزي إلى أن رغب أن يخدم في بعض الفروع بالإسكندرية.

وأنشد لبعض الشعراء يهجوه وأظنه قالها فيه في أول حاله[1]: [الرمل]

حلف الأسعد ما خانَ وقد ... شهدت أفعاله المشتبهه
نقده ستون نقداً عدداً ... عن سينات الرشى منزهه
فالبغال الشهب من أين له ... والجواري الترك من أي جهه

وأنشد الخطيب بن المنير فيه مدحاً من عدله[2]: [الطويل]

ألا أيها البدر المنير وإنني ... لأخجل أن شبهت وجهك بالبدر
لئن غبت عن عيني وشطت بك النوى ... لما زلت أستحليك بالوهم في فكري
وحق زمان مر لي بطويلع ... وأنت معي ما سرى من بعدكم سري

وأنشد أيضاً قوله فيه يرثيه[3]: [الخفيف]

عز صبري وعز عند عزائي ... بعد فقدي لسيد الوزراء
شرف الدين والذي شرف ... الدين بفضل وعفّة وغناء
والوزير الذي أقام منار ... العدل في حال شدة ورخاء
جهل العلم بعده واستخف ... الحلم يا حسرة العلماء
كان فيه لله سرٌّ خفيٌّ ... دقَّ معنًى عن فطنة الأذكياء
قل لمن سره مصابك يوماً ... قد كفى ما جرى على الخلفاء [٢٣٣]
يا قريباً دون الأقارب مني ... ووليي من سائر الأولياء
خذ عروس الرثاء مني تجلى ... في ثياب من صفوتي وولائي

قلت: ولم يل الوزارة بمصر بعد شاور وإلى زمانه مثله، وكان واسع النعمة عريض الجاه، كثير السعادة في كل الأمور، لا يجيب فيما يتوجه إليه، وكان له العدد

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ١/ ٨٢.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ١/ ٨٢.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ١/ ٨٣.

الكثير من المماليك الكفاة الأعيان، وتأمر منهم جماعة منهم الحاج طيبرس، وطمنكي، وجلدك، وبيليك، وسائر المسمين بالوزيرية وبالفائزة.

وحكي: أنه لم يبع مملوكاً في مدة عمره إلّا مملوكاً واحداً طلب منه البيع مرة على مرة، وكان قد اشتراه وهو على حد البلوغ بثلاثمائة دينار، وبقي عنده إلى أن خط عارضه، فلما طلب البيع شاوره عليه الدلال على مائة دينار، فقال له: ويحك أنا اشتريته وهو صبي ما ينفع بثلاثمائة دينار. وربيته حتى كبر، وجاء نفعه ما يجيب إلّا مائة دينار، فقال له الدلال: يا مولانا وأي عيب له أكثر من الكبر، فقال له: ولِمَ، قال: لأنه كان يطلب وهو أمرد لذلك العمل، وبقي الآن كلما له في نقص. فقال: أويفعل هذا، قال: نعم، فقال: هو حر لوجه الله لا كنت والله سبباً في ذلك ببيع ولا غيره.

وكان محباً للعلماء، موقراً للصلحاء، مقبلاً على الشعراء، مجزلاً للجوائز، وللسراج الوراق فيه غرُّ القصائد، ومن شعره فيه قوله حين ولي الوزارة: [الكامل]

الله وطد لابن صاعد رتبة ... عدت له فوق السهى أطنابا
شرفت نواحي الملك بالشرف الذي ... سحت بذله على البلاد سحابا
أقسمت لو نادى الزمان لأمره ... أتى على صمت به وأجابا
بذل الصنائع والمواهب للورى ... أفديه مصطنعاً لهم وهابا
متهلل بشراً وجود يمينه ... تهلل مثل السحاب وغابا
يا سيد الوزراء دونك مدحة ... أجرت قوافيها إليك عذابا
خطبتك حين رأتك كفواً للعلى ... فسعت إليك وردَّت الخطابا

وكذلك قوله فيه ويذكر الصلح بين الملك الناصر صاحب الشام والملك المعز صاحب مصر، وكان هو المسبب له والمثبت لعقده: [الكامل]

يثني عليك الملك والدول ... والله والأملاك والرسل
يثني على إقبالها همماً ... ما للزمان بردِّها قبل
وعزائم لك قد بلغن مدى ... لا البيض يبلغها ولا الرسل
ووزارة بلغت مالكها ... ما شاء حتى ما له أمل
إن الذي استرعاك دولته ... لعليك بعد الله يتكل
هي دولة بلغ ابن صاعدها ... علياء عنها النجم سفل

وأمـا ودان الـبـيـن قـد صـلـحـت فـتـحـسـن رأيـك أنـجـح الأمـل
فـالـيـوم مـصـر مـودة حـلـب والـمـسـلـمـون بـحـبـه رجـل
والـيـوم قـرت فـي الـجـفـون ظـنـي يـا ظـالـمـاً سـحـبـت بـهـا الـمـقـل
خـفـيـت دمـاء الـمـسـلـمـيـن فـمـا يـبـدو عـلـى خـد الـردى خـجـل [٢٣٤]

ومنهم:

١٠٨ ـ ابن الزبير، زين الدين يعقوب بن عبدالرفيع بن زيد الوزير، أبو يوسف[١]:

وزير لا يوازن في عظم الفضائل ولا يوازى في كرم الفعائل، البحر ما ضمته يمينه والبدر ما أصابه جبينه والأصل قرشي والفضل كأنه ديباج موشى، شد الأزر وسد العظائم بالنزر بتدبير لو قذفت به الكتائب لفللها، أو السباسب لسد ظلها، وكان سهلي المساحة، برمكي السماحة، لو بارى بقلمه السيوف لقطعها، أو بعزمه الجبال لصدعها، أو أعار الليالي سعادته لما استسرت أقمارها، أو وهب الأيام سعادته لما تناهت أعمارها، يرجع إلى نسب زبيري لو أنه لزبر الحديد لما لانت، أو لأضواء الشموس لما هانت، هذا كله إلى آداب كأنها من بقايا العقود، ولطائف كأنها شربت ندى ورد الخدود، وأشعار كأن لهوات العرب بها نطقت، أو الزهر زهر الكواكب منها تحيرت وانتقت.

مولده سنة ست وثمانين وخمسمائة وقيل غير ذلك. وزر للملك المظفر قطز ثم للملك الظاهر في أوائل دولته مدة ثم صرف بابن حِنا بهاء الدين، فلزم بيته إلى أن أدركته منيته في ربيع الآخر سنة ثمان وستين وستمائة بالديار المصرية، وكان إماماً، عالماً، فاضلاً، ممدحاً، كثير الرياسة[٢].

وله نظم جيد فمنه[٣]: [المديد]

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٢/ ٤٤١، النويري، نهاية الأرب: ٣٠/ ١٧٢، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث [٦٦١ ـ ٦٧٠]، ص٢٧٣، ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ٣٩٧.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٢/ ٤٤٢.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٢/ ٤٤٢.

لامني والعذر مشتهر عاذل ما عنده خبر
رشأ ما قال واصفه إنه بالوصف ينحصر
رام غصن البان قامته فانثنى من ذاك يعتذر
واستعار الظبي مقلته واكتسى من نوره القمر
اسمر سمار عاشقه بين أخبار الورى سمر
وإمام في ملاحته واثِق بالحسن مقتدر
أمروا قلبي بسلوته أنا عاصٍ للذي أمروا
لو بقلبي مثله عشقوا وبعيني حسنه نظروا
لرأوا غيي به رشداً ولكانوا في الهوى عذروا

وقوله: [الطويل]

مررت بقبر الشافعيِّ أزوره فعارضنا فلك وما عنده بحر
فقلت تعالى الله تلك إشارة تشير بأن البحر قد ضمه قبر

وقوله: [الخفيف]

جعلوه كما يشاء معيدا فاكتسى بالجنون ثوباً جديدا
ليت شعري وللزمان عيون أي شيء أبداه حتى يعيدا

وقوله: [الكامل]

أتراك مهمى سلوي في الهوى لا والذي جعل السقام ضجيعي
والعاديات فإنهن مدامعي والموريات فإنهن ضلوعي
لا كان تفريط المحبة والهوى مني بمرآى ولا مسموع
وإذا رووا عني أحاديث العلى فحديثهم من جملة الموضوع

ومن نثره قوله:

وصل ما جهزه من الأقلام، وبعثه من تلك الرماح تحمل الأعلام، وجهزه من تلك العوال الغوال، وأسنده من ملك الأسل الطوال، وأرسله من ذلك الغاب الذي [٢٣٥] ما سمح به إلّا ليث جاد بسكنه، وأنف السواء فسمح بوطنه، وقال شكراً لتلك السيول التي أنبتت هذه القصب، ولتلك السماء التي بوأت مطالع الشهب، ومرحباً بتلك الهدية التي ما احتفل بها إلّا معين بالأدب، فبعث ينابيع الحكمة، ومد معين

السحب، وقيل إني قبل واردها أعدلها من ظفر طفر من أرسلها ماضيات الأَسنة، وعقد لها أعلاماً على ما أسدى بها من منه، وحمل بها على جيوش الأعداء فهزمها واعتقل فيها ردينيات نقبت درر الكواكب، وأحدث من الهلال لحزمها.

وكان ممدحاً وفيه يقول السراج الوراق: [الكامل]

أهلاً بطيفك يا إمام رسولاً ... ما كنت لولاه لأبلغ صولا
وإني وصبغ الليل حان نصوله ... والجو يشهر للصباح نصولا
وألم والجوزاء عقد نطاقها ... قد راح من سلك الدجى محلولا
أنى اهتدى طيف الخيال لمدنف ... عاذرته مثل الخلال نحولا
ولقد يزيدني الملام صبابة ... ويزيدني برد الزمان غليلا
وكذا يلام ابن الزبير على الندى ... فتراه أكرم ما يرى معدولا
ولقد تجود وما سألت نواله ... عفواً فكيف بجوده مسؤولا
صلب الجبين يلوح من قسماته ... بشر يقوم على السماح دليلا
أمؤملاً يعقوب دونك ماجداً ... أدنى نداه تجاوز التأميلا
وإلى ابن أسماء ارتمت بي همة ... طالت به أسمى الكواكب طولا
نزلت بمربعه الذي من دأبه ... أن لا يضيع من أتاه هزيلا

وقال أيضاً يمدحه: [الطويل]

رنا فرمى باللحظ أول نظرة ... فصاب بها من كل صب مقاتله
وهزَّ لنا من معطفيه مثقفاً ... يَجُورُ علينا ناظراه وعامله
لَهُ طَلْعَةٌ قد أشرقت تحت طرة ... سيدنهما ألبسه مما أحاوله
كأن بجنح الليل قنديل راهب ... يضيء وصدغاه عليه سلاسله
وليل لو ان البدر سار بجَوِّه ... يشكك فيه البدر أين منازله
وخلت الثريا كف سمح بشرطه ... بما رامه راجيه منها وسائله
وما هو إلا ابن الزبير الذي همت ... بجود على كل الأنام أنامله
إذا استسقت الآمال عز سحابها ... تدفق طل الغيث منها ووابله
ولو قصرت جوداً لقسنا بها الحيا ... وإني وفيض البحر ليس يساجله
له منطق سهل عليه كأنما ... بديهته جدوى يديه ونائله

فتى كثرت في الحي آثاره التي تدل عليها حيث كانت منازله
فحمر نواصيه وزرق حمامه وخضر نواحيه وبيض خصائله
من القوم لا يعزى أواخر سؤدد إلى أحد إلَّا وفيهم أوائله

وكان السراج الوراق قد سافر مع [٢٣٦] ابن الموصلي إلى دمشق، فلما رأى ركابه المعرب وصد خياله المقترب تذكر مصر وأيامه بها وابن الزبير يغشاه بديمه السواكب، ويحل في حرمه حيث تزاحم الثريا بالمناكب، فكتب إليه: [الكامل]

لم أسر انتجع الغيث الشامي ونَدى الصاحب منهل الغمام
إنما صيرت لعندي عوده لدنوي منه من عين الأنام
وارتحالي ليرى من لا أرى ما تقلدت من الأيدي الحسام
سائراً خدوماً مداحي إذا جمع السير رماً باللجام
بثنا صاحبي عرفه شق عند الدهر أطواق الكمام
سأباهي جونه الشرق بمن وجهه ماح لظلم وظلام
وأجاري كل بحر بندى كم شفا غُلة ظام منه طام
وأزيد الوفد شوقاً لفتًى عرضه في كل دام في ذمام
الوزير المجتبى من حسب يهادى من كرام لكرام
أشبهت أشبالهم آسادهم فوق ذا الشح منهم في الغلام
أسديون لكل أجم من فناء الحظ وظفر من حسام
يا بني أسماء ما أجدركم محل من رسول الله سامي
أسر الصاحب ذكراً لكم لم يزل حباً وأنتم في الزحام

وفيه يقول: [الكامل]

يابن الذين أكفهم وسيوفهم تجري المواهب والدم المسفوكا
وابن الأئمة من قريش منهم عرف الورى المأخوذ والمتروكا
وابن الأسرة والمنابر مهدت لخلائف سلكوا الصراط سلوكا
الجاعلين قلوبهم ما حدبوا أذراعهم والمرهفات تريكا
لو لم تفديهم وحديثهم في الفخر إلا أنهم ولدوكا

ومنهم:

١٠٩ ـ الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم عُرف بابن حنا أبو الحسن(١):

رجل كان صديقه غير آمن، ورفيقه يتوقع مساورة أرقمه الكامن، لا يتعجل معه الشارب، ولا يأمن المتسلل زباني عقربه الضارب، دخل مع الملك الظاهر بيبرس مداخل لا يتخللها، ولا تتجللها الظلماء، وجرى منه مجرى الدم من العروق، ووافق منه موافقة القطيعة للعقوق، وكان لا يقبل فيه لومة لائم، ولا يتبع فيه إيماضة سائم، ومكنه تمكين الظالم للظالم، وطول له حتى استمرى له جلب البلاد بالمظالم.

وكان هذا الوزير يحب الصالحين [٢٣٧] وليس منهم، ويتقرب إليهم وهو ناحية عنهم، يعمل هذا إقامة لناموسه، وطريقاً إلى ما يحل بالناس من بؤسه، وكان إذا رأى فقيراً نزل إليه، وترامى على قدميه، ويتعهد فقهاء المدارس ويباكر إلى إنارة القبور الدوارس، ويظهر التقلل من متاع الدنيا القليل، ويصوم الدهر، ويقوم ليله الممتد، ويكابد نهاره الطويل، وله صدقة تفرق، ورقة قلب تظهر ولا تتحقق، هذا على أنه فرعون زمانه، ونمرود أيامه، وضحاك دهره، أيامه أكثر قصراً من ابن الزيات، وأعظم عملاً من ابن العلقمي على السيئات، بقلب أقسى من الحجر، وبأس أشد من كل من فجر، واستمر أيام السعيد على قبيح هذا السلوك، لا يعظه تقدم قرينه، ولا يضعفه ذهاب معينه إلى أن أتاه آتيه وما أعجله وجاءه الأجل ويا ليته لا كان أجَّله.

قال ابن اليونيني(٢): كان من رجال الدهر حزماً وعزماً، ورأياً وتدبيراً، تنقلت به الأحوال، وتنقلت به المناصب الجليلة، وظهرت كفايته ودرايته، وحسن تأنيه، فاستوزره الملك الظاهر في أوائل دولته، وفوض إليه أمور مملكته مما يتعلق بالأموال والولايات والعزل، لا يعارض في ذلك، ولا يشارك بل هو المستقل بأعباء ذلك والمحيا إليه فيه، ولم يزل مستمراً على ذلك إلى حين وفاة الملك الظاهر، فدبر الأمور أحسن تدبير، وساس الأحوال في سائر المملكة، وأخمل خلقاً كثيراً ممن ناوأه، وكان

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٣/ ٣٨٤، النويري، نهاية الأرب: ٣٠/ ٣٨٨، الذهبي، تاريخ الإسلام: حوادث [٦٧١ ـ ٦٨٠]، ص٢٧٦، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢١/ ٣٠، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٧٦. وانظر: كتاب تقليده الوزارة في القلقشندي، صبح الأعشى: ١١/ ٢٦٥.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٣/ ٣٨٤.

عنده حسن ظن بالفقراء والمشايخ يحسن إليهم، ويقضي حوائجهم، ويبالغ في إكرامهم، فكان أرباب الحوائج يتوسلون بهم إليه فلا يرد لهم شفاعة.

قال[1]: وحكي أن بعض الصلحاء المتورعين قدم القاهرة في آخر شعبان، فكلف الاجتماع به بسبب شخص مصادر، فاجتمع به وحدثه في ذلك، فأجابه ثم قال له هذا شهر رمضان قد أقبل وأشتهي أن تصومه وتفطر عندي واقضي لك في كل ليلة عشر حوائج كائنة ما كانت، فنظر ذلك الرجل إلى ما يترتب على إجابته من المصالح، فصام شهر رمضان وأفطر عنده، فوفى له بوعده، وكان كل ليلة يقضي له عشر حوائج من إطلاق محبوس، وولاية بطال، ومسامحة من عليه مال وهو عاجز عنه، إلى غير ذلك، واستمر به السعد بعد وفاة أبيه الظاهر، وزاد في إكرامه وإعظامه، ولم تزل حرمته تامة، ومكانته عالية، وكلمته نافذة، وأوامره مطاعة إلى حين وفاته، وله بر وأوقاف كثيرة منها: مدرسة بزقاق القناديل بمصر، وكان يتصدق بالجمل الكثيرة سراً وجهراً، وله متاجر كثيرة، وابتلي بفقد ولديه الصاحب فخر الدين والصاحب محيي الدين. مولده بمصر سنة ثلاث وستمائة، وتوفي بها آخر يوم الخميس سلخ ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وستمائة، وصلي عليه بكرة الجمعة، ودفن بالقرافة الصغرى بتربته ومات وهو جدٌّ جدٍّ، وكان ممدّحاً والشعراء تتقرب إليه بمدحه بالدين والورع، ومما يحضرني فيه قول السراج الوراق يهنئه بعيد الفطر: [الوافر]

إذا هناك بالأعياد يوم ... فللأعياد ثم بك الهناء
مضى شهر الصيام عليك يثني ... وخير ذخائر المرء الثناء
جبرت به الأرامل واليتامى ... وعند الله في ذاك الجزاء
فأحييت الليالي فيه حتى ... بدا في الليل من شفق حياء

وكذلك قوله فيه وقد فتحت صفد من قصيدة: [الخفيف]

أردف الجيش منك جيش ... الدعاء وتضرب الرايات بالآراء
وتجافت عن المضاجع جنباك ... وأدمنت قرع باب السماء [٢٣٨]
أين ما نبلغ السماء نهاراً ... من سهام الدعاء في الظلماء
ونعم تفعل العزائم مالا ... تفعل المرهفات ذات المضاء

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٣/ ٣٨٤.

وكـذا الـمـلـك والـوزيـر إذا   مـا اتـحـدا والـمـلـوك بـالـوزراء

ذا اتـحـاد قـضـى عـلـى عـابـدي   الـتـثـلـيـث وبـلاهـم بـشـر الـقـضـاء

أسـلـمـتـهـم مـصـفـديـن إلـيـنـا   صـفـد والـشـقـي رهـن الـشـقـاء

واسـتـطـاعـوا بـشـاهـق مـسـح   الـنـون لـديـه ومـريـض الـعـواء

فـخـيـول الإسـلام فـي جـيـده   مـنـظـومـة فـي قـلادة الـجـوزاء

مـعـقـل شـيـب الـلـيـالـي داعـيـا   هـمـمـاً لـلـمـلـوك والـخـلـفـاء

فـنـحـاه مـلـك بـه تـبـدو   لأمـلاك فـهـو الـمـرفـوع بـالابـتـداء

فـي رعـيـل لـو أنـه صـدم الأطـواد   لـعـادت لـوقـتـهـا كـالـهـبـاء

ورجـال فـي آل خـاقـان يـبـدو   بـأس أسـد فـيـهـم وحـسـن ظـبـاء

بـيـن سـمـر مـكـحـولـة الـطـرف   بـالـنـقـيـع وبـيـض مـخـضـوبـة بـالـدمـاء

يـا وزيـراً عـلـى الـزمـان فـيـه   بـهـاء لا زال مـنـه مـعـنـى الـبـهـاء

إن تـقـرظ فـأنـت أرفـع قـدراً   أو تـهـنـى فـأنـت فـوق الـهـنـاء

وقال فيه أيضاً: [الطويل]

قـفـا نـغـشـهـا قـد تـراءت خـيـامـهـا   وبـهـا رامـة والـنـفـس تـم مـرامـهـا

خـلـيـلـي مـن نـجـد غـرام لـمـهـجـتـي   وهـل مـهـجـة إلا ونـجـد غـرامـهـا

أحـاول كـتـم الـحـب دون وشـاتـنـا   ولـلـحـب حـال لا يـرام اكـتـتـامـهـا

وأعـرضْ عـن أبـيـاتـهـا فـتـسـوقـنـي   هـوى مـهـجـتـي قـسـراً لـهـا وهـيـامـهـا

كـذاك مـتـى وجـهـت لـلـقـوم مـدحـة   فـنـحـو بـهـاء الـديـن تـثـنـي زمـامَـهـا

هـنـالـك آمـال الـوزيـر تـحـكـمـت   وتـم عـلـى مـال الـوزيـر احـتـكـامـهـا

كـريـم غـدا أولـى الأنـام بـسـؤدد   كـذلـك سـادات الأنـام كـرامـهـا

يـزرن بـهـاء الـديـن شـهـراً مـعـظـمـا   ودونـك مـن كـل الأمـور عـظـامـهـا

ودمـت تـهـنّـا بـالأهـلـة مـثـلـمـا   يـحـط مـن الأسـفـار عـنـهـا لـثـامـهـا

وأجـدر مـنـهـا بـالـهـنـاء أهـلـة   بـنـور مـحـيـاك الـجـمـيـل تـمـامـهـا

وقال فيه أيضاً: [الطويل]

تـبـارك مـن أعـطـاك يـابـن مـحـمـد   مـعـالـي لا تـنـفـك إثـر مـعـالِ

وخـولـك الـدنـيـا طـريـقـاً لأخـتـهـا   فـمـا مـلـت عـن حـق بـزور مـحـال

وأصبحت للإسلام أحصن جنة بها لا نبالي للعدى بنبالِ
وقمت مقاماً خفت ربك عنده فخافتك أُسد بالفلاة خوالي
أَرَى ملك الإسلام حصل فَأْتِهِ ويأتيك غالي فوق كل مغالي
ومثلك في حفظ الوديعة مثله فكان لما قد أودعوه وكالي
إليك نظاماً أنت يا بحر دره فما أنا مغرور بلمعة آل
أتى عمر فيها علياً بمدحه فأرضى به السني والمتوالي

وقال يهنئه بشهر رمضان وبالمدرسة التي وقفها بمصر على الشافعية كثرهم الله تعالى: [الطويل]

يناديك حل الصوم صيفاً محبباً فناديته أهلاً وسهلاً ومرحبا
وضاحكته من قبل إنزال رحله وبوأته ربعاً من الخير مخصبا
ومدرسة خلنا بها وطناً له فيا موقع الأوطان ممن تغربا
ذهبت بها أعلى من العلى مذاهب أحييت لابن إدريس مذهبا
وسدت على تقوى من الله أتيتها وأنفقت مالاً في رضى الله طيبا
ولم أر كالفسطاط زادت ربوعه طرازاً من العلم المعظم مذهبا
بهائية تنسي النظامية التي لها العيس كم شدت وكم حلت الحبى
وما هي إلَّا عزمة علوية إذا حاولت أمراً أبى منه ما أبى
ستحيا ليالي الشهر في جنباته كما قد تلا القرآن تالٍ فأطربا
سيرفع أعلام العلوم فلم يدع صباح يقين ثم للشك غيهبا
ستجزى ثواب الله عن ذاك كله إذا ما دعا داعى الجنان وثوَّبا

وقال يهنئه بشهر رجب: [الطويل]

أنخ بجناب الصاحب بن محمد تنخ أيها الراجي بأكرم صاحب
وهنيه بل هنئ به رجب الذي يعود من يمناه لثم الرواجب
وما عدمت منه الأهله مشبهاً سوى أنها من دونه في المراتب
ولولاه موصوف بفرط تواضع لما شبهوا آراءه بالكواكب
ودبرها للظاهر الملك دولة تولى مبادئها لحيز العواقب [٢٣٩]
بنى بوزير صالح أس ملكه فزاحم أفاق السهى بالمناكب

وما ملك كان الوزير وراءه بمحتفل يوماً بكيد محارب
مناقب لا تعدو علياً وآله ومن مثله في آله والمناقب
إليك بهاء الدين عقداً يزينه وكم من عقود حليت بترائب
يهنئك الشهر الأصم وإنه لمصغٍ لمدحٍ فيك جم العجائب
سقط في جنح الدجى عمر له وشد أعالي كل هدب بحاجب

وقال سعد الدين الفارقي وكان يوقع بين يدي الصاحب بهاء الدين المذكور[1]:
[السريع]

يمم عليًّا فهو تم الندا وناده في المضلع المعضل
فرفده مجدٍ على مجدبٍ ووفده مفض إلى مفضل
يسرع إن سيل نداه وهل أسرع من سيل أتى من علِ

وقال الشيخ رشيد الدين الفارقي:

وقائل قال لي نبه لها عمراً فقلت إن علياً قد تنبه لي
ما لي إذا كنت محتاجاً إلى عمر من حاجة فَلْيَنَمْ حسبي انتباه علي

وكان يهش للمديح ويجيز الجوائز السنية.

وحكى لي قاضي القضاة جلال الدين القزويني الشافعي: أنه وقف على كتاب يتضمن إقرار الصاحب بهاء الدين لأولاد ابنه فخر الدين وهم الصاحب تاج الدين وإخوته بمبلغ ستين ألف دينار.

ومنهم:

١١٠ ـ الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الرجاء التنوخي عُرف بابن السلعوس[2]:

وزير لج في كبريائه، وجل عن القياس بالوزراء في عليائه، تاه به الشمم، وتصاوخ به الصمم، لو عرض له البحر لما رآه إلَّا ضحضاحاً، أو الجبل لما جعله إلَّا صحصاحاً، كان أول حاله تاجراً إلَّا أن همته تكلفه خوض الغمرات، وطلب العلياء،

---

(١) الشعر في الذهبي، تاريخ الإسلام: ٢٧٧.
(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٤/٨٦.

ولو مات دونها حسرات، وكان مبذول اليد بالكرم، مطلق العنان في حب التقدم، خدم وزير الشام الصاحب تقي الدين توبة التكريني، وجاوزه وترقى به وتلقى مبادئ العلياء بسببه، ولي به الحسبة بدمشق فحفظ مضاعها، وفخم أوضاعها، وتوكل بدمشق عن الملك الأشرف خليل، وولي العهد إذ ذاك أخوه الملك الصالح علي فامتد به الخيلاء لا يثني له وسنا، ولا يريه من فعله إلَّا حسنا، فبدت عليه أمور أنكرها عليه الأمراء بالشام فأحضره لاجين بدار العدل وهي حافلة الآفاق، كاملة النطاق، فأوقفه لديه لأمر شكي به إليه، ثم أمر به فضرب على هامته وجر بعمامته، فتغافل مدة ثم سار إلى مصر موقر الركاب، مملوء الأكياس المعدة عنه للجواب.

فأتى باب موكله الملك الأشرف، وأقام به متسبباً في إقباله، متقرباً إليه بما يأكل نار كرمه من قرابين ماله صاداً له عن المباشرين لديه، ساداً لخلل ضروراته بما يقدر عليه، وكان الملك الأشرف ضيق اليد ليس له إلّا ما يتحمل من إقطاعه مما لا يقوم ولا يقوى بما يقدر عليه وكان الملك الأشرف ضيق اليد ليس له إلّا ما تحمل من إقطاعه مما لا يقوم ولا يقوى بما يقدر عليه أخوه ولي العهد، وهو ينفق من مال لا يخشى من تلفه، فتكفل للملك الأشرف بكل كلفة وإن جلت، وترتيب نفقاته نظير أخيه والزيادة عليها إن قلت، فولاه أمر ديوانه وأولاه من القرب من ادخر له أضعافه إلى أوانه، ثم لم يلبث أن صار العهد للملك الأشرف حين مات أخوه، واضطر إلى أن يعهد إليه أبوه، فردح ابن السلعوس في بذخه، والملك الأشرف في نفحه، فعمل ما لا يفعله كبراء الوزراء، وزاد حتى تعدى طور الأمراء فأهم أبوه الملك المنصور أمره فأمسكه وعاقبه وأراد الفتك به، فشفع له أمير سلاح إليه، فأطلقه على أن لا يأوي إلى ولده، ولا يساكنه ببلده، وآن أوان الحج فتوجه إليه في غاية [٢٤٠] من التجمل بالجمال والهجن والخيل،فما أمهلت الأيام الملك المنصور حتى مات، وورث ابنه الملك الأشرف ملكه، ونظم سلكه، وكتب إلى الوزير كتاباً أرسله مع نجاب يستحثه، وكتب فيه بخطه: يا شقير يا وجه الخير حث السير، فجاء يطير في إهابه ويحرق بشواظ التهابه، فقلده أمر الوزارة تقليداً لم يكن لأحد عهد بمثله، ولا وصول إلى أقله[1].

كان ابن السلعوس هذا في أول أمره من جملة التجار، وكان يأخذ نفسه بالسياسة

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٤/ ٨٧.

والحشمة وكان إذا طلع في متجره أخذ معه خيمة كبيرة وقدراً كبيراً، فإذا نزل طبخ وغرف وجلس في خيمته ومد الطعام بين يديه، وطلب التجار ليأكلوا معه، فكانوا يهزؤون به ويقولون له الصويحب تصغيراً للفظة الصاحب، ثم غلبه حب التقدم على تبطيل المدخر والانضمام إلى التقي توبة، فنقله حتى ولي الحسبة كما قدمنا، ثم ولي الوكالة الأشرفية ثم توجه إلى مصر ودخل في عين الأشرف بالتقرب إليه، واتفق أن الأشرف أراد الخروج للعب الكرة يوماً مع أخيه ولي العهد الملك الصالح، فطلب مباشري ديوانه وأمرهم بالاستعداد لذلك لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والخلع والنفقة، فبكى مباشره وقال: من أين لنا؟ ومن أين نجد نحن هذا؟ وعلينا من الدَّين ما علينا تريد أن تضاهي أخاك وأنت رجل أمير وذاك رجل ملك، وكل واحد يمشي على قدر حاله، فعظم هذا على الأشرف، ووجد له وجداً عظيماً، وأخرج من الخواص الذهب التي عنده لتباع وينفق في ذلك، ولم يرد إظهار العجز قدام أخيه، فبلغ هذا ابن السلعوس وهو في بابه، فاستأذن عليه، فلما دخل عليه قَبَّل الأرض ثم قال: إن برز المرسوم إليَّ بتكفية هذا المهم وغيره كفيته من مال مولانا بالشام ففيه فضلة تسع هذا وأكثر منه، فأعجب الأشرف قوله وقال له: اعمل، وردَّ الأشرف الخوائص، فقام ابن السلعوس وجهز ما أراده بزيادة كثيرة، وأتى إليه بالبقج فيها الخلع التمام وغيرها، ومعها أكياس فيها من خفائف الذهب والدراهم قدر الحاجة بالفاضل، فوقع فعله منه بموقع عظيم، ثم ركب للعب الكرة، فوجد ابن السلعوس قد هيأ فوق ما كان في نفسه من الطعام والشراب وأنواع الطاري، فرأى الملك الأشرف ما ملأ قلبه سروراً وتم له ما أراده من إظهار التجمل قدام أخيه وقدام الناس لئلا يراه وأرضى الملك الأشرف بالقيام بكل ما يطلبه، ثم لم يمتد المهل بالملك الصالح، فولى الملك الأشرف العهد بوساطة الأمراء الكبار على رغم كافل الممالك طرنطاي وعلى كره من أبيه الملك المنصور لما كانوا يعلمونه من بأسه وشجاعته، فزاد تعظيمه لابن السلعوس، وزاد شمم ابن السلعوس، وصار يركب ركوب الوزراء وينزل نزولهم وتحمل خلفه دواة جليلة من الفولاذ المجوهر منزلة بالذهب، وفيها عقبان رنك الأشرف، ثم كان إذا جلس جاءت إليه مخفيه من المطبخ الأشرفي ويجيء بعدها المشروب وغير ذلك فضاق ذرع طرنطاي وأرباب التصرف منه، وبلغوا الملك المنصور عنه أقبح القول، ووصفوه [٢٤١] حتى أحضره وضربه، وأمر بأن يرتجع منه كل ما وصل إليه من جهة ولده الملك الأشرف من المآكل والمشارب والخلع والبغال، فجاء بجملة كبيرة فعظم على الملك الأشرف

موقع هذه المصيبة وركب إلى أمير سلاح ونزل عنده وشكا إليه من فعل أبيه وطرنطاي، فركب أمير سلاح وأرسل إلى بقية الأمراء، وكانوا يحبونه ويبغضون طرنطاي، واجتمع بالملك المنصور خلوة. وقال له عنه وعن الأمراء: إن الذي نقل عن ابن السلعوس كذب، وسأله فيه عنه وعن الأمراء حتى أمر بإطلاقه وطرده، وقال: بشرط أن لا يقيم بمصر ولا يجاورنا فلما أتى وقت الحج، وكان قد قرب وخرج ابن السلعوس حاجاً وجهزه أمير سلاح وغيره من الأمراء بأحسن الجهاز رعاية للخاطر الأشرفي فتوفي الملك المنصور في أثناء تلك المدة وآل الملك إلى الملك الأشرف فلم يكن عنده حال جلوسه أهم من طلب ابن السلعوس فكتب إليه كتاباً يطلبه فيه ويحث على سرعة الحضور.

ثم لما قدم إليه الكتاب ليعلم عليه كتب في موضع العلامة: يا شقير يا وجه الخير حث السير، فلما قرب بعث إليه من تلقاه بخلعة وبغلة، ثم إنه حال وصوله خلع عليه خلعة الوزارة وأعطي الدواة وقدمت له البغلة بالزناري، وباشر الوزارة مباشرة لم يبلغها أحد من الوزراء بعد شاور إلَّا الفائزي ولم يبلغها، وكان رجلاً قد باض الحمق في رأسه وفرخ، وبقي الملك الأشرف كلما نفخ فيه انتفخ، وصارت الأمراء وأرباب تقادم الألوف تأتي إليه وتقف بين يديه، ولا يقول لأحد منهم اقعد حتى يطول مكثه في القيام، ولا يدعو أكثرهم إلَّا بالاسم دون اللقب، حتى كان يقول للاجين: يا حسام الدين، وللشجاعي: يا علم، وللدواداري: يا سنجر، ومن هذا ومثله، فامتلأت الصدور عليه وعلى الملك الأشرف بسببه حتى صار الأمر إلى ما صار وآل إلى ما آل.

حدثني عمي الصاحب شرف الدين أبو محمد رحمه الله، وقد جرى ذكر حمق ابن السلعوس وترفعه قال[1]: كان الرجل في رأسه حمق وزاده الملك الأشرف وكان عامياً، فطاش وطار ثم شرع يحدث قال: كنت في الخدمة الأشرفية بالنبك وقد نصبت خيمة السلطان على العين، فمر بي كرت أمير أخو أحد مقدمي الألوف، فسلم علي فقمت له ورديت عليه السلام ، فرآني الملك الأشرف فطلبني فلما جئت إليه أنكر علي وقال: ها ها تقوم لكرت وتمشي له وتخضع له، ومن هو كرت حتى تعمل هذا معه، وأنت لساني ويدي وأذني وعيني، والله لولا أنك شيخ كبير لقطعت رأسك، وإن عدت

---

(١) هذه من الروايات العائلية التي انفرد بها العمري.

إلى مثلها قطعت رأسك. فخرجت وأنا لا أعي مما أراد أن يحملني عليه، ثم كنت إذا مر بي أحد تغافلت عنه ما أمكنني فإن لم أجد بداً أشرت له بتقبيل إليه أو أكثر من هذا على قدر مراتبهم ولا أقدر أقوم خوفاً لا يراني، فإذا كنت حيث آمن أنه لا يراني قمت وخدمته بما يناسب فلم يتوغر على صدر، ثم قال: وإذا كان [٢٤٢] هذا قبول الملك الأشرف لي، وما أنا وزيره المتصرف، ولا لي عليه خدمة سابقة، فكيف كان يقول لابن السلعوس ما حمل انتهى كلامه.

قلت: وعلى الجملة فلقد أحسن إلى أصحابه الدماشقة، وكان يتلقاهم بالرحب والسعة، ويقضي حوائجهم ويحسن إليهم، وكان كامل الأمور، محباً للرئاسة إلّا أنه أفرط حمق العامية، ولم يقع في أيامه أقبح من واقعة ابن بنت الأعز القاضي والحمالة عليه ونكبته له، وكانت بإغراء المصريين له عليه، ولم يكن فيه أقبح من أنه كان تياهاً متكبراً كثير الخيلاء، معجباً بنفسه، معتزاً بسلطانه.

وحدثني شيخنا أبو الثناء محمود الكاتب رحمه الله قال: رأيت ابن السلعوس وقد جاءه قضاة القضاة إلى باب داره بدمشق، وفيهم من خلع عليه في يوم الجمعة، فجلسوا في انتظاره ليخرج فطال مكثه إلى أن حانت الصلاة فخرج، واستأذنه حاجبه عليهم، فقال: قد ضاق الوقت فليأتوا بعد الصلاة، وركب فصفده الدوداري، ومشوا في ركابه حتى أتى باب البريد، فنزل ومشى وهم قدامه حتى صلى ثم خرج وهم قدامه حتى ركب، فمشوا معه حتى باب داره فنزل ثم أتاه حاجبه فاستأذنه عليهم فأذن لهم فأتوه وقبلوا يده وأنا أراه.

وحدثني: أنه لما اهتم الملك الأشرف باطيار الناصري أمر الأمراء بالعرض فتضاهوا في التجمل، وبالغ لاجين، ونزل الملك الأشرف بالميدان، وجعلت الأمراء تعرض بالنوبة أياماً، فلما أتت نوبة لاجين كنت قد خرجت أريد الخدمة بالميدان، فرأيت لاجين على فرسه واقفاً وحده ينتظر طلبه، وقد جمله أحسن التجمل ورتبه أحسن الترتيب، فلما رآني ناداني فأتيت فجعل يتذكر أيامه بدمشق وطيبها وهو سار منشرح. فأقبل طلبه كأن عليه رمضان برق أو شعاع شمس فزاد ابتهاجه وسروره فما وافى الطلب، حتى أتى ابن السلعوس في موكبه معترضاً، فساق إليه لاجين وأومى إليه بالخدمة والسلام. فما زاد على أن قال له: حاشاك حسام الدين، فأربد وجه لاجين ثم ساق ابن السلعوس حتى شق الطلب عرضاً فقطعه وشتته، فزاد غيظ لاجين فلما مضى ابن السلعوس جاءه أستاذ داره يسأله أن يعيد ترتيب الطلب، فقال له بغيظ: اعمله كيف

ما كان إلى لعنة الله، وأثر هذا في خاطره تأثيراً فأتيت إلى عمك يعني شرف الدين أبا محمد رحمه الله فأخبرته الخبر، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله ما يزال هذا الجاهل حتى يخرب هذه الدولة، والله لا رجع لاجين حتى يخرب هذه الدولة أو يقتل، وهكذا كان وقد اختصرت في هذه الحكاية ما ليس هذا ذكر موضعه.

وحكى لي غير واحد أن الملك الأشرف لما قتل كان ابن السلعوس بالإسكندرية وقد رفع رأساً إلى السماء، وظهر بسيما الجبروت، وهدد الوالي وتوعده بما فيه الإتيان على [٢٤٣] روحه فلما خرج من عنده وقعت إليه البطائق على جناح الحمام الرسائل بقتل الأشرف ورسم له فيها بالقبض على ابن السلعوس فأتى الوالي إلى بابه وقد نهض من مجلسه فقعد على الباب وبعث يقول له: قد دعت الضرورة إلى المثول بين يدي مولانا الصاحب، فقال له حاجبه: هذا ما لا سبيل إليه، فقال: لابد وألح فأذنه بحضوره، فقال: أيذن له فلما دخل عاجله بالشتم والاخراق، وقال له: لا تعجل يا مولانا ثم تقدم إليه فأقرأه البطائق فأسقط في يده وخاف بادرة الوالي لما قدمه من الإساءة إليه، فقال له: لا بأس عليك يا مولانا مني وأنت بخير إن شئت جهزتك مع من يوصلك آمناً، وإن شئت مكنتك من الهرب ودع روحي تذهب، وإن عزمت على هذا اتجهت معك حيث قصدت فإنه لا يكون لي مقام بعد تمكيني لك من الهرب، فقال له: يا أخي والله ما نريد وزارة هؤلاء إلّا هم ما يخلونا. فقال: والله ما رأيي عليك إلا أن تنجو بنفسك فإنك قد ملأت بحمقك عليك الصدور جنفاً، ولا ذهاب إليهم إلّا إن كنت تريد أن تذهب نفسك، فقال له: دع عنك هذا، فجهزه إلى القاهرة، فنزل في داره فقبض عليه وضرب بالمقارع حتى مات[1].

ومنهم:

١١١ ـ تاج الدين بن حنا[2]:

وزير كان عن الوزارة مترفعاً، وبمثل رداء الإمارة متلفعاً، يصد عن عقيلتها ويضم عن وسيلتها وزر وزارة صحبه في زمن جده ونفس فيها خناق يضيقه بجهده، فكان يحل ما عقد، ويطفئ ما وقد، إلّا أن ذلك الجبار العنيد كان لا يتهيأ معه تمام معروف، ولا

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٤/ ٨٧.

(٢) انظر: تقليده الوزارة في القلقشندي، صبح الأعشى: ١١/ ٤٦٩.

اهتمام بمعروف، وكانت ولايته بعد أبيه الصاحب فخر الدين محمد حين اختطفه الحمام واقتطفه، ولم يبلغ التمام، ودام مباشراً حتى مات جده في زمن الملك السعيد، وطار به بغيه إلى المرمى البعيد، ثم كانت نكبتهم التي أحاطت بجمعهم وأحالت مصيبتها حتى بين جفونهم ودموعهم، وأمسك تاج الدين أول من أمسك وأخذ منه أكثر ما يملك إلا بقية عقار من معاصر قصب كان فيها يعتصر وصبابة مال كان بها يتجر تمت له فيما بعد وجاءت بما لا يعد وضرب في حال نكبته إلا أنه ما عدى له ثوب ولا أمطر له صوب، وكان في حال هذه الأهبة مكرماً، وفي أوقات هذه الصنعة معظماً خرج فرأته الأمراء فمثلت له وقوفاً وشق الجند إلى دار محبسه فانفرجت له صفوفاً ثم تسنى خلاصه، وخرج كالذهب خلاصه، فأقام ببيته منقطعاً، ولأوامر من يتقصده مهطعاً إلى أن سنحت له من ملك الأمراء طرنطاي بارقة رأى بها مخيلة بحاجة، وآوى بها إلى نجاحه فجعله من موقعي الدست يوقع على القصص من غير معلوم له فرد، ولا بتوقيع له سطر، وبقي على هذا حتى هدأت روعته وردت لوعته ثم لزم بيته آمناً إلَّا أنه كان لوفور عقله يتخوف ولا يأمن من أن يتخطف إلى الأيام الناصرية [٢٤٤] الأول حيث كان كتبغا هو الكافل والمشار إليه في ذلك الدست الحافل، وكان له إليه التفات وعليه اشتمال رد عليه ما فات فأحضره وقلده الوزارة وأحل سبلها منه القرارة فباشرها بشمم وألمّ بها وكأنه لمم لم يطأ له بتراب ولا واخذها باكترات حتى زحزح كتبغا الناصر عن سريره وآل إليه بمصيره فاستمر به أحسن الاستمرار واستقر به أكمل الاستقرار وكان يحبه وصاحبه وملازم مجلسه ومواظبة إلى أن دهي وادي مصر بمصيبة ذلك الغلاء ورموا ببدد ذلك الموت والجلاء صرف إلى الظلم وجهه الملك العادل وحاول أكل أموال الناس بالباطل فاستعفى الصاحب فأعفي وأقام في بيته كالملك إلا أنه المحفى حتى حل به أجله المنتظر ودنا منه ما كان انتظر.

ومنهم:

١١٢ ـ فخر الدين عمر بن عبدالعزيز بن الخليلي[1]:

وزير يملأ الدست ويخجل البدر إن نافست لا يشبه به السحاب إلا ارتعدت

---

(١) الصفدي، أعيان العصر: ٣/ ٦٣٥، الوافي بالوفيات: ٢٢/ ٥١٤، ابن حجر، الدرر الكامنة: ٣/ ١٧٠، توفي سنة ٧١١ هـ.

فرائص برقه ولا السيل إلَّا على شعب الجبل يده إلى عنقه وكان خليليّ الكرم داريّ العطر إلا أنه الذي لا يشب على ضرم تميمي الفخار لا ما ادعاه الفرزدق لدارم، أوسيّ العمومة إلا أنه خزرجيّ المكارم ابن أبِ صالح دعي بالمجد لأنه حقيقته وترسل عن الخلافة وعرف بالشيخ فلم ينكر في أهل الرسالة طريقته فما رفعت لأبيه راية مجد إلا تلقاها عرابة باليمين ولا عرفت له سيما صلاح إلا وقد ظهر منها سره في السين. خدم الملك الصالح حال ولايته للعهد في أيام أبيه المنصور وكان لديه موقراً وإليه يخضع كل ذي أنفة مفتقراً ثم ولي النظر والأمر كله إليه مرجعه وإليه قرارته ومنتجعه حتى استعفى ابن حنا في الأيام العادلية زمن ذلك الغلاء الذي انتهب الأجساد وألهب شعل الفساد، وكان تاج الدين بن حنا لا يجلس لتصريف الأمور إلا ساعة من نهار ثم ينصرف إلى بيته ويتركه في غمرات تلك البحار لا يقر له قرار حتى يكفي دونه السلطان وحواشيه، ويتصرف وإن غاب الوزير تصرف المستقل ولا يحاشيه، فقلد الوزارة فتقلد طوقها وحمل أوقها وظهر فيها بالكفاية وبلغ فوقها وسلك طريقاً آمن فيه التغرير ومن فلولا بعض شيء لما قيل إلَّا أن هذا الوزير أعاد زمان سميه عمر بن عبدالعزيز وبلغ فيها ما بلغ ابن حنا الكبير من وزارة بنيه وأيامه ما حان حينها، ولا ذهب من يد الزمان المبدد لحينها، وكانوا يجلسون فرادى ومعه، ويقعدون دونه ويسدّون موضعه واتصلت به وبهم أرزاق ما اتصل أقلها بابن حنا وبنيه ولا جاء قبلهم ولا بعدهم من كان يدانيهم في هذا ولا يدانيه فكم قاموا بسنّة [٢٤٥] جليلة في عموم القرى وعظيم الجود الذي وسع الورى فأذعنت الرقاب لقدرهم الجليل وسلمت منهم إلى أولاد تميم الداري أعدائهم كرم مجاورتهم للخليل فسد ذكرهم وانعقد عليه الإجماع وطاف البلاد فأمسى له في كل أرض نوبة خليلية تطرب الأسماع. وعزل مرات ثم لم ترد رتبتها سواه خديناً، ولا رضيت عقيلتها على كثرة الخطاب غيره قريناً، ثم ما مات إلَّا وهو عنها قد انفصل ورزىء بنيه وخطاب سعادته قد فصل، وانقطع به السبب، وكان لا يظن إلا أنه قد وصل.

ومنهم:

١١٣ ـ أمين الملك:

وزير ضبط الملك بقلمه وضغط الفرقد بقدمه وجاز على عنق العيّوق محلقاً وجال في قضاء المجرة محققاً.

ولي الاستيفاء مذ كان يافعاً، وحل مكان العلياء على قمة الجوزاء واضعاً، وكان هو الوزير وإن سمي مدا غيره، والميمون وإن زجر الفأل طيره، ثم تناوب النظر والوزارة مراراً، وتناوبها لحظة إقبالاً وازوراراً، وباشر الشام أكنافها سحائبه، وملأت ساحاتها رغائبه، وجرى بها منه النيل لكنه البحر الذي يحكي عجائبه.

وكان وزيراً تخلى له الدست إذا حضر، ويتصور له مرأى السيوف إذا نظر، بسطاً يبيت لها قلب الفرقد تعد وندى. يحتفل الغمام، ولا يقدر على أنه مثله يستعد، ولي الوزارة نوباً دافعت النوائب، ووفرت بسداد آرائها الأسهم الصوائب، وكان نعم الصاحب لو عرف حقه، أو متع الدهر بأن لا يتقدم فيه إلا مستحقه بسيرة لا يتخللها عيب عائبة، وسريرة لا يشوبها كدر شائبة، واستحضار لأمور ممالك الإسلام من جميع ما يدخل تحت الحدود لا يفوته فائت ولا يصبح وعنده من مهامه بائت بتنفيذ لا يدعيه الرامي إذا أطلق ولا الطاعن إذا أخرق ومضاء ما أقدم حتى يقدمه التجريب ولا أبعد حتى دنا به التعريب، هذا إلى رسم خط كأنما نفس بالغوالي أو قسم منه على صفحات النهار الليالي لا يتباين فيه المقادير ولا يراد الريحان المنمنم على ما فيه من حسن التصوير وعمل عليه أعداؤه مراراً عديدة إذ كانت خفافيشهم لا تطير مع عقابه وأحابيشهم لا تتجاسر على غابه فأخرج إلى طرابلس ناظراً إلا أنه لمقرراته لم تنقص، وترك هناك وما فيهم إلا خائف منه يتربص ثم حج واستأذن على بيت المقدس ليقيم به فأذن له في هذا المرام. وخلي مدة ثم خطب على عاداته من ذلك الركن الذي لاذ به والمقام ثم كان آخر أمره أن أخذ من دمشق على ظاهر الإكرام وباطن البأساء وفعل به ما طال تأوه الرجال وبكاء النساء.

ومنهم:

١١٤ ـ الصاحب كريم الدين:

[٢٤٦] وزير وإن لم يسمَّ بهذا الاسم، وملك وإن دخل في هذا القسم، لا يقاس به أحد من الكرماء ولا يقرن بنداه، ولا أين ما أهون عنده بالدينار واحد لا يظفر منه بعين وبالدرهم، وإن كانت الناس تأكل عليه بالدين وبالمعذبين وإن صبغت الشمس من ذهب والفضة من لجين، لو ليم في الجوهر لقال هل هو إلّا حجر، أو في الدر لقال هل هو إلا مطر، طالما سد خللاً وأفاض حللاً وسمح بالحرير. وقال: كيف ينعل بنسيج دودة، وبالدنيا، وقال: كيف ينافس في عارية مردودة زاد على كرماء العرب،

وجاد بما لو قيس به مطر السحاب لسجد واقترب، وذهبت أيامه البيض بما لا كان لأبي صفرة وانقضى إنعامه وطعامه لا يعد لبني هبيرة منه هبرة، ومضى وله من البر أضعاف ما لآل برمك ولجوده المتيسر ما ليس لبني سهل منه مسلك، وتتبع الفائزي إلَّا أن ذاك غرر وهذا فاز، وابن الزبير فما وجد له في الزبير إلا بعض ما حاز، خدم عند الأمراء ثم ترقى وسلم إلى المشيئة فتوفي واتصل بالمظفر بيبرس خال امرأته فملك قياده وصحبه حيث صرف عن الملك جياده واتهمه سلطاننا بماله ومال بيت المال، فحضر وأحضر ما معه، ولم يترك شيئاً إلا ما لعله أودعه، ودخل في عين السلطان بما أحضره من العين، ودخل على خواص الأمراء حتى أصلحوا له ذات البين، فأفرجوا له عن أملاكه وعلائقه إفراجاً وجد به سبيلاً إلى مسعاته، وطريقاً لمراعاته ثم لم يزل حتى ولاه السلطان أمور خاصِّه، ووكله لحقه وأقامه لاستخلاصه، ثم حسن لرأي السلطان المتجر، وملأ عينه بمدده الأكثر، حتى أطلق له مقيد التوكيل، وقال وقد اختبره: حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم كان هو المسلم حتى لأمور الحرم، والمقدم على الركب المتوجه ركائبهن إلى الحرم، وكان يخلع على الخواص والأمراء فما منهم إلَّا من يتشرف بملابسه، ويعده فخراً له على منافسه حتى آن وقت زواله وأذن الله بتغيير أحواله، فأمسك وأخرج إلى الشوبك ثم إلى بيت المقدس ثم طلب وجعل مكان مدفنه بالقرافة له كالمحبس ثم بعث به إلى أسوان وقد قرب وقت حمامه وآن، فجهز عليه حتى أعزل عنه ولده وخنق وعلق على أنه شنق روحه وما شنق، وكان رحمه الله أنموذج الكرام وآخر الضرام وبقية أهل الإحسان والدنيا على غيره حرام والله أعلم بالصواب.

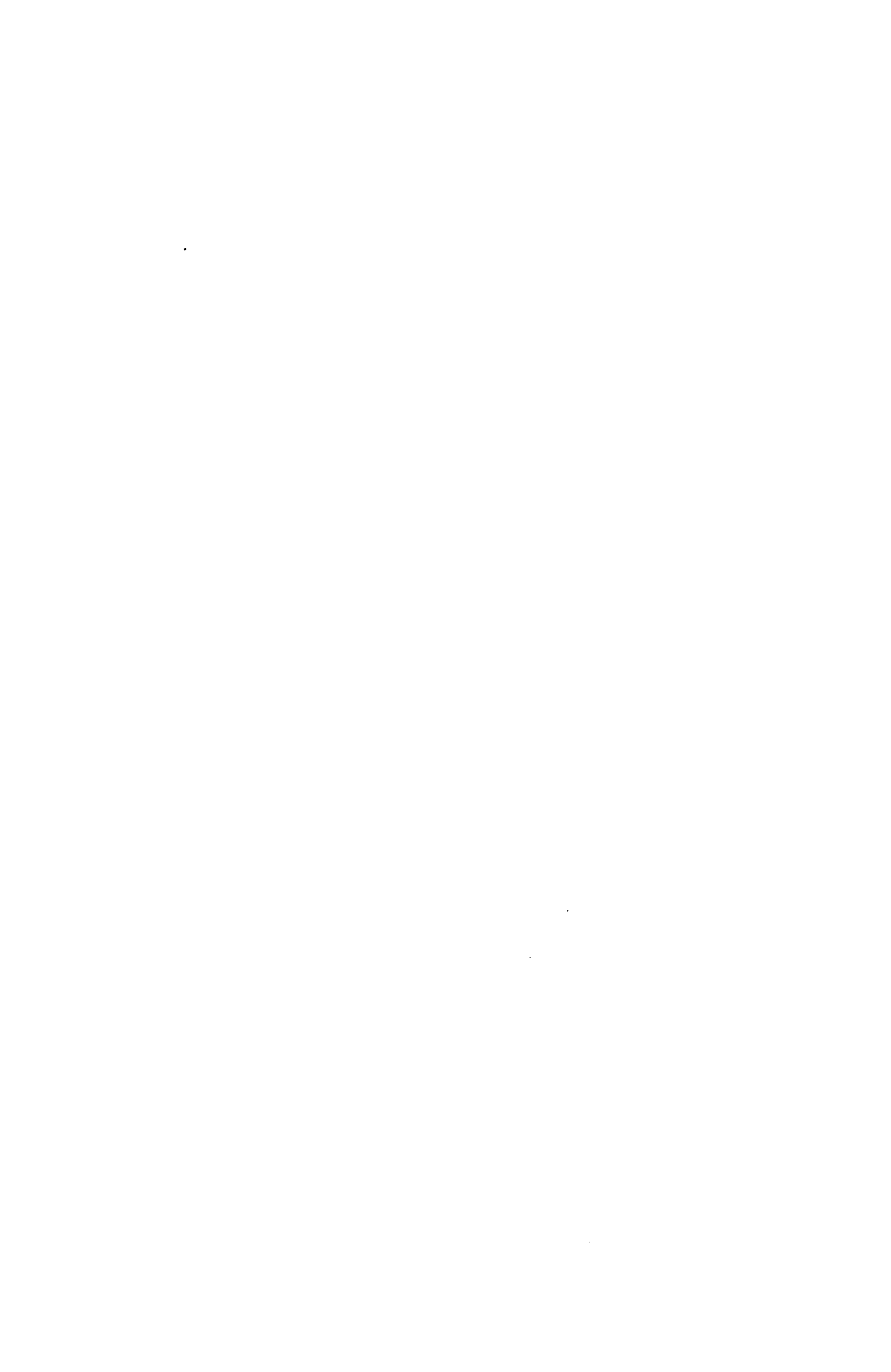
تم الجزء العاشر[1] بحمد الله وعونه، يتلوه إن شاء الله تعالى في السفر الذي يليه: ثم كانت وزراء وكتاب مع من سمينا وبعدهم.

والحمد لله وحده وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم ورضي الله على الصحابة أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تم الجزء الحادي عشر بحمد الله وعونه من مسالك الأبصار

---

(١) كذا في المخطوط، والصواب الحادي عشر، وقد ذكرنا سابقاً اختلاف تجزئة الكتاب من نسخة إلى أخرى.



المصادر والمراجع

- **إبراهيم بن العباس الصولي،**
  - شعر إبراهيم الصولي.
  - صنعة محمد بن يحيى الصولي، ضمن كتاب الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٣٧م.
- **إبراهيم بن المدبر،**
  - شعر إبراهيم بن المدبر وحياته جمع يونس السامرائي، ضمن شعراء عباسيون، ج١، ص٢٧٩ ـ ٤٠٧.
- **ابن الأثير، علي بن أبي الكرم،**
  - الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢م.

  إحسان عباس،
  - عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله، دار الشروق، بيروت.
- **أسامة بن منقذ،**
  - الديوان، تحقيق أحمد بدوي، وحامد عبدالمجيد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م.
- **الأصفهاني، علي بن الحسين،**
  - الأغاني، دار إحياء التراث، القاهرة.
- **الأصفهاني، عمادالدين،**
  - خريدة القصر، قسم العراق، تحقيق محمد بهجة الأثري، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٥م.
- **البحتري،**
  - الديوان، دار صادر، بيروت.

● **ابن بسام،**

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

● **البنداري،**

- مختصر تاريخ آل سلجوق، بيروت، ١٩٧٠.

● **بيبرس الدوادار،**

- زبدة الفكرة، دار فرانز شتاينر، فيسبادن.

● **أبو تمام،**

- الديوان، دار صادر، بيروت.

● **الثعالبي،**

- يتيمة الدهر، دار الكتب العلمية، بيروت.

● **الجاحظ،**

- البيان والتبيين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت.

● **الجهشياري، محمد بن عبدوس،**

- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.

● **ابن الجوزي،**

- المنتظم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

● **ابن حجر،**

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الكتب العلمية، بيروت.

● **الحسيني،**

- زبدة التواريخ، تحقيق محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٤م.

● **الخطيب البغدادي،**

- تاريخ بغداد، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **ابن خلكان،**
  - وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- **خليفة بن خياط،**
  - التاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.
- **خواندمير،**
  - دستور الوزراء، ترجمة حربي أمين وفؤاد الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م.
- **الذهبي،**
  - تاريخ الإسلام، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦م.
  - سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.
- **رشيد الدين،**
  - جامع التواريخ، قسم السلاجقة، طهران.
- **الراوندي،**
  - راحة الصدور، ترجمة إبراهيم الشواربي، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠م.
- **ابن الرومي،**
  - الديوان، تحقيق عبد الأمير علي، مكتبة الهلال، بيروت.
- **السامرائي، يونس،**
  - سعيد بن حميد حياته وشعره، ضمن كتاب شعراء عباسيون، ج٣، ص١٠٣ - ٣٢٣، بغداد، ١٩٧١م.
- **سبط ابن الجوزي،**
  - مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الركن.
- **ابن سعيد،**
  - المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة.

- **السمعاني،**
  - الأنساب، تحقيق عبد الله البارودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- **ابن شاكر الكتبي،**
  - فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- **أبو شامة،**
  - الذيل على الروضتين، تحقيق زاهد الكوثري، بيروت.
- **ابن الشعار،**
  - قلائد الجمان في شعراء هذا الزمان، المنشورات معهد دار العلوم العربية، فرانكفورت، ١٩٩٠م.
- **الصاحب بن عباد،**
  - الديوان، تحقيق محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٥م.
- **صردر،**
  - الديوان، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤م.
- **ابن حبيب، محمد،**
  - المحبر، تصحيح إيلزه ليختن شتينر، دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الركن، ١٩٤٢م.
- **الصفدي،**
  - أعيان العصر، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.
  - الوافي بالوفيات، اعتناء وتحقيق مجموعة من الباحثين، دار فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٦٢م.
- **الصقاعي،**
  - تالي كتاب الوفيات، دار الفكر، دمشق.
- **ابن الصيرفي،**
  - الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق أيمن فؤاد السيد، المعهد الفرنسي، القاهرة.

• **الطبري،**

- تاريخ الرسل والملوك، (١١ج)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٧٧م.

• **ابن الطقطقى،**

- الفخري، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.

• **طلائع بن رزيك،**

- الديوان، جمع وتحقيق محمد هادي الأميني، المكتبة الأهلية، بيروت.

• **ابن طيفور، أحمد،**

- بغداد، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٨م.

• **ابن ظافر الأزدي،**

- أخبار الدول المنقطعة، تحقيق عصام هزايمة وآخرون، دار حمادة للطباعة والنشر، إربد، ١٩٩٩م.

• **عباس إقبال،**

- الوزراء السلاجقة، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٤م.

• **عبد الله بن المعتز،**

- شعر ابن المعتز، صنعة الصولي، دار المعارف، القاهرة.

• **ابن العديم، عمر بن أحمد،**

- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٨م.

• **ابن عساكر،**

- تاريخ دمشق، دراسة وتحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥م.

• **العسكري،**

- الأوائل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

● **ابن العمراني،**

- الأنباء.

● **الفتح بن خاقان،**

- قلائد العقيان، تحقيق حسين خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٩م.

● **الفيروزآبادي،**

- القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت.

● **ابن الفوطي،**

- مجمع الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٢م، ج٤.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم،

- المعارف، تحقيق محمد ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩م.

● **المتنبي،**

- الديوان، دار المعرفة، بيروت.

● **مجهول،**

- أخبار الدولة العباسية، تحقيق عبد العزيز الدوري، دار الطليعة، بيروت.

● **المرزباني، محمد بن عمران،**

- معجم الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، ١٩٦٠م.

● **المسعودي، علي بن الحسين،**

- مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٩٤٨م.

- التنبيه والاشراف، طبعة جديدة، بإشراف لجنة تحقيق التراث، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.

● **مسكويه، أحمد بن محمد،**

- تجارب الأمم، طهران، ١٩٩٧م.

● **ابن مطروح،**
- الديوان، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٢٩٨هـ، ملحقاً بديوان العباس بن الأحنف.

● **المقري،**
- نفح الطيب، تحقيق، د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.

● **المقريزي،**
- اتعاظ الحنفا، تحقيق جمال الشيال، القاهرة.
- الخطط، القاهرة.

● **ابن منظور،**
- لسان العرب، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨م.

● **ابن ميسر،**
- أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد السيد، المعهد الفرنسي، القاهرة.

● **ناصرالدين كرماني،**
- نسائم الأسحار من لطائم الأخبار، تصحيح مير جلال الدين أرموي، طهران.

● **ابن النجار،**
- ذيل تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.

● **النديم، محمد بن إسحاق،**
- الفهرست، دار الكتب العلمية، بيروت.

● **أبو نواس،**
- الديوان، دار صادر، بيروت.

● **النويري،**
- نهاية الأرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

● **الوليد بن يزيد،**
- شعر الوليد، مجمع حسين عطوان، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٧٩م.

● **ياقوت،**

- معجم الأدباء، تحقيق فريد بن عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.

● **اليعقوبي،**

- التاريخ، دار صادر، بيروت.

● **اليونيني،**

- ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الركن.

وزراء المشرق

وزراء البرامكة

بقايا وزراء الشرق

وزراء دولة السهليين

تتمة الوزراء بالمشرق

بنو خاقان

جماعة الوهبيين

بنو المدبر

المسلسل	اسم الوزير	رقمه	الصفحة
١	إبراهيم بن العباس الصولي	٣٥	٩٩

بنو مخلد وبنو صاعد

المسلسل	اسم الوزير	رقمه	الصفحة
١	أحمد بن الخصيب	٣٧	١٠٢
٢	سعيد بن حميد	٣٨	١٠٤
٣	أحمد بن إسرائيل	٣٩	١٠٥

بنو وهب

المسلسل	اسم الوزير	رقمه	الصفحة
١	أحمد بن سليمان بن وهب	٤١	١٠٧

بنو ثوابة

المسلسل	اسم الوزير	رقمه	الصفحة
١	إسماعيل بن بلبل	٤٣	١٠٩
٢	العباس بن الحسن بن أيوب	٤٤	١١٠

بنو الفرات

المسلسل	اسم الوزير	رقمه	الصفحة
١	علي بن عيسى بن داود بن الجراح بن الحسن البغدادي	٤٦	١١٥

بنو مقلة

وزراء البويهيين

وزراء السلاجقة

وزراء المغول

وزراء الدولة التركية في الشام

وزراء المغرب والأندلس

الوزراء بالديار المصرية

وزراء الأيوبيين والمماليك بمصر

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

ـ ك ـ

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس القبائل والشعوب

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

- خ -

- د -

- ر -

- س -

- ص -

- ط -

- ع -

فهرس الأماكن

ـ أ ـ

ـ ب ـ

- خ -

- د -

- ر -

- ص -

- ط -

- ع -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -



المحتويات